جرجي زيدان

العرب قبل الإسلام

دار الهلال

العرب قبل الاسلام

يبحث فى أصل العرب وتاريخهم ودولهم وتمدنهم
وآدابهم وعاداتهم من أقدم أزمانهم الى ظهور الاسلام

تأليف
جرجي زيدان
منشئ الهلال

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها
الدكتور حسين مؤنس
استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

دار الهلال

تقــديم

بقلم الدكتور حسين مؤنس

تعلقت نفسي باعادة نشر هــذا الـكتاب منذ أكثر من عشر سنوات ، وقد كنت اذ ذاك قائما على تدريس تاريخ العرب قبــل الاســلام ، فحرصت على أن أجمع كل ما تيسر لى من الاصــول والمراجع عن ذلك الموضوع المتشعب الاطراف ، لاستخرج منها شيئا نافعا أقوله للطلاب ، وكنت أعجب أشــد العجب من أن أجد كتاب « جرجى زيدان » ـ على صغر حجمه وتقدم زمن تأليفه ـ قد حوى معظم ما تهم القارىء معرفته عن تاريخ العرب وحضارتهم قبــل الاســلام ، وجمع أطراف ذلك الموضوع على نحو أصبح بعد ذلك منهجا للـكثيرين ممن يطلبون التأليف فيه فى الشرق والغرب على السواء .. ذلك أن كتاب « جرجى زيدان » معروف عند الباحثين فى تاريخ العرب جميعا ، وقد ترجمت قطع كثيرة منه ونشرت فى الصحف العلميــة فى ألمانيا ، وانجلترا خاصة ، وناقش البــاحثون آراءه ونظرياته فى أكثر من مناســبة ، ولا زال الـكتاب فى رأيى منهجا صالحا لبحث هــذه الحقبة المتطاولة من تاريخ العرب ، وان اختلف الـكثيرون من الباحثين معه فى التفاصيل وبعض الآراء

ذلك أن تاريخ العرب قبــل الاســلام يعد من أعسر موضوعات التاريخ العربى وأعزها على الدارســين ، لانه يتطلب من القائم عليه العلم بلغــات شتى لا يعرف بعضها معرفة يطمأن اليها الا القليلون ، بعضها لغات قديمة معروفة كلغات بابل ، وأشور ، ومصر القديمة ، والعبرانية ، والآرامية ، واليونانية ، واللاتينية ، وبعضها لايزال الباحثون فى شك من أمره ، ثم ان الباحثين الذين توفروا على دراســة نصــوص ذلك التــاريخ معظمهم من الالمان ، وقد نشروا أبحاثهم فى مجلات علميــة لا يعثر الانســان عليهــا الا بصعوبة ، ومن هنا أصبح التخصص فى ذلك الموضوع عناء لا يطلبه الا ذوو الصبر والهمة من الباحثين . ولقد تصدى لذلك الاستاذ الدكتور جواد على الباحث العراقى ، فقدم لنا خدمة من أجل ما قدم لتاريخنا العربى ، وقد جمع على طول السنين مادة استغرق عرضها سبعة مجلدات الى الآن ، ولا زال البحث سائرا بين يديه . ونظرة عابرة على أســفاره الضــخمة تعطى الانسان فكرة عن عسر ذلك الموضوع واتساع آفاقه ، وصعوبة الوصــول فى بعض أجزائه الى رأى يمكن التعويل عليه

واذا كان الباحثون المعاصرون قد وسعوا آفاق البحث فى ذلك الموضوع الى الحد الذى أشرنا اليه ، فان الخطوط العريضة التى رسمها جرجى زيدان لا زالت الاطار السليم الذى يلم بأطراف الموضوع ويعرضها عرضا متصلا منطقيا معقولا . وربما مال نفر من المؤرخين عن الاخذ ببعض ما ذهب اليه من أن الحضارة البابلية حضارة عربية أو أن اللخميين والمناذرة يندرجون فى عداد عرب الجنوب ، ولكنهم لم يعتمدوا فى ذلك على حجج لا تقبل النقض بحيث يمكن القول بأن نظريات جرجى زيدان فى هذه النواحى لم تعد مقبولة من وجهة نظر العلم ، اذ لا زال الامر فيها كلها موضع مناقشات طويلة بين العلماء ، واذن فلا بأس من أن تنشر آراء رائد مدرسة المؤرخين المصريين كما هى ليطلع عليها من يعنيه الامر

وقد كان فى نية المؤلف أن يتبع هذا الكتاب بكتاب ثان يستوفى فيه الكلام عن النواحى الفكرية والدينية ، ويفصل فيه الكلام عن عرب الحجاز، وأعد لذلك مادة طيبة لا زالت باقية بخطه فى مكتبته ، ولكنه شغل عن نشرها بـ « تاريخ التمدن الاسلامى » ووجد بعد ذلك أنه استوفى هذه النواحى فى الجزء الاول من « تاريخ التمدن » واستغنى بذلك عن الجزء الثانى من «تاريخ العرب قبل الاسلام » ، فليطلب القارىء فيهما يريد من العلم بالنواحى الفكرية والدينية من هذا التاريخ وكل ما يتصل بحضارة الحجاز قبل الاسلام



وقد حرصت فى هذه الطبعة التى قمت بمراجعتها على أن أدع متن الكتاب كما هو دون تغيير ، ولم أمسه بالتعديل الطفيف الا فى الحالات التى دخل عليها خطأ بسبب عدم حرص الذين أشرفوا على طبع الكتاب على المراجعة والدقة اللازمتين ، وربما صححت هنا تاريخا وهناك اسم علم ، ولكنى أبقيت أصل الكتاب كما هو على كل حال

وأضفت ما رأيت اضافته من التعليقات والشروح والتفصيلات على هامش الكتاب ، وقد حرصت على أن أحشد فى هذه التعليقات جل ما انتهى اليه البحث والدرس فى كل موضوع ، وذكرت المراجع الحديثة والنظريات الجديدة وما الى ذلك ، بحيث تصبح هذه الطبعة الجديدة من « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجى زيدان مرجعا نافعا للباحثين فى تاريخ العرب والاسلام

وقد تحدثت فى مقدمة « تاريخ التمدن الاسلامى » عن جرجى زيدان المؤرخ والاديب ، وذكرت فضله على تاريخ العرب وحضارتهم ، وبقى أن أؤكد هنا تقديرنا — نحن المؤرخين المصريين — لهذا العالم الجليل الذى يعتبر بحق رائد المدرسة المصرية من المؤرخين ، ومؤسس علم التاريخ على المناهج

الحديثة عند العرب المعاصرين

لقد قمت بهذا العمل تحية صادقة لمصرى عظيم ، فقد نزل جرجى زيدان بلدنا شابا فياضا بالملكات والحيوية وأحب بلدنا واتخذه وطنا ، وكتب فى تاريخ العرب والاسلام قصصا تجعله دون شك علما من أعلام الادب العربى الحديث ، وألف فى التاريخ كتبا لا زال بعضها فريدا فى ميدانه ، كتاريخ التمدن الاسلامى . بل ان له كتابا حافلا فى تاريخ مصر لايعرفه الا القليلون مع انه من أحسن ما كتب فى هذا الموضوع . فهو من هذه الناحية مؤسس المدرسة المصرية الحديثة فى التاريخ ورائد من رواد التاريخ العربى العام . وهذا الجهد الذى أبذله فى اعداد كتبه على الصورة التى يراها القارىء انما هو تحية تقدير من خلف لسلف ، ورمز على اتصال تقاليد مدرسة المؤرخين المصريين

حسين مؤنس

تنبيه

تعليقات الدكتور حسين مؤنس مشار اليها فى الهامش بعلامة (*) تمييزا لها عن تعليقات المؤلف الاصلية المشار اليها بالارقام

مقدمة

غموض تاريخ العرب

مابرح تاريخ العرب قبل الاسلام مطلب القراء وعقبة الكتاب من صدر الاسلام الى الآن ، وقد حال سقمه وغموضه دون ايفائه حقه . ويظهر مقدار ذلك الغموض على الخصوص لمن يتوخى التحقيق والضبط ، أما غير المحقق فانما يهمه جمع ما يقال على علاته ، لا يبالى بما فيه من التناقض أو التضارب ولو خالف المنقول والمعقول . ذلك كان شأن أكثر الذين طرقوا هذا الموضوع من أول عهد التدوين فى اللغة العربية . على اننا لا نعرف من مئات المؤرخين وأصحاب الاخبار فى أثناء التمدن الاسلامى واحدا أفرد كتابا خاصا فى هذا الموضوع ، وسنبين ذلك مفصلا فى التمهيد الذى يلى هذه المقدمة

فبقى هذا التاريخ الى أمد غير بعيد مجموع غرائب وخرافات ومبالغات، تتناقلها الاجيال بلا تحقيق ولا تمحيص ، ولا تزداد بالنقل الا اضطرابا وابهاما . وقد زادت فى أثناء العصور الوسطى تلبكا ، على أثر انحطاط شأن العرب وذهاب دولتهم ، اذ أرادوا ستر ضعفهم بما يروى عن أجدادهم ، فعمدوا الى التفاخر بأسلافهم الفاتحين وما كانوا عليه من المناقب العربية ، فزادوا أخبارهم مبالغة أو جمعوها وأكثروا منها بلا تعديل ولا ضبط ، فغلبت الاوهام فيها على الحقائق ، وذهب الصحيح منها بجريرة الفاسد ، والقوم فى أثناء تلك الظلمة مقيدو الفكر واللسان ، انما ينقلون ما يسمعونه لا يلتفتون يمنة ولا يسرة ، واذا أعملوا فكرتهم فلا يتجاوزون بها قيود التقليد التى استرقت أفكارهم وقطعت ألسنتهم على غير قياس أو برهان ، الا النزر اليسير من المفكرين

فلما انحلت تلك القيود فى أثناء التمدن الحديث بما اكتشف العلماء من نواميس الكون وقواعد الوجود ، رجع الناس الى القياس وأخذوا فى نبذ ما يخالف المعقول ، فنبغ جماعة من المحققين نظروا فى التاريخ نظر الناقد ، وفيهم جماعة يهمهم الاطلاع على تاريخ الاسلام ، فقرأوه فى مصادره فأدهشهم ما رأوه فيه من أعمال العرب فى صدر الاسلام ، وما كان من اكتساحهم العالم المتمدن فى ذلك العهد ، وهم جماعات من أهل البادية ، لا خبرة لهم ولا دربة عندهم ، فغلبوا الروم والفرس واستولوا على المملكتين فى بضع عشرة سنة ، مما لم يسمع بمثله فى تاريخ الامم قديما ولا حديثا . ثم أنشأوا الدول ونظموا الحكومات وجندوا الجيوش ، فأصبح من أقصى أمانى المحققين معرفة حقيقة ذلك الشعب ، فأخذوا يبحثون فى تواريخهم القديمة ، ويطبقون ما رواه

العرب على ما ذكره اليونان أو غيرهم ، فعرفوا أشياء لم يعرفها العرب أنفسهم ، فزادوا رغبة فى استيضاح ذلك التاريخ باستنطاق الآثار المكتوبة وغير المكتوبة فى انقاض المدائن العربية فى اليمن والحجاز ومشارف الشام ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الوصول الى تلك الاماكن الا بالعناء الشديد ، فلم يقفوا الا على القليل منها كما سنفصله فيما يلى . على ان هذا القليل أزاح الستار عن كثير من الغوامض ، وكشف عن دول وأمم لم يعرفها العرب ولا اليونان

ومع ذلك فالكتاب المحققون ما زالوا يتهيبون التأليف فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقد حاوله غير واحد منهم ورجعوا من نصف الطريق أو أوائله ، حتى أصبح الناس يعدون هذا الموضوع من الطلاسم التى ضاع سرها واستحال حلها . ولم يقدم على الكتابة فيه فى عهد هذا التمدن الا كوسان دى برسفال (*) المستشرق الفرنسى الشهير فى أواسط القرن الماضى ، فوضع كتابا فى ثلاثة مجلدات خصص المجلدين الاول والثانى منه للعرب قبل الاسلام ، فكان له دوى فى عالم المستشرقين لأن المؤلف بذل جهده فى تبويب الكتاب وترتيبه وايضاح مشكلاته ، لكنه كتبه قبل اكتشاف الآثار وحل رموزها ، فعول على أقوال العرب واليونان وفسرها تفسيرا على ذكاء وعلم غزيرين ، على انه لو قدر له أن يعيد النظر فيه اليوم لفضل كتابة سواه على تنقيحه



ولم يقدم أحد بعد برسفال على التأليف فى تاريخ العرب على النسق الذى نحن بصدده ، الا ما ينشره أهل البحث من النقوش التى يقراونها أو الاطلال التى يكتشفونها ، أو ما يتناقشونه فيه من الآراء فى بعض أجزاء التاريخ بناء على ما قاله اليونان أو دلت عليه الآثار . ولم يكن ذلك الا ليزيد الناس رغبة فى ظهور مثل هذا الكتاب ، حتى تبرع المغفور له أوسكار الثانى ملك اسوج (السويد) منذ نحو عشرين سنة بجائزة سنية تمنح لمن يؤلف أحسن كتاب فى « العرب قبل الاسلام » ، فتصدى لاجابة الاقتراح غير واحد من أرباب الاقلام ، وعرضوا مؤلفاتهم فى الوقت المعين على اللجنة المنوط بها فحص تلك المؤلفات وتعيين مستحق الجائزة منها . فقررت انه ليس بينها كتاب يستحقها على مقتضى الشروط المطلوبة ، لكنها اختصت كتابا منها بالذكر ألفه السيد محمود الالوسى فضلته على رفاقه واجازت لصاحبه نشره ، فنشره فى ثلاثة مجلدات واعتبر نفسه نال الجائزة ، وهو كتاب «بلوغ الارب فى أحوال العرب» ،

(*) Coussin de Perceval, Essai sur l'histoire des arabes avant L'islamisme (Paris 1847-1848) فى ثلاثة مجلدات ، وقد جمع فيه معظم مافى الكتب العربية عن العرب قبل الاسلام ، وأضاف اليه ما ظهر الى أيامه من نتائج أبحاث المستشرقين والباحثين الاوربيين ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٢٠ مع تعليقات ضافية لم تغير من صلب الكتاب شيئا

يشتمل على أكثر ما جاء فى الكتب العربية من أخبار العرب قبل الاسلام وأيامهم ومشاهيرهم وأديانهم وأوابدهم وعاداتهم ، رتبها فى أبوابها لكنه لم يتعرض لتمحيصها وقلما تصدى للتاريخ أو التمدن على النمط الجديد

وكنا فى اثناء ذلك قد اخترنا الخطة التى سرنا عليها فى خدمة اللغة العربية ، نعنى نشر التاريخ وآدابه وفلسفته ودرس تاريخ الشرق ولا سيما تاريخ العرب والاسلام وآداب اللغة العربية . وقد علمنا أن درسنا لا يكون وافيا ان لم نفهم تاريخ أصحاب هذه اللغة ، وهم الذين قاموا بالاسلام ونهضوا بالشرق . فوافق اقتراح ملك أسوج ما تتمناه أنفسنا ، ولبثنا ننتظر ما تجود به قرائح الكتاب ، فلما رأينا خيبة الاقتراح كما تقدم عزمنا على درس الموضوع من كل وجوهه ، فلم نترك كتابا أو رسالة تتعلق به مما كتبه العرب أو اليونان أو اكتشفه الرواد من الآثار الا اطلعنا عليه وتفهمناه ، غير ما دار بين العلماء المستشرقين من الابحاث أو المناقشات فى هذا الشأن . فلم يفتنا شىء منها نشر بالانجليزية أو الفرنسية أو الالمانية الا طالعناه ونحن صابرون ، حتى يستوفى البحث حقه ويتمكن العلماء من كشف ما يكفى من الآثار لايضاح ذلك التاريخ . . واذا بالقراء يلحون فى اقتراحهم علينا تأليف تاريخ الاسلام . ولا يكون هذا التاريخ واضحا ان لم يتقدمه تاريخ العرب قبل الاسلام ، فاستخرنا الله فى تأليف هذا الكتاب

وتبين لنا بعد استيعاب مواده انه لا يسعه جزء واحد ، فقسمناه الى جزئين : الاول فى تاريخ العرب يصدر الآن ، والآخر فى آدابهم وعاداتهم يصدر فى السنة القادمة ان شاء الله (*)

موضوع هذا الجزء

فالجزء الاول الذى نحن بصدده موضوعه تاريخ العرب قبل الاسلام . وقد صدرناه بتمهيد فى مصادر هذا التاريخ المدونة فى الكتب والمنقوشة على الآثار ، والمدونة اما عربية أو يونانية أو لاتينية . وذكرنا أهم المؤلفين من العرب واليونان واللاتين الذين ذكروا شيئا عن العرب أو بلادهم . وأما المصادر المنقوشة فمنها ما وجدوه فى بلاد العرب ومنها ما وجدوه خارجها . وفصلنا تاريخ الاكتشافات الاثرية فى اليمن وحضرموت وبطرا وغيرها ، وتكلمنا عن المصادر المنقوشة خارج بلاد العرب فى بابل وآشور ومصر . وختمنا هذا الفصل بأسماء الكتب التى استعنا بها فى تأليف هذا الكتاب — قسمناها حسب لغاتها ورتبناها باعتبار الهجاء ، وذكرنا بجانب كل كتاب اسم مؤلفه وسنة طبعه — حتى يتمكن الباحث من الرجوع اليها عند الحاجة

(*) راجع ص ٦ من تقديم هذا الكتاب

ثم أفردنا فصلا خاصا بجغرافية بلاد العرب ، بينا فيه حدودها القديمة ، وما كان يعنيه القدماء بقولهم « بلاد العرب » ، وما معنى لفظ « العرب » فى أصله وكيف تبدل الآن واتسع . وبحثنا فى من هم العرب ، وأين هو مهد الساميين واختلاف الآراء فيه . ثم عمدنا الى موضوع الكتاب اى تاريخ العرب ، وأعملنا الفكرة فى افضل الطرق لتقسيمه ، لأن تقسيم الكتاب وتبويبه أكبر خطوة فى تأليفه ، فرأينا أن نقسمه الى ثلاثة عصور او أطوار ، هى :

اولا — الطور الاول

سميناه الطبقة الاولى او العرب البائدة أو عرب الشمال فى الطور الاول . وأردنا بهذه الطبقة أقدم أمم العرب وفى جملتها الامم التى يسميها العرب بائدة ، ونعنى بها الدول العربية التى ظهرت ودالت قبل ظهور عرب اليمن القحطانية. وأطلقنا علىعرب الطبقة الاولى أيضا اسم « العمالقة » وجعلناهم قسمين كبيرين :

١ — عمالقة العراق ، وهم دولة حمورابى فى بابل منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وأوردنا الادلة التاريخية واللغوية والاجتماعية على أن هذه الدولة عربية . ولا يخفى ما فى ثبوت ذلك من الفخر للعرب ، لأنه اذا صح كان العرب أسبق الامم الى وضع الشرائع وسن النظم وترقية شؤون الاجتماع . وقد أتينا بأمثلة من رقى تلك الدولة (*)

٢ — عمالقة مصر ، وهم الذين يسميهم المؤرخون ملوك الرعاة أوالهكسوس وسميناهم « الشاسو » ، وختمنا الكلام فى هذه الطبقة بأخبار بقايا العمالقة ومنها عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها من الامم البائدة عند العرب ، وأضفنا اليها دولتين عربيتين لم يعرفهما العرب هما دولة الانباط فى بطرا ودولة التدمريين فى تدمر . وبحثنا فى بطرا وأصلها من عهد الادوميين ، وفى الانباط واصلهم وهل هم عرب ، وأتينا بأسماء ملوكهم وسنى حكمهم ونقودهم ولغتهم وحرفهم وتمدنهم . وفعلنا مثل ذلك فى التدمريين ، وأصل تدمر وتاريخ زينوبيا وأذينة وحروبها وهل هى الزباء عند العرب ، واضفنا فصلا فى آثار تدمر وصورنا أهم أنقاضها واتينا بمثال من نقودها

وقبل التقدم الى الكلام عن الطبقة الثانية ذكرنا أمما متفرقة فى شمال جزيرة العرب عرفها اليونان ، ثم أجملنا القول فى الامم التى غزت بلاد العرب

(*) سنعلق على مذهب المؤلف هذا فى موضعه من الكتاب . ويكفى أن نذكر الآن أن هذا المذهب الذى لم تؤيده الابحاث وانصرف العلماء عنه ، يدل على الروح العربية القومية التى كان يمتاز بها جرجى زيدان ، فقد أراد ، عن طريق البحث العلمى أن يضيف الى العرب أمجاد حضارات الاشوريين والبابليين ويجعلهم من أعظم الشعوب المنشئة للحضارات حتى قبل الاسلام

فى عهد الطبقة الاولى ، فأشرنا الى الفراعنة الذين اكتسحوها بين القرن السابع عشر والثانى عشر قبل الميلاد ، ثم الذين غزوها من ملوك آشور وهم ستة ، أولهم تغلات بلاسر فى القرن التاسع قبل الميلاد وآخرهم نبوخذنصر فى القرن السادس قبل الميلاد ، ثم فتوح الفرس والروم وهى قليلة. ورسمنا لأخبار هذه الطبقة خريطة خاصة

ثانيا ـ الطبقة الثانية

وقد أردنا بالطبقة الثانية سكان بلاد اليمن الذين يسميهم العرب بنى قحطان ويسمون دولهم حمير والتبابعة ، فقدمنا الكلام بجغرافية مختصرة ، ثم أتينا بقول العرب عن دول اليمن وما يقوله اليونان عنها . وعمدنا بعد ذلك الى ما كشفه المنقبون فى الآثار من الدول الاخرى ، وأخيرا بسطنا نتيجة ما وصلنا اليه بعد الجمع بين كلّ هذه المصادر وتمحيصها وتطبيقها ، فجعلنا الدول التى حكمت اليمن ثلاثا كبرى ، وهى الدولة المعينية والدولة السبأية والدولة الحميرية. وفصنا أحوال كل دولة على حدة بأسماء ملوكها وأصولها ، وبينا أن أصل الدولة المعينية من بابل هاجر اصحابها الى اليمن بعد ذهاب دولة حمورابى ، واستدللنا على ذلك من المشابهة بين شكل حكومة المعينيين وديانتهم ولغتهم وأسماء ملوكهم وما عند البابليين من ذلك ، وذكرنا أسماء ملوك معين

وأما الدولة السبأية فبحثنا أولا فى أصلها ، وترجح عندنا أنهامن جالية الحبشة نزل آباؤها بلاد اليمن قديما وتوطنوها واتخذوا عادات البلاد ولغتها وتمدنها ، حتى ظهرت فيهم دول تولت حكومتها اولا باسم سبأ ثم باسم حمير ، وذكرنا أسماء ملوك كل منهما نقلا عن الآثار ، وقابلنا بين ما فى الآثار عن ملوك حمير وما ذكره عنهم العرب ومحصناه وعينا سنى كل ملك منهم بالادلة والقرائن . وختمنا تاريخ دول اليمن الكبرى بالكلام عن العصر الحبشى ، وسردنا علائق الاحباش باليمن منذ القدم حتى فتحوها فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وبسطنا سبب ذلك الفتح عند العرب وعند اليونان

ثم ذكرنا دول اليمن الصغرى ، فبدأنا بالاذواء والاقيال وأثبتنا دولا عرفها اليونان ولم يعرفها العرب وهى الجبائية والقتابية وغيرهما . وأخيرا وصفنا تمدن اليمن القديم ، وقسمنا الكلام فيه الى عدة أبواب : فى النظام الاجتماعى والصناعة والزراعة والتعدين والعمارة والتجارة والحضارة والدين واللغة والكتابة ، وتركنا الكلام فى الثلاثة الاخيرة للجزء الثانى من هذا الكتاب . أما تلك ففصلناها وأتينا بأمثلة من نقود اليمن ، وصورنا مدينة مأرب بعد خرابها وبقايا حرم (قصر) بلقيس وأنقاض غمدان . ووصفنا قصور اليمن وأفردنا فصلا خاصا للاسداد وخصوصا سد مأرب أو سيل العرم المشهور ، ورسمنا

له خريطة واضحة تظهر فيها هندسة ذلك الخزان العظيم وسبب تهدمه ، ورسمنا لتاريخ هذه الطبقة خريطة خاصة ذكرنا فيها البلاد التى كانت عامرة على عهدها

ثالثا — الطبقة الثالثة

أردنا بالطبقة الثالثة العرب العدنانية أو الاسماعيلية أو عرب الشمال فى الطور الثانى . مهدنا الكلام فى أصولهم والفروق بينهم وبين القحطانية من حيث البداوة والحضارة واللغة والدين ، وأوردنا اقدم أخبار العدنانيين من أيام التوراة الى ظهور الاسلام ، وأوضحنا تفرقهم وعلاقاتهم بشجر الانساب من قضاعة وربيعة ومضر وغيرها ، وذكرنا دول قضاعة وسائر أخبارها وتشعب سائر العدنانية

وقبل التقدم الى اخبارها وأيامها وحروبها تكلمنا عن دول القحطانية خارج اليمن ، نعنى دول الغساسنة والمناذرة وكندة وغيرها ، ولنا رأى فى أنسابها . وبحثنا فى كل دولة بحثا دقيقا ، جمعنا فيه بين ما قاله العرب وما قاله اليونان والسريان أو دلت عليه الآثار والنقوش او ارشدتنا اليه القرائن ، وأوضحنا ذلك كله بالخرائط والرسوم والجداول . وفى الختام اتينا على أخبار العدنانية أهل البادية وأيامهم ، وكيف تخلصوا من سيطرة اليمن حتى جاء الاسلام ، وافردنا فصلا لحضر العدنانية فى مكة . ورسمنا لهذه الطبقة خريطة خاصة تعرف بها اماكن القبائل فى نجد والحجاز ومشارف الشام والعراق، وعينا أسماء الامكنة التى وقعت فيها الحروب بين تلك القبائل وغير ذلك

وقد بذلنا الجهد فى تحقيق ما كتبناه وضبطه على ما وصل الينا علمه مما بين أيدينا من الكتب أو النقوش ، مع علمنا أن ما بقى مدفونا من اخبار هذه الامم تحت الرمال اكثر كثيرا مما كشف لنا ، ولذلك فلا نستغرب اذا رأينا بين مكتشفات المستقبل ما يحملنا على تعديل رأينا فى بعض النقط المبهمة . واذا انتج بحثنا فى هذا الموضوع فائدة فالفضل راجع الى رجال الهمة والنشاط الذين عرضوا حياتهم للخطر فى التنقيب عن الآثار وحملها الى العالم المتمدن ، وللذين حلوا رموزها واستخرجوا كنوزها من العلماء والمستشرقين

ولا ينبغى لنا أن ننسى الفائدة التى استفدناها من دار الكتب الخديوية ، وما كان يمهده لنا حضرة ناظرها الدكتور مورتس تسهيلا للوقوف على الكتب اللازمة للمطالعة أو المراجعة أو يرشدنا الى ما صدر منها حديثا

وغاية ما نرجوه من وراء ذلك أن تزيد مواضع الاصابة فى هذا الكتاب على مواضع الخطأ ، ولا نقول ان كل خطأ سهو جرى به القلم بل نعترف أن ما نجهل أكثر مما نعلم ، وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم

تمهيد
في
مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام

سقم هذا التاريخ

ليس فى تواريخ الامم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الاسلام ، حتى تهيب الكاتبون الخوض فيه لوعورة مسلكه وتناقض الاقوال فيه . وبعكس ذلك تاريخهم بعد الاسلام ، فانهم لم يتركوا خبرا من أخباره أو رواية أو واقعة الا دونوها وفصلوها ، كأنهم شغلوا بهذا عن ذاك أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية واقامة مجد الاسلام مكانها . ولذلك لا نجد لهم كتابا خاصا بتاريخ العرب قبل الاسلام ، واذا ذكروا شيئا من أخبارهم انما يريدون به العبرة والموعظة ، كأخبار عاد وثمود بما تحويه من غضب الله على قوم خالفوا أنبياءه وأن التبابعة مع ضخامة ملكهم صاروا الى البوار . ولذلك رأيتهم يبالغون فى تعظيم تلك الامم ليعظم القصاص الذى وقع عليها ، حتى أصبحت أخبارهم أشبه بالخرافات منها بالحقائق . وأكثر مبالغات العرب فى القبائل البائدة ، حتى سبق الى أذهان المحققين من غير المسلمين انها موضوعة . ولولا ورود بعضها فى القرآن والحديث لقال المسلمون ذلك أيضا. على أن ورود أسمائها وبعض أخبارها فى كتب اليونان وغيرهم أثبت وجودها ، وجاءت الاكتشافات الاثرية بما يؤيد ذلك مع اظهار المبالغة فى روايات العرب

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نجمل الكلام فى مصادر تاريخ تلك الامة على اختلاف العصور واللغات ، وهى تقسم الى مصادر مدونة فى الكتب أو منقوشة على الآثار . والمدونة فى الكتب اما عربية أو غير عربية ، وهذه اما عبرانية أو يونانية أو غيرها . والمصادر المنقوشة اما فى اليمن أو الحجاز أو وادى النيل أو ما بين النهرين أو الشام أو غيرها ، واليك البيان :

المصادر الكتابية أو الكتب المدونة

١ ــ الكتب العربية

أقدم المصادر العربية المدونة عن تاريخ العرب وأصحها القرآن ، فقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود وبعض أخبار ملوك اليمن كسيل العرم وغيره . واذا قرات تلك الاخبار فيه لا تجد فيها شيئا من المبالغات التى وصلت الينا فى كتب التاريخ ، بل تجد ما ذكره القرآن صحيحا تؤيده الاكتشافات الحديثة كما أيدت معظم أخبار التوراة مما ستراه فى

اماكنه من هـذا الـكتاب . ويدلك ذلك على أن تلك المبالغات أو الخرافات ادخلها أهل الاغراض أو الطامعون ممن دخل الاسلام من اليهود أو المجوس أو غيرهم ، لأن العرب كانوا يستفتونهم فى تفسير ما أغمض عليهم فيفتونهم بما تعودوه فى كتبهم من المبالغة فى ضخامة الاجسام وطول الاعمار . فالقرآن لمـا ذكر عاداً قال: « عاد أرم ذات العماد » ، فأدخل المفسرون فى شرحها وتفسيرها مبالغات رواها كعب الاحبار وعبد الله بن سلام اليهوديان، ووهب ابن منبه المجوسى (١) وغيرهم ، فوصل الينا من أخبارها أن رجالها كانوا طوالا كالنخل لم يكن للطبيعة تأثير على أبدانهم لغلظها ومتنانتها ، وان عادا تزوج ألف امرأة ورأى اربعة آلاف ولد من صلبه ورأى البطن العاشر من أعقابه وعاش ١٢٠٠ سنة ، وخلفه اكبر أولاده فعاش ٨٥٠ سنة ، وعاش اخوه ٩٠٠ سـنة « ٢ » ونحو ذلك.

فهذه المبالغات أدخلها اليهود فى أخبار العرب قياسـا على ما فى كتبهم كالتلمود وغيره ، وناهيك بأمثالها فى كتب المجوس .. فقد كان الفرس القدماء يبالغون فى أعمار أسلافهم وتقدير أطوال اجسامهم ، فدخل كثير من هـذه المبالغات فى التاريخ بطريق التفسير أو الرواية ، وحفظت بعد الصدر الاول لاقتصار العرب يومئذ على الاسـناد ، تفاديا من انتقاد الائمة فى رواياتهم محافظة على صحة ما يروى من الاحاديث والاقوال ، فأفاد الاسناد فى ضبط الحديث والتفسير ولـكنه أضر باستبقاء الخرافات القديمة على حالها . ولما نشـأت العلوم اللسانية واشـتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة وتعودوا الدليل والقيـاس ، أخرجوا أكثر هـذه الخرافات من تفاسيرهم ولم يلتفتوا الى تنقيح التاريخ منها

ولم يختص العرب ولا اليهود أو غيرهم من المشـارقة بادخال الخرافات على التاريخ ، فقد كان ذلك شأن الامم القديمة فيما يعتور كل خبر تنوقل أجيالا بالسماع . اعتبر ذلك فى ما كان عند اهل الاجيال (العصور) الوسطى فى أوروبا من حوادث لا تقل غرابة عن مبالغات الف ليلة وليلة .. أدخلوا بعضها فى تراجم مشاهيرهم ، فذكروا أن الاسكندر المقدونى لقى فى أثناء فتوحه اقواما رؤوسهم كرؤوس الـكلاب أو الطيور أو غيرها وأبدانهم كالتنانين أو نحوها ، غير ما رووه عن عجائب البحار كالحيتان التى تبتلع السفن الكبرى أو تقلبها ، وعرائس الماء أو الاسماك بوجوه العذارى الجميلات أو وجوه الشبان أو الشيوخ ، والسمك ذى الرؤوس السبعة وغير ذلك من الخرافات التى لم يصل العرب الى مثلها فى تواريخهم

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٦٥ ج ٣ (طبعة رابعة)
(٢) المسعودى ١٩٧ ج ١

وقلد العرب اليهود وغيرهم فى كثير من طرق العلم ، فاقتبسوا منهم رد كل أمة الى أب من آباء التوراة ، حتى المغول والترك والفرس . فردوا نسب الفرس مثلا الى فارس بن ناسور بن سام ، وقالوا عن أهل الصين انهم من ولد عابور بن يتويل بن يافث بن نوح (١) . وقس عليه تعليل أسماء البلاد وردها الى أسماء مؤسسيها ، بما يشــبه قول اليهود أن مصر مثلا بنــاها مصرايم وأشور بناها أشور . وقد ينسبون بناء البلد الى حادثة أو ظرف ، فعندهم مثلا أن دمشق سميت كذلك لأنهم دمشقوا بناءها ، والاندلس من التدليس وان الهمزة والنون زائدتان ، ويثرب من قولهم « ولا تثريب » ، والحيرة من « تحير » ، والعراق من عرق القربة . وقس على ذلك أسماء الاشخاص . والواقع أن اندلس محرفة من « وندلوسا » نسبة الى الواندال قوم سكنوا الاندلس قبل الاسلام ، ويثرب محرفة على الغالب من «اتريبس» اسم بعض بلاد مصر ، والحيرة من « حيرتا » فى السريانيــة اى المعسكر ، والعراق من لفظ فارسى « ايراه » وهى وايران من أصــل واحد فعربها العرب « عراق » ، ومن هــذا القبيل قولهم « يعرب » لمن تكلم بالعربية ، « وسبا » سميت بذلك لتفرقها أو لكثرة السبى ، وأمثلة ذلك كثيرة لا تحصى

مصادر اخبار العرب

واقتبس مؤرخو العرب أخبار الجاهلية من عدة مصادر :

١ ــ أشعار العرب وأمثالهم وأقوال كانت شائعة بين العرب فى صــدر الاسلام يتناقلونها نظما أو نثرا ، ويدخل فيها أخبار البدو وأيام العرب وحروبهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فدونوها فى جملة ما دونوه نقلا عن الرواة كالاصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ، وقد ضاع أكثر ما دونوه

٢ ــ الآثار الحميرية لأنهم كانوا فى صدر الاسلام يقرأون الخط المسند ، وكان فى اليمن جماعة من علماء الفرس عندهم العلم والحكمة ، فأخذوا عنهم وعن الآثار تاريخ اليمن وأخبار السد وغيره ، وأقدم من دون ذلك محمد بن اسحق فى السيرة النبوية

٣ ــ أخبار اليهود بالحجاز واليمن وغيرهما

٤ ــ كنائس النصارى بالعراق ، فقد كان فى الحيرة لما ظهر الاسلام كتب فى السريانية والفارسية واليونانية اقتبس المسلمون كثيرا منها . وأكثر الذين اشتغلوا بتدوين التاريخ فى صدر الاسلام من الاعاجم لاشتغال العرب بالسياسة أو الحرب وأكثر ماأخذوه من الحيرة مختص بتــاريخ الفــرس والانباط والروم ، وقد نقلوا كثيرا من كتب اليهود والفرس واليونان والمصريين

(١) المسعودى ٥٥ ج ١

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ٤٩ ج ٣ (طبعة رابعة)

ضمنوه تواريخهم وربما أشاروا الى ذلك فى سياق الكلام

فما عرفه المسلمون من أخبار العرب قبل الاسلام منقول عن هذه المصادر ، وقد وصل الينا مختلطا غامضا ، وقام من المسلمين ، بعد نضج تمدنهم ، غير واحد من المؤرخين النقادين كابن الاثير وياقوت وغيرهما فانتقدوا كثيرا من أخبار العرب . فذكر ياقوت مثلا خبر مدينة النحاس ثم قال : « ولها قصة بعيدة عن الصحة لمفارقتها العادة وأنا بريء من عهدتها ، انما أكتب ما وجدته فى الكتب المشهورة » ، ولما ذكر مطبخ كسرى ومائدته وقصتها الغريبة قال : « انها بالكذب أشبه منها بالصدق » ، ولما ذكر ناعطا وانها قصر على جبلين يسير الراكب فى ظله أربعة فراسخ قال : « وهذا من المحال » ، وقس عليه كثيرا من نقده . لكنه لم يتعرض للمبالغات المتعلقة بالدين ، وهو السبب فى بقاء كثير من المبالغات ونسبة كثير من الوقائع الى الانبياء ، فكل مدينة فخمة ينسبون بناءها الى سام بن نوح أو الى سليمان بن داود أو اسكندر ذى القرنين

مصادر احوال العرب

وقد ساعد على زيادة الالتباس والاختلاط فى روايات العرب الخط العربى ، وكان يكتب أولا بلا نقط ، ولم يكن عندهم ما يميز بين الباء والتاء والثاء ، أو بين الجيم والحاء والخاء ، أو بين السين والشين ، فيكتبون « بلقيس » مثلا حروفا بلا نقط فتقرأ : بلفيس ، أو يلقيس ، أو نلفيس ، أو بلفيش .. الخ وقس عليه ما تختلف به قراءتها بنقل النقط واختلاف مواضعها . فوقع بسبب ذلك التباس فى قراءة الاسماء ، وظهر أثره فى اختلاف المؤرخين والنسابين فى أسماء الاشخاص والقبائل والاماكن .. فمن أمثلة ذلك أن ابن خلدون يسمى أحد ملوك حمير افريقش والمسعودى وأبو الفداء يسميانه افريقس ، وابن خلدون يقول الملطاط والمسعودى الملطاط ، وابن خلدون يقول ناشر النعم والطبرى يسميه ياسر أنعم أو ياسر ينعم والمسعودى نافس النعم ويسميه ابن الاثير ياسر بن‌عمرو، وابن خلدون يقول كلكيكرب والطبرى وابن الاثير يسميانه ملكيكرب والمسعودى وأبو الفداء يسميانه كليكرب وابن خلدون يسمى والد بلقيس اليشرح والطبرى يسميه ايليشرح وابن الاثير ايلشرح ، وبلقيس يسميها بعضهم بلقمه ، وبعضهم يدعو أحد أبناء حمير وائل وغيره يدعوه واثل . فاعتبر ذلك أيضا فى الاسماء الاعجمية وما قد تؤول اليه من تبديل الاعلام وتشويش الاخبار ، وعلى هذا المبدأ تحول اسم « قايين » الى « قابيل » و « شاول » الى « طالوت » و « جليات » الى « جالوت » و « قورح » الى « قارون » و « نقفور » أو « نيسوفورس » الى « يعفور »

ولا يخفى أن ذلك الخلل قد يتطرق الى الافعال والاسماء المشتقة

فيغير المعاني ويبدلها ، والظاهر أن تاريخ الطبرى المطبوع بأوربا منقول عن نسخة خطية غير منقطة كلها أو بعضها ، لأن الناشر ملأ الكتاب بالحواشي لايضاح ذلك الاختلاف فى القراءة (١)

ومن أسباب الخلل فى أخبار العرب تناقل الخبر أجيالا على الالسنة بغير تدوين أو ضبط فيعرض له تحريف لا يخطر بالبال ، يشبهه ما يحدث لهذا العهد بين الامم التى لا تكتب ، كالاسكيمو مثلا فانهم يصفون الرجل الانجليزى بأبلغ من وصف العرب عادا وأبناءه ، فيقولون : « انه عظيم الهامة له أجنحة ، اذا نظر الى الرجل قتله بنظرة ، وانه يبتلع كلب الماء لقمة واحدة » ، فهذه المبالغة لا تنفى وجود الانجليز ، ولكنها تدل على قوتهم وشدة بطشهم ، فقس على ذلك مبالغات العرب . ويندر أن يضعوا شيئا من عند أنفسهم ، ولكن يغلب أن ينقلوه على علاته . وقد يشتبه عليهم الرجل بالآخر ، كقولهم ان أول من حكم الرومان أوغسطس قيصر ، وأنت تعلم أنه ليس أول من حكمهم ولكنه أول قياصرتهم . فهذا وأمثاله مما يروونه عن الامم البعيدة عنهم لا يخلو من حقيقة يجب تجريدها منه . ولا ينبغى احتقار رواياتهم اذ قد يكون فيها الصحيح مبالغا فيه ، فاذا قالوا أن سبا بن قحطان حكم ٤٨٠ سنة فلا ينبغى لنا أن ننبذ هذا القول لبعده عن المعقول ، بل نؤوله الى أن المراد « دولة سبا » أو « أمة سبا »



ومن أسباب التعقيد والالتباس نسبة الحادثة الى غير صاحبها ، فاذا اشتهر رجل بمنقبه نسبوا اليه كل ما ينطوى تحت تلك المنقبة .. فالفاتح ينسبون اليه كل فتح عظيم ، والحكيم يروون عنه كل حكمة ، كما ينسبون كل بناء الى سليمان أو ذى القرنين . وينبغى الانتباه الى ذلك فى تحقيق الحوادث .. لما فتح ابراهيم باشا (ابن محمد على) الشام واشتهر بالصرامة والشدة كان من جملة ما ذكروه من أدلة ذلك ان امرأة شكت اليه جنديا اغتصبها لبنا شربه ، فأمر الباشا ببقر بطنه حتى اذا تحققت جنايته كان البقر قصاصا له والا قتل المرأة . فلما بقر بطنه وجد اللبن فيه . وهذه الحكاية ذكرها ابن بطوطة فى رحلته قبل ابراهيم باشا بنيف وخمسمائة سنة ، وهو ينسبها الى امير اسمه كبك سلطان مابين النهرين فى أيامه(٢) وقد اتفق كثير من امثلة ذلك للعرب فى اخبارهم القديمة ، فهم ينسبون بناء سد مأرب الى كل عظيم من عظماء اليمن

ومن أسباب الاختلال مزج الدين بالتاريخ ، فترى فى ما يروونه عن القدماء أكثر ما يراد به اظهار التقوى والارهاب من العقاب والتنبيه الى زوال الدنيا ،

(١) الهلال ٥٣٧ سنة ٣
(٢) ابن بطوطة ٢٢٧ ج ١

فقد ذكروا كثيرا من مدافن حمير وقرأوا ما عليها من الآثار وتناقلوه فوصل الينا محشوا بمبالغات يراد بها العظة أو الوعيد

واذا قرأت ما كتبه مؤرخو العرب عن تاريخ الجاهلية رأيت عجبا من الخلط والتناقض والاختلاف ، ومن هـذا القبيل اختلافهم في الانساب وهو كثير في كتبهم ، ولم يتفق النسابون الا في القليل من أنساب الملوك أو الامراء ، بل انهم لا يتفقون غالبا الا في أنساب قريش . اما في أنساب الملوك الآخرين فيختلفون كثيرا ، فان ابن خلدون وابن اسحق يقولان في نسب تبع أسعد أبي كرب انه أسـعد بن عدى صيفى ، والطبرى وابن الكلبى وابن حـزم وابن الاثير يقولون انه أسعد بن كليكرب بن زيد الاقرن بن عمرو بن ذى الاذعار ابن ابرهة ذى المنار الرائش بن قسيس بن صيفى ، وبين هذين القولين بون عظيم . وهم فى اختلاف فى نسب زبيد بين أن يكون ابن سلمة بن مازن بن منبه بن صعب بن سعد العشيرة ، أو ابن منبه بن صعب بن سـعد . أو ابن صعب بن سعد . وابن خلدون وغيره يقولون أن يشجب بن يعرب ، ويقول ابن اسحق أن يعرب هو ابن يشجب ، ونسابة اليهود يقولون أن عرب اليمن من نسل حام ، والعرب يقولون انهم من نسل سام

وأغرب من ذلك انهم مختلفون فى نسب قحطان نفسه ، فمنهم من جعله ابن عامر بن شالح بن ارفكشاد بن سام ، وبعضهم جعله ابن يمن بن قيدار ، وآخرون زعموا أن قحطان من نسل اسماعيل ، والاكثر على انه كان قبل اسماعيل بأجيـال . وقد صرح ابن خلدون أن العرب تتصرف فى الاسماء الاعجمية بتبديل حروفها وتغييرها ، وهو ما يؤيد قولنا. ومن أمثلة ذلك اختلافهم فى ذى القرنين بين أن يكون الصعب بن مداثر من ملوك اليمن أو اسكندر المقدونى بن فيليب أو غيرهما (*)

(*) يسود الشك الآن كل مايذكره مؤرخو العرب عن تقسيم العرب الى عدنانيين وقحطانيين ، كما سنبينه فى موضعه ، وقد أصبح من الثابت أننا لا نستطيع التعويل على مايذكره مؤرخو العرب عن قحطان ونسبه . والموقف فيما يتعلق بقحطان ونسبه يتلخص فيما يلى :

١ ـ قطحان الذى يذكره العرب هو يقطان الذى يرد ذكره فى سفر التكوين ، ونسبه الذى يتفق عليه ابن هشام وابن سعد والدينورى والمسعودى والقلقشندى هو الذى ذكره جرجى زيدان أولا ، مع خلاف بسيط هو أن أرفكشاد الذى يذكره هو أرفخشد أو أرفخشذ عندهم، وهو نفس النسب الوارد فى سفر التكوين ، ٢٥/١٠

٢ ـ تذهب بعض الروايات العربية الى أن عابر هو هود النبى ، ويذهب بعضها الآخر الى أن قحطان هو ابن هود ، وقد استنتج الاستاذ جواد على أن رواة العرب استهدفوا من ذلك ربط نسب قحطان بالانبياء ، وقال انهم « وجدوا أن العدنانيين يفخرون عليهم مع ذلك بأن فيهم النبوة والانبياء ، منهم الرسول وفيهم اسماعيل جدهم ، فأرادوا أن يكون لهم أجداد أنبياء ، أنبياء خلص قحطانيون ، أو أن يكون لهم نسب يتصل بنسب اسماعيل على الأقل »

٣ ـ نحن لا نعرف من أمر قحطان شيئا غير هذا النسب الذى يردده الاخباريون ، وليس لدى العبرانيين من أمره الا انه أحد أولاد عابر وآخر أولاده

٤ ـ لا يعرف العلماء معنى هذا الاسم أو أصله ، وهل هو اسم علم كانت تسمى وتتميز به القبائل التى كانت تقيم جنوبى فلسطين ، أو أنه كان فى الاصل اسم قبيلة قويت وسادت القبائل

←

واختلفوا فى نسب الحرث الرائش أول ملوك التبابعة عندهم ، فقال ابن اسحق انه ابن عدى بن صيفى ، وابن الكلبى يقول ابن قيس بن صيفى ، والسهيلى يقول فى « الروض الانف » انه ابن ذى سدد بن الملطاط بن عمر ابن ذى يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل ، والمسعودى يقول انه ابن شداد بن الملطاط بن عمر . واغرب من ذلك أن الواحد منهم قد يقول فى نسب الواحد قولين مختلفين ، فالطبرى يقول فى موضع أن الحرث الرائش من نسل سبا الاصغر ، ويقول فى موضع آخر ما يؤخذ منه غير ذلك . واختلفوا فى نسب افريقش أحد ملوك التبابعة ، فقال ابن خلدون انه ابن أبرهة بن الحرث الرائش ، وقال ابن حزم انه أخو الحرث الرائش . وقد ذكروا أن الرائش ١٢٥ سنة ، وأبرهة حكم ١٨٠ سنة ، فتكون بداية حكم افريقش بعد بداية حكم اخيه بثلاثمائة وخمس سنين ، ناهيك بمدة حكمه هو فربما عاش على حسابهم خمسمائة سنة أو أكثر . وقس على ذلك اختلافهم فى نسبة القبائل بعضها الى بعض ، فيزعم بعضهم أن قبيلة انمار من بنى قحطان ، وبعضهم يقول انها من عدنان

على أن هذا التناقض أو الخلط لا يخلو من حقيقة تاريخية على المؤرخ الباحث تجريدها من تلك الشبهات

ماوصل الينا من اخبار العرب

ثم ان ما كتبه المسلمون فى تاريخ الجاهلية على قلة العناية فى تحقيقه لم يصل الينا منه الا فصول فى مقدمات كتب التاريخ العامة ، ولم يصلنا شىء مما كتب فى هذا الشأن قبل القرن الثالث للهجرة . وأقدم ما وصل الينا من أخبار الجاهلية على يد مؤرخى المسلمين فصول نشرها عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ فى السيرة النبوية المشهورة ، تطرق اليها فى سياق كلامه



الاخرى فغلب اسم الغالب على المغلوب ، أو انه اسم أرض ثم اعتبر على عادة الساميين جدا أعلى لعدد من القبائل

٥ ـ لا نستطيع القطع بأن الانتساب الى قحطان أو القحطانية كان معروفا عند الجاهليين ، فلم يشر الى ذلك القرآن الكريم ، ولم يرد له ذكر فى الكتابات الجاهلية ، أما الشعر الجاهلى فالذى جاء فيه هو الفخر أو الحماسة ، وربما كانت القحطانية معروفة فى الجاهلية القريبة من الاسلام ، ولكن هذا لا يدل على أنها كانت معروفة فى الجاهلية البعيدة عنه

وقد ناقش الاستاذ جواد على هذا الموضوع مناقشة شاملة وختم كلامه قائلا : « يرى نفر من المستشرقين أن الاخباريين جاءوا بقحطانهم هذا من التوراة ، عن طريق قراءتها ، أو عن طريق أهل الكتاب ، اذ عرفوا منهم أن تلك القبائل التى نسبت الى هذا الجد كانت تسكن بلاد العرب الجنوبية . وقد وجدوا بين أسماء القبائل اليمانية قبيلة اسمها قريب من هذا الاسم ، وقد وجدوا نزاعا عنيفا بين أهل مكة وأهل اليمن فى الجنوب ، ومنهم قبيلة قحطان ، فأقروا النسب وأصبح قحطان ـ وليد يقطن ـ جدا حقيقيا لليمنيين ومن نسب نفسه اليهم من الافراد والقبائل »

انظر : جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ٢٦٧ وما بعدها والمراجع المعطاة هناك

عن النسب النبوى رواها عن محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، وهى قاصرة على نسب العرب الاسماعيلية وشىء عن الغساسنة والمناذرة ، وقصة سد مأرب واستيلاء تبان أسعد على اليمن وغزوة يثرب الى ملك ذى نواس ، وقصة أصحاب الاخدود فى نجران واستيلاء الحبشة على اليمن وعام الفيل وخروج الحبشة من اليمن ودخول الفرس اليها ، وشذرات عن ولد نزار ومضر كقصة عمرو بن لحى صاحب الاصنام ، وكلام فى أوابد العرب وعاداتهم ، وبضعة فصول فى عرب الحجاز وتاريخ مكة الى بيت عبد المطلب بن هاشم فظهور النبى ، وهذا كله لم يستغرق أكثر من ستين صفحة من سيرة ابن هشام . .

وعاصر ابن هشام جماعة من الرواة أشهرهم أبو عبيدة والاصمعى وتوفوا فى أوائل القرن الثالث للهجرة ، وهم أصل ما تنوقل من أخبار العرب وأشعارهم وآدابهم وعاداتهم ، ويتخلل ذلك بعض تاريخهم لكنهم لم يتركوا شيئا مدونا .ويلى ابن هشام ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف (توفى سنة ٢٧٦ هـ) وفيه فصل فى أنساب العرب حسب التسلسل والتعاقب بلا حوادث الا شذرات عن اليمن وغسان والحيرة . ونحو ذلك الزمن ظهر اليعقوبى المشهور بابن واضح المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، وألف تاريخا فى جزأين ، الاول فى التاريخ القديم وفى جملته فصل فى قدماء العرب



ويلى هؤلاء طبقة نبغت فى القرن الرابع للهجرة ، أولهم الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، فقد صدر كتابه الكبير بفصول فى أخبار عاد وثمود وملوك اليمن والحجاز . وفعل مثل ذلك المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، فى الجزء الاول من كتابه مروج الذهب . وممن دون تلك الاخبار بشكل تاريخ حمزة الاصفهانى المتوفى فى أواخر القرن العاشر للميلاد ، له كتاب موجز فى « سنى ملوك الارض » ذكر فيه شيئا عن أنساب حمير ودول العرب من غسان ولخم وكندة فضلا عن ملوك الفرس وغيرهم ، وانما هو يهتم بسنة الولاية والوفاة . وعاصر هؤلاء اثنان من كتاب الادب ذكرا شيئا عن حوادث الجاهلية ، وهما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، وأبو الفرج الاصفهانى صاحب الاغانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، فهؤلاء وشعراء الجاهلية هم مرجع المؤرخين فى ما كتبوه عن العرب قبل الاسلام . وعاصر هؤلاء كاتب له شأن كبير فى هذا الموضوع ، نعنى الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » ويعرف بابن الحائك ، فقد وصف تلك الجزيرة كما كانت فى أيامه وصف عالم محقق لم يغادر شاردة ولا واردة ، وله كتاب آخر عظيم الإهمية اسمه « الاكليل » لم يوجد منه الا قطعة نشرها

المستشرق مولر وفيها وصف أبنية اليمن وآثار ملوكها كما كانت فى أيامه

ثم جاء أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ، صاحب القاموس الجغرافى المعروف باسم « معجم ما استعجم » فصدر كتابه بمقدمة حسنة فى هـذا الموضوع غير ما جاء فى تضاعيف الـكتاب ، وأعقبه ياقوت الحموى صاحب « معجم البلدان » المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فضمن كتابه فوائد كثيرة مشتتة ، واخذ ابن الاثير عن الطبرى ، وعن ابن الاثير أخذ أبو الفداء وأضاف شيئا من تاريخ الجاهلية أخذه من سواه . وأهم من كتب فى تاريخ الجاهلية بعد هؤلاء وأطال ابن خلدون ، فقد جمع فى الجزء الثانى من تاريخه الكبير خلاصة ما قاله المتقدمون الذين ذكرناهم ، فأفرد لـكل دولة أو أمة فصلا . فجاء ما كتبه أوفى من سواه ، ولكنه لا يزيد بجملته على مائة وأربعين صفحة بقطع هذا الـكتاب ، وهو أطول ما كتبه القدماء عنهم

ويعد من المصادر العربية لتاريخ العرب قبل الاسلام أيضا أشعار الجاهلية المجموعة فى مثل حماسة أبى تمام وجمهرة أبى دريد وكامل المبرد وطبقات ابن قتيبة ونحوها . وأفيدها فى هذا الموضوع القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى من أهل القرن الخامس للهجرة ، ذكر فيها ملوك حمير والاذواء والاقيال متسلسلة . ومن قبيل الفوائد التاريخية الامثال العربية وأجمعها كلها كتاب « مجمع الامثال » للميدانى (*)

(*) تنقسم الاخبار التى لدينا عن العرب خلال الفترة السابقة للاسلام مباشرة ــ وهى التى تعرف بالجاهلية الثانية ــ الى ثلاثة أقسام ، وهى :

الاول : تاريخ عرب الحجاز خلال القرنين السابقين على الاسلام وهو واضح بعض الوضوح ، لان مؤرخى الدولة الاسلامية عنوا به على أنه جزء مكمل لتاريخ الاسلام ، ثم أن الاشعار التى رويت عن هذه الفترة وفيرة يخرج منها المؤرخ بحقائق هامة تكمل ما فات رواة الاخبار . ثم ان آيات القران تلقى ضوءا باهرا على أحوال العرب خـلال هـذه الفترة ، وكذلك بعض الأحاديث النبوية

الثانى : أخبار القبائل التى تسكن شمال شبه الجزيرة والامارات التى أقاموها ، مثل امارة المناذرة اللخميين وامارة الغساسنة وهى واضحة بعض الشىء ، لقرب عهدها بالاسـلام من ناحية ولاتصالها ببلاد متحضرة عرفت تدوين التواريخ من ناحية أخرى

الثالث : أخبار تتصل ببقية عرب شبه الجزيرة ، سواء من كان منهم فى اليمن أو فى قلب الجزيرة أو أطرافها الشرقية والجنوبية ، وهى مضطربة ناقصة أقرب الى الاساطير منها الى التواريخ ، الا فيما يتصل بما استقاه المؤرخون من الآثار ونقوشها فهى محققة الى حد بعيد

وقد ذكر جرجى زيدان المصنفات الرئيسية التى نستقى منها مالدينا من مادة عامة عن تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولكنه لم يشر الى المصادر التى نقلت عنها أو الى أصحاب الروايات الاسلامية الاولى ، وهم المسئولون عما فى هذه المصنفات من مادة تاريخية ، وأهم هؤلاء :

عبيد بن شرية ، وهو من أهل صنعاء على قول بعض المؤرخين أو من أهل الرقة على قول بعضهم الآخر ، وكان قصاصا حافظا للاخبار أو واضعا لها ، ماهرا فى الرواية والوضع ، وقد ظهر واشتهر أمره فى بلاط معاوية بن أبى سفيان ، وتنسب اليه كتب كثيرة مثل كتاب الامثال وكتاب الملوك وأخبار الماضيين ، وقد نشر ذيلا على «كتاب التيجان فى ملوك حمير» فى حيدرباد بعنوان : أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها .. وفيه أشعار موضوعة كثيرة منسوبة الى لقمان وعاد وثمود والتبابعة ومن اليهم . وهو أقرب الى القصص الشعبى منه الى التاريخ ، وهو متأثر بالاسرائيليات

←

٢ ـ الكتب غير العربية

والمصادر غير العربية لتاريخ الجاهلية أقدمها التوراة ، وفيها شيء عن أحوال الامم العربية فى سفر التكوين ، وجاء ذكر بعض ملوكهم وقبائلهم فى سفر الايام وسفر نحميا وسفر المكابيين وغيرها وهو قليل .

ويلى التوراة تاريخ هيرودتس (٤٨٠ ــ ٤٢٥ ق.م) الرحالة اليونانى أبى التاريخ ، المتوفى فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد جاء ذكر العرب فيه عرضا فى أثناء الكلام عن الحروب بين الفرس والمصريين على عهد قمبيز فى القرن السادس قبل الميلاد ، ثم بروسوس مؤرخ الكلدان المتوفى نحو سنة ٣٠٠ ق.م ذكر منهم دولة حكمت بابل ، ثم ثيوفراست ، واراتوستنيس ، واغاتارسيدس ، وديودورس الصقلى ، وكلهم من مؤرخى اليونان وجغرافييهم قبل الميلاد ، ذكروا بعض قبائل العرب ومدنهم . وفى أوائل النصرانية نبغ استرابون الرحالة اليونانى المتوفى سنة ٢٤ م ، فأفرد للعرب فصلا خاصا فى الكتاب السادس عشر من مؤلفه الجغرافى ، ذكر فيه مدائن العرب وقبائلهم على عهده ووصف كثيرا من أحوالهم التجارية



وهب بن منبه من أهل ذمار فى اليمن ، ويرجح أنه يهودى الاصل ، واليه تنسب أكثر الاسرائيليات المتفرقة فى كتب العرب ، وكان يزعم أنه ينقل من التوراة وقال : « قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابا » . وكان يزعم أنه يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، ومعظم أخباره عن اليمن وشعوب العرب التى بادت ، وينسب اليه كتاب « الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وغير ذلك » و «كتاب المغازى» الذى ذكر المستشرق الالمانى كارل هينريش بكر أن هناك بضع أوراق منه فى مكتبة هايدلبرج

أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ وهو أقرب أولئك الرواة الى منهج المؤرخين ، وقد اتهمه معاصروه بالكذب

أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى المتوفى سنة ٢٠٨ أو ٢٠٩ أو ٢١٠ ، ومعظم أخباره عن الحيرة ، وهو مؤرخ مدقق وان كان ياقوت يتهمه بأنه كان شعوبيا يطعن فى الانساب

محمد بن اسحق صاحب سيرة الرسول (صلعم) وقد وصلنا كتابه برواية ابن هشام ، وهو أقرب الى المحدثين منه الى المؤرخين فى منهجه ، وأخباره صحيحة فى الغالب

أبو مالك كعب بن ثعلبة القرظى وابنه محمد ، وأصلهما يهوديان ، وهما يدخلان فى زمرة الاخباريين الذين يسميهم العرب أولاد الكاهنين ، ومعظم أخبارهم من التوراة والكتب القديمة

أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ للهجرة ، وكان من أوسع الناس علما بأخبار اليمن ومن أقدرهم على قراءة الخط المسند ، وهو صاحب كتاب « الاكليل » أوثق مراجعنا العربية عن تاريخ اليمن القديم

نشوان بن سعيد الحميرى المتوفى سنة ٥٧٣ وهو صاحب « القصيدة الحميرية » التى لايستغنى عن قراءتها من يريد أن يطلع على تاريخ اليمن القديم ، وله كتاب يسمى « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم »

وفيما عدا ذلك هناك مصنفون آخرون أقل من هؤلاء أهمية ، انظر عنهم :

حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية فى الادب العربى ، ص ١٧٢ وما بعدها

جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ، حـ ١ ص ٣٩ وما بعدها

والاجتماعية وحملة اليوسغالوس الشهيرة لفتح جزيرة العرب وما كان من فشله فى نحو أربعين صفحة . وجاء بعده مؤلف نجهل اسمه ألف كتابا فى وصف سواحل البحر الاحمر وشواطىء المحيط الهندى سماه « الطواف فى بحر أريتريا ثم بلينيوس ، ثم يوسيفوس الاسرائيلى (يسمى أيضا يوسف اليهودى) وكلهم توفوا فى القرن الاول للميلاد . وقد ذكر يوسيفوس شيئا عن عمالقة مصر فى كتابه آثار اليهود وفى أواسط القرن الثانى للميلاد نبغ بطليموس القلوذى فألف جغرافيته الشهيرة جمع فيها كل ما عرفه اليونان قبله من أحوال العالم ، كما فعل ياقوت بجغرافية العرب . وخصص بطليموس جزءا من كتابه لبلاد العرب ، فذكر مدنها وقبائلها وعين الاماكن باعتبار الدرجات طولا وعرضا بشرح واف ، ووصف كثيرا من أحوال العرب التجارية وغيرها . ويليه أربان وهيروديان وأوسابيوس ،واثناسيوس وزينوفون ، وهيرونيموس ، وفيلوسترجيوس ، وبروكوبيوس ، واستفانوس ما بين سنة ١٦٠ و ٥٦٧ للميلاد . وكل منهم أورد شيئا من أحوال العرب عرضا لا يخلو من فائدة ، وانما المرجع فيما وصل الينا من كتابة اليونان عن العرب الى استرابون ، وبلينيوس ، وبطليموس ، وصاحب كتاب «الطواف» الآنف الذكر ، فانهم جمعوا ما قاله سواهم وفصلوه . ولهؤلاء المؤلفين — على شتت ما كتبوه — فضل كبير على تاريخ العرب ، فانهم أوضحوا كثيرا من غوامضه فذكروا دولا وقبائل وأماكن لم يعرفها مؤرخو العرب على الاطلاق ، كدولة الانباط والمعينيين والسبايين وغيرهم مما سنأتى على تفصيله

وهذا جدول بأسماء علماء اليونان الذين ذكروا العرب أو تاريخهم أو ما يتعلق بهم ، مرتبة حسب سنى وفاتهم ، اذ قد يجىء ذكر أحدهم فى أثناء الكلام فيجب على القارىء أن يعرف سنة وفاته

الاسم	سنة الوفاة	الاسم	سنة الوفاة
هيرودتس	٤٠٦ ق م	ابولودورس	١٣٠ ب م
ثيوفراست	٣١٢ « «	بطليموس القلوذى	١٤٠ « «
بروسوس	٣٠٠ « «	اريان	١٧٥ « «
ارسطون	٢٥٠ « «	هيروديان	٢٥٠ « «
ايراتوستنيس	١٩٤ « «	اوسابيوس	٣٤٠ « «
اغاثارسيدس	١٤٥ « «	اثناسيوس	٣٧٣ « «
ديودورس الصقلى	٨٠ « «	زينوفون	٣٥٩ « «
سترابون	٢٤ ب م	هيرونيموس	٤٢٠ « «
بلينيوس	٧٩ « «	فيلوسترجيوس	٤٢٥ « «
صاحب كتاب «الطواف»	٨٠ « «	بروكوبيوس البيزنطى	٥٦٥ « «
يوسيفوس	٩٣ « «	ستيفانوس البيزنطى (*)	٥٦٧ « «

(*) انظر عن هؤلاء المؤرخين والجغرافيين من الاغريق واللاتين :

Ch. Forster : The historical geography of Arabia ; 2 vols.

المصـــادر المنقوشـــة على الآثار

فى بلاد العرب

قد رأيت فيما تقدم انه ليس فى الكتب العربية أوغيرها مما كتبه القدماء كتاب واف بتاريخ العرب قبل الاسلام ، وانما هى نتف متفرقة يجتمع منها تاريخ ناقص ، كما كان تاريخ مصر القديم قبل حل الخط الهيروغليفى وقراءة الآثار المنقوشة به ، وكما كان تاريخ بابل واشور قبل حل الخط المسمارى أو الاسفينى . وللعرب آثار ربما لا تقل أهميـــة عن آثار مصر وبابل ، قد طمرتها الرمال فى اليمن والحجاز وغيرهما ، عليهـــا نقوش حميرية مكتوبة بالقلم المســـند أو نقوش آراميـــة مكتوبة بالقلم النبطى أو غيره ، لو أتيح كشفها ودرسها لانجلى تاريخ العرب القديم انجلاء حسنا كما انجلى تاريخ الفراعنة وتاريخ بابل واشور . ولـــكن الوصول الى تلك الصحارى القاحلة شـــاق وفيه خطر ، على أن ذوى الهمة والغيرة من أهل أوربا لم يدخروا وســـعا فى كشف ما تيسر من الآثار فى أنحاء مختلفة من بلاد العرب شمالا وجنوبا ، فأوضحوا كثيرا من خفايا ذلك التاريخ وكشفوا أسماء ملوك ودول لم يكن العرب ولا اليونان يعرفونها . ولايضاح ذلك نذكر تاريخ التنقيب عن تلك الآثار ونقسم الكلام فيها الى قسمين : آثارالجنوب باليمن وحضرموت ، وآثار الشمال فى الحجاز ومشارف الشام

آثار اليمن وحضرموت

الفضل الاكبر فى فتح طريق الاكتشاف ببلاد العرب للألمان من أواســـط القرن الثامن عشر . وكان السبب فى ذلك أن الافرنج فى أسفارهم الى الهند عن طريق البحر الاحمر ومصر ، ســـمعوا ما يتناقله أهل شـــواطىء اليمن وحضرموت عن آثارالابنية المدفونةفى رمال تلك البقاع ، وعليها كتابة لـــم يستطع اليهود ولا العرب قراءتها . وأول من خطر له تحقيق ذلك والبحث فى تلك الآثار وقراءتها عالم المانى اسمه ميخايلس ، من أسرة عريقة فى العلم والفلسفة واللاهوت ، ولد فى هال سنة ١٧١٧ ، وتوفى سنة ١٧٩١ ، وكان فيه ميل الى نبذ التقاليد والعمل بأحكام العقل والبحث عن الحقائق ، ويعدونه الحلقة الموصلة بين أهل التقليد وأهل النظر . وانتقل سنة ١٧٤٦ الى جوتنجن وتعين أستاذا للفلسفة فيهـــا ، وظل هناك حتى مات . ولـــكنه كان كثير العلائق بسائر الممالك بما حازه من الشهرة العلمية ، وقد قربه الملوك والامراء فمنحه ملك السويد رتبة « فارس » . وكان كثير العناية فى البحث عن آثار التوراة ، فبلغ مســـامعه ما يتناقله النـــاس عن بلاد اليمن ، فاقترح على فريدريك الخامس ملك الدنمارك سنة ١٧٥٦ ، تشكيل لجنة تذهب لارتياد تلك البقاع ، فأجاب اقتراحه وأمره بتشكيلها . فشكلها من خمسة علمـــاء

برئاسة كارستن نيبوهر ، وجعل غرض تلك الرحلة تحقيق بعض المسائل المتعلقة بالتوراة ، من حيث الجغرافية وعادات الشرق والمحصولات الوارد ذكرها فى التوراة ، وبعض الاوبئــة التى كانت وما زالت تفد على الشرق ونحو ذلك

تشكلت اللجنة من الاساتذة فون هافن عالم باللغات الشرقية ، وفورسكال عالم بالتاريخ الطبيعى ، والدكتور كرامر طبيب الوفد ، وبورنفايند الرســام الحفار ، وأخيرا نيبوهر الجغرافى . فأقلع الجماعة من كوبنهاجن فى أول سنة ١٧٦١ ، فمروا بأزمير ، فالآستانة وعرجوا بمصر ومنها بالبحر الاحمر الى اليمن ، فوصلوها فى آخر سنة١٧٦٢ . وفى أواسط السنة التاليــة توفى فون هافن فى مخا ، وفورسكال فى ريم ، فشق ذلك على الباقين واعتقدوا فساد اقليم اليمن ، وخافوا على أنفسهم فظلوا فى طريقهم الى بومباى . فتوفى فى ذلك الطريق بورنفايند ، ثم كرامر سنة ١٧٦٤ فى بومباى ، ولم يبق الا نيبوهر فلم يتمكن من الايغال فى بلاد اليمن . ولما رجع كتب فى رحلته كتابا وصف فيه ما شاهده أو سمعه عن بلاد العرب ، طبع غير مرة ونقل الى معظم لغات أوربا، وهوأول كتاب يبحث فى آثار العرب القدماء، ومن جملة ما قاله : « ان مدينتى ظفار وحدافة فيهما نقوش لا يقدر اليهود ولا العرب على قراءتها » (*)

وفى أوائل القرن التاســع عشر وفق شــامبليون الفرنسى الى حــل الهيروغليفية ، فتعلقت آمال المستشرقين بحل كتابة اليمن ، وأخذت الحمية المستشرق الالمانى زتسن فسافر الى اليمن سنة ١٨١٠ ، مستضيئا بما قاله نيبوهر ، فلم يجد فى حدافة ولكنــه عثر فى ظفار على ثلاثة نقوش نســخ واحــدا منها ونقل الآخرين ، ورجع الى مخا فوجد هناك خمسة نقوش لم يستطع نسخ غير اثنين منها ، ونظرا لتسرعه فى النقل لم يستفد العلماء من نعبه . وشاع ذلك فى أهل الرحلة ، فأصبح الضــباط الانجليز المسافرون الى الهند اذا مرت سفنهم بشواطىء اليمن بحثوا فى آثارها ، فعثر ضابط منهم اسمه ولستد سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية فى صخر من بقايا قلعة يقال لها حصن غراب ، واهتم العلماء بقراءة ذلك النقش فذهبوا فيه كل مذهب ، ولم يضبطوا قراءته الا بعد أعوام

وكان مع ولستد على تلك الباخرة ضابط اسمه كروتندن ، وجــد فى صنعاء بضعة نقوش قيل له انها محمولة من خرائب مأرب التى كان فيهــا الســد المشهور ، ووقف غير هؤلاء على أمثال هــذه القطع مما لا أهميــة

(*) Carsten Niebuhr, Riesebeschreibung nach Arabien und andern umliegenden Laendern Koepenhaven 1772-1838 2 vols.

كبرى لها . فالبادىء بالتنقيب عن آثار اليمن الالمان ثم الانجليز ثم أتى دور الفرنسيين ، وكانت خدمتهم أوسع مجالا وأكثر ثمرا . وأول من أقدم على ذلك ارنو ، اخترق أواسط اليمن سنة ١٨٤٣ ، وعاد ومعه ٥٦ نقشا نقلها عن آثارصنعاء والخريبة ومأربوحرم بلقيس . وكان أرنو صيدليا لامام صنعاء ، وله معرفة بالمسيو فرسنل قنصل فرنسا بجدة ، فأشار فرسنل عليه أن يذهب لاكتشاف آثار مأرب ، التى يتحدث الناس بأخبارها وهى من عواصم مملكة اليمن الكبرى ، فأطاعه واصطحب قافلة أظهر لرجالها الفقر والمسكنة ، فقاسى فى تلك الرحلة مر العذاب من الخوف والتعب ؛ لانهم كانوا يكلفونه ما لا طاقة به ، ثم استفشوه واختلفوا فى ماهيته ولم يتركوا له فرصة ينسخ فيها النقوشأو يطبعها ، فكان يفعل ذلك سرا تحت خطر القتل . وقد أثر الاقليم فى عينيه فأصيب برمد ذهب ببصره ، فعاد الى صنعاء اعمى ، فأرسل ما كان قد نسخة الى صديقه فرسنل . وقد نشرت أخبار تلك الرحلة ونقوشها بالمجلة الآسيوية فى عدة أجزاء منها . وفى بعض هذه الاجزاء خريطة سد مأرب ، وهو أول من تمكن من مشاهدة آثار ذلك السد . وقد حل نقوش أرنو التى نحن فى صددها المستشرق أوسياندر الشهير سنة ١٨٤٥ (*)



وتكاثرت النقوش عندهم ، ولكنهم لم يكتفوا بما حلوه منها فتشكلت للعمل فى هذا السبيل جمعية الآثار السامية وجعلت من أهدافها تكوين « مجموع للنقوش السامية » واهتم وزير المعارف فى باريس بارسال المستشرق يوسف هاليفى سنة ١٨٦٩ م ، فى الطريق الذى مشى فيه ارنو قبله ، فسار حتى بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨٠ نقشا ، أكثرها لسوء الحظ منقول بأحرف عبرانية فقلل ذلك من اهميتها . وانما اضطر هاليفى لنقلها على هذه الصورة التماسا للسرعة ، وخوفا من مفاجأة العرب له وهو ينقل أو يرسم . وكان اذا رأى نقشا وأراد نقله تظاهر بالرقاد أو احتال باظهار الصلاة ونقل ما ينقله خلسة . واكتشف هاليفى فى رحلته هذه بلاد الجوف التى مر بها اليوس غالوس الفاتح الرومانى ، ولم يكن الجغرافيون يعرفونها ولا يعرفها اهل صنعاء انفسهم مع قربها منهم . وارتحل من الجوف الى نجران ، واكتشف « معين » عاصمة دولة المعينيين التى ذكرها اليونان بين دول اليمن ، والعرب لا يعرفونها ، وسيأتى تفصيل خبرها . وقرأ فى النقوش

(*) Joseph Arnaud : Rélation d'un voyage à Mareb dans Journal Asiatique, 1948-1874.

التى اكتشفها أسماء عدد غفير من ملوك اليمن وآلهتهم وبلادهم وقبائلهم لم يكن معروفا من قبل (*)

ثم عاد الالمان الى الاهتمام بآثار اليمن مثل اهتمامهم بسائر أحوال الشرق ، وأكثرهم عناء فى خدمة هذه الآثار ادوارد جلازر فقد ارتاد اواسط اليمن مرارا وصل فى بعضها الى مأرب نفسها ، وهو ثالث افرنجى وطئها وتفقد آثارها وعاد سالما . وقد نقل معه نحو ألف نقش منها ومن غيرها ، بينها نقوش فى غاية الاهمية بعضها تاريخى يذكر بناء سد مأرب واصلاحه وبعضها غير ذلك ، ولم ينشر منها الا القليل . وألف كتابا فى تاريخ بلاد العرب القديمة وجغرافيتها ، لم ينشر منه الا الجزء الثانى وهو القسم الجغرافى سنة ١٨٩٠ ، والناس فى شوق عظيم للاطلاع على سائر النقوش وعلى القسم التاريخى من كتابه . على أنه ألف كتبا أخرى عن الحبشة وغيرها كلها بحث ودرس (**)

وحاول الوصول الى مأرب جماعة غير هؤلاء الثلاثة فماتوا فى الطريق ؛ منهم هوبر الفرنسى ، ولانجر النمساوى (١) . ومن الانجليز الذين ارتادوا جنوبى جزيرة العرب ثيودور بنت ، كشف فى حضرموت آثارا هامة ، وكذلك هريس وغيره « ٢ »

ففى متاحف أوربا ومكاتبها الآن عدد كبير من آثار اليمن ، بعضها منقوش على الحجر او البرونز فى ألواح أو أحجار، وبعضها منقول بالرسم أو الطبع يزيد عددها على ألفين ، نشر منها جانب كبير فى المجلات الشرقية الالمانية والفرنسية والانجليزية ، واشهر الذين اشتغلوا فى حلها اوسياندر وهاليفى ومورتمان ومولر وجلازر وديرنبورج وهومل . ولهذا الاخير كتاب باللغة الالمانية فى نحو اللغة المعينية والسبأية (الحميرية) وصرفها وقراءتها جزيل الفائدة

آثار شمالى جزيرة العرب

أما شمالى جزيرة العرب فقد أصابه مثل حظ الجنوب ، من حيث اهتمام المستشرقين بارتياده ، فعثروا فيه على آثار هامة ، ووقفوا على بقايا دولة الانباط التى لا يعرف العرب عنها شيئا . ولها فى تاريخ اليونان ذكر كثير ،

(*) Joseph Halévy, Voyage, dans Bulletin de la Société de la géographie 1873 et 1877.

— Rapport sur une mission archéologique dans le Yemen, dans J. A. Série 6 vol. XIX 1874.

(**) Eduard Glaser, Reise nach Marib in Mitteibungen der vordenasiatischen Gesellschaft (Beilage der Allgemeinen Zeitung) Berlin 1888 Num. 293

(١) Dussaud 35 (٢) Ency. Br. art. Arabia

وكتابتها تعرف بالنبطية وجدوا منها نقوشا كثيرة على آثار بطرا مدينة الانباط وآثار الحجر مدينة ثمود (مدائن صالح) . واكتشفوا فى العلا وحوران وغيرهما آثارا عليها نقوش بالمسند (الخط الحميرى) مع بعض التغيير فسموه بأسماء اصطلحوا عليها ، منها الآثار الصفوية فى جبل الصفا بحوران ، واللحيانية والثمودية فصلا عن آثار تدمر وغيرها مما سيأتى تفصيله فى مكانه

وأشهر الذين ارتادوا شمالى بلاد العرب أو اكتشفوا آثاره أو قرأوا نقوشه بوركهارت ، وجراهام ، ووتزشتاين ، وبلجراف ، وفوجه ، ووادنتن ، ودوتى ، وأوبتن ، وبلنت ، ودوسو ، فضلا عن هاليفى ، ومولر ، وليتمن ، وهومل ، وديرنبورج ، وغيرهم من الذين اشتغلوا بأحوال اليمن . والآثار التى اكتشفها هؤلاء وغيرهم فى شمال جزيرة العرب ليست عربية وانما هى سامية ، بعضها فينيقى ، والبعض الآخر آرامى عثروا عليها فى فينيقية ، ومواب ، وزنجرلى ، وتيماء ، وفى بطرا ، والعلاء ، والحجر ، والصفا ، وبصرى ، وتدمر

وأقدم النقوش التى اكتشفوها فى هذه الاماكن لا يتجاوز تاريخها القرن التاسع قبل الميلاد ، وأحدثها فى القرن الثالث بعده . وهى مكتوبة بأقلام مختلفة ، أشهرها الفينيقى ، والآرامى ، والنبطى ، والتدمرى ، والمسند . وأكثرها أدعية أو أخبار محلية وقتية أو دينية ، قلما افادت التاريخ على اجماله الا من حيث ورود أسماء بعض الملوك أو القواد أو الآلهة التى تساعد على تحقيق الحوادث المدونة فى الكتب

وبالجملة ان ما اكتشفوه من الآثار المنقوشة فى بلاد العرب — على قلة وسائط الاكتشاف — قد أوضح كثيرا من الحقائق التاريخية وذكر دولا وحوادث لم يذكرها التاريخ العربى ولا اليونانى

المصادر المنقوشة خارج بلاد العرب

ونريد بها آثار بابل ، وأشور ، ومصر ، وفينيقية ، وقد يتبادر الى الذهن أن هذه الآثار بعيدة عن أحوال العرب وتاريخهم ، ولكنهم وقفوا فى آثار بابل على نقوش بالحرف المسمارى ، استفادوا منها كثيرا عن تاريخ العرب القديم على عهد العمالقة أو العرب البائدة ، مما لم يذكره العرب ولا اليونان ولا وجدوه فى نقوش بلاد العرب باليمن أو الحجاز أو غيرها . فاستدلوا مثلا من قراءة آثار بابل واشور على تأييد ما ذكره بروسوس مؤرخ تلك الدول من قيام دولة عربية تولت بابل بضعة قرون فى الالف الثالث قبل الميلاد . وآثار مصر أيدت سيادة العمالقة على مصر نحو ذلك الزمن على ما سنفصله فى مكانه . فضلا عما كان من اكتساح المصريين والاشوريين لبلاد العرب بعد ذهاب سيادة هؤلاء عن ذينك البلدين

الخلاصة

فقد عولنا فى تأليف هذا الكتاب على ما كتبه العرب بعد تمحيصه وتنقيحه ، وعلى ما جاء فى التوراة ، وما كتبه اليونان والرومان ، وما استخرجه علماء الآثار من قراءة النقوش فى بلاد العرب جنوبا وشمالا وما استخرجوه من آثار بابل واشور ومصر الى هذا العام (١٩٠٨) — لم نغادر كتابا يبحث فى شيء من ذلك بالعربية أو الانجليزية أو الفرنسية أو الالمانية الا طالعناه وتفهمناه ، وهذه أهم الكتب التى استعنا بها فى تأليف هذا الكتاب نذكرها بحسب لغاتها ونرتبها باعتبار الابجدية :

اولا — الكتب العربية

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته		
الأغانى ، ٢٠ جزءاً	أبو الفرج الأصفهانى	بولاق	١٢٨٥	هـ
تاريخ سنى الملوك	حمزة الأصفهانى	ليبسك	١٨٤٨	م
» الأمم والملوك ، ١١ ج	الطبرى	ليدن	١٨٨٥	»
» اليعقوبى	ابن واضح اليعقوبى	»	١٨٨٣	»
السيرة النبوية ، ٣ ج	ابن هشام	بولاق	١٢٩٥	هـ
صفة جزيرة العرب	أبو محمد الهمدانى	ليدن	١٨٨٤	م
طبقات الشعراء	ابن قتيبة	»	١٩٠٢	»
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ ج	ابن خلدون	بولاق	١٢٨٤	هـ
العقد الفريد ، ٣ أجزاء	ابن عبد ربه	مصر	١٣٠٥	»
الكامل ، ١٢ جزءاً	ابن الأثير	»	١٣٠٢	»
»	المبرد	»	١٢٨٦	»
كتاب الاشتقاق	ابن دريد	جوتنجن	١٨٥٤	م
» البدء والتاريخ ، ٤ ج	البلخى	شالون	١٩٠٧	»
» المعارف	ابن قتيبة	مصر	١٣٠٠	هـ
لطائف المعارف	الثعالبى	ليدن	١٨٦٧	م
المختصر فى أخبار البشر ، ٥ ج	أبو الفداء	القسطنطينية	١٢٨٦	هـ
مروج الذهب ، جزآن	المسعودى	مصر	١٣٠٤	»
المشترك وضعا	ياقوت الحموى	جوتنجن	١٨٤٦	م
معجب البلدان ، ٦ أجزاء	»	ليبسك	١٨٧٠	»
معجم ما استعجم ، جزآن	البكرى	جوتنجن	١٨٧٧	»
نهاية الأرب فى قبائل العرب	القلقشندى	خط		
هيرودوتس	هيرودوتس	بيروت	١٨٨٧	»

ثانيا ــ الكتب الانجليزية

Alexander, Biblical Literature, 3 vol.,	Philadelphia,	1866
Babylonian Expedition, vol. III	»	1905
Bent, The Sacred City of the Ethiopians,	London,	1893
Browne, Literacy Hist. of Persia, 2 vol.	»	1906
Brugsch Bey, History of Egypt under the Pharaohs, 2 vol.	»	1881
Burton, The Land of Midian,	London	1879
» The Gold mines of Midian,	»	1878
Clane, Library of Universal History, 8 vol.,	New-York,	1897
Clay, Light on the Testament from Babel,	London,	1907
Cooke, North Semitic Inscriptions,	Oxford,	1903
Doughty, Travels in Arabia Deserta,	Cambridge,	1888
Edwards, The Hammurabi Code,	London,	1904
Forster, Historical Geography of Arabia, 2 vol.,	»	1844
Gibbon, Roman Empire, 2 vol.,	»	
Harris, Journey through the Yaman,	London,	1893
Heeren. Historical Research, II,	Oxford,	1833
Hill, With the Bedwins,	London,	1891
Josephus, Antiquities of the Jews,	»	
Journal of the Royal Asiatic Society, several volumes,	»	1834-1907
King, Egypt and Western Asia in the light of recent discoveries,	»	1907
Margoliouth, Mohamed & the Rise of Islam,	»	1905
Maspero, The Dawn of Civilisation in Egypt & Chaldoe,	»	1894
Merril, East of the Jordan,	New York,	1881
Nicholson, Literacy Hist. of the Arabs,	London,	1907
Old Testament and Semitic Studies, 2 vol.,	Chicago,	1908
Palgrave, Personal Narrative of a year's Journey, through Central and Eastern Arabia,	London,	1873
Plate, Ptolemy's knowledge of Arabia,	»	1845
Rawlinson, Five great Monarchies, 4 vol.,	»	1867
Redhouse, Were Zenobia and Zebba'u Identical? (J.R.A.S.)	»	1887
Sharpe, History of Egypt, 2 vol.,	»	1885
Sprenger, The Campaign of Aelius Gallus (J.R.A.S.)	»	1873
Smith, Dictionary of the Bible, 8 vol.,	New York,	1868
Universal History, vol. XVIII,	London,	1749
Wellsted, Travels in Arabia, 2 vol.,	»	1838
Wilkinson, The Ancient Egyptians, 2 vol.,	»	1878

ثالثا ــ الكتب الفرنسية

Arnaud, Plan de la Digue et de La Ville de Mareb
J. A. 7me Série, IV — Paris — 1874

Arnaud, Relation d'un voyage à Mareb,
J. A. 4ème Série, V — » — 1845

Berger, Histoire de l'Ecriture dans l'Antiquité, — » — 1891
» l'Arabie avant Mohamed d'après les Inscriptions — » — 1885

Desvergier, Histoire de l'Arabie, — » — 1847

Dussaud, Les Arabes en Syrie avant l'Islam, — » — 1907

Duval, La littérature Syriaque — » — 1900

Ganneau, La Province romaine de l'Orient, (Et. Arch. Ar., II) — » — 1897

Gaeje, Hadramut, Revue Coloniale Internationale, II, — » — 1887

Halévy Etudes Sabéennes, J.A. 7me Série, I, II, IV, Paris — » — 1873—74
» Essai sur Les Inscriptions du Safa,
J. A. 7me S. X. XVII, Paris — 1877—81

Journal Asiatique, plusieurs volumes, — » — 1822-1907

Labourt, Le Christianisme dans l'Empire Perse, — » — 1907

Lenormant, Manuel de l'Histoire Ancienne de l'Orient, 3 vol., — » — 1869

Maspero, Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient, 3 vol., — » — 1863

Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes, 3 vol., — » — 1847

Renan, Histoire des Langues Sémitiques, — » — 1855

Strabon, Géographie, 4 vol., — » — 1886

Vogüé, Syrie centrale, 3 vol. — » — 1877

Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, 2 vol., — » — 1798

رابعا ــ الكتب الالمانية

Blau, Die Wanderung der Sabaeischen Volkerstamme (Z. D. M. G.) — 1868

Baedeker's Palastina und Syren, — Leipzig, — 1901

Brunnow & Pomarzauski, Die Pronvincia Arabia, 3 vol., — Strasburg, — 1906

Euting, Nabataische Inschriften aus Arabien, — Berlin, — 1881

Glaser, Der Damme von Marib, O. M. O. XXIII, — 1897
» Abessiner in Arabien & Africa, — München, — 1895
» Skizze der Geschichte und Geographie
Arabiens von den altesten Zeiten, Band II, — Berlin, — 1890
» Südarabische Streifragen, — Prag, — 1887
» Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Marib,
(Mith. Vordas Ges.), — 1887

Grimme, Weltgeschichte in Karakterbilden, Mohamed — München, — 1904

Hommel, Südarabische Chrestomatie, — 1893

Der Gestirn diens den alten Araber & die alter Rachitische » 1901
Kremer, Die Südarabische Sage, Leipzig, 1866
Lidzbarski, Handbuch der Nordesemitische Epigraphik, Weimar, 1893
Mordtman, Himjarische Inschriften und altertümer in den Kon. Mus., Berlin, 1893
Müller Die Burgen und Schlosser Südarabiens nach dem Jklil des Hamandani, 2 heft, Wien, 1881
» Südarabische Altertumer in kunthistorischen Hohemuseum, Wien, 1899
Nielson, Die altarabische Mondreligion und die Musaische Uberlieferung Strasburg, 1904
Noeldeke, Die Ghassanische Fürsten ans dem Hause Gafna's, Berlin, 1887
Rothstein, die Dynastie der Lahmiden in Alhira, » 1891
Sprenger, Die alte Geographie Arabiens, Bern, 1873
Wellhausen, Reste Arabischen Heidentum, Berlin, 1897
Weber, Arabien vor dem Islam, Leipzig, 1901
Wustenfeld, Genea. Tab. der Arabischen Stamme und Familien, Gottengen, 1852
Zeitschrift Der D. M. Gesel. Berlin, 1845—1907



هــذه أهم الكتب التى استعنا بها فى تأليف القسم التاريخى من هــذا الــكتاب ، فضلا عما رجعنا اليه من الموسوعات والمعاجم الــكبرى التاريخية والاثرية وغيرها

وسنشير فى ذيل الصفحات الى بعض هذه المصادر ، ونكتفى غالبا بذكر اسم المؤلف الا اذا كان اسم الــكتاب غالبا على شهرة مؤلفه فنذكر اسم الكتاب ، واذا كان له غير كتاب ذكرنا بجانب اسمه ما يميز أحدها من الآخر

فبعد أن طالعنا هــذه الــكتب وتفهمناها وقابلنا بينها ، تمثل لنا تاريخ العرب قبل الاسلام على شكل بسطناه فى هذا الــكتاب ، ربما خالف ما ذهب اليه سوانا فى بعض الاحوال ، ولا سيما فى التاريخ القديم لقلة النصوص الصريحة ، فعولنا على الاستنتــاج والقياس ، ومتى زادنا البــاحثون من استخراج آثار بلاد العرب ، وبابل ، واشور ، يزداد هذا التاريخ وضوحا .. لأن الباقى تحت الرمال من تلك الآثار أكثر كثيرا مما كشفوه ، لكثرة الاعاصير السافية فى جزيرة العرب التى تقذف الرمال الى الاودية فتتراكم فيها بتوالى الاعوام حتى تجعلها سهولا . وكل ما وصل الينا خبره من انقاض تلك البلاد وجدوه ظاهرا على القمم التى لم تغطها الاعاصير .. فما قولك اذا نقبوا عما فى السهول والاودية ؟.. وقد يكون ما يكتشفونه ناقضا لبعض ما ذهبنا اليه فيصلح فى حينه (*)

(*) سنضيف ماظهر بعد ذلك من المراجع فى مواضعه من هذه الطبعة

جغرافية بلاد العرب

حدودها

اذا أريد ببلاد العرب جزيرتهم فقط ، فحدودها الطبيعية أربعة : شرقى شمالى يبدأ فى الجنوب بخليج فارس من شواطىء عمان فالبحرين الى مصب الفرات ودجلة ثم على طول الفرات الى أعالى سوريا ، وغربى شمالى يمتد من الفرات شرقى سوريا وفلسطين الى خليج العقبة ، وشرقى جنوبى على طول البحر الاحمر الى باب المنــدب ، وجنوبى غربى هو بحر العرب على شواطىء اليمن وحضرموت والشحر الى شواطىء عمان

أما العرب فكانوا يدخلون فى جزيرتهم برية سيناء وفلسطين وسوريا ، فحدودها عندهم تبدأ من قنسرين فى الشمال على شاطىء الفرات وهو رأس حدها الشرقي ، ويمتد مع الفرات فى مسيره جنوبا شرقيا حتى يصب فى البحر عند البصرة والابلة ، ومنها على شاطىء خليج فارس مطيفا على سفوان والقطيف وهجر وأسياف البحرين وقطين وعمان ، ثم ينعطف غربا جنوبيا بشواطىء بحر العرب على الشحر وحضرموت الى عدن ، وينعطف شمالا غربيا على شواطىء البحر الاحمر الى خليج أيلة وســاحل راية الى القلزم (السويس) ومنها الى بحر الروم ، ويسير فيه على شواطىء فلسطين وسوريا فيمر بسواحل عسقلان والاردن وبيروت الى قنسرين حيث بدأ . فهى عندهم تشتمل على شبه جزيرة سينا وفلسطين وسوريا ، وذلك أقرب الى التحديد الطبيعى لأن الاصل فى الحدود ان تكون أنهرا أو أبحرا أو جبالا عالية

على أننا اذا أردنا بجزيرة العرب البــلاد التى كان يسكنها العرب على الاطلاق فنرى حــدودها تختلف باختلاف الاعصر والدول ، فقــد كانت فى الزمن القديم تمتد من ضفاف الفرات غربا الى ضــفاف النيل ، لأن بعض قبائلهم كانت على عهد الفراعنة تضرب خيامها فى البادية بين النيل والبحر الاحمر . وكان المصريون من قديم الزمان يعتبرون كل ما هو شرقى بلادهم الى حدود بابل بلادا واحدة يسكنها العرب على ما سنبينه فى ما يلى . ونكتفى الآن بالحدود المعروفة ، وهى الفرات من قنسرين فخليج فارس فبحر العرب فالبحر الاحمر فخليج العقبة فحدود فلسطين وسوريا الى الفرات

اقسامها

واختلفت اقسامها أيضا باختلاف الاعصر ، فكانوا يقسمونها قديما ـــ

باعتبار طبائع اقاليمها — الى البادية فى الشمال والحاضرة فى الجنوب . والبادية تشمل القسم الشمالى من تلك الجزيرة ، من مشارف الشام الى حدود نجد والحجاز . والقسم الجنوبى يشمل سائر جزيرة العرب ، وفيها الحجاز ونجد واليمن وغيرها . ثم اضاف اليونان الى هذين القسمين — قسما ثالثا سموه العربية الحجرية — أو بلاد العرب الصخرية Arabia Petra نسبة الى بطرا فى وادى موسى جنوبى فلسطين ، فأصبحت بلاد العرب عند بطليموس القلوذى ثلاثة أقسام : البادية — بلاد العرب الصخرية Arabia Petra وبلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta ، وبلاد العرب السعيدة Arabia Felix . ومما ذكره بطليموس من مدنها فى ذلك العهد : تيماء وحويلة ودوماتة (دومة الجندل) واورانا (حوران) وغيرها فى البادية ، وبطرا وبصرى وجرش وعمان واذرع وليزا وغيرها فى العربية الحجرية ، وسبأ ومأرب وظفار وحضرموت وعمان والحجر وغيرها فى العربية السعيدة . غير ما ذكره من أسماء القبائل والامم ، ومنها ما لم يعرفه العرب — وظل تقسيم بطليموس مرعيا فى أوربا الى عهد غير بعيد

أما العرب فيقسمونها الى اقسام طبيعية باعتبار المواضع وأقاليمها . وأساس تقسيمها عندهم جبل السراة وهو أعظم جبال جزيرة العرب ، عبارة عن سلسلة جبال تبدأ فى اليمن وتمتد شمالا الى أطراف بادية الشام ، فتقسم جزيرة العرب الى شطرين : غربى وشرقى . فالغربى — وهو أصغرهما — ينحدر من سفح ذلك الجبل حتى يصل الى شاطىء البحر الاحمر ، وقد صار هابطا أو غائرا فسموه الغور أو تهامة . والقسم الشرقى أكبرهما ، يمتد شرقا وهو على ارتفاعه مسافة طويلة الى أطراف العراق والسماوة ، فسموه نجدا لذلك السبب . وسموا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد « الحجاز » وهو جبال تتخللها المدن والقرى . وجعلوا ما تنتهى به نجد فى الشرق حتى يصل الى خليج فارس بلاد اليمامة والبحرين وعمان وما والاها ، ويسمونها العروض . وسموا القسم الجنوبى وراء الحجاز ونجد بلاد اليمن وحضرموت والشحر

فجزيرة العرب تقسم بهذا الاعتبار الى خمسة اقسام كبرى : الحجاز ، وتهامة ، ونجد ، والعروض ، واليمن . وكلٌ منها يقسم الى اقسام اختلفت اسماؤها وحدودها باختلاف الاعصر والدول : فالحجاز يشمل كلَّ شمالى جزيرة العرب والطائف وجدة وينبع وغيرها . واليمن يشمل معظم بلاد الجنوب ويعدون حضرموت والشحر منها وأشهر مدنها الآن صنعاء وشبوة وغيرهما . وتقسم اليمن الى مخاليف — واحدها مخلاف — وسنعود الى ذلك فى أثناء تاريخها

العرب

اذا قلنا « العرب » اليوم أردنا سكان جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والسودان والمغرب ، أما قبل الاسلام فكان يراد بالعرب سكان جزيرة العرب فقط ، لأن أهل العراق والشام كانوا من السريان والكلدان والانباط واليهود واليونان ، وأهل مصر من الاقباط ، وأهل المغرب من البربر واليونان والوندال ، وأهل السودان من النوبة والزنوج وغيرهم . فلما ظهر الاسلام وانتشر العرب فى الارض توطنوا هذه البلاد وغلب لسانهم على السنة أهلها فسموا عربا

أما فى التاريخ القديم — على عهد الفراعنة والاشوريين والفينيقيين — فكانوا يريدون بالعرب أهل البادية فى القسم الشمالى من جزيرة العرب وشرقى وادى النيل ، فى البقعة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب (١) ، ويدخل فيها بادية العراق والشام وشبه جزيرة سينا وما يتصل بها من شرقى الدلتا والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الاحمر . وكان وادى النيل هو الفاصل الطبيعى بين ليبيا فى الغرب وبلاد العرب فى الشرق . وكان المصريون يسمون الجبل الشرقى الذى يحد النيل فى الشرق جبل العرب أو بلاد العرب ، ويسمون الجبل الغربى جبل ليبيا

ولفظ « عرب » فى التاريخ القديم كان يرادف لفظ « بدو » أو « بادية » فى هذه الايام ، وهو معنى هذا اللفظ فى اللغات السامية ، ومنها ערב فى اللغة العبرانية « البادية » يقابلها فى اللغة العربية « العرابة » فى وادى موسى ، والاعراب سكان البادية خاصة ولا مفرد لها . على أن العرب كانوا يسمون جزيرتهم «عربة» (٢) ولما تحضر بعض قبائل العرب قديما واقاموا فى مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها ، لم يعد لفظ « العرب » محصورا فى « البدو » ، فتنوع معناه كما تنوع مسماه ، فاضطروا الى كلمات تميز بين الحالين ، فاستعملوا لفظ « الحضر » لأهل المدن و « البدو » لاهل البادية . ولم يبق للفظ « العرب » من معنى البداوة الآن الا فى مثل قولهم اعرابى كما تقدم . وكان السبأيون (دولة سبأ) الى تاريخ الميلاد اذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا : « القبيلة الفلانية واعرابها » . وكان أولئك العرب أو البدو سكان تلك البادية فى شمالى جزيرة العرب يقسمون الى قبائل

---

(١) هيرودوتس ١١٢

(٢) ياقوت ٦٣٣ ج ٣

وبطون وعشائر ، كما كان حالها قبل الاسلام وبعده

أما جنوبى جزيرة العرب ، بين خليج فارس والبحر الاحمر ، فكان اليونان القدماء يعدونه من أثيوبيا (الحبشة) فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس اقليما واحدا يسمونه « أثيوبيا آسيا » (١) وسكانه أمم وقبائل تعرف بأسماء خاصة بها كالسبأيين والحميريين والمعينيين وغيرهم كما سيأتى

وما لبث اليونان أن استبدوا بالتمدن الشرقى (*) ، واقاموا فى الاسكندرية على عهد البطالسة حتى غيروا تلك الاسماء واطلقوا على الجزيرة كلها اسم بلاد العرب ، وقسموها الى أقسامها الثلاثة التى تقدم ذكرها . ثم قسمها العرب الى خمسة اقسام وسموا أهلها على الاجمال عربا ، باطلاق الجزء على الكل ، كما أطلق الجغرافيون لفظ « آسيا » على قارة آسيا وكانوا يريدون بها على عهد اليونان آسيا الصغرى ، واطلقوا افريقيا على القارة كلها وكانت اسم جزئها الشمالى فقط . ولنفس هذا السبب أطلق اليونان على أهل جزيرة العرب لفظ ساراسين Saracen وهو اسم قبيلة من سكان أعالى الجزيرة يظن بعضهم أنها منحوتة من « الشرقيين » لأن تلك القبيلة كانت تقيم فى شرقى جبل السراة (٢) ولذلك أيضا يعرف العرب عند السريانيين باسم « طاية » نسبة الى طيىء احدى قبائلهم . وعلى هذا القياس يسمى العرب أهل أوربا « افرنج » وهو فى الاصل اسم أمة منهم هم « الفرانك ». ويعرف السوريون اليوم بأسماء تختلف باختلاف المهاجر ، فهم يسمون فى الآستانة « حلبية » لان اقدم من نزح اليها منهم الحلبيون ، ويسمون فى العراق «البيارتة» نسبة الى بيروت ، وفى مصر « الشوام » نسبة الى الشام لان أهلها أقدم من هاجر الى مصر من السوريين

من هم العرب ؟
وأين هو مهد الساميين ؟

اصطلح المؤرخون فى هذا العصر أن يسموا الشعوب التى تتفاهم بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية ــ والتى كانت تتفاهم بالفينيقية والاشورية والآرامية ــ « شعوبا سامية » نسبة الى سام بن نوح ، لان هذه الامم جاء فى التوراة أنها من نسله ، وسموا لغاتهم اللغات السامية . ولا خلاف فى أن هذه اللغات متشابهة فى الفاظها وتراكيبها ، وانها من أصل واحد يسمونه « اللغة السامية» ،كما تتشابه فروع اللغة اللاتينية أوفروع السنسكريتية ، فيقال مثلا ان اللغتين الايطالية والاسبانية أختان أمهما اللغة اللاتينية ، وان الفارسية والاوردية أختان أمهما السنسكريتية ، كما يقال أن لغات العامة فى

---

(١) Rawlinson, 1, 61
(٢) Glaser, Geo. 11, 230

(*) أى غلبت حضارتهم على حضارات شعوب الشرق

الشام ومصر والمغرب والحجاز أخوات أمهن اللغة العربية الفصحى . فهـذه الامهات لا تزال محفوظة يمكن رد بناتها اليها ، اما أم اللغات السامية فلا وجود لها الآن ، وقد ظن بعض فلاسـفة اللغة انها العبرانيـة ، وزعم غيرهم أنها العربية ، وغيرهم انها البابلية ، ولا تخرج أقوالهم عن حد التخمين

واختلفوا أيضا فى موطن الساميين الاصلى ، ولهم فى ذلك أبحاث طويلة لا فائدة من ايرادها . ويقال بالاجمال انها ترجع الى اثنين ــ الاول : رأى أصحاب التوراة أن مهد الانسان فى ما بين النهرين ومنه تفرق فى الارض ، فاشتق من الساميين الاشوريون والبابليون فى العراق ، والآراميون فى الشام ، والفينيقيون على شواطىء سـوريا ، والعبرانيون فى فلسطين ، والعرب فى جزيرة العرب ، والاثيوبيون فى الحبشة . ومرجعهم فى اثبات ذلك الى أقوال التوراة . ولا يقول هذا القول من علماء هذا العصر الا قليلون (١)

ب

اما المستشرقون فنظروا فى ذلك باعتبار اللغات واشتقاقها ، فرأت طائفة منهم مشابهة بين اللغات السامية والحامية (لغات افريقيا) فذهبوا الى أن مهد الساميين فى افريقيا ، ونظرا لقرب الحبشة من بلاد العرب اقليما ولغة قالوا أن مهد الساميين الحبشة ، ومن أصحاب هذا المذهب سالت وريتر . وذهبت طائفة أخرى ــ وفى مقدمتها سبرنجر ، وشريدر ، وونكلر الالمانيون وروبرتسن سميث الانجليزى ــ الى أن مهد الساميين جزيرة العرب ، ومنها تفرقوا فى الارض كما تفرقوا فى صدر الاسلام . ولهم على ذلك أدلة وجيهة ، بعضها لغوى والبعض الآخر اجتماعى أو أخلاقى ، وتطرف بعضهم فى ذلك حتى حصروا ذلك المهد فى بادية الشـام الى نجد . ومن أدلتهم على صحة مذهبهم أن اللغة العربية أقرب أخواتها الى اللغة السامية الاصلية ، وان فى العبرانية والآرامية آثار الحياة البدوية وهى عربية

وذهبت طائفة أخرى ــ زعيمها اجنازيو جويدى المستشرق الايطالى ــ الى أن مهد الساميين فى جنوبى الفرات ، وأسند أقواله الى أسباب جغرافية طبيعية تتعلق بتفرق النبات والحيوان وأسمائها فى اللغات السامية . وتوسع آخرون فى آرائهم من هذا القبيل ، فقالوا ان أصـل الساميين فى الحبشة ، وانهم عبروا الى جزيرة العرب من بوغاز باب المندب الى اليمن قبل زمن التاريخ ، وتكاثروا هناك وانتقلوا من اليمن الى الحجاز ونجد والبحرين ، ثم نزحت طائفة منهم الى فلسطين وفيها الفلسطينيون القدماء ، وطائفة الى العراق واهل العراق يومئذ السومريون أو الاكاديون (٢) وهم طورانيون

---

(١) Ency. Brit. Art. Arabia & Dussaud, 18

(٢) Grimm, 10 & 14

(من جنس المغول) وقد تمدنوا وتحضروا ، وطائفة الى فينيقية ــ فغلب الساميون على تلك البلاد وانشأوا دول بابل واشور وفينيقية وفلسطين وغيرها . ويرى أصحاب هذا المذهب ان العبرانيين نزحوا من الحجاز ، والآراميين من نجد لان آرام معناها الجبال ونجد جبلية . ويستشهدون على صحة رأيهم بما ذكره هيرودوتس عن نزوح الفينيقيين فى الاصل من شاطىء خليج العجم

ويقال بالاجمال أن مسألة مهد الساميين لا تزال من المسائل الغامضة ، التى يجب تركها حتى تتسع معارفنا بما يكشفونه من الآثار العربية والاشورية والبابلية وغيرها . ومهما يكن من أمر ذلك المهد ، فان الامم التى تفرقت منه كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة هى اللغة السامية الاصلية ، ثم تغيرت تلك اللغة حسب الاقاليم وعلى مقتضى ناموس الارتقاء ، وتباعدت الفاظها وتراكيبها ولا تزال تشترك فى خصائص تميزها عن سواها من اللغات الآرية والطورانية (*)

البداوة غذاء الحضارة

فلندع البحث فيما هو قبل التاريخ ، ولنأت الى زمن التاريخ. فيظهر لنا أن أقدم الامم السامية التى تمدنت وخلفت آثارا هم البابليون، فقد تمدنوا فى الالف الثالث قبل الميلاد (١) وهو الزمن الذى نزح فيه الفينيقيون من خليج فارس الى سوريا (٢) على ما يظن . وكانت بابل بلاد حضارة وتمدن قبل ذلك الحين بأجيال وسكانها السومريون (٣) ، فأقام الساميون أولا فى غربيها ببادية العراق والشام ، وهم قبائل رحل يعيشون على السائمة والغزو مثل بدو هذه الايام هناك ، وكما كان بنو لخم وغسان فى صدر الاسلام . فكان السومريون يستعينون بهم فى محاربة أعدائهم ، كما كان الفرس والروم يستعينون باللخميين والغساسنة ، لان الغلبة كانت يومئذ للقوة البدنية . والحضارة تبعث على الرخاء والترف والانغماس فى الملذات والركون الى الراحة فتذهب تلك القوة وتؤول الى الضعف . والبداوة تقوى الابدان وتربى النفوس على الاستقلال ، فلذلك كان أهل الحضارة أو المدن يستعينون بأهل البداوة أو الجبال فيما يحتاج الى جهد . حتى اذا شاخت الدولة المتحضرة خلفها جيرانها البدو أو الجبليون بالفتح أو نحوه ، وقاموا مقامها واقتبسوا عادات أهلها وديانتهم . ثم لا يلبثون أن يدركهم الهرم فيخلفهم سواهم من أهل البادية ، سنة الله فى خلقه . كأن أهل البادية أو الجبال مصدر الغذاء للمدن : يحيون أهلها بالنزول بينهم والتزوج منهم ، ويربون لهم الماشية

(*) عن العرب وأصل تسميتهم ، انظر جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ١٦٩ وما يليها ــ وعن مهد الساميين ، انظر نفس المصدر والجزء ٢ ص ١٥٠ وما يليها

(١) Clay, 75 (٢) هيرودوتس ٤٦٨ (٣) King, 135-143

والسائمة لغذائهم وركوبهم . وكأن المدن مهلك الابدان والعقول : يأتيها البدو بنشاطهم وانفتهم فلا يلبثون أن يتحضروا ويركنوا الى الرخاء ، حتى تنحل عزائمهم ويتولاهم الضعف ويتفشى فيهم الذل ، فيأتى من يقوم مقامهم . وقد يتسرب ذلك الغذاء (*) تدريجا بمن يفد على المدن من أهل الجبال المجاورة كما يجرى فى سوريا لهذا العهد ، فان مدنها تجدد قواها بمن ينزلها من أهل لبنان ، واذا تأملت النهضة الاخيرة فى الشام رأيت القائمين بها أكثرهم من أهل ذلك الجبل النشيط (**)

هــذا هو شــأن العالم من قديم الزمان حتى الآن ــ فالعراق أو ما بين النهرين بلاد خصب ورخاء ، نزلها الطورانيون قديما : جاءوها وهم أهل بادية او جبال ، فطاردوا قوما كانوا فيها من أهل الرخاء لم يصلنا خبرهم ، وانشأوا فيها تمدنا حسنا ، واتخذوا آلهة وشرائع ، واستنبطوا كتابة صورية تحولت بتوالى الاجيال الى الشكل المسمارى المعروف . ولما تحضروا وغلب عليهم الرخاء ، جاءهم الساميون من البادية وغلبوهم على ما فى أيديهم ، وأخذوا آلهتهم وشرائعهم وزادوا فيها أو حسنوها . وقد تدرجوا فى التغلب والتحضر على الاسلوب الآتى :

كان الساميون فى أعالى جزيرة العرب ، وقد خيم بعضهم فى البــادية بين العراق والشام ، فالمقيمون منهم قرب الفرات كانوا يتسربون تدريجا الى المدن المجاورة ، فمن تحضر منهم هناك خدم دولتها فى الحروب أو غيرها مما يحتاج الى قوة بدنية ثم يندمج فى أهلها . وكان سكان المدن يسمون أهل تلك البادية « آراميين » (١) أى أهل الجبال ، وأهل ما بين النهرين يسمونهم « عمورو » أى أهل الغرب ، لان بلادهم واقعة غربى الفرات وهو اسمهم القديم فى بابل ــ وقد يراد بالعمورو أهل غربى الفرات من بدو وحضر الى البحر المتوسط (٢) ــ ثم سموهم « عريبى » أو عرب ، ومعناها أيضا فى اللغة السامية الاصلية « الغربيون » ، وكانوا يسمون بلادهم « مات عريبى » أى بلاد الغربيين أو بلاد العرب ، وبما أن تلك البلاد صحراء بادية صار لفظ « عرب » فى اللغات السامية يدل على البادية أيضا ومنها   فى العبرانية والاعرابى فى العربية كما تقدم . وبهذا المعنى سماهم المصريون القدماء أيضا « شاسو » أى البدو أو أهل البادية كما سيأتى

ويشبه ذلك ما حدث فى مصر لهذا العهد ، فانهم يعبرون عن الشمال عندهم

(*) أى تغذية المدن بالعناصر البدوية النشطة

(**) يتابع المؤلف هنا نظرية ابن خلدون المشهورة فى دورة العمران، وقدفصلها ابن خلدون فى الفصول الثلاثة الاولى من الباب الثاني من « المقدمة » وهذه الفصول هى : « فى أن أجيال البدو والحضر طبيعية » و « فى أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى » و « فى قدم أهل البادية والبدو » انظر « المقدمة » طبعة بيروت ، حـ ١ ص ٢١٢ ــ ٢١٧

(١) Rawlinson 11, 418-483 (٢) Clay 16, 138, 146

بالبحرى لأن البحر فى شمالى بلادهم ، وعن الجنوب بالقبلى ومدلوله فى الاصل جهة قبلة الكعبة . ومنها تسمية شرقى الدلتا بالشرقية وأهلها شرقاوية ، وما يليها الى الغرب « الغربية » ، ويسمون أهل شمالى افريقيا مغاربة لأنهم فى غربى بلادهم

تلك كانت عادة القدماء فى تسمية الامم بمساكنهم بالنظر الى غروب الشمس أو شروقها ، ولذلك كان العبرانيون يسمون العرب «أهل المشرق» בני קדם لأن مقامهم فى تلك البادية يقع شرقى فلسطين (*)

(*) هنا يوجز المؤلف آراء الباحثين والعلماء فى أصول الساميين وهجراتهم وعلاقاتهم ببلاد الرافدين والشام ومصر والحبشة ، وهى اراء كثيرة دارت حولها مناقشات طويلة لم تنته الى نتيجة حاسمة الى اليوم . ونظرا لكثرة ماكتب فى الموضوع فى كافة اللغات ، رأيت أن ادل القارىء على أهم النظريات ومن قال بها :

أولاً : رأى القائلين بأن أصل الساميين بلاد الرافدين ، وأهمهم :

Alfred von Kremer : Semitische Cultur-Entlenungen aus Pflanzen und Thierreiche in Das Ausland. Band IV

Ignazio Guidi : Della Sede Primitiva dei Popoli Semitici, Roma 1879.
Hommel, Die Namen der Soeugthiere bei deni südsemitischen Voelkern. Leipzig 1879
Die semitischen Voelkern und Sprachen, 1881.

ثانيا : رأى من عارض هذا الرأى وذهب الى خطئه :

Theodor Noeldeke : Semitische Sprachen. Leipzig 1879

ثالثا : رأى من قال بأن الوطن الاصلى للساميين جزيرة العرب :

Alois Sprenger : Das Leben und die Lehre Muhammads. Berlin 1861

Syce : Assyrian Grammar, London 1872

Eberhard Schraeder : Die Abstammung der Chaldaer und der Ursitz der Semiten in ZDMG XXVII 1873

De Goeje : Het Vaderland der Semitische Volken
Carl Brockelmann : Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen. Berlin 1908.

Ditlief Nielsen : Handbuch der alt-arabischen alterlumskunde, Kopenhagen, 1927
Robertson Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia

رابعا : رأى القائلين بأن الوطن الاصلى للساميين ليس فى جزيرة العرب ولا فى بلاد الرافدين ، وانما قد يكون فى شرقى افريقية فى ناحية الصومال ، أو شمالى افريقية :

Palgrave : Arabia in Encyclopaedia Britannica
Brinton : The Cradle of the Semites. Philadelphia 1890.

Barton : A sketch of Semitic Origins. Social and Religious Study : N. Y. 1809

خامسا : رأى القائلين بأن أصل الساميين بلاد أرمينية أو بلاد العموريين (الشام وحوض الفرات) :

John Peters : Semitic Origins, in journal of the American Oriental Society, XXXIX.
Clay : Amurru, the home of the Northern Semites. Philadelphia 1909.

ويبدو من خلال المناقشات ان الرأى السائد هو القائل بأن أصل الساميين فى جزيرة العرب

واستنادا الى هذا الرأى بحث العلماء أسباب هجرات الساميين خارج شبه الجزيرة ، وهنا تختلف الآراء مرة أخرى ، واليك أهم الاتجاهات فى هذا الموضوع :

أولا : رأى من قال بأن جزيرة العرب كانت فى الاعصر السحيقة خصبة الارض وافرة الزروع مثل بلاد الهند اليوم ، ثم تغير مناخها ومال الى الجفاف شيئا فشيئا ، فأخذ أهلها يهجرون منها فى موجات يفصل احداها عن الاخرى ألف عام تقريبا . وعلى رأس القائلين بنظرية الجفاف هذه :

←

اقسام تاريخ العرب

اصطلح مؤرخو العرب أن يقسموا تاريخ العرب قبل الاسلام الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . ويريدون بالبائدة القبائل القديمة التى بادت قبل الاسلام ، والباقية عندهم قسمان :

١ — العرب القحطانية من حمير ونحوها من أهل اليمن وفروعها

٢ — العرب العدنانية فى الحجاز وما يليها . واختلف نظر الباحثين فى العرب من هذا القبيل اختلافا كثيرا لا فائدة من ذكره

وقد تبين لنا بدرس أحوال العرب وتاريخهم من أقدم أزمانهم الى ظهور الاسلام أنهم مروا بثلاثة أدوار كبرى .. كانت السيادة فى الدور الاول أو القديم لقبائل القسم الشمالى من جزيرة العرب وأكثرهم من العرب البائدة ، وفى الدور الثانى المتوسط كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبى وأكثرهم من القحطانية ، والدور الثالث أو الاخير عادت السيادة فيه الى الشمال وينتهى بظهور الاسلام ، وأكثر قبائله من العدنانية . فلا بأس اذا تابعنا القدماء فى تقسيمهم مع ما يقتضيه ذلك من التعديل فى أثناء الكلام

فنقسم هذا التاريخ الى ثلاث طبقات :

(١) العرب البائدة أو عرب الشمال

(٢) القحطانية أو دول الجنوب

(٣) العدنانية أو عرب الشمال فى الطور الثانى

Leone caetani : L'Arabia preistorica e l'essicamento della terre ←
— Studi dei Storia Orientale

ثانيا : رأى من عارض نظرية الجفاف ، وذهب الى أنها لا تستند الى أسس علمية ، وأن سبب الهجرات هو ضعف حكومات اليمن وتحول طرق التجارة مما أدى الى الفوضى والفقر وفساد النظام العام :

وقد عالج هذه المشكلات وناقشها نفر من علماء العرب المحدثين ، دون أن يبدوا فيها رأيا مؤيدا بأدلة علمية

انظر المناقشة عند :

جواد على : العرب قبل الاسلام ، حـ ١ ص ١٤٨ وما يليها

الطبقة الأولى

العرب البائدة

عرب الشمال

فى الطور الاول

يقول العرب أن هـذه الطبقة تشـتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرهم الاولى وحضرموت ومن ينتمى اليهم ، ويسمونها العرب العاربة ، وانهم من أبناء سام ــ قال ابن خلدون : « وكان لهذه الامم ملوك ودول فى جزيرة العرب ، وامتد ملكهم فيها الى الشام ومصر فى شعوب منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة بالقرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام ، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام وقصور ، الى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان » (١) ، وقال فى مكان آخر : « ان قوم عاد والعمالقة ملـكوا العراق » (٢)

واذا تدبرت ما نقله العرب عن القبـائل البـائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين : العماليق من نسل لاوذ بن سام ، وسائر القبائل البائدة من نسل ارم بن سام (٣) . قال ابن خلدون : « كان يقال عاد ارم ، فلما هلكوا قيل ثمود ارم ، فلما هلـكوا قيل نمرود ارم ، فلما هلـكوا قيل سائر ولد ارم أرمان » (٤)

فالعرب يعدون العرب البائدة ساميين من نسل ارم ، أى آراميين ، الا العمالقة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخى أرم ، ويقولون انهم ملكوا العراق « بابل » ثم نزحوا منها الى جزيرة العرب . فهـذا القول ــ على اختصاره ــ يوافق خلاصة ما وصلنا اليه بعد النظر فى ما اكتشفه العلماء فى بابل واشور من النقوش ، أو قرأوه فى كتب اليونان وغيرهم

وايضاحا للموضوع نقدم الـكلام فى العمالقة ، لانهم فى اعتقادنا أصل سائر العرب البائدة ، أو هو اسم يشملهم جميعا (*)

---

(١) ابن خلدون ٢٨ ج ١ (٢) ابن خلدون ٢٥٩ ج ٢ (٣) حمزة ١٢٢ و ١٢٨

(٤) ابن خلدون ٧١ ج ٢

(*) يجدر بنا أن نقف هنا لحظة لنلقى نظرة عامة على رأى المؤلف فى العرب البائدة ومذهبه فى تقسيمهم الى طبقتين

ينقسم عرب ماقبل الاسلام ــ فى رأيه ــ الى : العرب البائدة أو الطور الاول لعـرب الشمال ، والعرب العاربة وهم أولاد قحطان ، والعرب المستعربة وهم الاسماعيلية أو الطـور الثانى لعرب الشمال

ففيما يتعلق بالعرب البائدة ، أو الطور الاول لعرب الشمال ، فيذهب المؤلف الى انهـم جميعا من أولاد سام بن نوح ، وينقسمون بعد ذلك الى فريقين :

ا ــ أولاد لاوذ بن سام ، وهم العمالقة أو العماليق

ب ــ أولاد أرم بن سام ، وهم بقية العرب البائدة

وقد أخذ هذا الرأى عما قاله ابن خلدون فى المقدمة ، وقال : « فهذا القول على اختصاره ←

العمالقة

يريد المؤرخون بالعمالقة قدماء العرب ، وخصوصا أهل شمالى الحجاز مما يلى جزيرة سينا الذين فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعاة)

يوافق ماوصلنا اليه بعد النظر فيما اكتشفه العلماء فى بابل واشور من النقوش ، أو قرأوه فى كتب اليونان وغيرهم ، وإيضاحا للموضوع نقدم الكلام فى العمالقة ، لانهم فى اعتقادنا أصل سائر العرب البائدة أو هو اسم يشملهم جميعا »

أى أنه اخذ برأى ابن خلدون فى أن العمالقة وبقية العرب البائدة أبناء عم

ثم انفرد بالقول بأن العمالقة أصل العرب البائدة جميعا

وقد قسم العمالقة الى : عمالقة العراق (وأدخل فيهم الاشوريين والبابليين) ، وعمالقة مصر أى أنه جعل دول آشور وبابل وما أنشأه الهيكسوس فى مصر من أسرات دولا عربية

وبذلك وسع نطاق تاريخ العرب قبل الاسلام وزاد فى عمقه الى درجة لم يذهب اليها مؤرخ آخر ، وجعل العرب أصلا من أكبر أصول الحضارات فى العالم القديم

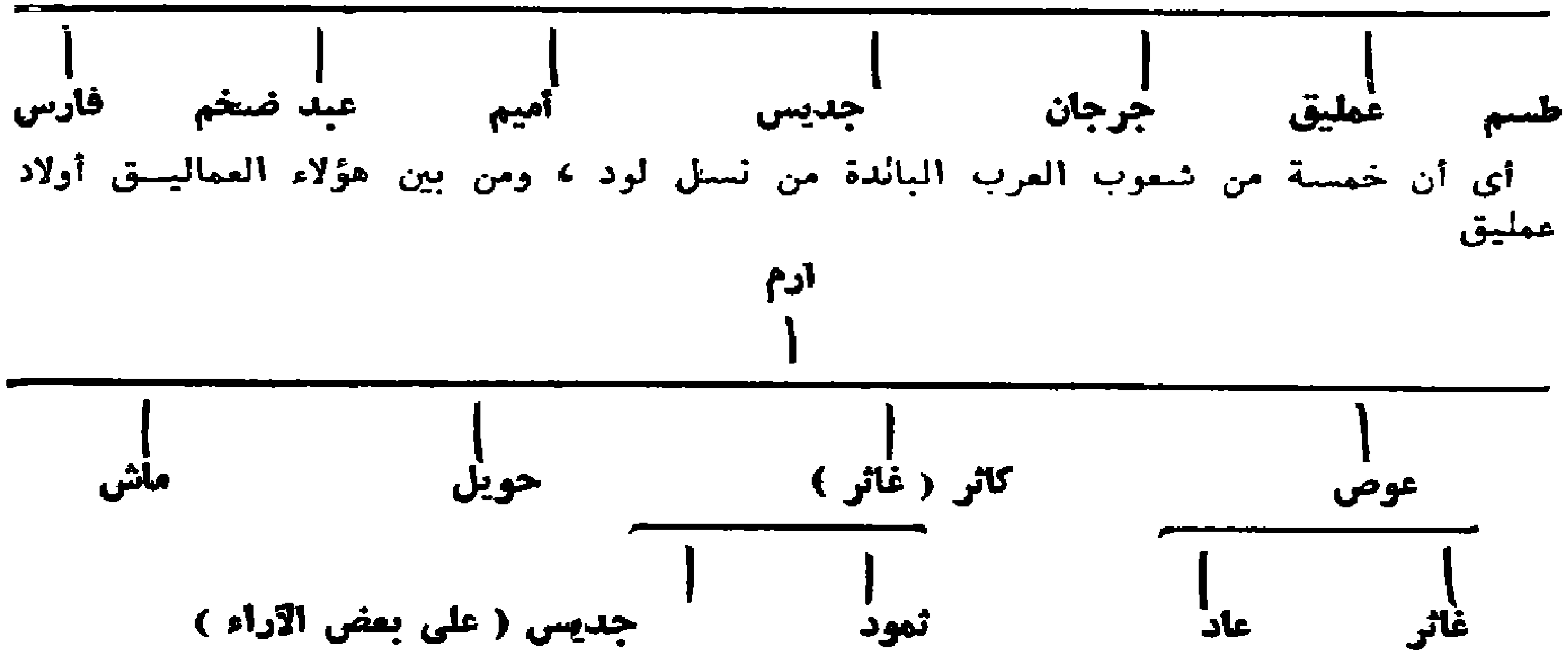
وهذا المذهب جدير بالتقدير ، وقد تركته فى متن الكتاب على حاله ، لانه مذهب واضح لمؤرخ كبير ، ولا زال تاريخ العرب قبل الاسلام غامضا مبهما تختلف الاراء حول كل نقطة من نقطه ، ولا يدرى أحد أى هذه الاراء هو الصحيح على وجه التحقيق

ولابد لنا مع هذا من أن نثبت هنا آخر ما انتهى اليه الرأى فى موضوع طبقات العرب قبل الاسلام ، نذكره للمقارنة والايضاح :

ينقسم العرب ثلاث طبقات هى : العرب البائدة ــ العرب العاربة ــ العرب المستعربة

١ ــ العرب البائدة

هم أولاد لود وارم ابنى سام بن نوح ، وقد أنجب سام أبناء كثيرين أهمهم لود وارم وأفخشذ ، ومن الاولين تسلسلت قبائل العرب البائدة كما يلى :



أى أن خمسة من شعوب العرب البائدة من نسل لود ، ومن بين هؤلاء العماليق أولاد عمليق

ارم

عوص — كاثر (غاثر) — حويل — ماش

غاثر — عاد — ثمود — جديس (على بعض الآراء)

أى أن اثنين من شعوب العرب البائدة من نسل الدم ، هما عاد وثمود ، ويضاف اليهما جديس على بعض الآراء

ويضاف الى أولئك الثلاثة جرهم الاول جد قبيلة جرهم الاولى ، وهى غير جرهم الثانية وهى قحطانية

ويهمنا أن نقف لحظة عند العماليق الذين جعلهم جرجى زيدان أصحاب حضارات بابل واشور وما اقامه الهيكسوس فى مصر من دول

ورد اسم العماليق فى التوراة ، وجعلهم الاخباريون أبناء لاوذ بن سام ، ومنهم من جعله ابن أرفخشذ

وكان العماليق على أصح الآراء يسكنون جنوبى فلسطين ، ومن هنا كان العداء الشديد بينهم وبين العبرانيين ، وهذا يفسر لنا سر عداوة التوراة لهم

ويسميهم اليونان « هيكسوس » . وأصل لفظ « العمالقة » مجهول ، والغالب فى نظرنا انهم نحتوه من اسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهات العقبة أو شماليها — حيث كان العماليق على قول التوراة — ويسميها البـابليون « ماليق » أو « مالوق » (١) فأضاف اليها اليهود لفظ « عم » أى الشعب



وبسبب هذه العداوة كثر تردد اسم العماليق فى التوراة ، ورويت عنهم القصص ، وبالغ الناس فى أوصاف أجسامهم وضخامتها ، وجعلوهم أقدم شعوب الارض ، وكانت لهم غارات على ماجاورهم من أراضى الرافدين ومصر ، واستقر بعضهم فيها ، ونشأت عن ذلك أساطير كثيرة عن ملكهم فى هذه البلاد وما أقاموه فيها من دول ، حتى ذهبوا الى انهم ملكوا بابل واشور دهرا طويلا

وهذا هو الذى جعل جرجى زيدان يذهب الى أن حضارات البابليين والاشوريين عربية ، لان الذين أقاموها فى رأيه هم العماليق من العرب البائدة ، ومنهم حمورابى

وقد أيد المؤلف رأيه بما فيه الكفاية

٢ — العرب العاربة

هم أولاد قحطان بن عابر (ويقال له هود أيضا) بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، أى أنهم — على رأى نسابة العرب — أبناء عمومة العرب البائدة ، وبين جيل قحطان وجيل لود وارم جيلان

والى قحطان ينتسب أهل اليمن

وقد اصطنع الاخباريون لقحطان نسبا الى نوح ، فجعلوه ابن الهميسع بن تيمن بن بنت ابن سام بن نوح

وهم جيل قديم دخل الجزيرة بعد زوال أمم العرب البائدة واستوطن اليمن

٣ — العرب المستعربة

هم العدنانية ، أبناء عدنان بن اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام ، وهو أول من نزل منهم جزيرة العرب ، وسكن مع أبنائه مكة ، وتكاثروا فيها وفى شمالى شبه الجزيرة . وقد عاش عدنان فى أيام بختنصر وقتل فى معركة قامت بين قومه وبختنصر ، فمضى ابناه معد وعك فجمعا من كان من أهلهما فى حران وعادا بهم الى مكة

وعدنان هو نزار

القحطانية والعدنانية

لم يقسم العرب أنفسهم أيام الجاهلية الى عدنانية وقحطانية ، ولا نلحظ شيئا من ذلك على أيام الرسول صلى الله عليه وسلم

وأول مانلحظ ذلك فى الخلافات الاولى بين المهاجرين والانصار ، فنرى حسان بن ثابت ينتصف للانصار ويسمى شاعر الانصار وشاعر اليمن وشاعر القرى

أى أننا نرى فى ذلك الوقت المبكر ارتباطا بين اليمن والانصار والقرى

ونرى أيضا بوادر العداء بين اليمن متمثلين فى الانصار ، ومعد متمثلين فى قريش ، أى أن المنافسة بين مكة ويثرب ايقظت المنافسة بين اليمن ومعد ، فانتسب اليثربيون الى يمن ، والمكيون الى معد وهو مضر ونزار ، وكلما زاد الصراع بين الجانبين فى أيام الاسلام ذهب كل فريق يلتمس لنفسه انسابا أعلى وأقدم ، حتى صارت اليمن قحطانية وقريش عدنانية

ووجد القحطانيون أن العدنانيين يفخرون عليهم بالنبوة ، فجدهم ابراهيم ومنهم الرسول (صلعم) فذهبوا يربطون انسابهم بالانبياء ، وصنعوا لانفسهم النسب الذى يردده الاخباريون ، أى أن انقسام العرب الى قحطانية وعدنانية لم يكن قبل الاسلام وانما جاء بعده

وقد تكون له أسباب تاريخية ، ولكنها ليست بالقوة التى نتصور ، انما هى ذكريات قديمة اجتهد الاخباريون فى تزويدها بأساطير من التوراة حتى صارت الى مانرى

ومن هنا يشك معظم المؤرخين فى انساب العرب كما تروى فى كتب التاريخ الاسلامى ، ويرون أن العرب أخذوها عن التوراة وما اليها من مصادر الاسرائيليات

وصاحب الفضل فى بحث هذه الناحية هو جولدزيهر فى كتابه الفذ : « دراسات اسلامية »
Ignaz Goldziher : Muhammeonische Studien 2 Bde

وهو معتمد الدكتور جواد على فى مناقشاته الطويلة لهذا الموضوع الهام فى الجزء الاول من « تاريخ العرب قبل الاسلام »

(١) Record of the Past I. 26,57.

أو الامة فقالوا : « عم ماليق » أو « عم مالوق » ، فقال العرب عماليق أو عمالقة ثم اطلقوه على طائفة كبيرة من العرب القدماء فجاريناهم فى هـذه التسمية

وقد تقدم أن النسابين يرجعون بأنساب العرب البائدة الى ارم وينسبون العماليق الى أخيه لاوذ وهم فى خلاف كثير من هذا القبيل . وسنعول على ما شهده التاريخ من أحوال هذه الامم وما كان لها من السلطان فى ذلك العهد . وكان للعمالقة دولتان كبيرتان ، احداهما فى العراق ، والاخرى فى مصر

العمالقة فى العراق (*)

أقدم من ذكر سيادة العرب على العراق كاهن كلدانى اسمه بروسوس Perossus من أهل القرن الرابع قبل الميلاد ، عاصر الاسكندر وبعض خلفائه . وكان عالما باللغة اليونانية ، فنقل تاريخ بلاده اليها وجعل كتابه هدية الى انطيوخوس ملك سوريا . وقد ضاع ذلك الكتاب ، وانما عرفه الناس من نصوص نقلها عنه أبولو دوروس وبوليسنور من أهل القرن الاول قبل الميلاد ، وعنهما نقل أوسابيوس ، وسنسلوس . ويبدأ بروسوس تاريخه بالخليقة حتى ينتهى الى أيامه . وقد وضع للدول التى توالت على ما بين النهرين جدولا هذا نصه :

اسم الدولة	عدد ملوكها	سنو حكمهم
دول قبل الطوفان	١٠	٤٣٢٠٠٠
دول بعد الطوفان	٨٦	٣٤٠٨٠
دولة بادى	٨	٢٠٤
دول أخرى	(ضاعت أرقامها)	
دولة الكلدان	٤٩	٤٥٨
دولة العرب	٩	٢٤٥
دولة الاشوريين	٤٥	٥٢٦

(*) يتابع المؤلف هنا رأيه فى أصل الهيكسوس ، وهو رأى مستنتج من أقوال بعض مؤرخى العرب والمؤرخ الكلدانى بيروسوس الذى عاش بعد عصر الهيكسوس بنحو خمسة عشر قرنا ، ولم يعد بين المؤرخين من يقول بهذا الرأى ، خاصة وقد أثبتت الابحاث الحديثة أن سبب دخول أولئك الرعاة مصر هجرة قبائل مغولية من قلب آسيا نحو الغرب ، فتدافعت الشعوب التى كانت تسكن هضاب ايران وبلاد الرافدين ونواحى سوريا غربا فغربا ، وهكذا نزلت قبائل من رعاة بوادى الشام وشبه جزيرة سينا وصحراء مصر الشرقية وأرض الدلتا ، وكانت مصر اذ ذاك فى فترة ضعف داخلى فى نهاية أيام الاسرة الثالثة عشرة . أى أن الهيكسوس ماهم الا بدو هذه الصحارى التى ذكرناها . ومايقال من انهم ابتكروا العجلات وادخلوها والحصان فى مصر غير صحيح ، لانهم أخذوا ذلك كله عن مغول قلب آسيا

انظر : Etienne Drioton, L'Egypte

وجون ويلسون ، الحضارة المصرية ، تعريب الدكتور أحمد فخرى ، ص ٢٥٧ وما يليها

وقد انتقد المؤرخون هذا الجدول لما فى قسمه الاول من المبالغات وعدوه خرافيا ، الا كلامه عن دولة مادى وما بعدها فقد عدوه تاريخيا . وفى جملة ذلك دول العرب التى يقول بروسوس ان عدد ملوكها تسعة وسنى حكمها ٢٤٥ سنة تأتى بعد دولة الكلدان وتنتهى بدولة الاشوريين . ودولة العرب المشار اليها توافق ما يسميه المؤرخون الآن الدولة البابلية الاولى أو دولة حمورابى ؛ نسبة الى حمورابى الشهير أكبر ملوكها وصاحب اقدم كتب الشريعة فى العالم (١) والمعول عليه اليوم ان حمورابى هذا من أهل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد . وبروسوس لم يذكر دولة العرب بتفصيل يدل على كيفية تسلطها على بابل بالفتح أو بالصلح أو بالغزو

وللمستشرقين أقوال فى دولة حمورابى هذه ، هل هى دولة العرب التى ذكرها بروسوس ؟.. واختلفت آراؤهم فى ذلك . وقبل التقدم الى ابداء رأينا فى هذه الدولة نذكر فذلكة من تاريخ تلك البلاد وأحوالها فى أول أمرها

حكومة مابين النهرين قديما

كانت حكومة ما بين النهرين قديما أقرب الى شكل الاقطاع منها الى الدولة المنظمة ، فكانت تقسم الى امارات أو مشيخات تفصل بينها مجارى الماء أو الجداول أو الاقنية المشتقة من الفرات ودجلة ، تتألف كل مشيخة من هيكل وكهنة عليهم رئيس يسمونه « باتيسى » هو الحاكم وصاحب الاقطاع ، وتحته نائب يباشر الحكومة وله قصر أو قصور لخاصته من الشرفاء ، وحول تلك القصور أكواخ أو بيوت صغيرة يقيم فيها العمال والفلاحون . وتسمى تلك « المملكة » الصغيرة باسم اله ذلك الهيكل . فكان فى ما بين النهرين عشرات أو مئات من أمثال هذه المشيخات أو الممالك الصغيرة ، يتفاوت رؤساؤها قوة وسطوة بتفاوت مواهبهم . فيتفق أن يطمع أحدهم فى جيرانه ويكون فيه الاستعداد للفتح فيتغلب على بعضهم أو كلهم وينشىء دولة يدفع خبرها ويبقى ذكرها (٢) فيصبح ذلك الرئيس ملكا عاما تعرف دولته باسم اله هيكله ، وتبقى سائر المشيخات أو الامارات أو الممالك الصغيرة مستقلة بأمورها الدينية تحت سيطرته . ذلك كان شأن ما بين النهرين قبل تمدنها ، فلما نزلها السومريون والاكاديون عمم كل منهما سطوته على أحد قسميها الشمالى والجنوبى وفتحوا ما حواليهما

ولما جاءها الساميون نزلوا أولا فى القسم الشمالى منها ثم الجنوبى وانتشروا انتشارا كثيرا . ثم نبغ سرجون الاول سنة ٣٨٠٠ ق.م. واستقل بمملكة بابل هو وابنه نرام سين . ويؤخذ من نصب اكتشفوه هناك فى العام قبل

(١) الهلال سنة ١٢ جزء ٤ و ٥

(٢) Der Alte Orient, IX, 3

الماضى أن هذا الملك سامى العنصر لانه كتب فتوحه بلغة سامية . فيكون الساميون قد شاركوا السومريين فى الحكم من ذلك العهد البعيد (١)

وامتدت سلطة سرجون وابنائه من بلاد الفرس فى الشرق الى البحر المتوسط وجزيرة سينا فى الغرب ، واسم هذه الجزيرة عندهم مغان (أو معان) . ولسرجون هذا فى آثار بابل حكاية عن ولادته ونشوئه تشبه قصة موسى . وارتقت بابل فى أيامه ارتقاء عظيما ، وتوالى عليها بعده ملوك ودول لا محل لذكرها هنا ، حتى ضعف أمر السومريين فأتيح للساميين الاستبداد بالسلطة . وأول ملوكهم اسمه « ساموابى » أى « سام ابى » أو « ابن سام » وهو راس دولة حمورابى أو الدولة البابلية الاولى



(١) King, 158 & 223

دولة حمورابي

أو الدولة البابلية الاولى (*)

من سنة ٢٤٦٠ ق . م – ٢٠٨١ ق . م .

استولى ساموابى أولا على شمالى بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م ، وكان جنوبيها يومئذ فى حوزة ملك عيلامى . وخلف ساموابى ابنه « سامو ليلا » وانتقل الى بابل فاتخذها كرسيا لمملكته وهو أول من فعل ذلك . وتوالى بعده خلفاؤه من أسرته كما سيأتى ، حتى أفضى الملك الى حمورابى وهو سادسهم ، فناهض العيلاميين فى الجنوب وعليهم ملك اسمه فى آثار بابل « كدر لاقمر » وهو « كدر لاعومر » التوراة . والظاهر أن كدر لاعومر فتح بابل أولا ثم غلبه حمورابى فى السنة الثلاثين من عمره وذهب بدولة العيلاميين ، ثم مشى حمورابى بفتوحه غربا الى البحر المتوسط ودخلت أشور فى حوزته . وخلف حمورابى ملوك من أسرته آخرهم « شمسوديتانا » خرجت السيادة منه الى دولة أخرى حكمت ٣٦٨ سنة ثم دولة القاصية سنة ١٨٠٠ ق.م. وفى أيامها خرجت سوريا وفلسطين من سلطة بابل واستقلتا . واستقلت اشور بحكومتها وأول من استقل بها رؤساء حكومتها

وكانت بابل عاصمة غربى آسيا لا يثبت أمير على امارته الا بعد أن يشخص اليها وينال التصديق على انه « ابن بعل » ، كما أصبحت رومية بعد انحلال المملكة الرومانية وبغداد فى أواخر الدولة العباسية . وفى أثناء ذلك قامت بين أشور وبابل منازعات تغلبت فيها أشور سنة ١٢٨٠ ق.م. ففتح تغلات نثيب بابل ، وأصبحت من ذلك الحين ولاية أشورية . وأخيرا دخلت أشور كلها فى سلطة كورش الفارسى سنة ٥٣٨ ق.م (١)

فالآراميون الذين نزلوا بادية العراق والشام تسرب بعضهم الى العراق ،

(*) يتابع المؤلف هنا ماذكره المؤرخ بروسوس – الذى يسمى أيضابرحوشا–ويوسيفوس(يوسف اليهودى) فيما يذكرانه عن تاريخ بابل القديم . وقد تقدمت معلوماتنا الآن تقدما عظيما جعل ماذكره برحوشا ويوسف اليهودى مجرد أقاصيص تاريخية لم يثبت منها الا قوله اندولة حمورابى كانت دولة سامية ، وهى الدولة الكبيرة الثانيةالتى أقامها الساميون فى بلاد بابل وتسمى أيضا بالانتصار البابلى الثانى ، أما الدولة الاولى أو الانتصار البابلى الاولى فينسبان الى سرجون وصحة اسمه بالبابلية شروكين ومعناها الرئيس المختار . ومن الثابت أنه حكم ابتداء من سنة ١٧٨٠ ق . م ، ولا يعرف على وجه التحديد من أين أتى قومه ، فيذهب بعض العلماء الى أن أصلهم فى اليمن أو جنوبى الجزيرة العربية أو نجد أو صحراء الشام ، ومن الثابت أن الناس فى دولة حمورابى فى بابل كانوا يتكلمون لغة سامية قريبة من الحميرية ، وكانوا يكتبونها بالحروف المسمارية ، وهذا قريب مما يقوله المؤلف هنا

انظر : ل . ديلابورت ، بلاد مابين النهرين ، ترجمة محرم كمال ، مجموعة الالف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦ . ص ٤٧ وما يليها

Pritchard, Ancient Near-Eastern Documents. New-York, 1950

(١) Ency. Brit. ed. London, supl. art. Babel

على جارى العادة فى تغذية المدن من نتاج البادية ، وتحضروا وتولى بعضهم الملك فى الالف الرابع قبل الميلاد (١) وظل سائرهم فى البادية غربى الفرات تستعين بهم الدولة عند الحاجة ، وامتازوا عن اخوانهم المتحضرين باسم أهل الغرب (عمورو ثم عربى) كما تقدم ، واختلفت لغة المتحضرين منهم عن لغة البدو ، كما اختلفت لغة العرب الذين نزلوا الشام ومصر بعد الاسلام عن لغة الذين ظلوا فى البادية

وفى أواسط الالف الثالث قبل الميلاد دخل الآراميون فى دور جديد ، فتدرجوا فى الرقى بما امتازوا به من النشاط ، فحازوا الارضين وملكوا الاقطاع ، وفى جملة المالكين « سموابى » جد عائلة حمورابى (*) ، فاستعان بأبناء قبيلته فى توسيع دائرة سلطته . وفعل خلفاؤه فعله ، حتى امتد لواء سلطانهم على معظم المدن العامرة فى غربى آسيا ، وعرفت دولتهم بالدولة البابلية الاولى ، وعدد ملوكها ١١ ملكا حكموا ثلاثة قرون ، بين القرن ٢٤ ، والقرن ٢١ قبل الميلاد ، وهذه أسماء ملوكهم ومدة حكمهم : (٢)

اسم الملك	مدة حكمه	من سنة ق.م		الى سنة ق.م
ساموابى	٣١	٢٤١٦	ـ	٢٣٨٥
شامو ليلو	١٥	٢٣٨٥	ـ	٢٣٧٠
زابوم	٤٥	٢٣٧٠	ـ	٢٣٣٥
اميل سين	١٨	٢٣٣٥	ـ	٢٣١٧
سينموبليت	٣٠	٢٣١٧	ـ	٢٢٨٧

(١) King, 228

(*) أنشأ الدولة التى ينسب اليها حمورابى ملك يسمى سومو ــ أبوم Soumou Aboum وهو المسمى هنا ساموابى ، وكان ملكا قويا بدأ حكمه سنة ٢٢٢٥ قبل الميلاد ومد نفوذ بابل على سومر وأكد ، وحقق بصورة نهائية وحدة بلاد الرافدين تحت صولجان واحد بعد محاولات متعددة دامت ألفى عام ، وقد تلاشى الجنس السومرى بعد ذلك ، ولم يعد اسم سومير يذكر الا فى المراسيم ، واتسع مدلول اسم أكد حتى أصبح يشمل الاقليم كله ، وأصبحت بابل عاصمته السياسية والدينية .. وقد مات سومو أبوم سنة ٢٢١٢ ق . م . واليك أسماء من خلفوه حتى حمورابى :

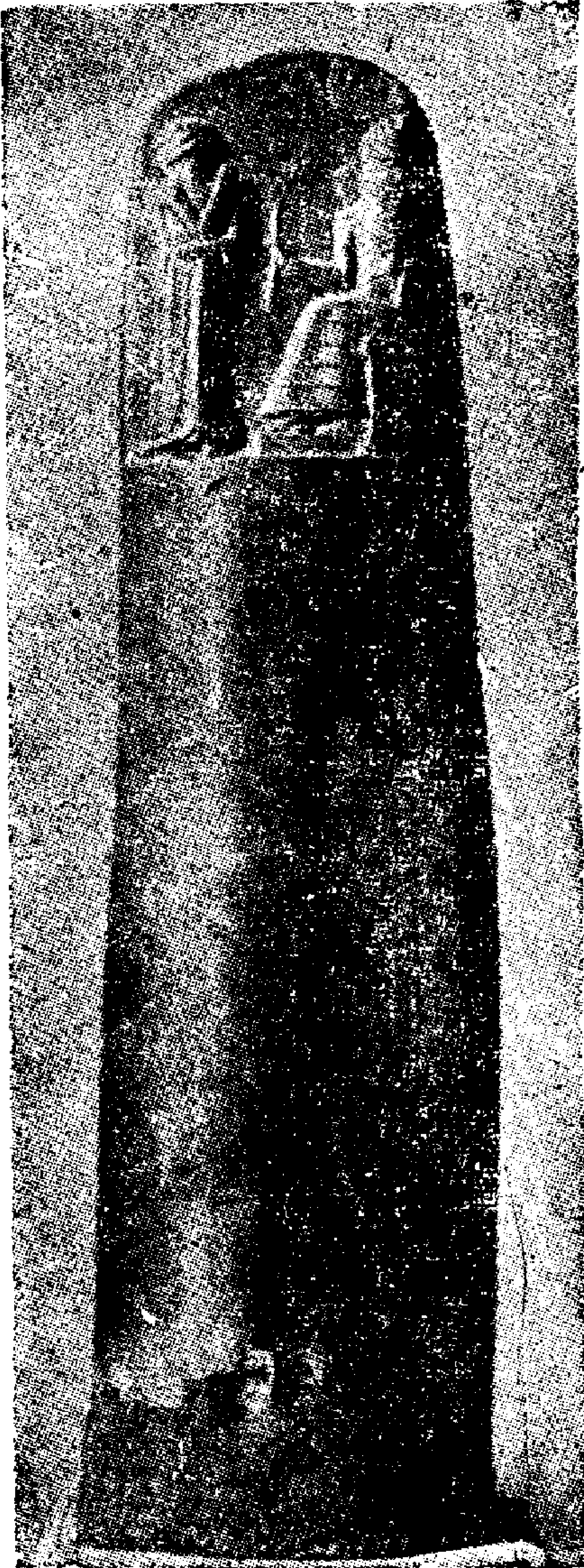
سومو لا ايلوم	٢٢١١ ــ ٢١٧٦	ق.م
زبيوم	٢١٧٥ ــ ٢١٦٢	»
ابيل سين	٢١٦١ ــ ٢١٤٤	»
سين موباليت	٢١٤٣ ــ ٢١٢٤	»
حمورابى	٢١٢٣ ــ ٢٠٨١	»

انظر : ديلابورت ، نفس المصدر ، ص ٤٢ وما يليها

وانظر عن حمورابى ص ٤٨ وما يليها

(٢) Maspero, Hist. Anc. II, 27

اسم الملك	مدة حكمه	من سنة ق.م		الى سنة ق.م
حمورابي	٥٥	٢٢٨٧	–	٢٢٣٢
شمسوايلونا	٣٥	٢٢٣٢	–	٢١٩٧
أبيشوع	٢٥	٢١٩٧	–	٢١٧٢
عمى ديتانا	٢٥	٢١٧٢	–	٢١٤٧
عمى صادوقا	٣٤	٢١٤٧	–	٢١١٣
شمسوديتانا	٣١	٢١١٣	–	٢٠٨٢
(المجموع)	٣٤٤			



حمورابي بين يدي اله الشمس

هذا ما أورده ماسبرو عن ملوك هذه الدولة ، وقد خالفه كلاي في بعض التفاصيل من حيث مدد الحكم (١) مما لا يعتد به بالنظر لما نحن فيه

وفي أثناء هذه الدولة ظهر ابراهيم الخليل وهاجر من اور الكلدانيين . وقد بلغت الدولة البابلية قمة مجدها في أيام حمورابي ، فانه كان فاتحا عظيما ومصلحا كبيرا ، ومن جملة البلاد التي فتحها « سومر » أو « شومر » أي بلاد السومريين ، فصار من جملة ألقابه « ملك بابل وشومر » فذهب بعضهم لذلك ان حمورابي هذا هو « امرافيل » ملك شنعار الوارد ذكره في الاصحاح الرابع عشر من سفر الخليقة ، لتقارب اللفظ والمعنى لان حمورابي تكتب ايضا « امورابي » و « امورافي » ، وشومر تقلب الى « شينار » أو شنعار بسهولة (٢) والزمن متقارب بين الملكين

تمدن دولة حمورابي

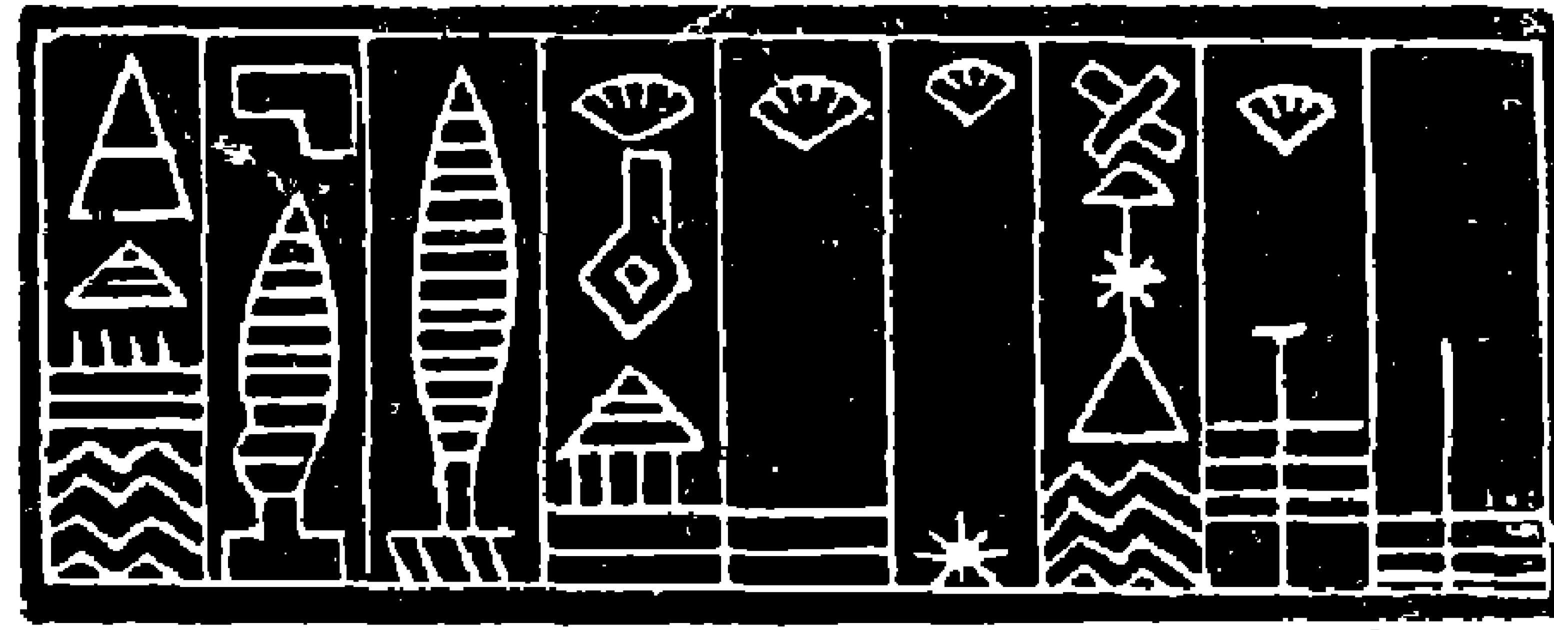
كان السومريون (*) قبل هذه الدولة

---

(١) Clay, 145 (٢) Clay, 127

(*) السومريون جنس هندي أوربي اقبل من قلب آسيا واستقر في وسط بلاد الجزيرة وأنشأ به دولة نافشت الاكديين على السلطان زمنا طويلا ، والأكديون ساميون ولكنهم كانوا أضعف من السومريين . فلما استقر الساميون في بلاد الرافدين بدأ النزاع بينهم وبين السومريين ، وهو نزاع طويل انتهى بالقضاء على السومريين وتلاشي أمرهم وسيادة الساميين على البلاد كما ذكرناه

قد اتخذوا دينا ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الحمورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظمهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس . وكان الحمورابيون فى أول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية فى المكاتبات ، ثم اهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومرى (١) وبقى العنصر السامى ، كما تغلب العنصر العربى بمصر والشام بعد الاسلام بتغلب اللغة العربية . ولكن الحمورابيين استبقوا الخط السومرى وهو القلم المسمارى ، لانهم استخدموه فى تدوين لسانهم وزادوا فيه أحرفا لم تكن فى السومرية



القلم المسمارى القديم على عهد السومريين لا يزال شكله صوريا

وكان القلم المذكور فى أصل وضعه صوريا مثل الهيروغليفى المصرى كما ترى فى الشكل ، ثم تشوه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير فى طبعه على الطين فصار على هذه الصورة 

أما المسلمون فأهملوا الاقلام (أى الخطوط) التى كانت شائعة قبلهم فى العراق ، وفارس ، والشام ، ومصر ، وهى : الفهلوى ، والكلدانى ، والبقطى ، وغيرها ، ونشروا قلما حملوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام ، وأعالى الحجاز ، وهو الحرف النبطى ، وتكيف بتوالى الاجيال حتى صار الى الحرف العربى المعروف ، وعم العالم الاسلامى العربى وغير العربى

أما تمدن السومريين فاقتبسه الحمورابيون ورقوه وزادوا فيه ، كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس ، وأكثرهم عناية فى ذلك حمورابى ، فانه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه ، وقد رتبها فى ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ فى بلاد السوس منقوشة بالحرف المسمارى على مسلة

---

(١) King 228, Clay 93

من الحجر الاسود الصلب طولها سبع اقدام ، وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الامة فى سلم الاجتماع الى أرقى ما بلغت اليه تلك الصور ، ولا سيما فى شروط الزواج والطلاق والتبنى والارث . واليك خلاصة ذلك :

نظام الاجتماع

طبقات الناس

كان الناس فى ذلك العصر ثلاث طبقات : الاحرار ، والعبيد ، وطبقة متوسطة بينهما عبرنا عنها بالموالى ، على نحو ما كان عليه العرب فى صدر الاسلام ، فان المولى عندهم أرقى من العبد وادنى من الحر . واسم المولى عند البابليين « ماشنكك » ، وفسرها الاب شايل المستشرق الشهير بما يقابل لفظ « مسكن » فى العبرانية ، ومعناها صعلوك أو فقير « مسكين » ، وقد يتبادر الى الذهن انهم يريدون بهذه الطبقة من الناس العامة غير الاشراف ، ولكننا رايناهم يعبرون عن العامة بلفظ آخر هو فى لسانهم « مار اومية » اى ابن الامة أو الصانع ، فربما كان أقرب الى ما يعبر عنه عند الرومان بلفظ Plèbe ، على أن المولى عند البابليين كان يقتنى العبيد ويملك الارضين ، وقد يتزوج من بنات الاحرار ، ولكنه احط منزلة وأقل مسئولية منهم فى نظر القضاة . فالمجروح اذا مات من جرح وكان حرا فالدية نصف من فضة ؛ واذا كان مولى فالدية ثلث من فضة . واذا عالج طبيب مريضا وشفى على يده وكان حرا دفع عشرة شواقل فضة ، واذا كان مولى دفع خمسة شواقل ، أو كان عبدا فشاقلين . واذا كسر أحد عظم رجل حر يكسر عظمه ، فاذا كان المكسور عظمه مولى يغرم الضارب منا من الفضة ، واذا كان عبدا فنصف من ، وقس على ذلك . ويشبه هذا ما كان عليه اليهود فى عصر التوراة ، فقد ذكروا لهم ثلاث طبقات : الاحرار ، فالعبيد ، وطبقة بينهما يسمونها بالعبرانية (جر أو غر) وقد ترجموها بلفظ « غريب أو أجنبى » ، وكثيرا ما كان أهل التقوى من اليهود يسمون أنفسهم بهذه الكلمة مضافة الى اسم الله أو الملك ، فيقولون مثلا : « غر ملك » أو « غر عشتروت » ، على نحو ما يراد من قولنا عبد الملك أو مولى اللات . ولكن الماشنكك عند البابليين أرقى فى الهيئة الاجتماعية من الغر عند اليهود

المرأة والزواج

العادة فى الامة المؤلفة من طبقات متباينة أن أهل كل طبقة تتزاوج فيما بينها ، ويندر أن يحصل التزاوج بين طبقة واخرى ، الا ما قد يقتنيه الاحرار

من الجوارى على سبيل التملك . ولكن يؤخذ من شريعة حمورابى أن العبيد عند البابليين قد يتزوجون من بنات الاحرار زيجة شرعية ، ولكن يظهر أن ذلك خاص بعبيد القصر الملكى أو من يجرى مجراهم . والزواج فى كل حال لا يعتبر نافذا عندهم الا بعقد مكتوب ، شأن أرقى الامم المتمدنة اليوم . والمحافظة على الحقوق الزوجية شرط واجب . وعقاب الزنا القتل ذبحا أو غرقا ، الا اذا التجأت المرأة الى رجل آخر وزوجها غائب فى أسر وليس عندها ما تقتات به ، فان شريعتهم تجيز لها المعيشة فى بيت ذلك الرجل عيشة الزوجين ، حتى اذا عاد زوجها من اسره عادت اليه ، واذا كانت قد ولدت أولادا من ذاك تركتهم له. أما اذا كان غياب الزوج فرارا من الحرب أو نحوه فانه اذا عاد لا ترجع اليه امرأته ، ترغيبا فى الشجاعة

ومن شروط الزواج عندهم ان الرجل يقدم للفتاة مالا ، من قبيل المهر الشائع فى الشرق ، يسمونه « حق العروس » أى ثمنها ، وهى تأتى من بيت أبيها بمال يسمونه المهر (الدوطة) . فكأن البابليين الفوا فى حقوق الزواج عندهم بين عادات الشرق والغرب . والمهر وحق العروس كلاهما للمرأة ، ويحفظان باسمها الى حين الحاجة . واذا لم تتزوج الفتاة تأخذ المهر من أبيها ، كأنه حق مفروض لها منذ الولادة ، واذا لم تأخذ مهرها فلها سهم فى الارث ، وكذلك حق العروس للشاب ، فانه يعين للغلام من صغره ليقدمه الى عروسه عند زواجه

والطلاق عندهم فى يد الرجل ، فاذا أراد تطليق امرأته وقد ولدت أولادا دفع اليها مهرها وقال لها : أنت طالق ، فتطلق . ولكنها تتولى تربية أولادها بنفسها ، ولها فى مقابل ذلك حصة من دخل زوجها . فاذا شب أولادها استولت على سهم مثل أسهمهم من الارث ، واذا لم يكن له أولاد منها دفع اليها حق العروس وارجع اليها المهر وطلقها . على أن المرأة اذا ابغضت زوجها لا يعجزها طلاقه بالحق ، فانها تقول له : « لست لك » ويتقاضيان الى الكاهن أو القاضى ، فاذا كان زوجها مخطئا اخذت مهرها ورجعت الى بيت أبيها ، واذا كانت دعواها افتراء تطرح فى الماء . والرجل ليس مطلق الحرية فى الطلاق ، فهو لا يستطيع تطليق امرأته اذا كانت مريضة ، بل يتزوج سواها اذا أراد ، وتبقى هى فى بيته باقى حياتها وهو يعولها . واذا ابت البقاء فى بيته دفع اليها مهرها واعادها الى بيت أبيها

والزواج وثيق العرى عند البابليين ، فان الزوجين حقوقهما متبادلة وواجباتهما مشتركة ، وكل منهما مسئول عن الآخر حتى فى الحقوق المدنية.

فاذا كان على أحدهما دين فالاخر مسئول عنه . فاذا تأخر الرجل عن وفاء دين عليه قبض الدائن على امرأته حتى تفيه . وكذلك المراة اذا كانت مدينة وعجزت عن الدفع ، فالدائن يقبض على زوجها حتى يفيه حقه ، ولو كان الدين قبل الزواج . الا اذا تعاهد الزوجان الا يسأل أحدهما عما على صاحبه من الدين قبل الاقتران . أما الدين الذى يحدث بعد الزواج فهما متضامنان فيــه . .

ليس للرجل عندهم أن يقتنى سرية الا اذا لم تلد امرأته أولادا ، فاتخاذه السرية لاجل النسل فقط ، ولذلك فالمرأة قد تأتى الى زوجها بجارية تلد أولادا ، فلا يجوز له حينئذ أن يقتنى سرية . على أن الجارية ـــ ولو ولدت له أولادا ـــ فليس لها حقوق الزوجة ولا منزلتها ، واذا ادعت ذلك فلمولاتها ان تكبلها بالحديد وتعيدها الى منزلة الاماء . فالمرأة عندهم مساوية للرجل فى الحقوق ، تتعاطى كثيرا من أعماله التجارية والزراعية فضلا عن أشغالها المنزلية ، وهى تنتظم فى ســلك الكهــان . وكهــانة النســاء عنــدهم أربع درجات : (١) الكهانة الكبـــرى ، ولا يشترط فيها البتولية ، ولا تمنـــع الكاهنة من مهرها الذى هو حق لها من بيت أبيها ، واسم كاهنة هـــذه الدرجة فى اللغة البابلية «نينان» أى السيدة المقدسة ، ويشترط فى سيرتها الطهارة والقداسة ، ولذلك كانت الحكومة تحميهن وتدافع عن صيانتهن (٢) كهانة العذارى ، واسمها « كالاتى » ، وليس لصواحبها مهر من آبائهن (٣) الكهانة المقدسة ، ويشترط فيها البتولية فصواحبها لايتزوجن ، ويستولين على ثلث سهم الولد من الارث (٤) النذر لمروداخ ، فصاحبه النذر المذكور كالــكاهنة المقدسة ، لــكنها ترث من أبيها أرثا كاملا

التبنى

كان التبنى شائعا عند البابليين فى عصر حمورابى ، فاذا لم يرزق أحدهم أولادا وكان فى نفسه ميل الى البنين لغرض من الاغراض ، اخذ من بعض الوالدين طفلا يربيه عنده ويتبناه . ولهم فى التبنى شروط حسنة ، من جملتها رعاية حرمة الوالدين ، فاذا تبنى أحدهم غلاما ثم آذى أبويه يرجع الغلام الى بيت أبيه . ويشترط فى ثبوت حق التبنى أن يسمى الولد باسم الوالد الجديد ، فاذا رباه وسماه باسمه لايسترجع . واذا كان المتبنى صانعا فعليه أن يعلم الولد صناعته ، فاذا فعل ذلك فالولد له . واذا تبنى الرجل أبنا وسماه باسمه ، ثم تزوج الرجل وولد له اولاد وأراد أن يخرج ذلك الولد من بيته ، فلا يستطيع ذلك الا اذا اعطاه ثلث حصة الولد من مال أبيه غير العقار ، على أن الرجل عندهم كان يتبرأ احيانا من ابنه لصلبه ، ولكنه لم

يكن يستطيع ذلك الا بين يدى القاضي ، فيقول للقـاضي : « أنا أتبرأ من ابنى » ، فينظر القاضي فى الاسباب فاذا لم يجد مسوغا رفض الطلب ، واذا وجد مسوغا أجل الحكم لعل الاب يرجع عن عزمه ، فاذا لم يرجع أجاز له التبرؤ منه . وأولاد الرجل من جاريته لا يكونون أولاده شرعا الا اذا دعاهم أولاده ، فاذا فعل ذلك كان لهم ما لاولاد الزوجة من حقوق الارث ، واذا لم يدعهم فلا يرثون ولـكنهم يعتقون

الارث

لا يميز البابليون فى حق الارث بين الذكر والانثى ، ولكن للوالد أن يمنع بعض أولاده من الارث اذا ثبت ما يستدعى ذلك ، على انهم كانوا يختلفون عن سائر الامم فى مسألة المهر وحق العروس . فان الرجل اذا ولد له أولاد فأول ما يفعله أن يفرض للذكور حق العروس وللاناث المهر (الدوطة) ، فمن تزوج منهم فى حياة والده أخذ حقه أو مهره ، فاذا توفى الاب فللعزب من أولاده أن يستولوا على حق العروس أو المهر ، فضلا عن أسهمهم من الارث . ثم ان المهر الذى تأتى به المرأة من بيت أبيها يكون ملـكها وحدها ، ويورث على مقتضى ذلك . فاذا تزوج رجل امرأة وولدت له أولادا وتوفيت فمهرها لاولادها ، واذا توفيت ولم تلد أولادا فالمهر يرجع لابيها وليس لزوجها . والهبة كانت عندهم نحو ما هى عندنا الآن ، فاذا وهب الاب شيئا لاحـد أولاده ثم مات فتقسم تركته على الاولاد ، وتبقى الهبة لصاحبها

التجارة ونظام الحكومة والعلم

التجارة

والتجارة كانت عندهم قانونية بعقود وصكوك ، وعندهم شروط للرهن والوديعة مما لا يقل عما عند الامم المتمدنة اليوم ، مع مراعاة حال تلك الايام . فالبيع بلا عقد باطل ، والدين بلا صـك لغو . ومن شروط اقتضاء الدين عندهم ، اذا عجز المدين عن تأدية ما عليه ، أن يقبض الدائن على امرأة المدين وأولاده ، فيخدمون فى بيته حتى يستوفى حقه ، فاذا لم يوفه يخدمون ثلاث سنوات ثم يطلقون

ومما يعد من حسنات التجارة فى ذلك العهد البعيد ، أن الحكومة هى التى تتولى تسعير السلع ، أو تقدير أجور الصناع وأصحاب المهن ، حتى الاطباء والبياطرة ، فقد فرضت للطبيب أجرة ، وللبناء أجرة ، وللنجار أجرة ، وألقت عليهم تبعة ما يقع على يدهم من الخطر او الضرر ، فالطبيب اذا عالج مريضا

بسكين من معدن فأتلف عينه بها تقطع يداه ، والبناء اذا بنى بيتا وسقط على صاحبه فقتله يقتل البناء . واذا سقط البيت ولم يقتل صاحبه بناه البناء من ماله ، واذا بنى النجار سفينة غير محكمة فهو مسئول عن اصلاحها ، وقس على ذلك أجور الرعاة ، والملاحين ، والدواب ، والسفن ، وغيرها مما يطول شرحه . وكانت ادارة الحكومة منظمة فى عهد هذه الدولة ، وفيها بريد لضبط المواصلات وسرعتها



قطعة من نص شريعة حمورابى

وقد كشفوا فى آثار زيبارا أنقاض مدرسة لتعليم الاطفال ، وهذه أول مرة سمعنا بمدرسة مثل هذه فى التمدن القديم ، أى منذ أربعة آلاف سنة ، وكان فيها (قرميدات) عليها دروس للأطفال والاحداث فى الحساب والهجاء وجداول الضرب ومعجمات ونحوها (١) واكتشفوا كثيرا من الكتب والرسائل المنقوشة على الاحجار أو القراميد ، وأكثرها لحمورابى ، وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والارصاد الفلكية والنصوص التاريخية والادعية الدينية . ومن أكبر أدلة الرقى فى ذلك العهد أن المرأة كانت متمتعة بحريتها واستقلالها ، مثل نساء هذا التمدن (*) ، وكن يتعاطين المهن القلمية ، وانخرط جماعة منهن فى خدمة الدواوين والمصالح الاميرية (٢)

فاذا صح أن هذه دولة عربية ، كما سنبينه فى الفصل الآتى ، كان العرب أسبق أمم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم ، وانهم بلغوا فى نظام الاجتماع ما لم يبلغ اليه معاصروهم ، وأدركوا من الرقى الاجتماعى ما لا يزال بعض الامم المتمدنة فى هذا العصر بعيدين عنه

---

(١) Clay, 182 (*) يريد مثل النساء فى حضارتنا الراهنة (٢) Clay, 166

وما زالت الدولة البابلية الاولى (الحمورابية) قائمة ، حتى غلبت على أمرها كما تقدم ، فخرج بعض أهل الدولة فرارا من ذل الغالب الى اخوانهم فى جزيرة العرب ، وأنشأوا فى اليمن دولة عربية عرفت بدولة المعينيين ، كان لها شأن كبير فى تاريخ اليمن قبل دولة سبأ وحمير ، كما سيأتى فى كلامنا عن الطبقة الثانيـــة أو العرب القحطانيـــة أو دول الجنوب ـ ويوافق ذلك قول العرب أن العمالقة وغيرهم من العرب البائدة جاءوا جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام (١ *)

هـــل دولة حمورابى عربيـــة ؟

ان قولنا : « دولة حمورابى عربية » لا يتبادر منه الى ذهن القارىء أنه مثل قولنا : « دولة الاسلام عربية » ، واذا صحت عربية تلك فلا يستلزم أن تكون لغتها مثل لغة القرآن ، ولا أن عادتها وديانتها مثل ما لعرب قريش ، فان بين الدولتين ٢٧ قرنا ، والامم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الاقاليم وتوالى العصور

لا خلاف فى أن دولة حمورابى سامية الاصل ، ولكنهم اختلفوا فى نسبتها الى فرقة من الفرق السامية ، وعندنا أنها من بدو الآراميين ، وهم عرب ذلك العصر أو العمالقة ، والادلة على ذلك هى :

(١) ان بروسوس (برحوشا) مؤرخ الكلدان ذكر بين الدول التى حكمت بابل دولة سماها « عربية » ، وذكر عدد ملوكها وسنى حكمها كما تقدم. ودولة حمورابى أقرب دول بابل عهدا من الزمن الذى عينه بروسوس للدولة العربية . وعدد ملوكها وسنو حكمها تقربان مما لتلك ، فقد ذكر لتلك الدولة تسعة ملوك حكموا ٢٤٥ سنة ، وظهر من الآثار أن ملوك دولة حمورابى ١١ ملـكا حكموا ٣٣٤ سنة ، والفرق بين الحالين أقل من الفرق بين قول العرب عن دولة حمير وبين ما ظهر من أحوالها بعد قراءة الآثار الحجرية فى اليمن

(٢) ان سكان بادية العراق كانوا يعرفون عند أهل بابل باسم « عمورو » اى أبناء المغرب . وهذا الاسم يشمل كل من سكن غربى الفرات من الامم السامية ، وفيهم الآراميون فى الشام وبدوهم فى باديتها . وفى التاريخ القديم أن الـكنعانيين اكتسحوا فلسطين فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وأخرجوا أهلها الاصليين ، ويوافق ذلك نزول بدو الآراميين وانشـــاء تلك

---

(١) ابن خلدون ١٨ ج ٢

(*) وما يذكره المؤلف هنا عن الحضارة البابلية ، نقلا عن كتاب كلاى « ضوء على الكتاب المقدس من بابل » (راجع قائمة المراجع) صحيح فى جملته ، وان دخلت عليه تعديلات استخلصها العلماء من وثائق جديدة

انظر : دى لابورت ، نفس المرجع ، ص ٨٨ وما يليها

الدولة فيها واسمهم عمورو كما تقدم ، ثم سموهم « عريبى » ومعناها أهل المغرب أيضا . والطبرى يسمى جد العمالقة « عريب »

(٣) أن بين لغة بابل التى خلفتها دولة حمورابى فى ما بين النهرين واللغة العربية مشابهة لا توجد بينها وبين سائر اللغات السامية ـ منها ، أولا : حركات الاعراب (الرفع والنصب والجر) فانها فى لغة بابل كما هى فى العربية تماما ، ولا وجود لها فى سائر اللغات السامية قديما ولا حديثا ، الا آثارا منها فى لغة بطرا وتدمر (١) لان أهلهما من بقايا العمالقة وسيأتى بيان ذلك. ثانيا : التنوين فانه فى البابلية ميم وفى العربية نون وهما تتبادلان . ثالثا : علامة الجمع فى البابلية « ون » كما فى العربية ، وهى « ين » فى السريانية ، و « يم » فى العبرانية . رابعا : صيغ الافعال فى البابلية أقرب الى الصيغ العربية مما الى سائر اللغات السامية . خامسا : ان بعض الاسماء التى سقط بعض حروفها بالاستعمال فى السريانية والعبرانية لا تزال محفوظة فى البابلية كما فى العربية ، مثل « انف » فانها كذلك فيهما وقد سقطت نونها فى العبرانية والسريانية . ومما يستحق الالتفات أن معظم هذه الخصائص تشترك فيها العربية والبابلية (الاشورية) دون اللغة السريانية أو الكلدانية ، مع ان هذه متخلفة عن البابلية . ولكن يظهر أن الكلدانية فقدت هذه الخصائص بتوالى الاجيال بالحضارة وحفظها العرب لبداوتهم ، لان اللغة مع خضوعها لناموس الارتقاء فى التنوع والتغير فهى أحفظ لنفسها فى البادية مما فى المدن ، بل هى تتغير بالانتقال من البداوة الى الحضارة وليس بتوالى الازمان عليها (٢)

(٤) ان أسماء ملوك هذه العائلة عربية التركيب والمعنى ، مثل «ساموابى» أى « أبى سام » و « شمسو ايلونا » أى الشمس الهنا (٣) ، وقد عثروا فى آثار هذه الدولة ببابل على أعلام كثيرة تشبه الاعلام العربية مشابهة كلية لفظا ومعنى . ولا يخفى ما لهذا الدليل من قوة الحجة ، لان كل أمة تمتاز بتسميات خاصة ، حتى اننا لنعرف جنس الرجل من معرفة اسمه ، فاذا كان اسمه تقولايدس ، أو قسطنطيندس مثلا عرفنا أنه يونانى ، واذا كان اسمه فرحيان ، أو لكيجيان ، أو كركور ، عرفنا انه ارمنى . وبمثل ذلك نعلم أن وطسن ، وجكسن ، وروبرتسن من أسماء الانجليز ، ووستنفيلد ، وشيلر ، ونويفلد ، من أسماء الجرمان ، وبانيه ، وهاشت ، وفلاماريون ، من أسماء الفرنسيين . حتى انك تعرف مسقط راس الرجل من اسمه . وعلى هذا القياس نحكم على عربية دولة حمورابى اذ كانت أسماء رجالها عربية ، وهذا جدول من أسمائهم وما يقابلها من الاسماء العربية فى اليمن وغيرها : (٤)

(١) Encyc. Brit. XXI 651 Art. Sem (٢) Dussaud, 108
(٣) King, 240 (٤) Babylonan Expedition, vol. III

الاسماء البابلية	يقابلها فى العربية	الشعب العربى الذى يتبعه صاحب الاسم
ابى يشوع	ابيشع	سبأ
عمى زادوفا	عم صدق	سبأ
يدح ايلو	يدع إيل	»
شمسو	شمس	» والصفا
عبدايل	عبدايل	» »
عبدو	عبد	» »
خليلو	خليل	» »
يديح	يدع	» »
يديحت	يدعت	» »
اخى ودايل	ودايل	» »
عزيرو	عزرائيل	» »
يملك ايلو	ملك ايل	» »
نفسان	نفس	» »
بلال	بلال	عدنان
دريك	مدركة	»
نكارو	نكور	»
قرانو	قرين	»
صعصعة	صعصعة	»

(٥) ان معبودات البابليين كثيرة الشبه فى أسمائها وأسماء الذين ينتسبون اليها بأقدم آلهة العرب فى اليمن وغيرها ، مثل ايل ، وبل ، وشمس ، واشتار ، وسين ، وسمدان ، ونسر ، ويثع ، كما سنفصله فى كلامنا عن أديان العرب قبل الاسلام

(٦) ان الحمورابيين اتخذوا بابل قصبة لملكتهم على حدود البادية ، قرب المكان الذى اختاره اللخميون كرسيا لدولتهم « الحيرة » بعد ذلك بنحو ثلاثين قرنا ، والمكان الذى اختاره العرب المسلمون فى أيام بداوتهم « الكوفة » عملا برأى عمر ، حتى « لا يكون بينه وبين المسلمين ماء ، فاذا أحب أن يركب راحلته اليهم ركبها »

العمالقة في مصر

أو دولة الشاسو « هيكسوس »

من سنة ٢٢١٤ – ١٧٠٣ ق٠م

السامیون في مصر

من الاقوال الشائعة أن سكان وادى النيل القدماء من الشعوب الحامية نسبة الى حام ، أو الكوشية نسبة الى ابنه كوش ، كما كان سكان وادى الفرات ودجلة من الشعوب الطورانية . وقد نشأ الساميون فى البادية بين هذين الواديين كما تقدم ، وأخذوا يتسربون اليهما والى العامر بينهما على شواطىء البحر المتوسط فى سوريا وفلسطين ، وتدرجوا فى ذلك من التسرب الى المهاجرة فالفتح والاستيلاء فى بابل وفلسطين والشام

أما مصر فقد نزح الساميون اليها من عهد قديم جدا . ويؤخذ من الاكتشافات الاثرية الاخيرة أن العصر الحديدى بمصر يبدأ بدخول الساميين اليها ، أى ان المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية ، فأتاهم الساميون بالحدادة فىأقدم أزمنة التاريخ المصرى، ولعلهم حملوا اليهم ذلك من وادى الفرات عن تمدن سومرى الاصل ، اكتسبه الساميون بالمجاورة قبل فتح بابل وحملوه الى مصر . ومما يستدلون به على قدم نزوح الساميين الى مصر أن أقدم آلهة المصريين « فتاح » سامى الاصل (١)

جاء الساميون مصر من الشرق اما بطريق برزخ السويس أو بالبحر الاحمر ، ولذلك ما برح المصريون منذ القدم يسمون بلاد العرب « الارض المقدسة » أو « أرض الآلهة » ، وعرفوا من الساميين عدة شعوب سموا كلا منها باسم ، وأطلقوا عليهم جميعا لفظ « عامو » أو « آمو » ، وهو سامى الاصل معناه الشعب (الامة أو العامة) ، وذكروا أنهم نزلوا أطراف الدلتا وشرقيها بجوار بحيرة المنزلة . ولا تزال بعض الاماكن هناك تعرف بأسماء سامية (٢) وفى هليوبوليس (عين شمس) أدلة كثيرة على أصل سامى فى عمرانها (٣) . وكانوا يميزون الشعوب السامية بأسماء خاصة منها « خار » أو « خال » يريدون به الفينيقيين

وكانوا يسمون أهل البادية من الساميين « شاسو » أى البدو وهم العرب أو العربى عند البابليين والمعنى واحد . وكان الشاسو يتنقلون فى بادية

---

(١) King 40, 43 & 93 (٢) Brugsch. 1, 14 & 230 (٣) King 134


خريطة بلاد العرب
في القرن العشرين قبل الميلاد
دولة حمورابي
العمالقة
بلاد العرب
(عربيا او عمورو)
البحر المتوسط
قبرص
سوريا
فلسطين
حلب
حماه
تدمر
اورشليم
اودوم
صيدا
صور
عسقلان
غزة
الفرات
كالدو
اور
بابل
الشاسو
بادية الشام
بادية العراق
بدو
بادية العرب
صحراء ليبيا

مصر الشرقية بين النيل والبحر الاحمر كما يتنقل فيها بدو هــذه الايام . وكان المصريون القدماء يسمون هــذه البادية « تشر » أى الارض الحمراء تمييزا لها عن وادى النيل واسمه « كيمى » الارض السوداء (١) ولم يكن الشاسو يقتصرون فى مضاربهم على تلك الصحراء بل كانوا يرحلون بينها وبين جزيرة سيناء وما وراءها وربما اتصلوا باخوانهم بدو العراق لانهم جميعا من أصل واحد و « شاسو » و « عرب » بمعنى واحد

وكان للعرب فى جزيرة سيناء وما يليها سيادة وحكومة من اقدم ازمنــة التاريخ . فقــد جاء فى آثار بابل أن نرام سين بن سرجون المتقدم ذكره حارب قبيلة فى تلك الجزيرة واسمها مغان سنة ٣٧٥٠ ق.م ، وأسر اميرها وحمل بعض أحجارها (٢) الى بلده . وجاء فى تلك الآثار أيضا أن رجال هــذه القبــيلة كانوا يشتغلون بنقل التجارة برا الى بابل نحو سنة ٢٥٠٠ ق.م (٣) وكذلك قبيلة ماليق المتقدم ذكرها . ويظهر ان الشاسو كانوا قبل نزولهم بادية مصر يقيمون فى أرض مديان وراء جزيرة ســيناء لان لفــظ الشباسو يطلق أيضا على تلك الارض وهى قديمة فى التاريخ جاء ذكرها فى آثار بابل سنة ٣٧٥٠ ق.م

دولة الشاســو

فهؤلاء البدو (أو الرعاة) كانوا يتنقلون فى شرقى وادى النيل كما كان بدو الآراميين يتنقلون غربى وادى الفرات ، وكان الشاسو كثيرا ما يسطون على المصريين فى مدنهم أو يقطعون عليهم السابلة للغزو والنهب من عهد مينا أول ملوكهم (٤) والمصريون يدفعون هجماتهم ويعدونهم من الاشقياء وأهل الدعارة والسلب ويحتقرونهم لكنهم كانوا يخافونهم ، وكثيرا ما كان الفراعنة يستعينون بهم فى حروبهم بعضهم على بعض لما كانوا يعرفونه فيهم من الشدة والشجاعة مثل سائر أهل البادية

ظل الشاسو دهورا على ما تقدم حتى سنحت لهم فرصة وثبوا بها على مصر وملكوها ــ وكيفية ذلك أن سنهات بن امنمحعت ملك مصر لما مات أبوه فى اواخر الدولة الثانية عشرة المصرية فر الى فلسطين من وجه أوسرتسن(*) الذى خلف أباه ــ وقلما كان المصريون يخرجون من وادى النيل قبل ذلك الحين ــ وتزوج ســنهات هناك ابنة ملــكها عموانشى وتولى بعض أعمــال الشام . ولما شاخ سنهات نال العفو وعاد الى بلده ، فجر ذلك الى علائق

---

(١) Brugsch, 1, 16 (٢) King, 158

(٣) Grimme, II (٤) Brugsch, 1, 51

(*) هذا هو الاسم القديم لهذا الملك ، وقد صحح اليوم الى سينوسرت

متبادلة بين البلدين . ففى عهد أوسرتسن الثانى شخص الى مصر ملك عربى اسمه ايشع وزار خنوممتت أمير ولاية أورينكس فى مصر الوسطى ، وترى ذلك منقوشا على قبر هذا الملك فى بنى حسن . وبعد قليل خرج أوسرتسن الثالث لفتح فلسطين انتقاما من ملكها ، فتحاكت المصالح . ونقم الساميون جملة على المصريين ، فاغتنم العمالقة هذه الفرصة ووثبوا على مصر السفلى وملكوها بضعة قرون ، نحو الزمن الذى تملك به العرب بابل

ففى نهضة عربية منذ نيف واربعة آلاف سنة تشبه نهضة العرب فى صدر الاسلام — وللأمم أدوار تثب فيها وتغلب . فاغتنم العمالقة ضعف دولة النيل ودولة الفرات ، كما اغتنم المسلمون ضعف الروم والفرس بعد ذلك بثلاثين قرنا وكانت مصر على عهد الشاسو مضطربة وحكامها فى ضعف وانقسام ، كما كان الروم فى أواخر دولتهم . ووجد الشاسو فى مصر السفلى من ينصرهم من أبناء لسانهم « الخار » أو الفينيقيين ، كما وجد المسلمون فى الشام والعراق من الامم السامية المغلوبة على أمرها كالانباط والعبرانيين . ففتح العمالقة الوجه البحرى الى منف ، وتقهقر الفراعنة الى الصعيد فى أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وما زالت مصر فى حوزتهم الى أول القرن الثامن عشر ، وعرفت دولتهم بدولة البدو ، واليونان يسمونهم هيكسوس Hyksos ، والعرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة

وأما ما يعلمه العرب من أخبارهم فهو « أن بعض ملوك القبط استنصر ملك العمالقة بالشام لعهده — واسمه الوليد بن دومغ ، ويقال ثوران بن اراشة بن فادان بن عمرو بن عملاق — فجاء معه وملك مصر واستعبد القبط ، ومن ثم ملك العماليق مصر . ويقال ان منهم فرعون ابراهيم ، وهو سنان بن الاشل ، وفرعون يوسف وهو الريان بن الوليد ، وفرعون موسى وهوالوليد ابن مصعب . وذكر آخرون أن الريان بن الوليد يسميه القبط نقراوش ، وان وزيره كان اطفير وهو العزيز صاحب قصة يوسف الخ » . (١) فهذه الرواية ، مع اختلاطها واختصارها — تشبه ما قراوه على الآثار عن الفرصة التى سنحت للعمالقة حتى وثبوا على مصر

هل الشاسو عرب ؟

أول من نبه الاذهان الى أن الشاسو المشار اليهم عرب يوسفوس ، المؤرخ الاسرائيلى المتوفى فى أواخر القرن الاول للميلاد ، نقلا عن مانثون المؤرخ

---

(١) ابن خلدون ٢٧ ج ٢

الاسكندري المتوفى فى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد ، فى معرض كلامه عن نشوء دولة الشاسو ، قال :

« واتفق على عهد تيماوس أحد ملوكنا أن الاله غضب علينا ، فأذن لقوم لا يعرف أصلهم جاءوا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا ، وغلبونا على بلادنا وأذلوا ملوكنا واحرقوا مدننا وهدموا هياكلنا وآلهتنا ، وساموا الناس ذلا وخسفا فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والاولاد ، ثم نصبوا عليهم ملكا منهم اسمه « سلاطيس » أقام فى منفيس ، وضرب الجزية على مصر أعلاها وأسفلها ، وأقام الحامية فى المعاقل لدفع الاشوريين عن وادى النيل اذا طمعوا فيه ، وبنى مدينة أوارس فى ولاية صان لهذه الغاية وحصنها بالابراج والقلاع والاسوار ، وأكثر من حاميتها حتى بلغ عددهم ٢٤٠,٠٠٠ ، وكان سلاطيس يأتى اليها فى الصيف لجمع الحنطة ودفع رواتب الجند وتمريسهم بالحرب . وبعد ١٣ سنة من حكمه خلفه ملك أسمه بيون وحكم ٤٤ سنة ، وجاء بعده اباخناس حكم ٣٦ سنة وسبعة أشهر ، ثم أبو فيس ٦١ سنة ، وبانياس ٥٠ سنة وشهرا ، واخيرا حكم أسيس ٤٩ سنة وشهرين . وهؤلاء الستة أول من حكم من ملوكهم ، ولم يكفوا عن محاربة المصريين لانهم كانوا يلتمسون ابادتهم . وكانت هذه الامة تسمى هيكسوس Hyksos أى ملوك الرعاة ، لانها مؤلفة من « هيك » باللغة المقدسة ملك و « سوس » : « راعى » ، ولكن البعض يقولون انهم عرب (١)



ويرى بروكش أن لفظ هيكسوس ترد فى الاصل الهيروغليفى الى لفظين : هيك ، وشاسو — الاول ملك ، والثانى « بادية » أو «بدو» ، وان الهيكسوس هم البدو الذين كانوا يتنقلون فى الصحراء الشرقية أى العرب . ولم يعثروا على أسم هذه الدولة فى الآثار المصرية ، ولا وقفوا الا على النزر القليل من آثارها . وجاء فى الآثار أن اقواما غرباء تسلطوا على مصر السفلى حتى أخرجهم ملوك طيبة ، وكانوا يسمون بلغة العامة « مين » أو « منتى » من بلد اسمها بلسانهم « أشر » ويريد بها الشام ولكنها أقرب الى أشور . أما فى اللغة المقدسة (الهيروغليفية) فاسمهم روتنو ، أو لوتنو ، وهم أهل الشام فى اصطلاحهم . فالظاهر أن تلك الدولة كانت مؤلفة من الشاسو والفينيقيين وغيرهم من أهل الشام ، وكلهم ساميون وربما كان فيهم فرقة من عمالقة العراق . .

ولا خلاف فى أن العنصر السامى تكاثر بمصر على عهد الشاسو من اليهود وغيرهم ، ولكن سلطتهم انحصرت فى الوجه البحرى وظل المصريون متسلطين فى الصعيد ، كما ظل الروم بعد الفتح الاسلامى متسلطين فى القسطنطينية ،

---

(١) Josephus, Wars of the Jews, I. 19

وقد سنحت للفراعنة فرصة أخرجوا فيها العماليق من بلادهم ، ولم يستطع الروم ذلك مع المسلمين . والارجح فى اعتقادنا أن العماليق لم يتوارثوا الحكم بمصر وانما كانوا يتناهبونه على غير نظام . وربما اقتسم الساميون تلك السيادة ، فاستولى الفينيقيون وهم من حضر الساميين (خار) على منازلهم بجوار المنزلة ، واستولى العماليق وهم بدو الساميين على أطراف الدلتا . ولم يصل الينا من أسماء ملوكهم الا الذين عاصروا العائلة الخامسة عشرة ، وواحد من السادسة عشرة ، وواحد من السابعة عشرة ، ذكرهم مانيثون مع سنى حكمهم على هذه الصورة :

اسم الملك	مدة الحكم	اسم الملك	مدة الحكم
سلاطيس	١٣ سنة	بانياس	٥٠ سنة
بيون	٤٤ «	أسيس	٤٩ «
أبا خناس	٣٦ «	أبابى الاول	.. «
أبو فيس	٦١ «	أبابى الثانى	.. «

وكانت مصر السفلى لا تزال عرضة للفيضان ، يغمرها الماء كل عام وتتعطل بها الاعمال ، ولم يستطع المصريون اخراجهم منها ولكنهم منعوهم من الصيد وهى أكثر عمرانا وثروة . ولم يقض الشاسو على التمدن المصرى كما قضى اخوانهم الحمورابيون عمالقة العراق على التمدن السومرى أو الاكادى . ولم يكن لهم تأثير فى العمران المصرى كما كان لاولئك قبلهم ، وكما كان للعرب المسلمين بعدهم

وقد عنى الدكتور بروكش المشار اليه بدرس هذه المسألة ، وخلاصة ما رآه ان الملوك الغرباء الذين يسميهم المصريون « منتى » حكموا شرقى مصر مدة طويلة ، وقصبة ملكهم زوان وهوار واواريس على فرع بلوسيوم وفيها حصونهم ، وقد تطبع أولئك الغرباء بطبائع المصريين واقتبسوا عاداتهم ، وتكلموا لسانهم وكتبوه وقلدوهم فى نظام الحكومة ، وكانوا يحبون العمارة فاستخدموا المصريين فى بناء المدن على النمط المصرى ، الا تماثيل كبرائهم فجعلوا لها شعرا فى الرأس والذقن وغيروا لباسها ، وكانوا يعبدون الاله نوب والالهين ست وسوتخ وسموه نوب (الذهب) وهو عند المصريين أصل الشرور ، وبنوا لهما فى زوان واواريس معابد فخمة ، ونحتوا التماثيل بشكل أبى الهول وغيره على حجارة من الصوان . وكانوا يؤرخون من زمن ملك اسمه (نوب) فبلغ تاريخهم بعده ٤٠٠ سنة ، واقتبس المصريون من مخالطة العمالقة معارف كثيرة ، ولا سيما من حيث الابنية ، فأخذوا عنهم أشكالا جديدة ، ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم

على أن الآثار التى كشف عنها المنقبون من بقايا هذه الدولة قليلة ، ولعل السبب فى ذلك أن الفراعنة الذين جاءوا بعدهم محوا أسماءهم عن تلك الآثار ، الا اسمين قراوهما : « رعاكنن » من عائلة أبوبى و « نوبتى » أو « نوب » ومعه موظف اسمه « ست اليهوتى » ، فالاسم الاول ينطق بلغة ممفيس « افوفى » يقرب بلفظه من أبوفيس الذى ذكره مانيثون . ومع غموض أخبار هذه الدولة ، وفق المرحوم دى روجه لحل رموز قطعة من البردى فى المتحف البريطانى ، هى مخابرة بين أبوبى المذكور ونائب من نوابه مصرى ، جاء فيها انتقاد هذا الملك لأنه اختار « ست » الاله للعبادة دون سواه وتكريم سوتخ ، وانه أجبر الوطنيين على أداء الخراج فى حديث طويل أورده بروكش (١)

ويؤخذ من أبحاث بروكش أيضا أن يوسف الصديق جاء مصر فى زمن نوب سنة ١٧٥٠ ق.م ، وان فى أيامه حدثت المجاعة

فالرعاة أو الشاسو ساميون ، بدليل ما تقدم ، وبما عثروا عليه من الاسماء السامية المنقوشة على الآثار فى عهدهم ، ودخول ألفاظ سامية أخذوها عن اليهود وغيرهم وأدخلوها فى لسانهم ، كالراس ، والكاهن ، والبركة ، والبئر ، والبيت ، والباب ، وغيرها ، ومن أسماء الحيوانات : الجمل ، والفرس ، ومن أسماء الناس عديروما ، وبعل مهور ، وبيت بعل ، وغيرها (*) — لكنا نرجح كونهم عربا للأسباب الآتية :

١ — ما ذكره يوسيفوس نقلا عن مانيثون كما تقدم

٢ — ما رواه العرب فى كتبهم عن عمالقة مصر وقد نقلناه

٣ — ان لفظ هيك شاسو كانوا يظنون معناها ملوك الرعاة ثم وجدوا أنها « ملوك البدو أو البادية » (٢) وهم العرب

٤ — ورد فى الآثار المصرية أن الهيكسوس جاءوا قديما من بلاد العرب

٥ — ان الاسماء التى كان الساميون يعرفون بها تنتهى بالضم ، وهى حركة الاعراب للرفع مثل قولهم : عامو ، ولوتنو ، وشاسو ، وذلك خاص من اللغات السامية بالعربية والبابلية

٦ — ان المصريين لم يكونوا يستخدمون الخيل والمركبات الا بعد دولة الرعاة (٣) والعرب انما غلبوهم بها (٤)

٧ — ان المصريين ما زالوا بعد خروج العمالقة من بلادهم وهم يناصبونهم

---

(١) Brugsch, 1.274

(*) لم استطع تحقيق هذه الاسماء فتركتها على حالها ، وعلى أى حال ، فقد تغيرت المعلومات بالنسبة للهكسوس تغيرا تاما

(٢) Brugsch, II, 402 (٣) Maspero, II. 51 (٤) King, 140

العداء ويخرجون اليهم فى أرضهم كما فعل رعمسيس الثانى ، وتوتمس . والعرب كانوا يهاجمونهم فى بلادهم ويضايقونهم بغزواتهم ، وكلما استنصرهم فاتح على مصر نصروه كما فعلوا بنصرتهم الفرس

وجملة القول يرجح أن عمالقة العراق ومصر من بدو الآراميين أو اللاوذيين فاذا صح أن مهد الساميين جزيرة العرب ، فهم من جملة من نزح منها الى الشام والعراق فى الزمن القديم ، وظلوا على بداوتهم فى الصحراء . واذا كان منبت الساميين ما بين النهرين أو غيرها ، فالساميون وجدوا فى القرن الاربعين أو الخمسين قبل الميلاد ، فى بوادى الشام والعراق وسينا ومصر ، فسكن بعضهم المدن وظل البعض الآخر بدوا حتى أتيح لهم الاستيلاء على العراق فى القرن ٢٥ ، ثم مصر فى القرن ٢٣ ق.م . وكان المصريون قبل العمالقة محصورين فى بلدهم لايعرفون عن سائر العالم شيئا ، فأصبحوا بعد خروجهم أصحاب خيل ومركبات ، فحملوا على سوريا وفلسطين وجزيرة العرب وبابل كما سنذكره (*)

بقايا العمالقة

بعد خروجهم من العراق ومصر

لما خرج عمالقة العراق من بين النهرين ، وعمالقة مصر من وادى النيل ، تفرقوا فى جزيرة العرب قبائل وأفخاذا ، وانشأوا دولا فى اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب ، ومنها القبائل البائدة وهم الذين يعرفهم العرب . أو لعل هذه القبائل من بدو الآراميين الذين لم يدخلوا العراق ولا مصر ، وهى ترجع بأنسابها الى ارم . وأهم القبائل البائدة عند العرب عاد وثمود وطسم وجديس . ونضيف اليها دولا ذات شأن لم يعرفها العرب ، نعنى الانباط خلفاء الادوميين فى جزيرة سينا الى فلسطين ، ودولة تدمر بين الشام والعراق كما سيأتى (**)

عاد

وارم ذات العماد

عاد من الامم الآرامية ، ولذلك سميت أيضا « عاد ارم » ، وجاء ذكرها فى القرآن الكريم « عاد ارم ذات العماد » ، فالتبس على المؤرخين لفظ « ارم » وظنوا ذات العماد صفة له ، فزعموا انه اسم مدينة بناها عاد اختلفوا

(*) وأضيف الى ما ذكره المؤلف ان ابن خلدون فى حديثه عن مصر ذكر ان الضجاغم منهم كانوا يعمرون سينا وصحراء مصرالشرقية ، ولكن هؤلاء لميكونوا كبقية البدو أهل حضارةومعرفة بالعجلات وهم تبعا لهذا لم يدخلوها الى مصر . أما ما يذكره من ان الهيكسوس أدخلوا الحديد فى مصر وعلموا المصريين صهره واستعماله فمرده أسطورة قديمة تنسب اكتشاف صهر الحديد الى رجل يسمى طوب القين يقال انه كان من أهل جزيرة سينا

(**) هذا غير ثابت تاريخيا ، والمؤلف يتابع رواة العرب فيما يذكرونه عن العرب البائدة من أخبار

فى مكانها . فقال بعضهم انها الاسكندرية ، وقال آخرون دمشق ، وربما ذهبوا الى ذلك أيضا لان ارم من أسماء دمشق بالعبرانية . وذهب غيرهم انها فى اليمن ، وان شدادا بن عاد بناها لينافس بها قصور الذهب والفضة فى الجنة التى تجرى من تحتها الانهار — قالوا انه كتب الى عماله أن يجمعوا جميع ما فى أرضهم من الذهب ، والفضة ، والدر ، والياقوت ، والمسك ، والعنبر ، والزعفران ، فيوجهوا به اليه ، ثم وجه الى جميع المعادن فاستخرج ما فيها من الذهب ، والفضة ، ثم وجه ثلاثة من عماله الى الغواصين فاستخرجوا الجواهر فجمعوا منها أمثال الجبال ، وحمل جميع ذلك اليه ثم وجهوا الحفارين الى معادن الياقوت ، والزبرجد ، وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمرا عظيما ، فأمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ، ثم بنى بذلك المدينة . وأمر بالدر ، والياقوت ، والجزع ، والزبرجد ، والعقيق ، ففصص به حيطانها ، وجعل لها غرفا من فوقها غرف بعمد ، جميع ذلك بأساطين الزبرجد ، والجزع ، والياقوت . ثم أجرى تحت المدينة واديا ساقه اليها من تحت الارض أربعين فرسخا كهيئة القناة العظيمة ، ثم أمر فأجرى فى ذلك الوادى سواقى فى تلك السكك والشوارع والازقة ، وأمر بحافتى ذلك النهر وجميع السواقى فطليت بالذهب الاحمر ، وجعل حصاه أنواع الجوهر بألوانه ، ونصب على حافتي النهر والسواقى أشجارا من الذهب مثمرة ، وجعل ثمرها من تلك اليواقيت والجواهر ، وجعل طول المدينة ١٢ فرسخا وعرضها مثل ذلك ، وصير سورها عاليا وبنى فيها ...ر٣٠٠ قصر مرصفة ومرصعة ، وبنى لنفسه فى وسط المدينة على شاطىء ذلك النهر قصرا منيعا يشرف على تلك القصور . وجعل بابها يشرع الى الوادى ، ونصب عليه مصراعين من ذهب مفضضين بأنواع اليواقيت ، وأمر باتخاذ بنادق المسك والزعفران فألقيت فى تلك الشوارع . وجعل ارتفاع تلك البيوت فى جميع المدينة ٣٠٠ ذراع ، والسور ٣٠٠ ذراع ، مفضضا خارجه وداخله بأنواع اليواقيت وغيرها ، وبنى خارج السور كما يدور ...ر٣٠٠ منظرة بلبن الذهب لينزلها جنوده ، مكث فى بنائها ٥٠٠ عام (١)

ففى هذه الاقوال مبالغات لم يسمع بمثلها فى المعقولات ، وانما عمدوا اليها لاعتقادهم أن « ارم » مدينة ، ورأوا أبنية الروم فى الشام والفراعنة بمصر فأرادوا أن تكون مدينة عاد أعظم منها وأفخم . والصحيح فى اعتقادنا أن « ارم » اسم القبيلة ، فقالوا : عاد ارم ، كما قالوا : ثمود ارم (٢) . والقبائل البائدة كلها عند العرب من نسل ارم ، ويعرفون بالارمان (٣) كما تقدم . ويؤيد ذلك ان اليونانيين ذكروا فى جملة قبائل اليمن حوالى تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم Adramitai ، وقد يتبادر الى الذهن أن المراد بها « حضرموت » ولكن هذه يكتبونها باليونانية Xadramotitai وباللاتينية

---

(١) ياقوت ٢١٣ ج ١ (٢) ابن خلدون ٧١ ج ٢ (٣) حمزة ١٢٢ و ١٢٨

Chattamotitai ، وقد أوردوا اللفظين معا . فلو ارادوا قبيلة واحدة لما ذكروهما معا ، فالارجح أن Adramitai يراد بها العادرميون أو العاديون

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ، ويزيدون انها اقدم من العمالقة ، ولا سبيل الى تحقيق ذلك لان ما ذكروه عنها محشو بالمبالغات والخرافات ،كقولهم ان طول الرجل منهم ٧٠ ذراعا الى مئة ذراع ، وراس أحدهم كالقبة العظيمة ؛ وعينه تفرخ بها السباع . ولم يذكروا من ملوكها الا بضعة أولهم عاد ، قالوا انه عاش ١٢٠٠ سنة ، وانه تزوج ألف مرة ، وولد له اربعة آلاف ولد ذكر لصلبه . واعتدل بعضهم فجعل عمره ٣٠٠ سنة ، ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة ، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الامة ولا يعرفون من ملوكها الا نفرا قليلا ، فجعلوا أعمارهم طويلة لتسع ذلك القدم ، وترتب على طول أعمارهم تعدد الزوجات

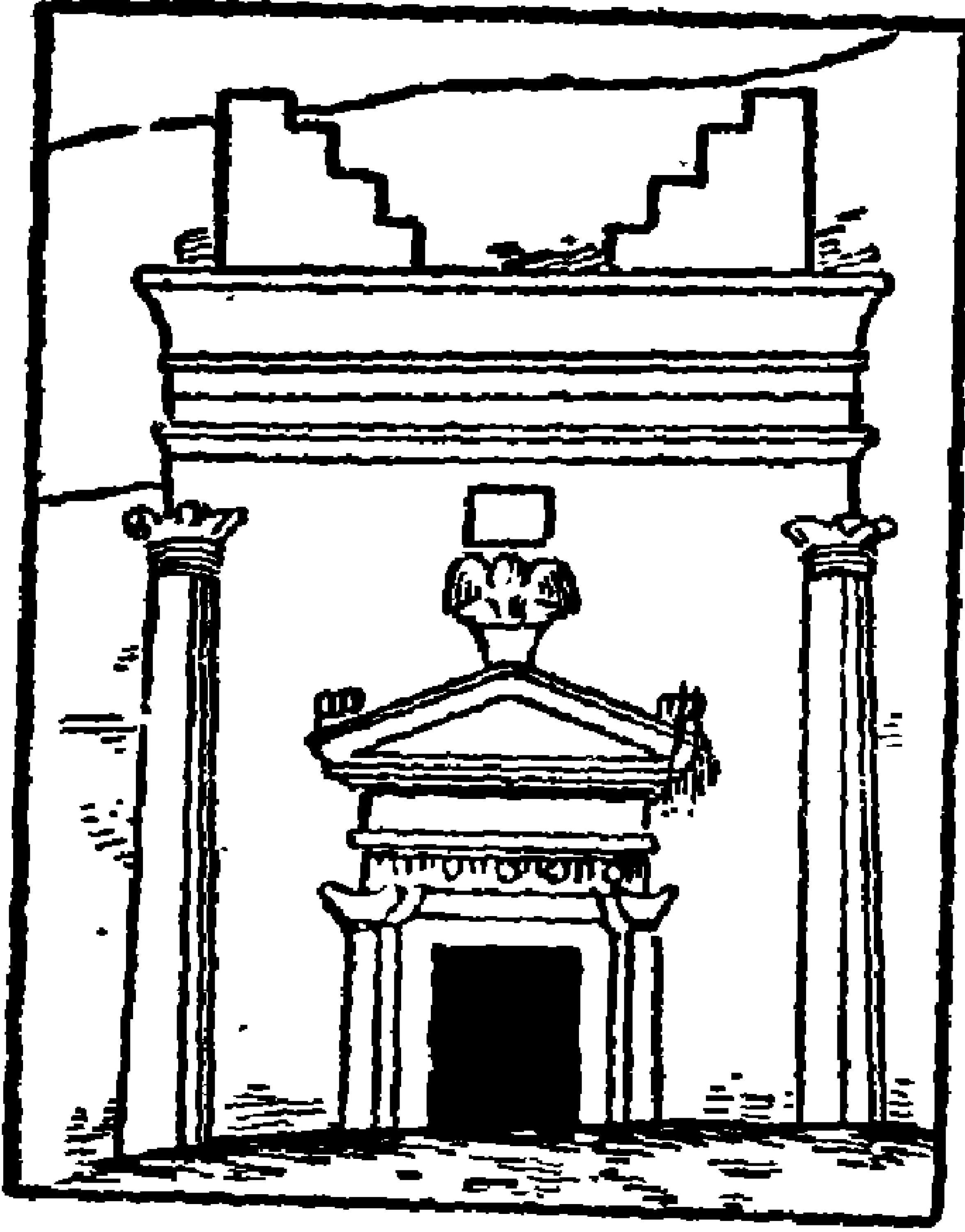
ويقال نحو ذلك فى ما ذكره من أعمار خلفاء عاد وهم شديد وشداد . والى شداد هذا ينسبون اعظم أعمال هذه الدولة ، ويقولون انه فتح كثيرا من بلاد الشام ، والعراق ، ومصر ، والهند ، قولا مبهما لم نجد فى أخبار تلك الامم ما يؤيده ، أو لعلهم يريدون بعاد بعض العمالقة . والقرآن الكريم ذكر عادا فى سياق العبرة بما أصابهم من القصاص ، لتكذيبهم هودا وهو نبى منهم دعاهم الى عبادة الله وترك ما كانوا يعبدونه من الحجارة والاخشاب ، فأبوا فأصابهم قحط ثلاث سنوات أعقبته زوابع واعصار نزلت بهم فأهلكتهم ، والقصة ملخصة فى سورة الاعراف . وبقى هود وجماعة ممن آمن بدعوته اقاموا حينا وعرفوا بعاد الثانية ، ويزعمون أنهم هم الذين بنوا سد مأرب ، وظل حكمهم ألف سنة حتى غلبهم القحطانية فلجأوا الى حضرموت حتى انقرضوا (١)

وعثرالمنقبون فىآثار بلاد العرب على نتف من بقايا كثير من الدول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم الا عادا فانهم لم يروا لها ذكرا . على أن العرب تعودوا اذا راوا اطلالا قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها أن يسموها « عاية » ، وجاء فى معجم ياقوت بمادة جش قوله : « جش ارم — جبل عند آجا أحد جبلى طىء ، أملس الاعلى سهل ، ترعاه الابل والحمير كثير الكلأ ، وفى ذروته مساكن لعاد ارم ، فيه صور منحوتة فى الصخر » . وقال فى مادة صير : « والصير — جبل بآجا فى ديار طىء ، كهوف شبه البيوت » . ولعل بين تلك النقوش وهذه البيوت نسبة ، فعسى أن يوفق الرواد الى كشفها وقراءتها ، كما قرأوا مثلها فى حوران والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن

---

(١) وترى قصة عاد مطولة فى ابن خلدون ٢٤ ج ٢ وياقوت ج ١ وأبى الفداء ١٠٢ ج ١ وغيرها

ثمود


قصر البنت فى الحجر (مدائن صالح)

ذكرت ثمود فى القرآن مع عاد ، لان المراد بهما واحـــد من حيث العبرة والموعظة . فبعد ان ذكر خبر عاد عطف على ثمود فقــال : « والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخـــذون من ســهولها قصـــورا وتنحتون الجبـــال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين اســتضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لـكم ولـكن لا تحبون الناصحين »

هــذا خبر ثمود ، ولم يزد المؤرخون عن أن وسعوه وشوهوه بمبالغات لا فائدة من ذكرها . والمشهور فى كتب العرب أن ثمودا كان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح ، فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى الى مكة ، وقد وصلت السكة الحديدية الحجازية الى الحجر فى سنة ١٩٠٧ ، وكان اليهود يسكنونها قبل الاسلام (١)

على ان ارتباطها بعاد يقتضى تقاربهما بالمكان، ولذلك قالوا ان ثمودا كانت فى اليمن قديما ، فلما ملكت حمير أخرجوها الى الحجاز (٢) . ولم يكشف لنا حتى الآن ما يؤيد هذا القول . وذكرت ثمود فى جملة البلاد التى غلبهـا سرجون الاشورى سنة ٧١٥ ق.م ، فى الحجاز (٣) ، ويؤخذ من سياق الوصف انها كانت بجوار مكة أى جنوبى الحجر ، وجاء ذكرها فى كتب اليونان نحو تاريخ الميلاد وبعــده ، وعينــوا مكانها فى الحجر ، وهم يســمونها ثمودينى Thamudeni والحجر يسمونها Agra . وبجانب الحجر مكان يسميه العرب

(١) البكرى ٣٠   (٢) أبو الفداء ٧٠ ج ١   (٣) Clay, 338

فج الناقة فسماه بطليموس Badanata ، وذكر أبو اسماعيل صاحب كتاب فتوح الشام أن ثمودا ملأوا الارض بين بصرى وعدن (١) ، فلعلها كانت فى طريق هجرتها نحو الشمال ، ولا يخرج الحكم فى ذلك عن التخمين

واما الثابت من قراءة الآثار أن مدائن صالح (الحجر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد فى حوزة النبطيين سكان بطرا الآتى ذكرهم ، بدليل ما على أطلال تلك المدائن من الكتابة النبطية . والاطلال المشار اليها زارها غير واحد من المستشرقين ، كما ذكرنا فى مقدمة هذا الكتاب ، ودرسوا بقاياها وهى منقوشة فى الصخر ، اهمها انقاض تعرف بقصر البنت ، وقبر الباشا ، والقلعة ، والبرج

وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية ، فاذا أكثرها أوكلها تبركات منقوشة على القبور . هذا مثال منها وجدوه فى الحجر بالحرف النبطى وتاريخه حوالى الميلاد :

« هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لانفسهن وذريتهن فى شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فعسى ذو الشرى وعرشه (؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها ومن يخالف ما كتب عليه فليلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها الف درهم حارثى الا من كان بيده تصريح من يد كمكم أو كليبة ابنتها بشأن هذا القبر والتصريح المذكور يجب أن يكون صحيحا . صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة » (٢)

فليس فى أمثال هذه النصوص أهمية تاريخية الا بالنظر الى أسماء الاعلام الواردة فى عرض الكلام ، ولم يقفوا على ما يستحق الذكر منها حتى الآن . واللغة المنقوشة على أطلال الحجر آرامية مثل لغة بطرا ، وسنعود الى الكلام عنها فى كلامنا عن الدولة النبطية لانها ليست لغة ثمود نفسها . أما ثمود فاذا كانت من عرب الجنوب فيقتضى أن تكون لغتها قريبة من لغة اليمن ، وكتابتها بالحرف المسند الذى كان يكتب به أهل اليمن القدماء ، وقد وجدوا تنوعات من هذا القلم فى أماكن مختلفة من الحجاز ، منقوشة على الحجارة فى العلاء جنوبى الحجر بتاريخ أوائل الميلاد (٣) قرأوا فى بعضها أسماء ملوك لحيان فسموها لحيانية ، وسموا البعض الآخر — وهو يختلف قليلا عن ذاك — ثمودية . وعثروا على كتابات لفرع ثالث من المسند فى جبل الصفا بحوران فسموه صفويا . فهذه فروع للخط المسند ، لاشك أن أهلها قدموا الحجاز وحوران من اليمن ، وسنعود الى ذلك

---

(١) فتوح الشام لابى اسماعيل ٢٥٠ (٢) Cooke, 220

(٣) Dussaud, 66 & Litman, Mith. 1904

غير أننا نستدل من وجود هذه الكتابة قرب الحجر على أن أهل ذلك المكان أصلهم من اليمن، ولا يمكن الجزم بتاريخ هذه الكتابات لان ما وقفوا عليه منها لا يشفي غليلا ، والناس يتوقعون من التوسع فى حلها واكتشاف غيرها كشف كثير من غوامض هذه الدولة ، ويظن جلازر أن لحيان بقية ثمود (١)

طسم وجديس

ان هذين الاسمين مقترنان فى تاريخ العرب اقتران عاد وثمود ، والاكتشافات الاثرية لم تصل اليهما بعد ، فنكتفى بما يستنتج من كلام العرب واليونان عنهما ، وهما من ارم مثل سائر العرب البائدة (٢) . وذكر انهما سكنتا اليمامة فى شرقى نجد ، وقصبتها القرية ، وطسم صاحبة السيادة . ظلوا على ذلك برهة من الزمان ، حتى انتهى الملك فى طسم الى رجل ظلوم غشوم قد جعل سنته أن لا تهدى بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها . ولما طال ذلك على جديس أنفوا منه ، واتفقوا على أن دفنوا سيوفهم فى الرمل وعملوا طعاما للملك دعوه اليه ، فلما حضر فى خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم وقتلوا الملك وغالب طسم . فهرب رجل من هؤلاء الى تبع ملك اليمن — قيل هو حسان بن أسعد — فشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصره ، فسار ملك اليمن الى جديس وأوقع بهم فأفناهم فلم يبق لطسم وجديس ذكر (٣)

هذه خلاصة تاريخ هاتين الامتين ، ويتخلل ذلك حديث عن امرأة من جديس اسمها زرقاء اليمامة ، كانت تبصر على مسافة ثلاثة أيام ، وانها لما حمل تبع على جديس طلبوا اليها أن تكشف لهم عن القوم ، فأنبأتهم بقدومهم فلم يصدقوها ثم تحققوا صدقها

أما عصر هذه الدولة فيؤخذ من فنائها على يد تبع حسان أنها بادت فى أوائل القرن الخامس للميلاد . وذكر جغرافيو اليونان فى جملة قبائل شرقى بلاد العرب قبيلة سموها Jodisitae ، ولعلهم يريدون Jolisitae لسهولة ابدال اللام اليونانية من الذال لتقاربهما فى الصورة ، وهى جديس

ولهاتين الامتين آثار قلاع أشار ياقوت الى بعضها وهى المشقر ، قال انه قلعة من بناء طسم (٤) لها ذكر فى أيام العرب ، والمعنق أعظم قصور اليمامة من بناء طسم على أكمة مرتفعة قال فيه الشاعر :

أبت شرفات من شموس ومعنق   لدى القصر منا أن تضام وتضهدا (٥)

والشموس المذكور فى البيت قصر آخر فخم من بناء جديس محكم البناء .

---

(١) Glaser, Geo. 124 & 230   (٢) الدينورى ١٣   (٣) أبو الفداء ٥٠١ ج ١
(٤) ياقوت ٤١ ج ٤٥   (٥) ياقوت ٥٧٩ ج ٤

وكأن تلك البلاد بعد أن باد اهلها هجرت ثم عثروا علىأنقاضها صدفة ، وقد ذكر ذلك ياقوت فى مادة حجر

ومن اشهر مدن طسم وجديس القرية فى اليمامة ، ويقال لها خضراء حجر ، وهى حاضرة طسم وجديس ، فيها آثارهم وحصونهم وبتلهم (الواحد بتيل ، وهو بناء مربع مثل الصومعة مستطيل فى السماء من طين ، وقد رآه المسلمون فى القرن الثالث أو الرابع . وذكر احدهم انه أدرك بتيلا طوله ٥٠٠ ذراع ، ولعل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبع من أحدها) (١) . وفى اليمامة بلد اسمه جعدة ، فيه قصر يعبرون عنه بالعادى لقدمه ، ويذكرون أنه من بناء طسم وجديس وانه حصن منيـــع (٢) . ومن مدن اليمامة الحجر لطسم وجديس، فيها آثار ، (٣) والحجر بلغة أهلاليمن القرية ، فلعلحجر والقرية من أصل واحد (٤)

وليس فى اخبار سائر القبائل البائدة التى عرفها العرب ما يستحق الذكر لغموضه ، فنتكلم عن دولتى الانباط وتدمر

---

(١) الهمدانى ١٤٠ (٢) الهمدانى ١٦٠
(٣) ياقوت ٢٠٨ ج ٢ (٤) ياقوت ٩٥٢ ج ٤

دولة الانباط

فى مشارف الشام

هى دولة عربيـــة لم يعرفهـــا العرب ولا وجدنا لها ذكرا فى كتبهم ، واذا ذكروا الانباط ارادوا بهم أهل العراق . وانما عرفنا خبرها من خلال ماكتبه اليونان عن البطالســـة والسلوقيين والروم ، أو من بعض أســـفار الـــكتاب المقدس ، ومما وقف عليه المنقبون من آثارها ، أو قرأوه من أساطيرها على انقاض بطرا وغيرها من مدنهم فى حوران ومدائن صالح وغيرهما (*)

مقر هذه الدولة ومملكة ادوم

كان مقرها فى الجنوب الشرقى من فلسطين ، تمتد من حدود فلسطين هناك الى رأس خليج العقبة ، ويحدها من الغرب وادى العرابة ، ومن الجنوب بادية الحجاز ، ومن الشرق بادية الشام ، ومن الشمال فلسطين . طولها من الشمال الى الجنوب نحو مائة ميل ، وعرضها ٢٠ ميلا . وهى نفس مملكة الادوميين ، وقد اختلفت سعتها باختلاف الاعصر ، أرضها صخرية فيها الجبال والشعب ، وكانت تسمى قديما « بلاد الجبال » ، واليونان يسمونها بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea نسبة الى عاصمتها فان اسمها عندهم بطرا (الحجر) ، وهى ترجمة اسمها بالعبرانية فقد كان اليهود يسمونها سلاع (٥٤٤) وهو الحجر فى لسانهم . أما مملكة أدوم كلها فكانت تعرف عند اليهود باسم « سعير » واليونان يسمونها ايدومايا Edomaea

اقدم من سكن بلاد العرب الصخرية الحوريون ، وهم سكان الكهوف القدماء

(*) ورد ذكر النبط فى أمهات المعاجم العربية ، فمن أقوالهم انهم جيـــل من العجم ينزل البطائح بين العراقين ، سموا بذلك لكثرة النبط عندهم ، وهو الماء ، وسمى أولاد شيث أنباطا لانهم نزلوا هناك.هذا أصله ، ثم استعمل فى عوام الناس وأخلاطهم (البستان ٢/٢٣٥٠) وتاج العروس ٥/٢٢٩ ، والقاموس ٢/٣٧٨ ، ولسان العرب ٩/٢٨٨ وما بعدها)

وكانت العرب تنفر من النبط وتزدريهم ، واذا أراد أحدهم الاستهانة بآخر قال : يا نبطى

جواد على ، العرب قبل الاسلام ، حـ ٣ ص ١٠

ويؤيد جواد على ما يقول جرجى زيدان من أن العرب يريدون بذلك نبط العراق

ويسميهم اليونان Troglodytes ، ويؤيد ذلك ما في تلك الجبال من الكهوف الطبيعية أو المنحوتة وبينها الهياكل والمدافن . ثم جاء الادوميون فغلبوهم على ما في أيديهم ، وأقاموا مكانهم في زمن لا يعرف أوله لقدم عهده ، وقد جاء ذكره في سفر التكوين . وكان الادوميون قبائل أو فرقا على كل منها رئيس ، وفي التوراة أخبار متفرقة عن علائق الادوميين بالاسرائيليين ، الى أن حمل شاول على أدوم في القرن العاشر قبل الميلاد ولم يفز فوزا تاما ، فلما تولى داود حمل عليهم ودوخهم واقام في بلادهم حامية من جنده ، وجعل طريقه من أورشليم الى البحر الاحمر فيها ، فهان على ابنه سليمان انشاء فرضة على خليج العقبة تقلع منها السفن المسافرة الى اليمن أو الحبشة أو الهند . وهم قائد من الادوميين في عهد سليمان بخلع الطاعة فلم يفلح ، فما زالوا تحت سيطرة الاسرائيليين الى أيام يهوشافاط ، فحالفوا أعداءه وأعانوهم على حربه فلم يفوزوا ، ولكنهم اغتنموا ضعف الاسرائيليين وعادوا الى الاستقلال . حتى اذا حمل نبوخذنصر (بختنصر) على أورشليم كان الادوميون عونا له على أهلها ، واشتركوا في نهبها وذبح أهلها ، فكافأهم نبوخذنصر على نصرته بتأييد سلطتهم في أدوم وتوسيعها الى حدود مصر وشواطىء البحر المتوسط

وبينما هم ينشرون سلطانهم غربا داهمهم الانباط من الشرق ، وأوغلوا في ادوم حتى ملكوها جميعا ، وذهبت دولة الادوميين (*) واندمج أهلها في الفاتحين وصاروا أمة واحدة ، فأنشأ الانباط هناك مدينة عربية قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، ظلت قائمة الى أوائل القرن الثاني بعده اذ دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦ م

(*) حاول أنتيجوناس Antigonas – من ملوك السلوقيين الذين ورثوا الشام من دولة الاسكندر بعد موته – غزو بلاد الادوميين ففشل ، ثم تمكن بطليموس الثاني (٢٨٥ – ٢٤٦ ق.م.) من السيطرة على سواحل بلادهم ومنعهم من التعرض لسفن البطالسة في البحر الاحمر، وأنشأ ميناء برنيق Berenica على البحر الاحمر فسيطروا على شماله وعلى خليج العقبة ، ولكن البطالسة لم يستطيعوا القضاء على دولة الادوميين ، ثم نشب الصراع بين هؤلاء وبين بني اسرائيل ، وقد فصل جواد على أمر هذا الصراع (أنظر نفس المرجع ، ص ٢٠ وما يليها) .

وخلاصة ما يذكره ان المكابيين من بني اسرائيل لم يستطيعوا الانتصار على الانباط ، بل تمكن ملكهم الحارث من توسيع رقعة مملكته حتى استولى على دمشق ، وبذلك حصر دولة بني اسرائيل في نطاق ضيق ، ثم أخذ النبطيون يتدخلون في شئون دولة بني اسرائيل (يهوذا) مستعينين في ذلك بما كان بين فروع بني اسرائيل من خصومة ، وقد استعان النبط بالرومان في ذلك ، مما مهد الطريق لاستيلاء الرومان على أورشليم عاصمة مملكة يهوذا وتخريبها وتشتيت اليهود سنة ٧٠ ق.م

Cf: Bernard Stade: Geschichte des Volkes Israel II, S. 438 ff.

مدينة بطرا (*)


خزنة فرعون فى بطرا

هى قصبة الانباط ، ذكر سترابون انها مدينة صخرية قائمة فى مستو من الارض ، تحيط به الصخور كالسور المنيـع ، وليس وراءها غير الرمال المحرقة ، وهى واقعة فى وادى موسى ، عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن . وقـد عمرت فى ابان دولة الانباط وكثرت فيها الابنيـة . فلما ذهبت الدولة تخرب معظمها ، وبقى منها الى الآن اطلال لا تفنيها الايام ولا يؤثر فيها الاقليم ، منها خزنة فرعون وهى بناء شـامخ منقور فى صـخر وردى اللون ، على وجهتـه نقوش وكتابات بالقلم النبطى ، وبجانبها مرسح منقور فى الصخر أيضا ، ويستطرق من هناك الى سهل واسع فيه عشرات من الكهوف الطبيعية أو المنقورة ، ولبعضها وجهات منقوشة وجدران اكثرها ظهورا مكان يقال له « الدير » . وكانت هـذه الـكهوف مسـاكن الحوريين القدماء ، ويلجأ اليها اليوم بعض الفقراء فرارا من المطر أو البرد

هى الرقيم عند العرب

ليست بطرا من بناء الانباط ، وانما هى مدينة ادومية جاء فى سفر الملوك الثانى ص ١٤ ع ٧ ، أنها كانت حصنا فى أيام أمصيا سنة ٨٣٨ ق.م ، والتوراة تسميها سلاع (الحجر) فلما صارت الى الانباط وعرفها اليونان سموها بطرا كما تقدم . أما العرب فليس لهذه المدينة ذكر فى كتبهم ، وقد عثر بعض المعاصرين على لفظ (البتراء) فى سياق غزوة النبى بنى لحيان ، فتبادر الى اذهانهم انها بطرا التى نحن فى صددها ، ولـكن المفهوم من مجمل الحديث (١)

(*) بطرا لفظ يونانى معناه الصخر ، وقد سمى البلد بذلك لان مبانيه منحوتة فى الصخر، واسمها فى القديم سلع وسالع ، ويعنى أيضا الصخر
وكانت أول الامر عاصمة للادوميين ، ثم أصبحت عاصمة لموآب ، وذكرها ياقوت الحموى باسم سلم ، وقال انها بقرب بيت المقدس . ولا زالت أطلالها الى اليوم فى وادى موسى فى الاردن ، ويسمى أيضا وادى السيق

(١) ابن هشام ١٦٤ ج ٢ وياقوت والبكرى مادة البتراء

انها بقرب المدينة ، وبينها وبين بطرا الانباط نحو ٥٠٠ ميل . وفى بلاد العرب غير مكان يسمى « سلع » وهو بمعنى بطرا ، من جملتها مكان ذكر ياقوت انه حصن فى وادى موسى (١) فلعله يريد بطرا هذه

ولكن العرب شاهدوا آثار هذه المدينة بعد الاسلام وسموها « الرقيم » ، وهو تعريب أحد اسمائها اليونانية ، لان اليونانيين كانوا يسمونها أيضا اركه Arke فحرفه العرب وقالوا الرقيم ، وربما ارادوا بالرقيم خزنة فرعون على الخصوص . واشتهر هذا المكان فى دولة بنى أمية ، وكان ينزله الخلفاء وفى جملتهم يزيد بن عبد الملك ، وفيه يقول الشاعر (٢) :

أمير المؤمنين اليك نهوى ... على البخت الصلادم والعجوم
فكم غادرت دونك من جهيض ... ومن نعل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيدا ... بأكناف الموفر والرقيم
تهنئه الوفود اذا أتوه ... بنصر الله والملك العظيم

ونظرا لما شاهدوه من الابنية والاساطين والنقوش ، زعموا انه المكان الذى كان فيه أهل الكهف ، ورووا عنه أخبارا ذكرها المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » قال :

« والرقيم قرية على فرسخ من عمان ، على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير ، يزعمون أن من دخل الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير . وفى المغارة ثلاثة قبور ، تسلسل لنا من أخبارها أن النبى (صلعم) قال : بينما نفر ثلاثة يتماشون اذ أخذهم المطر ، فمالوا الى غار فى الجبل فانحطت الى فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم » ، ثم ذكر توسلهم الى الله بحسنات أتوها حتى أفرج عنهم بحديث طويل (٣) لا محل له هنا

وقال الاصطخرى فى وصفها : « الرقيم مدينة بقرب البلقاء ، وهى صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها فى صخر كأنها حجر واحد » (٤) . وقال المقريزى فى عرض كلامه عن التيه : « ان بعض المماليك البحرية هربوا من القاهرة سنة ٦٥٢هـ ، فمرت طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام، ثم تراءى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه ، فاذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر ، فدخلوا بها وطافوا فاذا هى قد غلب عليها الرمل حتى طم أسواقها ودورها ، ووجدوا بها أوانى وملابس . وكانوا اذا تناولوا منها شيئا تناثر من طول البلى ، ووجدوا فى صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا عليها صورة غزال وكتابة عبرانية . وحفروا موضعا فاذا حجر على

---

(١) ياقوت ١١٧ ج ٣ (٢) ياقوت ٨٠٥ ج ٢
(٣) المقدسى ١٧٥ (٤) الاصطخرى ٦٤

صهريج ماء ، فشربوا ماء أبرد من الثلج . ثم خرجوا ومشوا ليلة فاذا بطائفة من العربان فحملوهم الى مدينة الكرك ، فدفعوا الدنانير لبعض الصيارف فاذا عليها انها ضربت فى أيام موسى (كذا) ودفع لهم فى كل دينار مائة درهم ، وقيل لهم أن هذه المدينة الخضراء من مدن بنى اسرائيل ، ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخرى لايراها الا تائه » (١)

وفى هذا الوصف مثال لاختلاط الحقيقة بالخرافة فى أمثال هذه الروايات ، فلا ريب أن المماليك شاهدوا أطلال بطرا ، ووجدوا الدنانير اما من ضرب اليهود أو النبطيين ، ولكن تعليل الصيارف عن ضربها وبناء المدينة فيشبه كثيرا من أمثال هذه الروايات

ذلك خلاصة ما عرفه المسلمون عن بطرا ، وقد زارها غير واحد من المستشرقين فى القرن الماضى وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية

الانباط

جاء ذكر الانباط على آثار اشور من عهد أشور بانيبال فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد فى كلامه عن الملوك الذين غلبهم ، وذكر من جملتهم ناتان ملك النبطيين كما سيأتى ، ولعلهم يريدون نبط العراق . واما فى التاريخ الصريح فأقدم ما عرف من أخبارهم لا يتجاوز أوائل القرن الرابع قبل الميلاد على أثر فتوح الاسكندر فى الشرق . ذكرهم ديودورس الصقلى المتوفى فى القرن الاول قبل الميلاد ، فى كلامه عن اغارة انطيغونس سنة ٣١٢ ق.م ، على بطرا وارتداده عنها بالفشل ، فقال انهم عشرة آلاف مقاتل لاشبيه لهم فى قبائل البدو ، وان بلدهم الوعر القاحل ساعدهم على التمتع بالحرية والاستقلال ، لانهم كانوا يستغنون عن سائر العالم بصهاريج منقورة فى الصخور ، يملأونها من ماء المطر فى الشتاء ويحكمون سدها ، ويعتصمون فى الجبال حولها فلا يصل اليهم فاتح أو طامع . وانهم خلفوا الادوميين فى بلادهم

وكان انطيغونس خليفة الاسكندر قد حمل على بطليموس صاحب الاسكندرية ، فاضطر فى مسيره أن يمر ببطرا وهى فى أيدى النبطيين ، فلم ير بدا من محالفتهم أو قهرهم . وكان بطليموس لحسن سياسته قد اجتذب قلوبهم ، فعزم انطيغونس على قهرهم (٢) فاغتنم خروج الرجال للغزو أو ملاقاة بعض القوافل واكتسح مدينتهم ونهبها ، فلقيه النبطيون وهو عائد منها فقتلوا رجاله عن آخرهم . فأعاد الكرة عليهم بحملة أخرى تحت قيادة ديمتريوس ، فخاف الانباط كثرة الجند فأووا الى حصونهم وكتبوا الى انطيغونس كتابا بالآرامية يعتذرون اليه عما فعلوه ، وانهم انما دافعوا عن أنفسهم فلا يعد ذلك ذنبا لهم . فأجابهم جوابا لينا وأضمر الغدر . فلم تنطل

---

(١) المقريزى ٢١٣ ج ١

(٢) Sharpe, I. 276

عليهم حيلته فتحصنوا ، فجاءهم ديمتريوس وشدد الحصار عليهم والمدينة ممتنعة ، فلما طال الحصار أطل رجل منهم من السور وخاطب ديمتريوس قائلا : « ايها الملك لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون فى بادية لا مطمع فيها لاهل المدن؟ أتحاربوننا لفرارنا من الرق الى بلد لا شيء فيه من مرافق الحياة ؟.. فاقبل رعاك الله ما ندفعه اليك نظير انسحابك ، وثق أننا منذ الآن أصدقاؤكم ، واذا ابيتم الا اطالة الحصار فلا تنالون غير التعب والفشل ، لانكم لن تجدوا سبيلا الينا ونحن فى هذا الحصن المنيع . واذا قدر لـكم الظفر فلا تنالونه الا بعد أن نموت جميعا ، ولا يبقى لـكم غير هذه الصخور الصماء وأنتم لاتستطيعون سكناها » . فأثر كلام الرجل فى ديمتريوس وتأكد امتناع المدينة فانسحب برجاله عنها (*)

واستفحلَ أمر النبطيين بعد ذلك حتى أنشأوا دولة منظمة ، وولوا عليهم ملوكا ضربوا النقود واستوزروا الوزراء . وكان ملوكهم يسمون على الغالب باسم « الحـــارث » وهو باليونانيـــة اريتاس (Aretas) ، أو « عبادة » وفى اليونانية أوباداس Obadas ، أو « مالك » وفى اليونانية ماليكوس Malichus وأقدم من وقف الباحثون على اسمه من ملوكهم الحارث الاولَ حكم نحو سنة ١٦٩ ق.م ، وملك بعده زيدايل ، ثم الحارث الثانى ويلقب ابروتيموس حكم سنة ١١٠ ق.م ، ثم عبادة الاول سنة ٩٠ ق.م ، ثم ربيال سنة ٨٧ . ولم يقفوا لهؤلاء على نقود مضروبة بأسمائهم ، ثم توالى بعدهم بضعة عشر ملـكا وجدوا أسماءهم على النقود ، الا آخرهم مالك الثالث غلبه الرومانيون على امره وذهبوا بدولته سنة ١٠٦ ب.م . وهذه أسماء ملوك النبطيين الذين اتصلت بنا أخبارهم (١) نقلا عن النقود وغيرها :

ملوك الانباط

اسم الملك	سنة الحكم تقريبا	
الحارث الاول	١٦٩	ق م
زيدايل	١٤٦	»
الحارث الثانى الملقب ابروتيموس	١١٠ — ٩٦	»
عبادة الاول	٩٠ (**)	»
رب ايل الاول بن عبادة الاول	٨٧	»
الحارث الثالث فيلهلين بن رب ايل	٨٧ — ٦٢	»

(*) أنظر تفصيل ذلك عند جواد علي : العرب قبل الاسلام ، حـ ٣ ص ١٧ وما يليها

(١) Dussaud, J. A. 1904

(**) يقال أيضا سنة ٩٣ ق.م

اسم الملك	سنة الحكم تقريبا
عبادة الثاني بن الحارث الثالث	٦٢ — ٤٧ «
مالك الاول بن عبادة الثاني	٤٧ — ٣٠ «
عبادة الثالث بن مالك الاول	٣٠ — ٩ «
الحارث الرابع الملقب فيلوباتر شقيق عبادة الثالث الملكة خلدو امرأته الملكة شقيلة امرأته (٢) (*)	٩ — ٤٠ ب م
مالك الثاني بن الحارث الرابع الملكة شقيلة امرأته (**)	٤٠ — ٧٥ «
رب ايل الثاني الملقب سوتر بن مالك الثاني الملكة شقيلة والدته أثناء وصايتها عليه « جميلة امرأته (***)	٧٥ — ١٠١ «
مالك الثالث	١٠١ — ١٠٦ «

هؤلاء هم الملوك الذين قرأ الباحثون أسماءهم علي النقود أو الآثار حتى اليوم ، وربما عثروا على غيرهم فى المستقبل — وهذه خلاصة ما عرف من أخبارهم :

(١) الحارث الاول : كان الحارث الاول معاصرا لانطيوخوس ابيفانيس السلوقى ملك سوريا نحو سنة ١٦٩ ق.م ، وبطليموس فيلوماتر صاحب الاسكندرية ، ووقع بين البلدين قتال غلب فيه السلوقيون ، ولعلهم استعانوا بالانباط فى تلك الحرب

(٢) زيد ايل : كان معاصرا للاسكندر ملك سوريا ، جاء ذكره فى سفر المكابيين وكان على الاسكندرية فى زمانه بطليموس اترجيت الثانى سابع البطالسة

(٣) الحارث الثاني : كان معاصرا لسوتر الثانى ، وهو بطليموس الثامن صاحب الاسكندرية المتوفى سنة ٨٢ ق.م ، ولاسكندر يانيوس صاحب سوريا المتوفى سنة ٧٩ ق.م

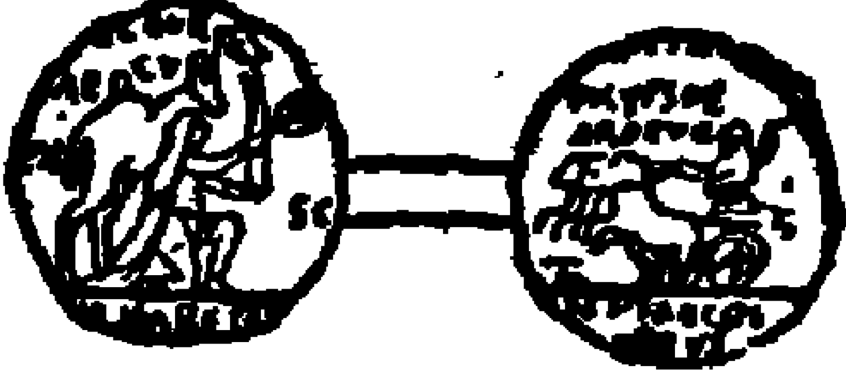
(٤) الحارث الثالث : لهذا الحارث شأن عظيم فى تاريخ هذه الدولة ، لانه تغلب على البقاع بسوريا ، ودعاه الدمشقيون ليتولى أمرهم وكانوا يكرهون بطليموس ، فملكهم سنة ٨٥ ق.م. وكانت دمشق قصبة السلوقيين فتولاها ، ولقبوه من أجل ذلك فيلهلين Philholén أى محب اليونان . واشترك أيضا مع هركانوس فى تنازعه على الملك مع أخيه ارستوبولس ، وحاصر أورشليم ، لكنه

(*) الراجح ان زوجتى الحارث الرابع لم تحكما وانما رسمت صورهما على بعض النقود التى ضربت فى عهده
أنظر : جواد على : العرب قبل الاسلام ، حـ ٣ ص ٤٢

(**) يقال أيضا أن شقيلة كانت أخته ولم تحكم وانما ضرب اسمها على النقود

(***) تكتب فى النصوص جميلت وهي أخت رب ايل الثانى ، وله شقيقة أخرى اسمها هاجر وشقيقة ثالثة اسمها فصائل وقد وردت أسماؤهن على النقود

عند وصول سكاوروس القـــائد الرومانى تقهقر الى فيلادلفيا (عمان) مع هركانوس ، فأدركهما أرستوبولس فى مكان اسمه بابيرون وغلبهما وقتل ٦٠٠٠ من رجالهما . وبعد ثلاث سنوات كان سكاوروس المذكور قد أصبح واليا على البقاع تحت رعاية بومبيوس صـــاحب رومية ، فحمل على بطرا فأعجزه الوصـــول اليها لوعورة الطريق وقلة الزاد لجيشـــه ، فرضى أن يرجع بمبلغ ٣٠٠ ريال دفعها اليه الحارث المشار اليه . وهو أول من ضرب النقود من الانبـــاط ، اقتبس ذلك من ملوك اليونان فى أثناء سلطانه على دمشق ، وقد وجد بعضهم دينارا عليه نقش يرمز به عن اتفاق الحارث وسكاوروس وصورة جمل وشجرة عطرية



نقود الحارث وسكاوروس

(٥) عبادة الثالث : لا نعرف خبرا يستحق الذكر جرى فى أيام عبادة الثانى او مالك الاول . اما عبادة الثالث ففى أيامه كانت حملة اليوس غالوس القائد الرومانى على بلاد العرب ، وقد استعان فيها بالنبطيين . وكان استرابون الرحالة اليونانى معاصرا له ، فذكرها فى رحلته ، قال ان أغسطس قيصر بعث سنة ١٨ ق.م ، حملة بقيـــادة اليوس غالوس عامله على مصر لفتح جزيرة العرب ، واستنصر النبطيـــين فأظهروا رغبتهم فى نصرته على يد وزير لهم يومئذ اسمه سيلوس ، وان هذا الوزير خدعهم فذهب بهم فى طرق وعرة اعجزهم المرور فيها ، فقضوا أياما قاسوا فيها العذاب الشديد ، وأقصى مكان بلغوه تعد ذلك العذاب مدينـــة يسـميها اســترابون بلد الرأمانيين (Rhamanitae) وملكها اسمه اليزاروس (Elisaros) فحاصروها ستة أيام ، لكن العطش حملهم على رفع الحصار والانسحاب . وينسب استرابون هذا الفشل الى خيانة وزير النبطيين . ويرى العارفون أن استرابون انتحل ذلك العذر لتبرئة اليوس غالوس لانه صديقه . وبعد تسعة أيام من انسحابه وصل الى نجران ومر بالجوف الجنوبى . وما زال يتنقل من بلد الى آخر حتى وصـــل الحجر ، وهى يومئذ تابعة لبطرا ، وسار منها الى البحر الاحمر ومنه الى مصر بعد أن قضى فى هذه الحملة ستين يوما ، وقد فصل المستشرق سبرنجر هذه الحملة مطولا (١)

(٦) الحارث الرابع : ويسمى اينياس ، وهو حمو هيرودس انتيباس فأراد هذا أن يتزوج بهيروديا امرأة أخيه هيرود فيليب ابنة ارستوبولس أخيهما واخت اغريبا الـكبير ، فشق ذلك على ابنة الحارث فرجعت الى منزل أبيها . وانتشبت الحرب بين الحارث وهيرودس وكان الظفر فيها للحارث ، وفشـــل هيرودس فشلا عظيما فرفع أمره الى رومية فبعث الامبراطور (طيباريوس)

---

(١) The Campaign of Aielius Gallus in Arabia

الى فيتالس أن يرسل الحارث اليه مكبلا بالحديد واذا قتل فليرسل اليه راسه . فحمل فيتالس على بطرا لكنه تأخر فى أورشليم لحضور الفصح ، وبلغه وهو هناك موت طيباريوس سنة ٣٧ م ، فأخذ البيعة على جنده واطلق سراحهم ليذهبوا الى منازل الشتاء ، وعاد الى انطاكية وظل الحارث فى دمشق ، وفى أثناء وجوده هناك فر منها بولس الرسول على ما جاء فى الكتاب المقدس

ولم يقف الباحثون على ما يستحق الذكر من اخبار ملوك الانباط بعد الحارث الرابع ، لان الدولة أخذت بعده فى الضعف والانحلال وتدخل النساء فى شئونها ، حتى ضربت النقود بأسمائهن مع أسماء الرجال كما اشترکن معهم فى السيادة (*)

سعة مملكة الانباط

واتسعت مملكة الانباط فى عهد أولئك الملوك ، حتى شملت جزيرة سينا من الغرب ، وحوران الى حدود العراق من الشرق ، وبلغت الى وادى القرى فى الجنوب ، فدخلت الحجر مدينة الثموديين فى حوزتهم ، وطمع فيهم الرومانيون بعد استيلائهم على مصر والشام ، وحاربوهم على أيام أوغسطس وارتدوا عنهم

وظلت مدينة بطرا مركزا تجاريا بين الشرق والغرب والجنوب والشمال ، حتى أعادوا الطريق من القصير على البحر الاحمر الى قفط على النيل فأخذت فى التقهقر ، وكان الانباط قد تحضروا ، فذهبت عنهم خشونة البداوة وركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا فى الترف ، فلما صارت الدولة الرومانية الى الامبراطور تراجان وأصبح قادرا على الاستعانة بالجند المصرى ، عجز النبطيون عن الوقوف فى وجهه ، فجرد عليهم حملة غلبتهم على مدينتهم سنة ١٠٦ م ، وضرب الروم نقودا خاصة بذلك الفتح على سبيل التذكار ، فذهبت عصبية النبط وانحلت قواهم ، فأخلدوا الى الدعة واختلطوا بأهل البلاد الاصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلى البادية بين سينا والفرات . ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين ، وتحولت الطرق التجارية الى تدمر الآتى ذكرها (**)

(*) أورد جواد على تواريخ أولئك الملوك بتفصيل أكثر ، أنظر ج ٣ ص ١٧ وما يليها

(**) استولى الحارث الثانى ملك الانباط على دمشق سنة ٨٦ بعد انتصاره على الملك أنطيوخوس ديونيزوس Antioches Dionysos عند قرية كانا Cana ومد سلطانه على جنوبى سوريا وعلى جزء من فلسطين Coele Syria = سوريا الحالية وبذلك أحاطت مملكة النبطيين بمملكة اليهود المكابيين من ثلاث جهات كما تحيط الدول العربية باسرائيل اليوم . ثم بدأ الحارث فى مهاجمة مملكة يهوذا للقضاء عليها ، وانتصر على رجالها فى معركة حامية عند بلدة أديدا ، ثم أوغل فى يهوذا بين سنتى ٦٦ و ٦٥ قبل الميلاد مستعينا بما كان بين جماعات اليهود من خلاف وتنازع على العرش ، وكاد الحارث يستولى على أورشليم لولا أن الرومان هاجموا سوريا من الشمال واستولوا على دمشق وتولى قائدهم سكاوروس أمر القضاء على مملكة يهوذا ، وقد واصل الرومان سياستهم فى القضاء على مملكة اليهود حتى تم لهم ذلك سنة ٧٠ ميلادية ، فدخلوا أرشليم وخربوا معبد سليمان ، ومن ذلك التاريخ تشتت يهودها فى نواحى الارض ،

←

تمدن الانباط

قد رأيت أن مملكة الانباط شملت فى ابان اتساعها معظم شمالى جزيرة العرب ، ويدخل فيها مواب والبلقاء وحوران وشبه جزيرة سينا وأرض مديان واعالى الحجاز . واشهر المدن التى دخلت فى حوزتهم بطرا ، وبصرى ، واذرع ، وعمان ، وجرش ، والكرك ، والشوبك ، وايلة ، والحجر (مدائن صالح) تشهد بذلك النقوش الكتابية التى عثروا عليها بلسانهم على أنقاض تلك المدن ، ولا سيما فى بطرا ، والحجر ، والعلاء ، وحبران ، وصلخد ، ومادبا ، وامتان ، والوادى المكتب فى سينا . وقد حل المستشرقون هذه النقوش فى أواسط القرن الماضى وأواخره . ووجدوا نقوشا من لغتهم فى دمر على حدود دمشق . ومما يدل على سعة علائقهم التجارية أن بعض الباحثين عثر على كتابة نبطية فى فرضة بتيولى فى ايطاليا ، فحواها أن رجلا اسمه صيدو وقف فى السنة الرابعة عشرة من حكم الحارث الرابع شيئا من مقتنياته على اسم هذا الملك وامرأته (١)

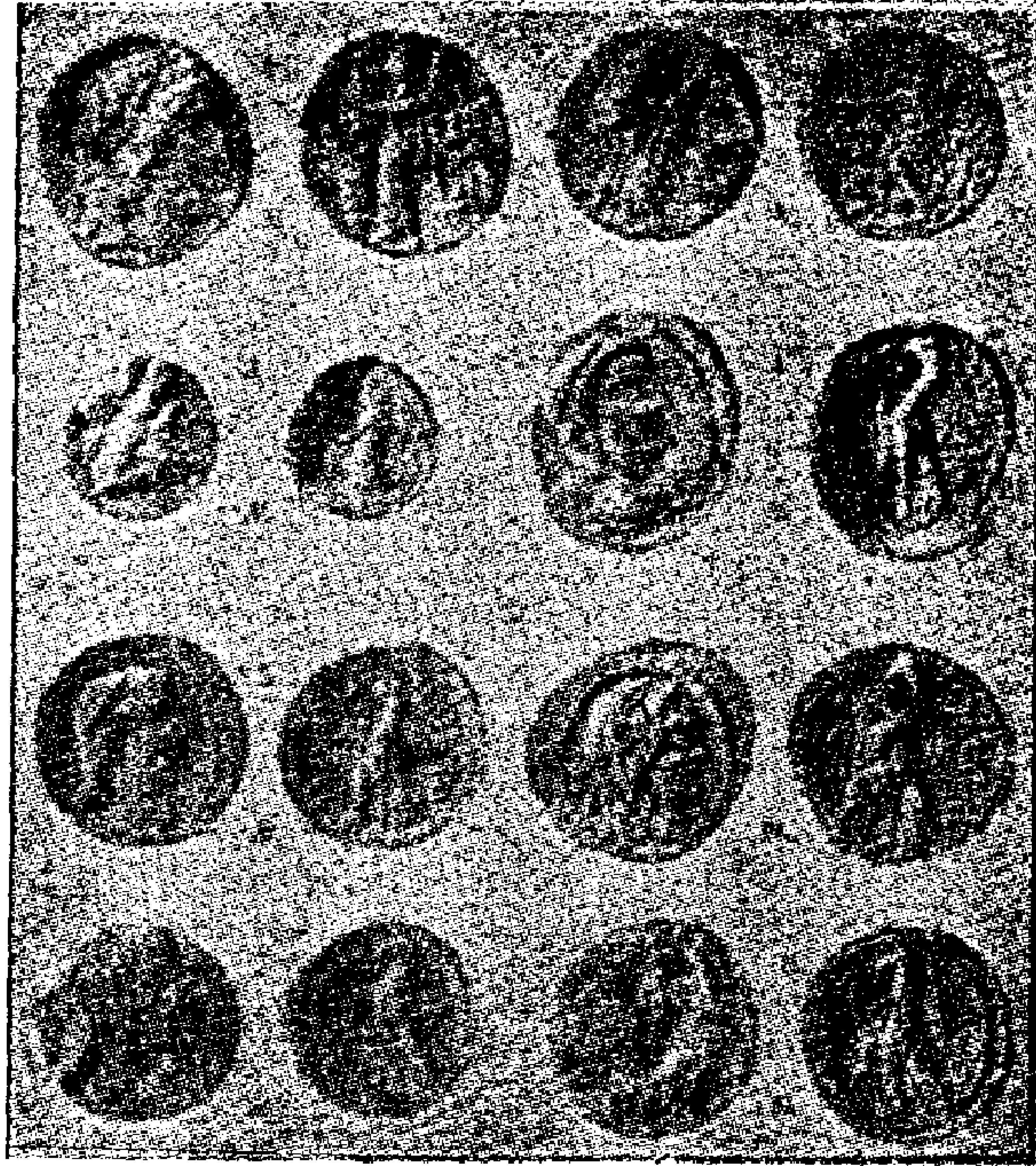
واحسن من وصف آداب النبطيين واخلاقهم ديودروس الصقلى فى القرن الاول قبل الميلاد ، فكتب ما عرفه بنفسه وخلاصة قوله : « ان الانباط يعيشون فى البادية الجرداء التى لا أنهر فيها ولا سيول ولا ينابيع . ومن أمهات قوانينهم منع زراعة الحبوب أو استثمار الاشجار وتحريم الخمر أو بناء المنازل ، ويعاقبون من يخالف ذلك بالقتل مع التشديد فى العمل بهذه القوانين . ويقتات بعضهم بلحوم الابل وألبانها ، والبعض الآخر بالماشية أو الغنم ، ويشربون الماء المحلى بالمن . ومنهم قبائل عديدة تقيم فى البادية ، ولكن النبطيين أغنى تلك القبائل ، وان كان رجالها لا يزيد عددهم على ١٠٫٠٠٠ رجل . وثروتهم من الاتجار بالاطياب والمر وغيرهما من العطريات ، يحملونها من اليمن وغيرها الى مصر وشواطىء البحر المتوسط . ولم تكن تمر تجارة فى أيامهم بين الشرق والغرب الا على يدهم ، ويحملون الى مصر على الخصوص القار لاجل التحنيط . وهم ضنينون بحريتهم ، فاذا داهمهم عدو يخافون بطشه فروا الى الصحراء وهى امنع حصن لهم ، لانها خالية من الماء فلا يدخلها سواهم الا مات عطشا . أما هم فيشربون من صهاريج سرية مربعة الشكل منقورة فى الصخر تحت الارض ، يخزنون الماء فيها ولها فوهات

وهذه المملكة التى أضاعوها منذ نحو ١٩٠٠ سنة هى التى يطالبون باعادة أمرها اليوم !

وقد هاجم الرومان مملكة النبط بعد ذلك ابتداء من أيام القائد بومبى حتى تم لهم القضاء عليها ، وبذلك قضوا على كل الامارات والممالك التى كانت قائمة فى الشام وأنشأوا ولاية كبيرة عرفت باسم الولاية العربية Provincia Arabia قيليقية Cilicia وبلاد الشام Syria ومملكة اليهود Judaea وبلاد النبط وكان ذلك حوالى سنة ١١١ ميلادية

أنظر : جواد علي : العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ص ٣٥ ـ ٥٥

(١) Cooke, 257



نقود بعض ملوك النبطيين

ظاهرها ضيق وباطنها واسع ، اتساع أحدها ثلاثون مترا مربعا . فيملأونها بمياه المطر ويحكمون سدها بحيث يخفى مكانها على غير العارف ، ولهم على فوهاتها علامات ترشدهم اليها لا يعرفها سواهم »

وللأنباط سكة خاصة للنقود قلدوا بها اليونان ، وهذه أمثلة من نقودهم :

(١) نقد الحارث الثالث الملقب فيلهلين ، على أحد وجهيه صورة رأسه متجها نحو اليمين ، على الوجه الآخر صورة امرأة ترمز الى النصر ، وقد نقش وراءها اسم الملك الحارث باليونانية Basileos Aretou وأمامها لقبه : محب اليونان فيلهلين

(٢ و ٣ و ٤ و ٥) نقود للحارث المذكور أيضا ، تختلف في شكلها عن ذلك من بعض الوجوه لكن الكتابة عليها واحدة

(٦) نقد لعبادة الثاني ، على وجهه الايسر رأس وعلى الايمن صورة نسر أمامه نقش بالنبطية معناه « الملك عبادة » ، ووراءه « ملك الانباط » وعلى الرأس « السنة الثانية »

(٧) نقد آخر لعبادة المذكور ، على أحد وجهيه راسان وعلى الوجه الآخر نسر ومثل تلك الكتابة

(٨) نقد مالك الاول ، على أحد وجهيه رأسان وعلى الآخر نسر وعليه كتابة معناها « الملك مالك ملك الانباط »

هل الانباط عرب ؟

اختلف المؤرخون فى أصل هذه الامة ، فذهبت طائفة مذهب اهل التوراة انهم من نسل نبايوط بن اسماعيل ، وذهب آخرون انهم من أهل العراق ، لان النبط يطلق على سكان ما بين النهرين ، ولغة الانباط التى قرأوها على آثارهم آرامية متخلفة عن لغة ما بين النهرين ، وانهم هاجروا من العراق الى ادوم ، وهو رأى كاترمير الفرنسى . وذهب غيرهم أن النبط أصلهم من جبل شمر فى أواسط بلاد العرب ، ونزحوا الى جزيرة العراق لما فيها من الخصب والرخاء ، فأقاموا هناك حتى داهمهم الاشوريون أو الماديون فأخرجوهم من ذلك الوادى . وذهبت طائفة أخرى أن الانباط اتوا من شواطىء خليج العجم . ويرى كوسان دى برسفال المستشرق الفرنسى انهم عراقيون ، أتى بهم نبوخذنصر (بختنصر) فى القرن السادس قبل الميلاد لما اكتسح فلسطين فأنزلهم فى بطرا وما يليها . وقال غيرهم غير ذلك مما يطول بنا تفصيله ، فنقتصر على ابداء رأينا بالاسناد الى ما وقفنا عليه من أحوال هذه الامة فنقول :

ان أوجه الاختلاف بين العلماء فى أصل أولئك الانباط ترجع الى « هل هم عرب أو آراميون ؟ » . وعندنا انهم عرب ، والادلة على ذلك :

أولا : قول الذين عرفوهم من مؤرخى اليونان ، فانهم حيثما ذكروهم سموهم عربا

ثانيا : ان أسماء ملوكهم عربية ، كالحارث ، وعبادة ، ومالك ، وجميلة . وللأعلام دخل كبير فى بيان أصول الامم كما قلنا عند كلامنا على أصل الحمورابيين ، فالرجل الذى يسمى نيقولايدس نحكم انه يونانى الاصل وان تزيا بزى الاتراك أو الروسيين ، والمسمى أرتين أو دمرجيان نحكم انه أرمنى وان كانت لغته الفرنسية أو الانجليزية أو العربية ، اذ لكل أمة تسمية خاصة بها . وقد تسمى أبناءها بأسماء أمة أخرى ، كما يفعل نصارى الشرق لهذا العهد ، فيسمون أبناءهم بأسماء افرنجية ، ولكن ذلك لا يكون الا بتقليد الضعيف القوى أو البسطاء لاهل التمدن ، ولا ينطبق ذلك على بطرا لان العرب لم يكونوا يومئذ أهل تمدن وسطوة ، وانما كان التمدن فى العالم السامى للآراميين أو البابليين

والقائلون بآراميتهم يحتجون بأن لغتهم آرامية ، وان لفظ النبط يطلق عند العرب على أهل العراق ، وهو رأى وجيه لا ينقض بسهولة . ولكن مؤرخى اليونان الذين سموهم عربا قد عاصروهم وهم أعلم الناس بهم . نعم ان اللغة التى قرأوها على آثارهم آرامية لكنها ليست هى لغة التكلم عندهم

وذلك ان النبطيين فرقة من عمالقة العراق بدو الآراميين ، الذين هجروا ضفاف الفرات بعد ذهاب دولة حمورابى من العراق ، وتفرقوا قبائل وبطونا فى جزيرة العرب ، ولعلهم المراد بقول العرب « ارمانيون » فهم يريدون

بالارمانيين القبائل المتسلسلة من ارم (١) . فالنبطيون قبيلة منهم لا يبعد أنها أقامت زمنا على شواطىء خليج العجم ، وكانت ترتزق بنقل التجارة فى البادية بين ذلك الخليج والبحر المتوسط والبحر الاحمر ، حتى عرفوا أدوم وتوسطها بين خليج فارس والامم المتمدنة فى ذلك العهد بأشور وفينيقية ومصر ، فاستولوا عليها بكيفية لا نعرفها وجعلوا بطرا عاصمتهم . ومن كلام ابن خلدون : « وأول ملك للعرب بالشام فيما علمناه للعمالقة ، ثم لبنى ارم ابن سام ويعرفون بالارمانيين» . وقال حمزة الاصفهانى : « الارمانيون نبط الشام ، والاردوانيون نبط العراق » (٢)

لغة الانباط

اما لسانهم الذى كانوا يتفاهمون به فانه عربى مثل أسمائهم ، ولا عبرة بما وجدوه منقوشا على آثارهم باللغة الآرامية فانها لغة الكتابة فى ذلك العهد ، مثل اللغة الفصحى فى أيامنا . فلو ذهب أهل هذا الجيل من سكان مصر والشام ، وذهب لسانهم الذى يتكلمونه ، وأراد أهل الاجيال القادمة أن يستدلوا على جنسنا من آثارنا الكتابية ، لعدونا من أهل البادية أو من قريش ، لاعتمادهم على لغة الكتابة وهى لغة قريش . وذلك كان شأن الدول القديمة فى الشرق ، ولا سيما فيما يتعلق بالآثار الدينية أوالسياسية . ولكل دولة لغة رسمية تذيع بين رعاياها ، فيتكاتبون بها أو ينقشونها على آثارهم ، كما تتكاتب دول أوربا بالفرنسية ، ويتخابر أهل الشرق الاقصى بالفارسية (*)

فاللغة البابلية هى اللغة التى كان يتكلمها أول من تسلط من الساميين فى العراق وما يليها ، واخذوا يكتبون أوامرهم ويدونون اخبارهم بها بالحرف المسمارى الذى اقتبسوه من السومريين . وشاع استعمالها فى المملكة البابلية على اختلاف عناصر أهلها ، حتى صارت لغتها الرسمية يتكاتب بها أهل العراق وفارس وغيرهما — ظلوا على ذلك أكثر من الفى سنة ، واللغة المذكورة واحدة لم يحدث فى الفاظها أو تراكيبها تغيير يستحق الذكر . ولا يعقل أن تبقى كذلك على ألسنة القوم ، بدليل ما شاهدناه من التغيير الذى طرأ على لغة قريش قبل انقضاء الالف الاول من تداولها على الالسنة ، فانها تفرعت الى لغات شتى . فبالقياس على ذلك تفرعت اللغة البابلية على السنة متكلميها الى عدة لغات من جملتها اللغة الآرامية . وأما لغة الكتابة فظلت اللغة البابلية تكتب بالقلم المسمارى

---

(١) ابن خلدون ٣٧٨ ج ٣ (٢) حمزة ٩٧ وابن خلدون ١٧٠ ج ٢

* كان هذا صحيحا الى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد تغير الوضع اليوم ، فلم تعد الفرنسية اللغة الوحيدة الدبلوماسية ، ولم يعد أهل الشرق الاوسط (أفغانستان وباكستان وفارس) يستعملون اللغة الفارسية كلغة رسمية للمكاتبات الدولية

وقد أثبت البحث الحديث صحة رأى جرجى زيدان فى القول بأن النبط عرب . أنظر المناقشة فى جواد على ، العرب قبل الاسلام ، ج ٣ ص ٩ وما يليها

ولما انقضى العصر البابلى والاشورى احتلت اللغة الآرامية المذكورة محل اللغة البابلية فى السياسة والتجارة . وقد أصبح فى حكم الثابت الآن ، أن المخابرات السياسية الرسمية واللغة التجارية ، التى كانت تتخابر بها الامم الحية فى القرون الاولى قبل الميلاد ، فى بابل ، واشور ، وفارس ، ومصر ، وفلسطين ، انما هى اللغة الآرامية التى نحن فى صددها ، وفى جملة ذلك بطرا . وهى التى كتبت بها الوثائق البردية التى عثروا عليها بالامس فى أصوان (١) . ويغلب أنها كانت لغة التكلم فى بابل

ولما ضعف الاشوريون كانت الحروف الهجائية التى ينسبون اختراعها للفينيقيين ، وقد شاعت فى العالم المتمدن وتفرعت الى بضعة فروع من جملتها القلم الآرامى ، وقد استخدمه البابليون لتدوين لغتهم الدارجة فضلا عن اللغة الرسمية ، شاع هذا القلم ولغته فى الامم التى تفرغت فى مملكة بابل — وهذا مثال منه

الحرف الآرامى

فالعرب الذين كانوا يخالطون العالم المتمدن بالتجارة او السياسة فى ذلك العهد ، اضطروا الى معرفة لغة رجال الدولة وأهل الوجاهة لاستخدامها فى المخابرات والتدوين ، فتعلموا اللغة الآرامية وكتبوها بالقلم الآرامى لسهولته . ثم تنوعت هذه الاقلام بتوالى الاجيال ، فتفرعت الى عدة فروع عرفت بالاقلام الآرامية ، أشهرها عند الساميين القلم التدمرى فى تدمر ، والنبطى فى بطرا وغيرها ، وأشكالها متشابهة مثل تشابه تلك اللغات. وهى فى كل حال غير لغة التكلم ، وان تقاربتا فى أكثر التراكيب والالفاظ

ولمثل هذا السبب اضطر الجرمانيون الذين هبطوا على المملكة الرومانية الى تعلم اللغة اللاتينية ، وجعلوها لغتهم الرسمية وكل طائفة منهم تتكلم لغتها الخاصة . وظلت اللاتينية لغة العلم والنقش على الآثار فى أوربا أجيالا بعد ذهاب دولتها ، ولكل أمة من أممها لسان خاص تتفاهم به ، ولم تهمل اللاتينية وتدون اللغات العامية الا فى نهضة هذا التمدن (أى الحضارة الراهنة) كما دونت اللغة العربية فى نهضة الاسلام ، بعد أن كانت لغة الكلام والآرامية لغة التدوين

فاللغة التى نقرأها على آثار بطرا وغيرها من أطلال الانباط آرامية ، وأما لغة الكلام فكانت عربية ، والاثنتان مرتبطتان بأمهما القديمة لغة بدو

---

(١) Old Test. & Semitic Studies, I. 289

الآراميين ، أو اللغة البابلية القديمة ، بعلامة تشتركان فيها دون سائر اللغات السامية ، أعنى حركات الاعراب فى اواخر الكلم (١) فى بعض الاحوال. واللغة الآرامية التى كتب بها الانباط غير الآرامية المعروفة اليوم ، وفى تلك أثر من لغة العرب التى كان يتكلمها ذلك الشعب . وهـذا مثال من نقوش الانباط على آثارهم ، وهو عهد كتبه رجل اسمه عائذ بن كهيل على قبره فى الحجر (مدائن صالح) فى السنة الاولى قبل الميلاد فى زمن الحارث الرابع الملقب فليوباتر :

كتابة نبطية على انقاض مدائن صالح

نطقها بالاحرف العربية كل سطر على حدة :

١ ــ دنه قبرا دى عبد عيدو بركهيلو بر
٢ ــ الكسى لنفشه وبلده واحره ولن دى ينفق بيده
٣ ــ كتب تقف من يد عيدو قيم له ولن دى ينتن ويقبر به
٤ ــ عيدو بحيوهى بيرح نيسان شنة تشع لحرتت ملك
٥ ــ نبطو رحم عمه ولعنو ذو شرا ومنوتو وقيشه
٦ ــ كل من دى يزبن كفرا دنه أو يزبن أو يرهن أو ينتن و
٧ ــ يوجر أو يتالف علو هى كتبه كله أو يقبر به أنوش
٨ ــ لهن لمن دى علا كتيب وكفرا وكتبه دنه حرم
٩ ــ كحليقت حرم نبطو وشلمو لعلم علمين

ترجمتها باللغة العربية كل سطر على حدة :

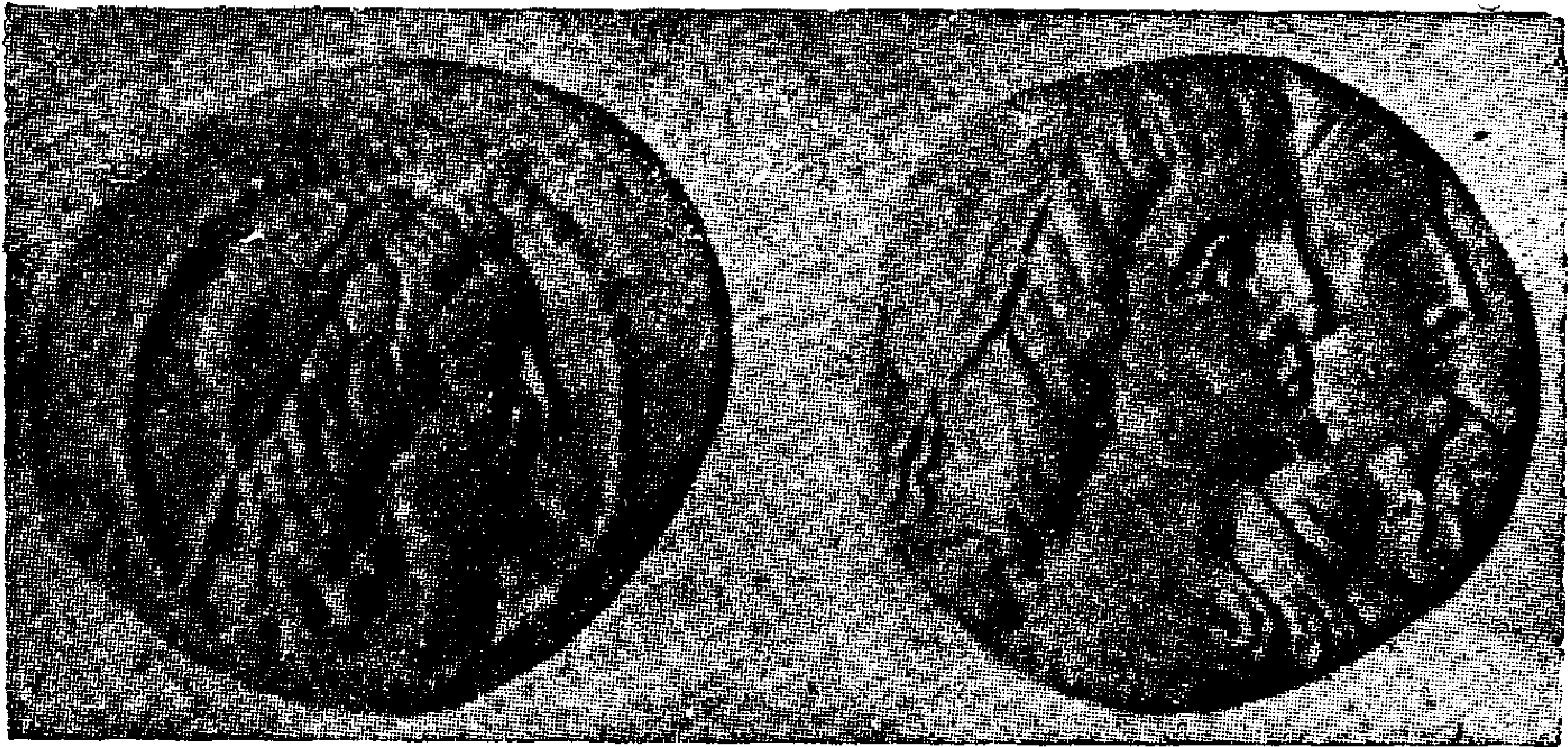
١ ــ هذا هو القبر الذى بناه عائذ بن كهيل بن
٢ ــ القسى لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون فى يده

(١) Ency. Brit. Art. Semitic Languages

٣ ـ كتاب من يد عائذ يبيح له ولاى واحد يخوله عائذ فى حياته أن يدفن فيه
٤ ـ في شهر نيسان (ابريل) السنة التاسعة للحارث ملك
٥ ـ الانباط محب شعبه • ولعن ذو الشرى ومناة وقيس
٦ ـ كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو
٧ ـ يؤجره أو ينقش عليه شيئا آخر أو يدفن فيه احدا
٨ ـ الا الذين كتبت اسـماؤهم اعلاه . ان القبر وما كتب عليه حرم مقدس
٩ ـ حسب القاعدة التى يقدسها الانباط والسلاميون الى أبد الآبدين

على اننا لا نظن اللغة العربية التى كان يتفاهم بها النبطيون هى نفس اللغة العربية التى عرفناها فى صدر الاسلام ، ولا بد من فرق بينهما اقتضاه ناموس الارتقاء • ولعلها كانت أقرب الى ماقرأوه على قبر عمرو بن أمرىء القيس فى خرائب نمارة بجوران ، وسنذكر نصه ومعناه فى كلامنا عن دولة اللخميين من هذا الكتاب • فاذا قرأته تمثل لك تدرج اللغـة فى التنوع والتحول عملا بناموس الارتقاء • وبسبب هذا الناموس تشعبت لغـة بدو الآراميين الى اللغات البابلية والآرامية والسبأية أو الحميرية ولغات عرب الحجاز وغيرها ومن جملتها لغة صدر الاسلام • وقد أصاب هذه تغيير اقتضاه تنقلهم فى البادية بأبلهم وماشيتهم فبعدت عن اختها البابلية ، ولكنها لاتزال أقرب اليها فى بعض أحوالها من ابنتيها الكلدانيـة والسريانية ، لان العرب قضوا تلك الاجيال فى البادية واللغة انما تغيرها الحضارة

فالانباط عرب يتكلمون العربية ، ولغتهم الكتابية مع كونها آرامية فانها تنم عن أصحابها العرب ، ويؤيد ذلك اجماع مؤرخى اليونان على تسميتهم عربا ، وان اسماء ملوكهم عربية ، وهم عمالقة أو فرقة منهم كما قدمنا • ويوافق



نقود نبطية ـ المتحف البريطانى

ذلك قول يوسيفوس أن ادوم قسمان : قسم يسكنه العمالقة ، والآخر فى جنوبى فلسطين (١)

وقد تشتم رائحة النبط من قول ابن خلدون فى عرض كلامه عن ملوك الروم النبطيين وهو يسميهم الكيتم . فبعد أن ذكر ما ملكوه من البلاد قال : « انهم ملكوا الاندلس ، وملكوا الشام ، وارض الحجاز ، وقهروا العرب فى الحجاز (٢) . وليس فى التاريخ ما يدل على أن الرومانيين قهروا من العرب غير الانباط . وزد على ذلك أن أهل التوراة حينما ذكروا النبط أو أبناء نبابوط أرادوا العرب ، فعندهم نبايوط وقيدار ابنا اسماعيل جد عرب الحجاز



(١) Josephus Art. III 2
(٢) ابن خلدون ١٩٨ ج ٢

دولة تدمر

مدينة تدمر

كانت تدمر مدينة تجارية مثل بطرا ، واقعة فى طرف البادية التى تفصل الشام عن العراق ، كأنها واحة فى الصحراء أو جزيرة فى الماء ، تبعد ١٥٠ ميلا عن دمشق نحو الشمال الشرقى ، ونحو مائة ميل من حمص ، وسفر خمسة أيام على الابل من الفرات . شكلها منبسط تحيط بها جبال تفصل بينها وبين البادية . وهى عبارة عن طرف بادية الشام من الشمال ، فكل ما وراءها نحو الجنوب رمال قاحلة لا ماء فيها ولا نبات . كأن تلك البادية مثلث رأسه تدمر فى الشمال ، وساقاه حدود العراق فى الشرق ومشارف الشام فى الغرب ، وقاعدته شمالى جزيرة العرب . فالبادية المشار اليها أقرب الطرق بين الشام والعراق ، لكن جفافها ووعورة مسالكها جعلت المرور فيها شاقا ، فأصبحت القوافل المسافرة من الحيرة مثلا الى دمشق تجعل طريقها شمالا غربيا على حدود الفرات ، حتى تأتى تدمر فتستريح هناك وتتزود ، ثم تنعطف جنوبا الى دمشق — ذلك كان شأن القوافل التجارية أو الحملات العسكرية من قديم الزمان . لابد للمسافر من الشام ، أو فلسطين الى العراق ، أو فارس ، أو خليج العجم من المرور بتدمر ، فأصبحت بسبب ذلك عظيمة الاهمية ، فسكنها الناس قديما ولم يعرف بانيها . وأقدم من ذكرها صاحب سفر الايام الثانى وسماها تدمر أو تدمور وهو اسمها العربى . ولم يذكرها العرب الا بعد الاسلام ، ولهم فى أصل بنائها أقوال مثل سائر مزاعمهم فى بناء المدن القديمة ، اذ ينسبون فى الغالب بناءها الى سليمان بن داود ، أو سام بن نوح ، أو الى الجن (*) فتدمر عندهم من بناء سليمان ، مع انها خارج مملكته ووجودها يضر بسياسته ، لأنه كان ينوى احياء فلسطين

(*) لا زال الاصل البعيد لتدمر مجهولا ، رغم البحوث الكثيرة التى قام بها العلماء حول الموضوع ، واسمها — سواء فى الافرنجية Palmyra أو فى العربية « تدمر » — لا زال موضع خلاف أيضا . فاما عن أصل الاسم العربى فلم يبحث بحثا جديا ، وأقصى ما ذهبوا اليه من الفروض ان اسمها محرف عن تمر أو تمور — أو تامار — العبرانيتين بمعنى النخل وما الى ذلك وأما الاسم الافرنجى فلا شك أن له علاقة بلفظ Palma أى النخلة ، وان كان تطور الاسم الى Palmyra غير معروف . أما أصل المدينة فلا زال الكثيرون يتابعون ما ذهب اليه يوسف اليهودى ومؤرخو اليهود من أن سليمان عليه السلام هو الذى بناها ، وينسب بعض الاخباريين بناء تدمر الى امرأة تسمى تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع .. بن سام بن نوح . وعلى أى الاحوال فان ما نعرفه عن تاريخ تدمر قبل الميلاد قليل جدا ، والغالبية الكبرى مما لدينا من أخبارها ترجع الى ما بعد الميلاد ، وأول من ذكرها من مؤرخى اللاتين هو بلينيوس
راجع ،، جواد على ، العرب قبل الاسلام ، ج ٣ ص ٧١ وما بعدها

بتحويل تجارة الشرق الى البحر المتوسط بطريق البحر الاحمر . فبنى على شواطئه فرضا ومرافىء لهذا الغرض . وكانت تجارة الشرق تحمل فى ايامه بالبحور ، فلما ذهبت دولته تحولت التجارة الى البر وعاشت بطرا ثم تدمر

والظاهر أن القوافل كانت تمر بتدمر من القرن السادس قبل الميلاد ، تحمل حاصلات اليمن ، أو الحبشة الى العراق ، فتتجاوز مشارف الشام الى تدمر ، ومنها الى جزيرة العراق ، أو فارس ، أو آسيا الصغرى ، لكنها لم تزه الا بعد سقوط بطرا فى اول القرن الثانى للميلاد ، فتحولت الطرق اليها وأخذت ترتقى وتتسع تجارتها ، حتى بلغت قمة مجدها فى القرن الثالث للميلاد

على أن الرومانيين طمعوا فيها كما طمعوا فى بطرا ، وحاولوا فتحها فى منتصف القرن الاول قبل الميلاد على يد ماركس انطونيوس ولم يفلحوا . ثم تدخلوا فى شئونها فى أواسط القرن الاول بعد الميلاد . وأدخلها الامبراطور هادريان سنة ١٣٠ م ، فى حمايته ، وشخص اليها وسماها « ادريان بوليس » نسبة اليه ، وبذل جهده فى تنظيم شئونها ، ووضع الضرائب على التجار والجمارك بأمر أصدره سنة ١٣٧ م ، عثروا على نصه منقوشا على حجر فى آثار تدمر الباقية . وكانت حكومتها ترجع الى مجلس شيوخ عليه رئيس

وفى أيام سبتميوس سفيروس أصبحت تدمر مستعمرة رومانية ، وصارت رئاسة الحكومة فيها الى زعيم يقال له شراتجى . ولما نشبت الحرب بين الروم والفرس فى صدر النصرانية ، زادت تدمر ثروة وأهمية ، لتوسطها بين المملكتين ، حتى صارت سيدة الشرق الرومانى ، وتمدن أهلها وأثروا وطمعوا فى رتب الدولة ومناصبها ، وزادهم طمعا فى ذلك مرور قياصرة الروم بها فى أثناء تلك الحروب ، مما جعل لأهلها دالة ونفوذا . وكان القياصرة يكرمون من ينصرهم على الفرس ، ومن جملة الذين نالوا ذلك الاكرام ، وارتقوا مناصب الدولة ، أسرة وطنية كان لها شأو كبير فى تاريخ تدمر ، من رجالها اذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصر ، فبلغ الى رتبة المشيخة الرومانية(*)

(*) لا يعرف على وجه التحديد التاريخ الذى دخلت فيه تدمر فى حكم الرومان ، والرواية التى يرددها عامة المؤرخين عن استيلاء مارك أنطونيوس على تدمر حوالى ٤١ قبل الميلاد ترجع الى المؤرخ اللاتينى ابيفانوس ، ولا يفهم منها هل كانت المدينة فى طاعة الرومان قبل ذلك . وعلى أى الاحوال، تبدو لنا تدمر بعد سنة ٤١ قبل الميلاد داخلة فى ملك الرومان. وقد زارها الامبراطور هادريان سنة ١٣٠ ميلادية وغير اسمها الى هدريانا بالميرا Hadriana Palmyra ومدينة هادريان Hadrianapolis . وقد كان للمدينة اذ ذاك مجلس شيوخ من أهلها له سلطة سن القوانين، وكان للمجلس رئيس وكاتب ، أما السلطة التنفيذية فكانت بيد شيخين يلقب الواحد منهما بالارخون Archon يعاونهما ديوان من عشرة أعضاء ، أما القضاء فكان له وكلاء وموظفون يقومون بشئونه

ويدل التنظيم العام للمدينة وألقاب موظفيها أن الرومان عندما دخلوها وجدوها منظمة على طريقة تنظيم المدن اليونانية المقفلة ، فرئيس مجلس الشيوخ يسمى البرويدروس Proedros

←

ودخول تدمر فى حوزة الروم لم يغير من حكومتهـا غير الظواهر ، لأن سيادتهم كانت سطحية فقط ، وأما صاحب النفوذ الحقيقى فهو الامير صاحب القوافل ، أو رئيس الخفر الذى تسير القوافل فى ظل سطوته ، فيفعل مايشاء ولا يلقى معارضا . وكان اذينة رئيس عصابة وطنية تسعى فى خلع نير الروم، فاكتشف الروم عزمه وقتلوه فى أواسط القرن الثالث للميلاد وفرقوا رجاله. وخلف أذينة ولدين اسم أحدهما حيران ، والآخر اذينة(كأبيه)وهو اصغرهما ولكنه أشدهما نقمة على الروم ، فصمم على الانتقام لأبيه منذ كان غلاما ، فهجر المدينة وسكن الجبال ، يقضى أيامه فى الصيد والقنص ورمى النبال ، ومطاردة الغزلان وحمر الوحش ، حتى أصبح شديد العضل قوى العزيمة ، واجتذب قلوب البدو المخيمين حول تدمر ، واطلعهم على سره فعاهدوه على أن ينصروه عند الحاجة ، ثم رجع الى تدمر فأقام فيها وهو يكتم غرضه

واتفق سنة ٢٥٨ م ، خروج فاليريان الرومى لمحاربة سابور الفارسى ، فمر بتدمر وخلع على أذينة الخلع وسماه قنصلاً ، وهى من أكبر رتب الدولة الرومانية . فلم يعبأ أذينة بتلك الخلع وفرق الهدايا فى مشايخ القبـائل . وانتهت تلك الحرب بظفر سابور وأسر فاليريان ، فلما علم اذينة بذلك بعث الى سابور الهدايا وكتب كتابا يتقرب به اليه ، فساء سابور الظن به ورفض طلبه ، فغضب أذينة ورجع الى الروم فاستسلم لهم قلبا وقالبا ، وعرض عليهم نصرته فى تلك الحرب ، وهو فى الحقيقة يكره الدولتين وانما يؤثر التى تفوض اليه السلطة فى تدمر . وكانت دولة الروم قد أفضت الى غالينوس ، فسره اقتراح أذينة ، وبعث اليـه حملة ضعيفة ضمها أذينـة الى رجاله المجربين ، وخرج على الفرس وأبلى فيهم بلاء حسنا ، وانتقم للروم ولنفسه واسترجع البلاد التى كان سابور قد فتحها من الجزيرة ، وأخضع نصيبين وحاصر المدائن مرتين ، وبعث الاسرى الى غاليانوس

فأصبح أذينة سيد الشرق الرومانى ، وامتدت سلطته على سوريا وما يليها ، ولقب « ملك الملوك » ، واقتـدى به قواد الروم يومئـذ فطمعوا فى السيادة لانفسهم ، كل واحد على ما فى يده ، واستأثر أذينة بسوريا وسائر آسيا الرومانية . وفى سنة ٢٦٤ م ، تسمى حاكما عاما عليها ، وهو فى الظاهر

←

والكاتب يسمى الجراماتيوس Grammateus ، والشيخ يسمى Archon ، ومجلس العشرة (الديوان التنفيذى) يسمى الديكابرويتوى Dekaprotoe

وقد رفع الرومان مركز تدمر الى درجة مستعمرة ممتازة فى عهد سبتميوس سفيروس أو فى أيام هادريان . ولكن المدينة كانت دائما بلدا مستقلا بالفعل ، وان دخلت فى نطاق الامبراطورية الرومانية . وقد غلبت حضارة الرومان على الطبقات الغنية من أهل البلد ، فاتخـذ أفرادها اسماء رومانية أضافوها الى أسمائهم العربية أو الآرامية

انظر : Johnes, Cities of the Eastern Roman Empire, p. 276 sqq.
Février, Essai sur l'histoire de Palmyre

تحت سيطرة الروم ، ورجاله يعدونه صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية ، من أرمينيا الى جزيرة العرب . وكان كثير الاشتغال بمحاربة الفرس وردهم عن بلاده ، فاذا خرج لحرب أناب عنه فى حكومة تدمر امرأته زينوبيا المشهورة فى تاريخ هذه المدينة (*)

زينوبيا

ونالت زينوبيا من امبراطور الرومان لقب « سبتميا » وهو من أكبر القاب الشرف عندهم ، وهى تدمرية المولد واسمها الاصلى «بنت زباى» ،وكانت سمراء اللون مع جمال وهيبة ، سوداء العينين نافذة اللحظ لؤلؤية الاسنان قوية البدن ، مع علو فى الهمة والحزم ، وكانت سطوتها مخيمة على تدمر وغيرها ، وكل سجاياها تنم عن أصلها العربى . وكانت تتكلم الآرامية والقبطية وبعض اللاتينية واليونانية ، ولها اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب ، وقد ربت اولادها تربية حسنة ، وهم ثلاثة : وهب اللات ، وخيران ، وتيم الله ، فضلا عن هيروديس ابن زوجها من امراة اخرى . ويندر اجتماع رجل وامراة مثل أذينة وزينوبيا ، وكلاهما فريد فى أطواره

لكن الدهر نكبها نكبة لم تكن فى حسبانها ، فمات زوجها أذينة وابنه الاكبر هيروديس سنة ٢٦٧ م ، فخلفه ابنها وهب اللات ــ واسمه فى اليونانية « اثينودورس » ــ وهى وصية عليه ولها النفوذ الاكبر . وكانت رومة الى ذلك الحين فى شاغل عن مستعمراتها بداخليتها ، حتى اذا استتب الامر لاورليان لم يبق لتدمر الا أن تخضع له خضوعا حقيقيا أو أن يحاربها ، وفى سنة ٢٧١ م ، لقب وهب اللات نفسه « أوغسطس » من القاب القياصرة ؛ وأزال اسم أورليان من النقود ، وصارت زينوبيا قائدة الجند وصاحبة الصوت الاعلى . وفى تدمر تمثالان : أحدهما لها ، والآخر لاذينة ، على قاعدته نقش جاء اسمه فيه بألقاب معناها « ملك الملوك ومحيى الدولة »

وغرست زينوبيا أعلامها ونشرت سلطانها على مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الى انقرة . وأوشكت بثينيا Bythinia أن تدخل تحت لوائها ، واذا بجيوش أورليان قد أجتمعت فى بيزانتين تتأهب للحمل على الشرق . وكانت زينوبيا كثيرة الاعتماد على رجالها العرب والارمن ، ولم تكن تثق ببقاء أهل الشام على ولائها ، لان أهل المدن لم يألفوا أشباه تلك

(*) أذينة من بيت تدمرى عريق تناوب أهله على الرياسة وكبار الوظائف ، ومؤسس مجد هذا البيت يسمى أذينة أيضا ، وكان زعيما عظيما احترمه الرومان ومنحوه لقب بروكوراتور Procurator وتسمى هو بسبتميوس أذينة Septemius Odenatus
وخلفه ابنه سبتميوس خيران ، ثم خلفه أخوه أذينة الكبير الذى يتحدث عنه المؤلف هنا
أنظر تفصيل تاريخ أذينة الكبير مع تصحيح لبعض الوقائع التى ذكرها المؤلف فى :
جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ص ٨٦ وما بعدها



تمثال لراس امرأة من تدمر

السيادة البدوية . وكان فى جند زينوبيا جم غفير من الروم ، فالتقت جنودها بجنود أورليان فى انطاكية وحمص ، وتراجعت مغلوبة . لـكنها كتبت الى

أورليان تقول انها لم تخسر من رجالها أحداً ، لان الذين قتلوا فى المعارك انما هم الروم ، فأهاج قولها أهل مدائن الشام ، فتكاتفوا وتفانوا فى نصرة أورليان ، خوفا من تغلب رجال زينوبيا ، وهم عرب جفاة أهل بادية ، فيستبدون بهم

وما أشبه حال بنى أذينة فى تدمر ببنى أمية بالشام بعد ذلك بأربعة قرون ، وكلاهما عرب أهل تجارة ، وعلى كل قوم منهما أمير له نفوذ على عرب البادية ، استعان بهم فى تأييد سلطنه . ولكن آل أذينة قاموا والدولة الرومانية لم تبلغ الضعف الذى وصلت اليه عند قيام الامويين . ومع ذلك فان زينوبيا ضيقت على أورليان بدهائها ، لكنه تمكن أخيرا من حصار تدمر بما بذله من المال فى تفريق كلمة العرب ، فلم تر زينوبيا خيرا من الفرار الى الفرس ، فاقتص الروم آثارها حتى قبضوا عليها ، فخاف التدمريون وسلموا سنة ٢٧٢ م ، وقبض أورليان على خزائن المدينة ، وعفا عن أهلها واطلق سراح زينوبيا ، لكنه قتل مشيريها فقضت بقية حياتها مع أبنائها فى طيبور ، كما يعيش أهل السكينة من أرباب المعاشات . ونهضت تدمر بعد قليل تلتمس الاستقلال ، ولكنها كانت نهضة الموت ، لأن أورليان أذلها هذه المرة ، وهدم اسوارها وقتل معظم سكانها

وكانت زينوبيا غريبة فى أطوارها ، لم ينبغ مثلها فى النساء ، شجاعة ودهاء وشدة ، فضلا عن جمالها وهيبتها . وكانت سيرتها أقرب الى سير الابطال من سير النساء ، فلم تكن تركب فى الاسفار غير الخيل ، ويندر أن تحمل فى الهودج . وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم واذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها . وكثيرا ما ضم مجلسها رجالا من أمم شتى ، وبينهم وفود من ملك الفرس أو الارمن أو غيرهما ، وقد يشربون حتى يسكروا وهى لا تسكر . وكانت اذا عقدت مجلسا اعتياديا للبحث فى شئون الدولة ، ادخلت ابنها وهب اللات معها ، وعليها أفخر اللباس وعلى كتفيها المشملة القيصرية الارجوانية وعلى رأسها التاج . ولم يقف بين يديها قادم الا خر ساجداً ، جريا على عادة الاكاسرة ، وكانت قد تشبهت بهم ، فجمعت فى ايوانها بعض شيوخ الخصيان ، وكلت اليهم تدبير قصورها ، واذا مشت فى ساحة قصرها أو دارت فى الرواق الآتى ذكره ، حفت بها الفتيات من بنات الاشراف ، وهى تتقدمهن وتزرى بجمالهن

وكانت اذا استعرضت جندها فى الميادين بين يدى قصرها ، مرت أمام الصفوف فوق جوادها ، وعليها لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية ، مرصعة بالدر والجوهر وعلى غلالتها أهداب منسوجة بأسحال ارجوانية ، وقد جردت احدى ذراعيها كما يفعل اليونان القدماء ، واخذت تحرض

جنودها على الصبر والثبات ، وتبث فى نفوسهم روح الشجاعة ، فاذا رآها الناس فى ذلك الموقف حسبوها الهة من الآلهة العظام ، فضلا عن تفوقها فى السياسة وسداد الراى واللطف وصحة التربية ، مما لم يسمع باجتماعه فى امرأة

الزباء وزينوبيا

وفى كتب العرب قصة ينسبونها الى امرأة اسمها « الزباء » يذكرون خبرها فى مقدمة تاريخ الحيرة عند الكلام عن جذيمة الابرش ، خلاصتها انه كان لجذيمة أخت اسمها رقاش ، هويت شخصا من اياد كان جذيمة قد اصطنعه يقال له عدى ، فواطأه على حيلة دبراها على جذيمة حتى أذن بزواجهما وهو سكران . فلما صحا هرب عدى فلحق به جذيمة حتى قتله ، وحملت رقاش وولدت غلاما ربته وألبسته طوقا وسمته عمرا . ثم فقد الغلام ، وتزعم العرب أن الجن اختطفته ، ثم وجده رجلان أتيا به الى جذيمة ففرح به وقال لهما : « اقترحا ما تشاءان » ، قالا : « منادمتك ما بقيت وبقينا » . وهما اللذان يضرب بهما المثل فيقال : كندمانى جذيمة — قالوا : وكان قد ملك الجزيرة وأعالى الفرات ومشارف الشام رجل من العمالقة يقال له عمرو بن الظرب بن حسان العمليقى ، وجرت بينه وبين جذيمة حروب انتصر فيها جذيمة وقتل عمرو المذكور . وكان لعمرو بنت يقال لها الزباء واسمها نائلة (وقالوا ليلى) ، فملكت بعده وبنت على الفرات مدينتين متقابلتين ، واحتالت على جذيمة حتى أطمعته فى نفسها ، واغتر وقدم عليها فقتلته وأخذت بثأر أبيها . وملك بعد جذيمة عمرو ابن أخته رقاش ، فاحتال بمساعدة عبد لخاله اسمه قصير حتى انتقم منها غدرا فى مدينتها ، بأن حمل الى حصنها رجالا فى صناديق التجار ، ثم خرجوا من الصناديق وقتلوا الزباء وأخذوا المدينة عنوة . وأما مدينة الزباء فقد قالوا انها المضيق بين الخانوقة وقرقيسيا على الفرات (١) وقال ابن خلدون انها كانت تسكن على شاطىء الفرات . وقد بنت هناك قصرا ، فكانت تربع عند بطن المجاز وتصيف فى تدمر

هذه خلاصة ما رواه العرب (٢) من حديث الزباء ، وللباحثين مناقشات فى هل الزباء هذه هى زينوبيا ملكة تدمر ، أم هى غيرها ؟ وممن يرى أنها غيرها المستشرق الانجليزى ردهوس وله فى ذلك رسالة ضافية (٣) وللأب سبستيان رنزفال اليسوعى رسالة جزيلة الفائدة فى زينوبيا أو الزباء ، نشرت تباعا فى السنة الاولى من المشرق . أما رأينا فلا يساعد المقام على تفصيله ،

---

(١) ياقوت ٥٦٠ ج ٤
(٢) الاغانى ٨٢ ج ١ وابن الاثير ٤٩ ج ١ وابن خلدون ٢٦١ ج ٢ وأبو الفداء ٧٣ ج ١
(٣) اسمها Were Zenubia & Zebba'u Identical

وانما نقول ــ بناء على ما ذكرناه فى مقدمة هذا الكتاب من آفات الاخبار ــ أن القصة فى أصلها واحدة ، وقد تشوهت بالانتقال على الالسنة (*)

هل التدمريون عرب ؟

يقال فى التدمريين من حيث أصلهم ما قيل فى النبطيين ، والمشابهة شديدة بين البلدين وبين سكانهما من أكثر الوجوه . فان بيوتات الشرف فى تدمر عرب ، أصلهم من البادية من بقايا العمالقة (١) واقاموا هناك للتجارة ، فغلبوا على أهل المدن بما كانوا فيه من خشونة البداوة وعلو الهمة وكبر النفس ، وتدرجوا فى مناصب الدولة حتى صاروا ملوكا ، واتخذوا لغة الشام ــ وهى حينئذ الآرامية للمخابرات الرسمية والتدوين ، كما اتخذها النبطيون. ولكن اسماءهم وطبائعهم وسائر احوالهم تدل على عربيتهم . وفى لغتهم الآرامية صبغة عربية (٢) نعنى بقايا الاعراب فى أواخر الكلم كما فى النبطية

فدولة أذينة وزينوبيا فى تدمر دولة عربية ، وان كانت آثارها آرامية ، للأسباب التى بيناها فى كلامنا عن النبطيين . وزد على ذلك ان أهل تدمر يقسمون الى أفخاذ ، وهو تقسيم خاص بالعرب . فهم من بقايا العماليق كالنبطيين ، وان كانت لغتهم الرسمية الآرامية مثل لغة الانباط الرسمية ، وإما لسان التكلم وجنسهم فعربيان

آثار تدمر

وقد وقف المنقبون على آثار تدمر قبل وقوفهم على آثار الانباط ، ووصفوا هياكلها وشوارعها وتماثيلها فى القرن الثامن عشر ، وأشهر من زارها ووصف آثارها الفيلسوف فولنى الفرنسى فى أواسط القرن المذكور ، وله فى ذلك كلام فلسفى مشهور . ثم زارها سواه ووصفوها وصوروا بقاياها ــ واليك أهم تلك البقايا :

أولا : هيكل الشمس أو هيكل بعل . وهو مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ٧٤٠ قدما ، يحيط به سور علوه سبعون قدما ، وفيه من الاساطين الضخمة الباقية الى الآن ما يزيد على مائة اسطوانة ، صفوفا منتظمة فى أروقة على قممها نقوش يونانية : ويظن أن عدد هذه الاعمدة فى الاصل يزيد على ٤٠٠ اسطوانة

(*) أنظر عن الزباء الاب سباستيان ونزفال فى مجلة المشرق : « زينوبيا وتدمر » السنة الاولى (١٨٩٨) ، جـ ٢٠ ص ٩٢٠ وما يليها ، وبقية البحث فى الاعداد التالية من المشرق وقد استوعب فيه المؤلف كل ما قيل عن زينوبيا ، وأثبت أنها الزباء
وانظر أيضا ، جواد على ، العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ص ٩٩ ومايليها
وفيه تفصيل واف عن حياة زينوبيا وتاريخها عند العرب والرومان مع مراجع وافية

(١) ابن خلدون ٢٥٩ ج ٢

(٢) Ency. Brit. Art. Semitic Languages

ثانيا : الرواق الاعظم ، وهو من عجائب تدمر ، يبدأ على مائتى متر من الهيكل المذكور . وكان الرواق فى أصل بنائه يتألف من شـارع أوسـط وشارعين جانبيين ، ويمتد على طول المدينة من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى . ومسـافة ذلك نحو ٣٧٥٠ قدما ، وعدد الاسـاطين نحو ٧٥٠ اسطوانة ، لايزال نحو ١٥٠ منها قائمة ، ارتفاع الاسطوانة من موقفها الى قمتها ٥٧ قدما

ثالثا : المدافن . وهى غريبة الشكل كالابراج المستطيلة ، يزيد عددها على مائة مدفن ، تختلف عن مدافن سائر المدائن ، وهى مفرقة حول المدينة . يتألف المدفن من اربع طبقات ، علوها ثمانون قدما وعرضها ثلاثون قدما ، له باب خاص يدخلون منه الى الطبقات وحول المدينة سور لا تزال آثاره باقية ، وغير ذلك مما يطول شرحه

لغة آثار تدمر وكتابتها

واكتشفوا على تلك الآثار نقوشا كتابية هى من تنوعات القلم الآرامى ، سموها القلم التدمرى وقرأوها ـ وهذا مثال منها :

١ [illegible]

٢ [illegible]

٣ [illegible]

٤ [illegible]

نطقه بالحروف العربية سطرا سطرا :

١ ـ صلمت سفطميا بنت زباى نهيرتا وزدقتا

٢ ـ ملـكتا سفطميوا زبدا رب حيلا

٣ ـ ربا وزباى رب حيلا دى تدمور قرطسطوا

٤ ـ اقليم لمرتهون بيرخ اب دى شنة ٥٨٢ (١)

ترجمته باللغة العربية سطرا سطرا :

١ ـ تمثال سبتميا بنت زباى الجليلة والتقية

٢ ـ الملـكة . ان السبتمائين زبدا القائد

٣ ـ الاعظم وزباى قائد تدمر الفخيم

٤ ـ نصباه لسيدتهما فى شهر آب سنة ٥٨٢ (من التاريخ السلوقى)

---

(١) Cooke, 291

ومن أشهر المشتغلين بقراءة آثار تدمر الكونت ديفوجيه ، وهو يقسم تلك النقوش أو الكتابات الى أربعة مجاميع ، الاول : نقوش بنائية على قواعد الاساطين . الثاني : نقوش قبرية على المدافن . والثالث : نقوش دينية كالادعية والصلوات . والرابع : نقوش سياسية . وأقدم كتابة قرأوها حتى الآن وجدوها منقوشة على قبر تاريخه سنة ٣٠٤ من التاريخ السلوقى ، وهى تقابل السنة السابعة قبل الميلاد . وقرأوا على اثنين من أعمدة الرواق الاعظم اسمى اذينة وزينوبيا وبجانبهما تاريخ يقابل ٢٧١ للميلاد (٥٨٢ سلوقية) وهو أحدث تاريخ لهذه الدولة لانها السنة التى سقطت فيها . وبين هذين التاريخين كثير من الآثار المنقوشة ، وبعضها نقشوا بجانب أصله الآرامى ترجمته اليونانية ، وفيها كثير من النصوص التاريخية والسياسية والاجتماعية ، فى جملتها قرار من مجلس المدينة فى ١٨ نيسان سنة ٤٤٨ سلوقية (أى ١٣٧ م) فى عهد بونا بن بونا بن خيران الخ ... عن تعريفة الضرائب وشروط جمعها ، وهي كتابة مطولة تدخل في مائة سطر وبجانبها الترجمة اليونانية (١)

تمدن تدمر

كانت تدمر مركز التجارة والسياسة فى الشرق الرومانى وما يليه ، فكانوا يحملون من جزيرة العرب الذهب والجزع واليشب واللبان والصمغ والصبر وعود الند ، ويستجلبون من العراق لآلىء البحرين . ويحملون من وادى نهر السند وسواحل كرومندل أنواع المنسوجات التى يتاجر بها الى يومنا أهل تلك البلاد . ويستحضرون من أقاصى الهند القرنفل ، والبهار ، والحرير الصينى ، والنيل ، والفولاذ ، والعاج ، والابنوس . وكانت هذه الاصناف تأتيهم عن طريق البر . اما ما كان يردهم من طريق البحر فكان دون ذلك (٢) وكانوا ينقلون هذه الحاصلات والمصنوعات الى مصر والشام والعراق، والى رومة وبيزنطة وغيرهما من مدائن أوربا ، لأن معظم ما كانت تزدان به مجالس القياصرة والملوك واهل الثروة من الرياش الفاخر كان يحمل اليهم من الشرق ، على يد الانباط والتدمريين فضلا عن المعينيين والسبأيين ، وكلهم من أهل جزيرة العرب . وقدر بلينيوس قيمة ما كان يحمل الى رومة وحدها من تلك السلع بما يساوى ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات فى العام

وكانت التجارة فى العالم القديم بين الشرق والغرب تسير فى طريقين : الاول فى البحر الاحمر الى مصر والاسكندرية ، والآخر من خليج العجم فبادية الشام الى مصر . فالتجارة البرية كانت قبل الميلاد وبعيدة تسير بطريق

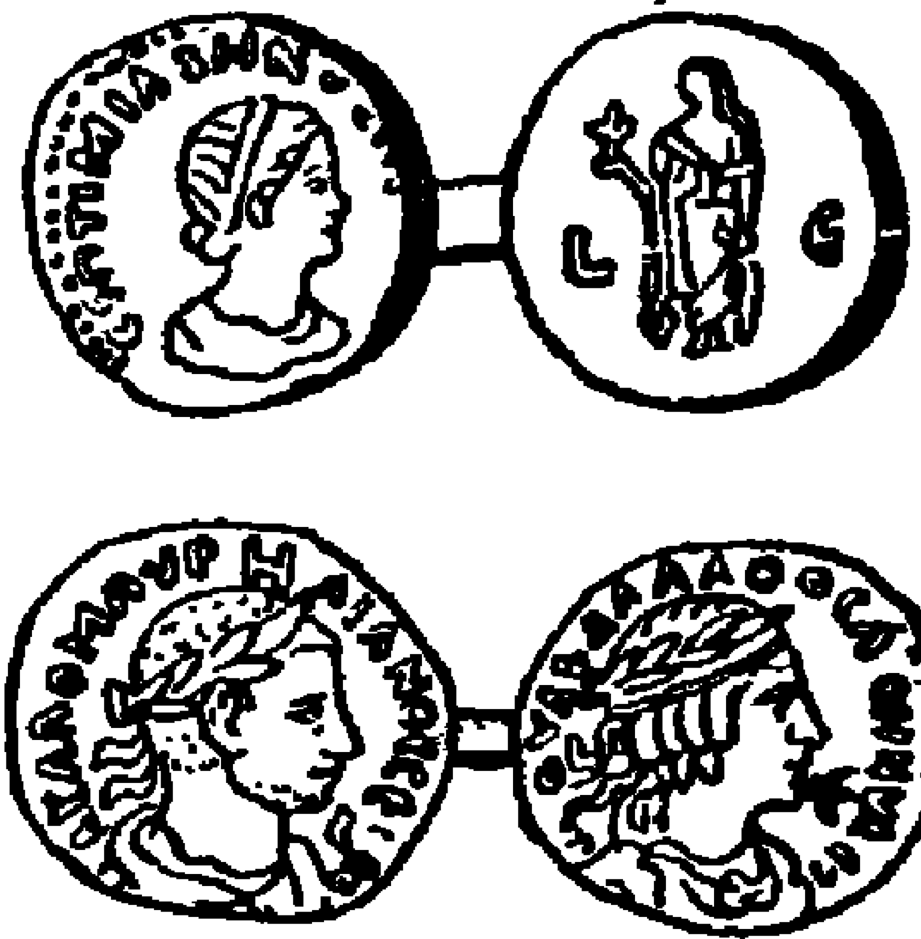
---

(١) Cooke, 313
(٢) المشرق ٥٣٧ سنة أولى

بطرا ، فلما سقطت فى أوائل القرن الثانى للميلاد تحولت الى تدمر كما تقدم. وكانت التجارة تحمل بين تدمر والشام على مركبات تسير فى طرق مرصفة ، ولها محطات للراحة وقلاع فضلا عن القوافل . وأما من جهة الفرات فلم يكن فيها شيء من ذلك . وكان لتدمر فائدة مضاعفة من تلك التجارة ، لانهم كانوا يكتسبون المرابحة بالبيع والشراء ، ويتقاضون على ما يمر بهم ضريبة معينة

اذا وقفت على اطلال تدمر ، ونظرت الى بقاياها وانقاض هياكلها وقصورها وأروقتها ، ورجعت بخيالك الى سابق مجدها ، تصورت النـاس يروحون ويجيئون فى شوارعها المحفوفة بالاساطين والاروقة ، بين أيديهم أحمال السلع من المنسوجات والمصنوعات والحاصلات ، من الزيت والحنطة والعنب والتين والخمر ، والاطياب والعطور ، والرقيق المحمول من مصر وآسيا الصغرى ، والناس يتزاحمون تتحـاك مناكبهم وتتداس اقدامهم ، وفيهم اليهودى والارمنى والرومى والسـبأى ، أو الحميرى والنبطى والبدوى ، وقد علا صياح الباعة أو السماسرة للمزايدة أو المساومة

ويؤخذ من استنطاق الآثار أن التدمريين كانوا طبقتين ، مثل سائر سكان المدن فى تلك الاعصر : طبقة الخاصة ، وطبقة العامة . وكانت خاصة التدمريين عبارة عن بيوتات قليلة ، هم أصحاب الثروة والنفوذ ، يقيمون فى القصور الفخمة وحولهم جمهور الامة من الفقراء والعمال ، يأوون الى أكواخ صغيرة ، وهيأتهم الاجتماعية مع تأثير التمدن الرومانى عليها ما زالت شرقية



نقود زينوبيا ووهب اللات

وللدولة التدمرية نقود بشكل نقود الاسكندرية ، عليها كتابة وصور . وفى الشكل مثالان منها ، الاول نقد زينوبيا على أحد وجهيه صورة رأسها وكتفيها وحول الصورة اسمها بالاحرف اليونانية هكذا « سبتميا زينوبيا » ، وعلى الوجه الآخر صورة اخرى . والنقد الآخر عليه صورة رأس وهب اللات واسمه ولقبه

أمم متفرقة
في شمالي بلاد العرب

لو لم يخلف النبطيون والتدمريون آثارا منقوشة بالحرف الآرامي ، الذي اقتبسوه من أهل الحضارة ، لضاعت أخبارهم كما ضاعت اخبار مئات من القبائل التي كانت تقيم في أعالي الحجاز على عهد التمدن القديم . على أن بعضها ذكره اليونان في وصف جغرافية بلاد العرب ، والبعض الآخر جاء ذكره عرضا في أثناء الكلام عن الدول الاخرى . ووردت أسماء بعض الامم العربية في جملة ما فتحه الاشوريون أو المصريون من بلاد العرب ، سنذكرها في كلامنا عن تلك الفتوح . أما قبائل العرب التي عرفها اليونان في شمال الحجاز ولا نعرف لها دولا فنذكر أهمها ، مبتدئين من حدود مصر ونسير شرقا الى الفرات ، وبجانب كل واحد الاسم العربي الذي يظن أنه محرف عنه :

الشرقيون	(السراسين)	Saracene
السكون	(سكانيته)	Sakanitae
عاد ؟	(واديته)	Oaditae
لحيان	(ليانيته)	Laenitae
بنو خالد	(خولوتايه)	Chaulothaei
شمر	(سمارينى)	Zamarini

وغيرها . وليس لهذه القبائل اخبار تستحق الذكر ، الا ما قد يجيء عرضا في الكلام عن الدول الاخرى . من ذلك ما وصل الينا عن قبيلة السراسين ، وهي من القبائل التي عرفها اليونان في جزيرة سينا ووراءها شرقا . وأصل هذا الاسم مجهول ، ويظن بعضهم انه تحريف « الشرقيين » في العربية . وقال آخرون انه تحريف الصحراويين أو السراقيين أو الشركاء أو غيرهم . وقد اشتهر هذا الاسم عند اليونان ، حتى أطلقوه على كل سكان جزيرة العرب

ومن أخبار السراسين عند اليونان أنهم كانوا لا ينفكون عن مهاجمة حدود مصر منذ القدم ، والدولة الرومانية لم تكن تستطيع كف أذاهم الا بمعاهدات عقدتها معهم تدل على ضعفها عن مناوأتهم وشعورهم بذلك الضعف . واتفق في أواسط القرن الرابع للميلاد أن ملكهم مات فخلفته امرأته واسمها ماوية. وقد جاء هذا اللفظ اسما لماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة (١) — فحلت ماوية نفسها من قيود المعاهدة ، وحملت برجالها على فلسطين وسوريا ، واستولت على مدينة بطرا ، ويممت شط مصر حتى أتت برزخ السويس ، فاضطر الامبراطور فالانس الى تجديد المعاهدة بشروط أوفق للمهاجمين .

---

(١) ابن الاثير ١٩٥ ج ١

وكان بين السراسين جماعة كبيرة من المسيحيين ، ولذلك كان فى جملة تلك الشروط أن يكون لهم أسقف خاص بكنيستهم ، فسلموا لها أسقفا اسمه موسى ، وأصبح أولئك العرب بعد هذا العهد حلفاء المصريين ينصرونهم على أعدائهم (١)

ويؤخذ من الامعان فى تاريخ المملكة الرومانية الشرقية ، ان مدن سوريا كثيرا ما دخلت فى سلطة العرب ، ولا سيما المدن القريبة من البادية ،مثل حمص وحماه والشام والرها ، فضلا عن مدن حوران والبلقاء وغيرهما . ولما قدم بومبيوس على مصر ، فى القرن الاول قبل الميلاد ، كانت حمص فى حوزة دولة عربية ، وغيرها من مدن الشام فى حوزة دول أخرى من أسماء ملوكها عند اليونانيين Azizus و Jamblichus و Sampsigeramus و Soemus وغيرها ، ويروى دوسو أن الدولة الايتورية عربية ، وكانت تحكم جبل الشيخ (٢) وهناك أمم شتى لم يذكرها التاريخ ، سيأتى ذكرها عرضا فى كلامنا من فتوح الامم المجاورة ، وبعضها قديم العهد جدا عاصرت عمالقة مصر (الشاسو) أو تقدمتهم بأزمان ، مثل عرب مديان وأدوم وسائر جزيرة سينا وما حواليها

غزو المصريين بلاد العرب
من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٦٦ ق٠م

أقدم من غزا بلاد العرب من الدول المجاورة المصريون ، وأول من فعل ذلك منهم احمس مؤسس الدولة الثامنة عشرة ومنقذ مصر من دولة العمالقة (الشاسو) ، فانه بعد أن أخرجهم من القطر المصرى طاردهم الى أواسط جزيرة سينا ، نحو سنة ١٧٠٠ ق٠م ، ثم اضطر الى الرجوع لرد هجمات الاثيوبيين والنوبيين عن بلاده (٣) وكانت بلاد العرب وسائر المشرق قبل دولة العمالقة مجهولة عند المصريين ، كما كانت أواسط أفريقيا عند أهل الاجيال الوسطى . فلما نهضوا لمطاردة العرب وأخرجوهم من حدود مصر ، تنبهوا لما وراء ذلك من الامم المتمدنة فى بابل وفينيقية وغيرهما ، كأن استبداد العمالقة حرك خواطرهم وجعلهم أمة حية ، ونبههم الى توسيع دائرة ملكهم . وظهر من تلك العائلة تحوطمس الثالث ، الفاتح المصرى العظيم نابليون الفراعنة ، وحمل بجيشه على الشرق فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، فقطع برزخ السويس واكتسح أعالى جزيرة العرب وسوريا وفلسطين وفينيقية وما بين النهرين . وذكر فى جملة الذين غلبهم من الساميين عرب (الشاسو) الذين كانوا حكاما على بلاده . وبلغت الحملات التى جردها على بلاد الشرق ٥١ حملة . وفى الآثار المصرية نقوش نقشها تحوطمس وذكر فيها البلاد التى

---

(١) Sharpe, 11, 293

(٢) Dussaud, 10 & 11

(٣) Brugsch, I. 284

فتحها والغنائم التى حملها . ومن جملة البلاد المفتوحة ما بين النهرين وخيتا بلاد الحثيين) وسنغار (شنعار) ولبنان وقبرص وفينيقية وعرب الشاسو ولوذم (اللاوذيون) . فضلا عن القوائم التى ذكر فيها ما فتحه من بلاد النوبة والحبشة وما وراءها ، وعدتها جميعا ٢٦٩ مدينة (١)

ومنهم رعمسيس الثالث من العائلة العشرين ، وهو أكثر الفراعنة ايغالا فى بلاد العرب ، واسمه فى اللغة العربيــة هاكون ، نبغ نحو سنة ١٢٠٠ قبــل الميــلاد ، وهو آخر عظمــاء الفراعنة . وكانت مصر لمــا تولاها فى ضــنك واضطراب ، وقد طمع فيها جيرانها الساميون (٢) فشمر عن ســاعد الجــد وأصلح داخليتها . ثم حول اعنة خيله نحو البلاد التى كانت تهدد مصر برا وبحرا ، وبنى أسطولا كبيرا أنزله البحر الاحمر ، وسافر فيه لارتياد بلاد بنت (الحبشة والصومال) والارض المقدسة (بلاد العرب) وغرضه الرئيسى تسهيل سبل التجارة البحرية بين مصر وأقصى الشرق ، ولم يكن له بد من توطيد العلائق الودية بين مصر وشواطىء ذلك البحر ، واليمن فى جملتها . وانشأ أيضا طريقا للقافلة ، منتظما من القصير على البحر الاحمر الى قفط على النيل . وأنشأ خطوطا تجارية منتظمة بين الاوقيانوس الهندى والنيــل بطريق بلاد العرب . وبعث الى جزيرة سينا وفدا لاكتشاف معدن الذهب وغيره من الخيرات التى كان أسلافه يعرفونها ، وكثيرا ما كانت الدول القديمة تطمع فى بلاد العرب رغبةفى ذهبها. واقتدى به رعمسيس الرابعسنة١١٦٦ ق.م ، فافتتح طريقا مختصرا الى بلاد العرب ، وكان الطريق اليها طويلا

غزو الاشوريين بلاد العرب

من سنة ٩٠٠ الى سنة ٦٥٢ ق.م

لما استولى الاشوريون على بابل توجهت مطامعهم الى بلاد العرب ، رغبة فى الغنائم والتماسا للمعادن الثمينة ، لاشتهار تلك البلاد يومئذ بمناجم الذهب. كما سنبينه فى فصل خاص . أما الملوك الاشوريون الذين غزوا بلاد العرب أو فتحوها فهم :

١ ــ تغلات بلاسر : هو أول من حمل عليها منهم ، ويعرف بتغلات بلاسر الثانى . غزاها فى القرن التاسع قبل الميلاد ، على أثر حربه فى سوريا ، فأصاب قبيلة من العرب على حدود مصر عليها ملكة اسمها حبيبة (٣) وظن بعضهم بانها قبيلة السراسين التى ذكرنا حربها مع مصر ، لانها كثيراماكانتتولى النساء على حكومتها ، ولكن الزمن بين الحادثتين يزيد على ١٢ قرنا . فخلع تغلات بلاسر الملــكة ، وأقام مكانها رجلا من خاصته

(١) Brugsch, I. 405
(٢) Brugsch, I. 148-175
(٣) Rawlinson, II, 396



سرجون الثانى ملك أشور بيده الصولجان

(٢) سرجون : ويعرف بسرجون الثانى (حكم من سنة ٧٢٢ ــ ٧٠٥ ق.م) واتفق فى أيام هذا الملك أن العرب فى أعالى الحجاز غزوا السامرة ونهبوها ، وكانت فى حماية الاشوريين ، فعمل سرجون على الانتقام بالشدة والعنف ، وعزم على اكتساح بلاد العرب كلها ، فأوغل فيها سنة ٧١٥ ق.م ، حتى قطع البوادى الى أقصى البلاد العامرة ، وهو أول من بلغ الى هنـاك من الفاتحين . وذكر فى جملة القبائل التى أخضعها أو الملوك الذين ضرب عليهم الجزية : ثمود ، ويثعمر السبأى ، وشمسية ملكة العرب ــ لعلها من خلائف حبيبة التى تقدم ذكرها . وهذا نص قوله على القرميدة (*) كما قرأوها ، فبعد أن ذكر فتوحه فى الشام ومصر وبلاد العرب قال :

« وضعت الجزية على فرعون ملك مصر ، وشمسية ملـكة العرب (عريبى) ويثعمر السبأى (أو يثعمر السبأيين) ، وأخذت حاصلات الذهب من جبالهم والخيول والجمال »

وقال فى قرميدة أخرى :

« إن قبائل ثمود وعباديد مرسمان وخيابا من قبائل العرب سكان البادية الذين لم يصل خبرهم الى حكيم ولا عالم ولم يدفعوا الجزية لاحد قبلى ، كل هذه الامم غلبتها باسم أشور الهى ونقلت بقاياها الى سامريا » (١)

(*) اى طوبة من اللبن ، وكانوا ينقشون كتابتهم على الطوب النيء ثم يحرقونه فى النار أو يدعونه حتى يجف.

(١) Clay, 336-338 Glaser, 112 & 317

(٣) سنحاريب (٧٠٥ ــ ٧٠١ ق. م) وولى سنحاريب بعد سرجون ، وله وقائع وفتوح فى الشام وفلسطين وغيرهما مذكورة فى الكتاب اللقدس. وقد وقفوا فى آثار بابل على ما يؤيد ذلك بقرميدة اسطوانية مسدسة الجوانب ، ذكر فيها فتوحه فى أرض الحيثيين وصيدا وقبرص وارواد ومواب وادوم وعسقلان وغيرها ، حتى بلغ الى أعماله فى غربى بلاد العرب وشماليها اى حوالى جزيرة سينا ، وهى من أقدم بلاد العرب عمرانا ، فكان من جملة البلاد التى حاربها مالوق ــ أو مالوكا التى تقدم ذكرها ــ وتمناء ، ذكر انه حاصرها وفصل حربه فى غزوة يهوذا وامتدح شجاعة العرب الذين نصروا تلك الامم عليه (١)

(٤) اسرحدون (٦٨١ ــ ٦٦٨ ق.م) واقتفى أسرحدون أثر أسلافه فى الفتوح ، فحارب مصر وفينيقية ، وصور نفسه يقود ترهاكة ملك مصر وبعل ملك صور بحبل ، ونقش أعماله على صور مختلفة . وبعد أن ذكر حربه بمصر وصور وقبرص ، فصل فتوحه فى الشام ، فذكر اسم كل بلد وملكها ، وأوغل فى بلاد العرب . وبين البلاد التى فتحها هناك بلد سماه « بازو » ، قال انه فى أقصى المعمورة وراء البادية ، قطع اليه ٤٩٠ ميلا فى بيداء تكثر فيها ريح السموم ، و ٧٠ ميلا فى أرض عامرة ، ولم يبق وراء ذلك غير الجبال ، والمظنون انه يعنى البحرين أو ما يجاورها ، وهو أول من بلغ الى هناك من ملوك اشور. وذكر ان قصبة بلاد البازو تدعى « يديع » ، يحكمها ملك اسمه « ليلا » ، فأخضعه لسلطانه (٢)

وجاء فى جملة اخبار فتوحه مدن اكتسحها فى اليمامة وأخضع ملوكها ، وهم : قيس ملك فدل ، وأكبر ملك النبط ، ومعن ساق ملك مجلان ، ويافع ملك ديخر ، وخبس ملك قحطبة وغيرهم (٣)

(٥) اشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٠٥ ق.م) غزا قبيلة من العرب كانت قد أعانت عدوا نازعه الملك وأميرها اسمه ويتحة : له حلفاء من قبائل العرب ، منهم ناتان ملك النبطيين ، ويوتحا بن حزايل ملك قيدار (أى عرب شمالى الجزيرة) ، فجرت معارك كبيرة ما بين الفرات وخليج العجم الى الشام ، فغلبهم الاشوريون واستولوا على ادوم وبطرا ومواب ، وآخر معركة جرت فى مكان اسمه خوخورونا قرب دمشق ، انهزم فيه العرب وقبض الاشوريون على الاميرين اللذين نصرا عدوهم ، وحملوهما الى نينوى وقتلوهما على مرأى من الناس (٤)

(٦) نبوخذنصر (٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق.م) كل ما تقدم ذكره من فتوح الاجانب فى جزيرة العرب لم يعرفه مؤرخو العرب ، ولا ذكروا شيئا منه فى كتبهم أو

---

(١) Clay, 343
(٢) Library of Universal History, I. 179
(٣) Glaser Geo, II. 5.
(٤) Rawlinson II, 493

أوردوه فى أخبارهم ، الا نبوخذنصر هذا ـ وهم يسمونه بختنصر ـ فقد ذكروا انه حارب معد بن عدنان ، وهذا قولهم : « وسار بختنصر الى معد ، فلقى جموع العرب فقاتلهم وهزمهم وأكثر فيهم ، وسار الى الحجاز . فجمع عدنان العرب ، والتقى هو وبختنصر فى ذات عرق ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم عدنان وتبعه بختنصر الى حصــون هناك ، واجتمع عليه العرب . وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه ، فكمن بختنصر كمينا ـ وهو أول كمين عمل ـ وأخذتهم السيوف ، فنادوا بالويل . ونهى عدنان عن بختنصر ، وبختنصر عن عدنان ، وافترقا » (١)

ولم يعثر المنقبــون فى الآثار على ما يؤيد ذلك ، واما بروســوس مؤرخ الــكلدان فقد ذكر فى كتابه أن بختنصر حارب العرب وغزا بلادهم (٢)

غزو الفرس وغيرهم بلاد العرب

الفرس

قد رأيت فى ما تقدم ، أن جزيرة العرب ـ مما يلى العراق ـ أصبحت من القرن التاسع قبل الميلاد مسرحا لملوك أشور ، يكتسحها الواحد بعد الآخر ، وقبائلها تؤدى الجزية ولو مؤقتا على غير نظام . فلما انتقلت أشور الى حكم الفرس على يد قورش ، دخل جيرانها العرب فى ما دخلت فيه ، فكانوا يؤدون الجزية للفرس من بخورهم ولبانهم ، كل سنة الف وزنة (٣) . ولذلك لما حمل قمبيز على مصر ، كان العرب عونا له على المصريين ، يعدون له الماء فى البادية (٤) . ولما حمل الفرس على اليونان كانت العرب فى جملة تلك الحملة بابلهم وأحمالهم ، وجعلوهم فى المؤخرة لئلا تجفل الجمال فيضطرب الجيش (٥)

ثم تبدلت الاحوال ، فشق العرب عصا الطاعة على الفرس ، وطمعوا فى الخروج الى بلاد فارس من البحرين ، فى أيام سابور ذى الاكتاف ـ وكان صغيرا فاستضعفوه ـ فسار منهم جمع غفير من عبد القيس ، عبروا خليج العجم الى بلاد فارس وسواحل أردشير قره ، وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم ، وغلبت اياد على سواد العراق ، وأكثروا من الفســاد فيهــا ، فمكثوا حينا لايغزوهم احد ، فلما كبر سابور واشتد ساعده ، أوقع فى أولئك العرب ، وقتل وأسر ، وقطع الخليج الى البحرين (٦) واليمامة والقطيف من فرسان عسكره عدة اختارها وسار بهم الى العــرب ، وقتل من وجده منهم . ووصل الى الاحساء والقطيف ، وشرع يقتل ولا يقبل فداء ، وورد المشقر

---

(١) ابن الاثير ١١٧ ج ١
(٢) Rawlinson III. 490
(٣) هيرودوتس ٢٣٧
(٤) هيرودوتس ١٩٧
(٥) هيرودوتس ٤٦٧
(٦) ابن الاثير ١٧٢ ج ١

باليمامة ، وبه أناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، فسفك من دمائهم ما لايحصى وكذلك سار الى اليمامة ، وسفك بها . ولم يمر بماء للعرب الا غوره ، ولا بئر الا طمها . ثم عطف على ديار بكر وربيعة ، فيما بين مملكة فارس ومملكة الروم فى الجزيرة ، وصار ينزع أكتاف العرب ، قالوا : ولذلك سمى ذا الاكتاف (١) . وذكروا نحو هذه الغزوة لاردشير على البحرين ، فحاصرها مدة والقى ملكها نفسه فى البحر (٢)

الروم

أما اليونان فقد رأيت أنهم حاولوا فتح بلاد العرب ولم يظفروا ، أو نوى أحدهم ولم يشرع — كما أصاب الاسكندر الكبير — فقد ذكروا انه كان عازما على فتحها فعاجله الموت . والرومان لم يطمعوا فيها الا أيام أوغسطس ، فأنفذ تلك الحملة بقيادة أليوس غالوس فعادت بالفشل ، وقد ذكرنا خبرها فى كلامنا عن دولة الانباط (*)



فترى مما تقدم أن لعرب الحجاز وما يليه تاريخا طويلا ، لم يعرفه العرب ولا ذكروه فى كتبهم . وآلت حروبهم طبعا الى اختلاطهم بالامم المجاورة ، ونزوح بعضهم الى الاطراف شرقا وغربا ، يغتنمون ضعف أهل الحضر — شأنهم فى كل زمان — فنزل بعضهم فى وادى النيل ، وتجاوز البعض الآخر ما بين النهرين الى بلاد فارس . فقد جاء فى تاريخ الفراعنة ، أن العرب لما رأوا ضعف مصر بعد دولة الرعامسة ، وطمع الدول المعاصرة فيها ، أخذوا يفدون اليها بأنعامهم وخيامهم ، يسطون على مدنها ويشاغلونها ، كما فعلوا عند انقسامها قبل دولة العمالقة (٣) فنزلوا قفط وملكوها أجيالا ، وكانت مركزا تجاريا تفد اليها القوافل القادمة من اليمن فالقصير فقفط ، حتى أصبح أهل قفط أكثرهم من العرب (٤)

(١) أبو الفداء ٥١ ج ١ — (٢) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(*) تركت هذه الفصول الثلاثة — من ص ٩٠ الى ٩٥ — على حالها ، على ما فيها من متابعة بعض مؤرخي العرب دون تمحيص ، لأن المؤلف لم يرد منها الاستقصاء ، وانما مجرد اعطاء فكرة عما كان من حملات المصريين والبابليين والاشوريين والفرس والرومان على بلاد العرب . وقد أورد المؤلف أهم هذه الحوادث بتفصيل أكثر وتمحيص كبير فى مواضع أخرى من الكتاب

(٣) Sharpe, I. 206, II 90 & 186. — (٤) Sharpe, II. 237.

الطبقة الثانية

دول اليمن أو الجنوب

دول اليمن أو الجنوب

فذلكة جغرافية

يراد باليمن فى التاريخ القديم ما يسميه اليونان Arabia Felix أى العربية السعيدة ، ولعلها ترجمة « اليمن » من البركة ، لكثرة خيراتها بالنظر الى البادية فى الشمال ، كأنهم يريدون بها بلاد العرب العامرة أو الحضر. ويحدها عندهم خليج العجم من الشرق ، وبحر العرب من الجنوب ، والبحر الاحمر من الغرب ويسمونه خليج العرب . وأما من الشمال فتحدها البادية ، وهى بادية الشام والعراق ، وبلاد العرب الصخرية (بلاد بطرا) ، ويدخل فى بلاد اليمن على هذا التحديد اليمن وحضرموت والشحر وعمان والعروض ومعظم الحجاز وتهامة ونجد وغيرها (*)

واختلفت أقسام بلاد اليمن وأسماء مدنها باختلاف الاعصر ، وأكثر المدن القديمة التى كانت قبل الاسلام خربت الآن ، وغطتها الرمال فأصبحت بادية بلا ماء ولا عمارة ، وفيها يبحث المنقبون عن أطلال مدائن الدول القديمة ، ومنها نقل ارنو وهاليفى وجلازر وغيرهم نقوش المسند ، واستدلوا بها على أخبار تلك العصور الخالية ، مما لم يذكره العرب ولا اليونان

أما العرب فيريدون باليمن الجزء الجنوبى الشرقى من جزيرة العرب فقط ، وهو يقسم عندهم الى ٨٤ مخلافا ذكرها اليعقوبى كلها (١) والمخلاف تحته مدن ومحافد وقرى ، وفيه الاودية والجبال والسدود والسيول . وأشهر مخاليف اليمن مخلاف شبوة ومخلاف مأرب ومخاليف المعافر والسحول وذى رعين وجيشان ورداع وذمار والهان وحراز وهوزن وحضور واقيان وخولان وغيرها . وقد فصل الهمدانى كل مخلاف بقراه وأوديته وجباله فى كتابه « صفة جزيرة العرب » على ما كانت عليه فى أيامه فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وهو أوثق المصادر عن جزيرة العرب وأوفاها . واليعقوبى أقدم منه ، وقد ذكر مخاليف اليمن كما كانت فى أواسط القرن

(*) ورد اسم اليمن فى النصوص السبأية القديمة : يمنات ويمنت وهو أصل لفظ اليمن. وكان الاسم يطلق أول الامر على جزء من اليمن الحالية ، أو اليمن بمفهومها عند الجغرافيين والمؤرخين من العرب ، فتقول النصوص أن ملوك سبأ وذى ريدان « أصبحوا يسمون ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها فى الجبال وفى تهامة » ، أى أن يمنت لم تكن الا جزءا مما عرف بعد ذلك باليمن . ويرى جلازر أن يمنت كلمة عامة أطلقت على الجزء الجنوبى الغربى من جزيرة العرب من باب المندب الى حضرموت . وكانت تتألف من مخاليف عديدة يحكمها اقيال واذواء مستقلون بشئونهم ، ولكنهم يعترفون بسيادة ظفار أو ميفعة عليهم ..
أنظر : جواد على ، العرب قبل الاسلام ، ج ٣ ص ١٣٦ ـ ١٣٧

(١) تاريخ اليعقوبى ٢٢٧ ج ١

الثالث للهجرة . ومع ذلك فان ما ذكره هؤلاء أحدث كثيراً من التاريخ الذى نحن فى صدده ، لان مداره على مدن وقبائل ودول لم يبق غير اسمائها وبعض أنقاضها ، وكان معظمها فى أواسط اليمن وشرقيها ، فى ما يعرف اليوم باليمن والجوف وحضرموت وما وراءها . واشهر المدائن اليمنية التي عاصرت ذلك التاريخ مأرب أوسبا ومعين وصرواح ونجران وصنعاء وشبوة وشبام وتريم وظفار وريدان وبثيل والسوداء والبيضاء وحيران وميفع وغيرها (انظر الخريطة الثانية من هـذا الـكتاب) ومعظم هذه البلاد تخربت قبل الاسلام ، ولم يبق غير أسمائها وبعض أنقاضها ، وسيأتى ذكرها ووصف بعضها فى الكلام عن عمارة اليمن

مايقوله العرب عن دولة اليمن

ليس فى تواريخ الامم أسقم من تاريخ العرب على الاجمال ، واليمن على الخصوص . وقد عانى سقمه وشعر باختلاطه وضعفه كل من هم بالـكتابة فيه ، حتى القدماء . فقد قال ابن خلدون : « وفى أنساب التبابعة تخليط واختلاف لا يصح منها ومن أخبارها الا القليل » (١) ولـكننا عاملون على ايضاح ذلك وتحقيقه بقدر الامكان

(١) ابن خلدون ٤٤ ج ٢

ينتسب عرب اليمن الى يعرب بن قحطان، ويعرفون بالعرب المتعربة لانهم تعربوا ، أي اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهى البائدة . ويزعم مؤرخو العرب أن بنى قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة ، والدولة فيهم ، والقحطانيون يومئذ بعيدون عن رتبة الملك والترفه الذى كان لاولئك (أى العرب العاربة) فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذى يسوق اليه الترف والنضارة ، فتشعبت فى أرض الفضاء فصائلهم وتعددت افخاذهم وعشائرهم ونما عددهم وكثر اخوانهم من العمالقة فى آخر ذلك الجيل ، وزاحموهم بمناكبهم ، واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم، وكانت الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم ، وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ، يقال انه أول من حياه قومه بتحية الملك .. قال ابن سعيد : « وولى اخوته على جميع أعمالهم ، فولى جرهما على الحجاز ، وعاد بن قحطان ، على الشحر ، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر ، وعمان بن قحطان على عمان ... هكذا ذكر البيهقى » (١)

وذكروا بعده ابنه يشجب بن يعرب ، وبعده ابنه عبد شمس وهو سبأ ، زعموا انه سمى بذلك لكثرة سبيه وانه هو الذى بنى السد الشهير فى أرض مأرب . وخلف سبأ المذكور عدة أولاد ، أشهرهم حمير وكهلان ، ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير مؤسس دولة حمير . وهى عندهم طبقتان : الملوك والتبابعة . وملوك حمير اختلفوا فى عددهم وعصورهم وتواليهم ، ولكنهم اتفقوا فى أن آخرهم « الحارث الرائش » وهو أول التبابعة . وهذا جدول قابلنا فيه بين توالى ملوك هذه الدولة باختلاف الرواة بين حمير والحارث الرائش :

القصيدة الحميرية	أبو الفداء	ابن خلدون	المسعودي
حمير	حمير	حمير	حمير
الهميسع	وائل	وائل	كهلان
أيمن	السكسك	السكسك	أبو مالك
زهير	يعفر	يعفر	جبار بن غالب
غريب	ذو رياش	النعمان	الحارث
الغوث	النعمان	ذو رياش	
وائل	اشمح	اشمح	
عبد شمس	شداد	الحارث	
زهير الصوار	لقمان		
ذو يقدم	ذو سدد		

(١) ابن خلدون ٤٧ ج ٢

القصيدة الحميرية	ابوا الفداء	ابن خلدون	المسعودى
ذو انس	الحارس		
عمرو			
الملطاط			
القليص			
سدد			
الحارس الرائش (*)			

(*) لم يعد احد يأخذ بهذه القوائم التى رواها الاخباريون وأثبتها مؤرخو العرب فى كتبهم، وقد ذهب جواد على الى آن سبأ أو شبا اسم لشعب لا لرجل وأن هذا الشعب كان يحكم ناحية صغيرة من اليمن ، ثم اتسع شيئا فشيئا ، وعرض كذلك للروايات المختلفة التى تروى عن ملكة سبأ وزيارتها لسليمان عليه السلام ، وعرض لآراء الباحثين فى هذا الموضوع،وخاصة لما يرد فى التوراة من تفاصيل عن زيارتها لسليمان ، وذكر ما انتهى اليه نفر من العلماء من أن ملكة سبأ هذه كانت أميرة امارة صغيرة شمالى جزيرة العرب ، وذكر مايرويه الاحباش من آن بينهم المالك من سلالة سليمان وزوجته ملكة شبا ويسمونها «ماقدة» ، وما يذكره يوسف اليهودى من ان ملكة شبا التى ذهبت الى سليمان كانت ملكة الحبشة ومصر · هذا وقد ذكر اليهودى من أن ملكة شبا التى ذهبت الى سليمان كانت ملكة الحبشة ومصر · هذا وقد ذكر القرآن الكريم زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام دون أن يذكر اسمها ، ولكن المفسرين ذهبوا الى أن اسمها بلقيس وانها من بنات التبابعة ، ثم ختم دراسته المستفيضة بقوله : « لقد بدل حكام سبأ ألقابهم مرارا ، فبعد أن كان قدماؤهم يلقبون أنفسهم بلقب « مكرب سبأ » تلقب من جاء بعدهم حوالى سنة ٦٥٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل بلقب « ملكة سبأ » ··· ثم أبدل خلفاؤهم هذا اللقب فى سنة ١١٥ ق·م وفضلوا عليه لقب ملك سبأ وذى ريدان · وحوالى سنة ٣٠٠ ميلادية تلقب ملوك سبأ وذى ريدان بلقب جديد هو « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعربها طودم وتهمتم » أى « ملك سبأوذو ريدان و حضرموت ويمنات (اليمن) وأعرابها فى الجبال وتهامة » ، وتمثل هذه الالقاب أدوارا فى تاريخ سبأ »

أنظر : تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٧

· أى ان سبأ كانت فى أول أمرها امارة أو مشيخة صغيرة ، ثم أخذت تتسع شيئا فشيئا حتى شملت اليمن كله وحضرموت وتهامة

وقد فسر جواد على لقب المكرب الذى تلقب به أصحاب سبأ فى أول أمرهم بأنه المقرب من الآلهة ، أو المقرب من الالهة والناس ، وقال ان هؤلاء الحكام كانوا كهانا وهم يشبهون «القضاة» ملوك العبرانيين الاول · وكانت عاصمتهم الاولى صرواح بين صنعاء ومأرب

وقد ذكر أسماء سبعة عشر مكربا استقى أسماءهم من النصوص التى عثر عليها البحاثون ، وليس بين أسمائهم أى شبه بأسماء ملوك سبأ التى أوردها مؤرخو العرب (وأوردها جرجى زيدان فى النص نقلا عنهم) وأولهم المكرب سمه على الذى ذكر جون قلبى ان مبدأ حكمه كان حوالى سنة ٨٣٠ قبل الميلاد · وهؤلاء المكربون هم الذين بدأوا سياسة استصلاح الاراضى واعطائها للفلاحين لاستغلالها وابتنوا المعابد لآلهتهم ، وهم الذين بدأوا اقامة السدود ، وقد بدأت السدود عمليات هندسية صغيرة غرضها احتجاز مياه الامطار الموسمية ، وأول سد تشير اليه النصوص سد « رحب » أو « رحيم » ·· وهو جزء من مجموعة السدود التى عرفت فيما بعد باسم سد مأرب ، ثم أنشىء بعد ذلك جزء آخر من هذه المجموعة هو سد حبيض أو حبيضة فى عهد المكرب « يثع أمر بين » وقد هاجم هذا المكرب بلاد القتبانيين وأثخن فيهم ، ثم هاجم مملكة معين ، ووسع مساحة مملكة سبأ الى أرض نجران ، وبنى كذلك بابين لمدينة مأرب وحصنها بحصون وبروج ، وأقام هو وابنه سلسلة من السدود أكملت سد مأرب وجعلته فى الصورة التى عرفناه بها فى التاريخ،وصارت مملكة مأرب فى عصرهما ـ نتيجة لاكمال مجموعة السدود التى تكون سد مأرب ـ مملكة واسعة الارجاء عظيمة الرخاء

وفى ذلك العهد أيضا أهملت صرواح العاصمة القديمة ، واتجه الاهتمام كله نحو العاصمة الجديدة مأرب ، واتخذ أصحابها لقب ملوك مأرب وذو ريدان ، وفى عهد المكرب « كرب ال » وأولاده غزا ملوك سبأ مملكة معين وقضوا عليها وضموها الى بلادهم وضموا اليها كذلك بلاد نجران

وفى عهد المكرب « كرب الى وتر » ترك أصحاب سبأ لقب مكرب سبأ وسموا أنفسهم ملوك سبأ وحوالى سنة ٣٠٠ ميلادية استولى ملوك سبأ على ذو ريدان وأصبح لقبهم الرسمى ملوك سبأ وذو ريدان

أنظر : جواد على ، نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٠٠ ـ ٢١٢

ولو راجعت أخبار دولة حمير فى سائر ما كتبه المؤرخون لما وجدت اثنين متفقين فى عددهم وأسمائهم وتعاقبهم ، ويقول حمزة الاصفهانى ان بين حمير والحارث الرائش ١٥ أبا . أما أخبار هـذه الدولة فهى أكثر تعقيدا واختلاطا من أسماء ملوكها ، ويقولون أنها كانت قبـل الحـارث الرائش شطرين ، يحكم أحدهما فى سبا والآخر فى حضرموت ، فلما ظهر الحـارث المذكور فتح البلدين جميعا وتبعوه ، ولذلك سمى تبعا (١) . وهو أول التبابعة (*)

التبابعة عند العرب

والتبابعة عند العرب أولهم الحارث الرائش وآخرهم ذو جدن ، حكم بعد ذى نواس الذى غلبه الاحباش وأخذوا اليمن منه . وعندهم بين الحـارث المذكور وذى جدن تبابعة اختلفوا فى أسمائهم وتعاقبهم ، وهـذا جـدول أسمائهم وسنى حكمهم عن حمزة الاصفهانى :

مدة الحكم	اسم الملك	مدة الحكم	اسم الملك
١٢٥	الحارس الرائش	١٢٠	أسعد أبو كرب
١٨٣	أبرهة ذو المنار	٧٠	حسان بن تبع
١٦٤	أفريقس بن أبرهة	٦٣	عمرو بن تبع
٢٥	العبد ذو الاذعار	٧٤	عبيد كلال
٧٥	هداد بن شراجيل	٧٨	تبع بن حسان
٢٠	بلقيس بنت هداد	٤١	مرثد بن عبيد
٨٥	ناشر ينعم	٣٧	وليعة بن مرثد
٣٧	شمر يرعش	...	ابرهة بن الصباح
٥٥	أبو مالك	١٥	صهبان بن محرث
٥٣	تبع بن الاقرن	٥٧	حسان بن عمرو بن تبع
٧٠	ذو جيشان	٢٧	ذو شناتر
١٦٣	الاقرن بن أبى مالك	٢٠	ذو نواس
٣٥	كليكوب	٨	ذو جدن آخر التبابعة

فعدد التبابعة على هذا الجدول ١٦ تبعا ، حكموا نحو ١٧٠٠ سنة (**)

(١) حمزة ١٢٤

(*) عرف ملوك حمير عند العرب بالتبابعة ، جمع تبع ، وورد ذكر تبع فى القرآن الكريم (سورة الدخان ، اية ٣٧) وذكر الاخباريون أن تبع كان رجلا من حمير فتح الحيرة وخـرب سمرقند ، وذهب بعضهم الى أنه نبى وأن أول التبابعة أسعد أبو كرب،وذكروا انه أول من كسا البيت ، وذكروا أيضا أن تبع لقب ملوك حمير مثل كسرى للفرس وقيصر للروم ، ولا يسـمى تبع الا اذا كانت له حمير وحضرموت ، وقيل سبأ أيضا ، واذا لم تدن له هاتان فلا يسمى تبعا. ولم ترد كلمة تبع فى نصوص المسند ، لأن ملوك حمير كانوا يلقبون فيها بالملوك ، ولهـذا يرى المستشرقون أن تبع هو بتع اسم قبيلة بهمدان . وأول ملوك سـبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات هو الملك شمر يهرعش ثامن التبابعة الواردين فى قائمة حمزة الاصفهانى التى أوردها جرجى زيدان فى النص

أنظر : جواد على ، العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ١٣٦ ــ ١٣٨

(**) لا تؤيد أبحاث الاثريين وما قرأوه من نصوص هذه المعلومات التى أوردها مؤرخو العرب عن التبابعة ملوك حمير ، ولم يجدوا من أسماء هؤلاء الملوك الا نفرا قليل مثل شمر يهرعش الذى

فتح الاحباش اليمن حسب رواية العرب

ويلى التبـابعة فى اليمن الاحبـاش ، دعاهم الى فتحها رجل من اليمن اسمه ذو ثعلبـان انتقاما من ذى نواس ، لانه اضطهـد نصـارى نجران وعذبهم ، فحمل صاحب الحبشة على اليمن بسبعين الفا من الرجال ، ففر ذو نواس حتى اقتحم البحر وغرق فيه ، فخلفه ذو جدن فغلبوه ايضا ، واقام الحبشة فى اليمن وقائدهم أبرهة الاشرم . وأراد أبرهة هدم الكعبة ، فسار اليها فى عام الفيل ، فهلك جيشه بالطير الابابيل ، وخلفه يكسوم ابنه وأساء معاملة اليمنيين ، فذهب سيف بن ذى يزن ابن أحد ملوكهم الى كسرى ، واستنصره فنصره وارسل معه جندا اخرج الاحباش من اليمن ، وولى سيفا المذكور تحت سيطرته ، فغدر بسيف رجال بطانته ــ وهم من الاحباش ــ فقتلوه ، ولم يملك أحد بعده بل استقل اهل كل ناحية بما لديهم ، على مثال ملوك الطوائف . وظلت سيطرة الفرس على اليمن ، حتى ظهر الاسلام فدخلت فى حوزة المسلمين

وقد جمع أخبار هذه الدولة نشوان بن سعيد الحميرى ، من اهل القرن الخامس للهجرة ، فى قصيدة تعرف بالقصيدة الحميرية ، أتى فيها على مقدمة فى بضعة أبيات حكمية زهدية ، مآلها التذكير بفناء الدنيا ومصير كل شىء الى البوار ، يلى ذلك ايراد أمثلة من الدول الضخمة التى افنـاها الزمان كعاد وثمود ، حتى يصل الى دولة حمير ، فيذكر قحطان فيعرب ومن بعده من التبابعة والاذواء والاقيال وغيرهم ، فى نحو ١٣٥ بيتا ، ضمنها خلاصة أخبـارهم اغفلنـا نشرها لطولهـا ، فمن أراد الاطلاع عليها فليراجعها فى مكانها (١ ✻)

حرفه الاخباريون الى شمر يرعش ، وياسر يهنعم الذى حرفه الاخباريون الى ناشر ينعم أو ناشر النعم . وذهب جواد على الى أن أسماء هؤلاء الملوك وما ينسب اليهم من أعمال (وخاصة ياسر يهنعم) من وضع وهب بن منبه وابن الكلبى ، وذكر ان ياسر يهنعم كان يحكم حوالى سنة ٢٧٦ ميلادية ، وأن الحرب كانت قائمة فى أيامه بين الهمدانيين والحميريين . ومن الواضح أن ما ينسبه الاخباريون الى ياسر يهنعم من فتوح وصلت الى حدود الصين والقسطنطينية غير صحيح ، لان ملكه لم يجاوز سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات

ولا تذكر النصوص شيئا عما حدث من أواخر أيام شمر يهرعش وسنة ٣٤٠ ميلادية ، وهى السنة التى غزا الاحباش اليمن فيها ، وظلوا يحكمونها الى نحو ٣٧٨ ميلادية

أنظر : جواد على ، نفس المرجع ، ج ٣ ص ١٣٩ ــ ١٤٦

(١) Himjarische Kasideh, Von Kremer, Leipzig, 1865

(✻) تناول جواد على فى كتابه : تاريخ العرب قبل الاسلام (ج ٣ ص ١٥٠ وما يليها)مسالة علاقة الاحباش باليمن والنصرانية واليهودية فى جنوبى الجزيرة وأتى على كل الاراء التى أوردها العلماء فى ذلك بتفصيل كامل ، ونحن نورد خلاصة ذلك فيما يلى :

١ ــ من العلماء من يذهب الى أن أصل الاحباش من جنوبى الجزيرة ، هاجروا الى العدوة الافريقية لاسباب كثيرة ، منها استيلاء البرثيين على سواحل بلاد العرب الشرقية ، ومن هؤلاء العلماء ادوارد جلازر فى كتابه « الاحباش »

٢ ــ ان لفظ أثيوبيا يونانى معناه الوجه المحترق أو الاسود ، وقد أطلق على أرض الحبشة وعلى مناطق واسعة لا تدخل فى الحبشة اليوم تشمل جنوب مصر وسواحل افريقيا المطلة على

هذه خلاصة تاريخ اليمن فى كتب العرب ، واذا قابلت بين رواياتهم رأيت اختلافا كثيرا وتناقضا كبيرا . فهم مختلفون فى أسماء الملوك والتبابعة ،

البحر الاحمر والمحيط الهندى جنوبى بلاد العرب ، وهى تقابل لفظ كوش الوارد فى التوراة ، مما يدل على ان الاتصال كان وثيقا من قديم الزمان بين الشعوب التى تسكن هذه النواحى

٣ — ان أصل الاحباش الذين هاجروا من جنوبى جزيرة العرب الى افريقية غير معروف

٤ — لا يعرف على وجه التحديد مكان أرض « حبشت » فى جزيرة العرب ، والموضع الذى نزلوا فيه أول ما عبروا باب المندب . ويرى هرمل Hommel ان الحضارمة القدماء أقرب العرب الجنوبيين الى الحبش الجنوبيين ، بدليل تقارب اللهجة الحضرمية القديمة المبينة فى المسند واللغة الحبشية

٥ — يذهب جلازر الى أن الحبش هاجروا الى افريقية بين سنتى ٣٧٠ و ٣٧٨ ميلادية ، ويرى هرمل أن رحلتهم منها كانت سنة ٣٧٥ ، وكان ذلك فى عهد ملكين من ملوك الحبش هما « الاعميده » وابنة عيزان Aizanas' وكان عيزان يلقب بلقب بملك أكسوم وحمير وريدان والحبشة وسلح وتيماء وصيمو والبجة وقسو . وكان مركز الدولة فى أكسوم ، أى ان ما دخل فى زمامها من بلاد العرب كان تابعا لها

٦ — وحوالى سنة ٣٧٨ قام زعيم عربى اسمه « ملك كرب يهأمن » بطرد الاحباش من اليمن وأنشأ ملكا عربيا ، وتلقب بملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات ، وخلفه أبناه أبو كرب أسعد و را أمر أيمن ، وكانوا يعبدون الها يسمى ذو سموى أى اله السماء ، ولوحظ أن بلاد اليمن أخذت تسير بعد ذلك نحو ديانة التوحيد

٧ — يرى المستشرقون ان أبا كرب أسعد هو أسعد كامل تبع ، الذى يرى الاخباريون أنه أول من تهود من ملوك اليمن ، وليس لدينا دليل على ذلك ، والثابت أن هذا الملك كان يتعبد لاله يسمى ذو سموت أو اله السماء

٨ — وكانت لهؤلاء الملوك جميعا عناية بمجموعة السدود التى تعرف بسد مأرب ، وأول أخبار نسمعها عن تصدعه حوالى سنة ٤٥٠ أو ٤٥١ ميلادية فى عهد الملك شرحبيل يعفر ، فاستعان بالحميرين وقبائل حضرموت لاصلاح الصدوع

٩ — كانت عاصمة سبأ مدينة حتى نهاية القرن الثالث للميلاد ، ثم حلت محلها مدينة ظفار، ويرى جلازر أن نجم مأرب أخذ فى الافول منذ القرن الاول للميلاد ، وان سبب هذا هو غزو الحبش لليمن . ويرى هارتمان ان السبب ثورة الهمدانيين على الحميرين وانتصارهم ، ويرى جواد على ان السبب قد يكون تحول التجارة عن مأرب بسبب تغير طرق التجارة وتأثير الطرق البحرية التى أخذت تنافس الطرق البرية ، وكانت سفن البيزنطيين قد أخذت طريقها فى البحر الاحمر « فسلبت من اليمانيين ثروة عظيمة ولم يبق فى امكانهم الانفاق على السد لادامته والمحافظة عليه ، وهذا ما اضطر القبائل الى الهجرة من هذه الجنة التى ولجها الجفاف بالتدريج » ولكن الملوك لم يهجروا مأرب دفعة واحدة ، اذ تدل النصوص على أنهم أقاموا بها أمدا من الوقت بعد ذلك

١٠ — وآخر ملوك حمير كما يقول الاخباريون هو ذو نواس (وان كان بعضهم يذهب الى أن ابنه ذا جدن خلفه) وللاخباريين عنه قصص طويل ، وفى أيامه غزا الاحباش اليمن من جديد . ولم تورد النصوص المدونة بالمسند لدى نواس ذكرا ، والنص الذى يحدثنا عن غزو الاحباش لليمن هذه المرة يسمى نص « حصن غراب » وتاريخه سنة ٥٢٥ بعد الميلاد

١١ — ولا يذكر مؤرخو الرومان ان ملك حمير — عندما غزا الاحباش اليمن — كان يهوديا ويكتفى بروكوبيوس بالقول بأن النجاشى كان نصرانيا ، وبلغه ان الحميرين كانوا يضطهدون النصارى ويعذبونهم ، ولذلك أرسل أسطولا استولى على أرض حمير وأقام عليها ملكا حميريا نصرانيا ، وذكر ان بعض الحميريين كانوا على اليهودية ، أما بقيتهم فكانوا وثنيين على مذهب

وفى تتابعهم ، وفى مدد حكمهم ، وفى سير المشاهير منهم ، واكثره مبالغ فيه ، وبعضه اقرب الى الخرافات منه الى الحقائق ، كتقديرهم مدد حكم التبابعة الاول اكثر من خمسمائة سنة ، غير حكم تبع بن الاقرن وأسعد ابو كرب . وقولهم مثلا ان افريقس بن ابرهة غزا أرض المغرب ، وبنى مدينة افريقية ، وساق البربر اليها من أرض كنعان ، وأبعد المغار فى تلك البلاد الى أقصى العمران . وان شمر يرعش غزا المشرق ، فدوخ خراسان ، وهدم مدينة الصغد ، وبنى سمرقند ، وانه وجد فى مصنعة كتابة حميرية يتبداؤها « باسم الله ، هذا ما بناه شمر يرعش لسيده الشمس » . وقولهم ان أسعد أبو كرب غزا الصين والترك (١) وغير ذلك مما يخالف العقل ، فضلا عن نصوص التاريخ العامة . على انه لا يخلو من حقيقة لابد لنا من استخراجها ، ولا يكون ذلك الا بالمقابلة بينها وبين مصادر تاريخية غير عربية أو قراءة الآثار الباقية

ما يقوله اليونان عن تاريخ اليمن

لم يخصص اليونان ولا سواهم من أمم التاريخ كتبا فى تاريخ اليمن أو

←

الهيلينيين • أما الرواية الحبشية فتذهب الى أن معظم أهل سبأ كانوا وثنيين ، وأن بعضهم كانوا يهودا ، وان اليهودية دخلت اليمن بعد تشتت اليهود عقب قضاء الرومان على دولة اسرائيل وهم الامبراطور تيتوس لمعبد سليمان فى أورشليم • والمفهوم أن اليهودية دخلت اليمن عن طريق الحجاز

١٢ ـ أما النصرانية فلم تدخل اليمن من طريق واحد ، « وانما دخلتها من البر والبحر ، دخلتها من البر من ديار الشام فالحجاز فاليمن ، ومن العراق أيضا مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بين اليمن والعراق، ودخلتها من البحر بواسطة السفن اليونانية والرومانية ،ودخلتها كذلك مع الاحباش الذين تنصروا أيضا فى القرن الرابع للميلاد »

١٣ ـ وقد قامت بين اليهودية والنصرانية منافسة فى اليمن ، وانتصرت اليهوديه بتولى ذى نواس اليهودى العرش ، وتسميه كتابات اليونان والسريان دميانوس ودمنوس • وقد اضطهد ذو نواس النصارى ، فكان ذلك سببا فى غزو الاحباش لليمن سنة ٥٢٥ على ما ذكرناه

١٤ ـ وأقام الاحباش أبرهة الحميرى حاكما على اليمن ، وكان نصرانيا • ثم اختلف أبرهة مع النجاشى ، فأرسل هذا الاخير جيشا بقيادة أرياط ليقضى على أبرهة • وتمكن أبرهة من قتل أرياط ثم استرضى النجاشى • وقد ترك لنا أبرهة نصا على درجة كبيرة من الاهمية ، أورده جواد على كاملا ، يذكر فيه ترميمه لسد مارب مرتين ، وكان أبرهة نائبا لملك الحبشة ولكنه تلقب بملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها فى النجاد وفى تهامة ، وهو اللقب القديم لملوك حمير المستقلين • وقد عظم شأن أبرهة ووفدت عليه وفود ملك الفرس والمنذر والحارث بن جبلة ورؤساء القبائل • وقد انتشرت المسيحية فى اليمن بعد ذلك وبنيت الكنائس الكثيرة وأهمها الكنيسة المعروفة بالقليس ، وتركزت النصرانية بصفة خاصة فى نجران على ما هو معروف

١٥ ـ وقد ظل سلطان الاحباش على اليمن حتى ثار عليهم سيف بن ذى يزن وحرر بلاده منهم• واستعان بالفرس ، مما أدى الى غزوهم اليمن على ما هو معروف

(١) ابن خلدون ٥٣ جـ ٢

غيره من بلاد العرب ، ولكنهم ذكروها عرضا اثناء كلامهم عن الجغرافية العامة أو الرحلات أو غيرها ، وقد أشرنا الى ذلك فى كلامنا عن مصادر تاريخ العرب . وأكثر كتاب اليونان ذكرا لبلاد العرب سترابون وبلينيوس وبطليموس ، وصاحب كتاب « الطواف حول البحر الاريترى » ذكر كل منهم مدنا أو أمما أو أحوالا أخرى من أحوال بلاد اليمن ، بعضها يوافق ما ذكره العرب وبعضه يخالفه ، وذكروا مدنا وأمما لم يعرفها العرب ، أى انها لم ترد فى تواريخهم أو جغرافيتهم ، وهذه أهم الامم العربية التى ذكرها اليونان فى القسم الجنوبى من جزيرة العرب :

الاسم اليونانى	ما يقابله فى العربية	الاسم اليونانى	ما يقابله فى العربية
Minaei	المعينيون	Omanitae	العمانيون
Sabaei	السبأيون	Sapharitae	الظفاريون
Homeritae	الحميريون	ومن المدن التى ذكروها هناك :	
Chatramotitae	الحضرميون	Mariaba	مأرب
Gebanitae	الجبائيون	Sabotta	شبوه
Gerraei	القريون	Carnus	القرن
Catabani	القتابيون	Nascus	نشق

وذكروا الطرق التجارية ، ووصفوا الاحوال الاجتماعية ، مما سنأتى عليه فى محله . فترى بين ما ذكره اليونان من الامم أو المدن أمما أو مدنا لم يذكرها العرب ، أو ذكروها عرضا بلا أهمية ، واليونان يقدمونها على أهم ما ذكره العرب . فالسبأيون مثلا لم يعرف العرب عنهم شيئا يستحق الذكر ، والمعينيون لم يعرفهم العرب مطلقا وهم عند اليونان أمة عظيمة ذات تجارة واسعة وشأن كبير ، ومثلهم القريون والجبائيون . واعتبر ذلك فى المدن أيضا ، فان مأرب لم يذكرها العرب الا فى عرض الكلام عن سدها وانفجاره ، وكذلك مدن شبوة والقرن ونشق وهى من أهم مدن اليمن فى ابان مجدها

على ان الامم والمدن التى تفرد اليونان بذكرها ، لم يستطع العلماء المستشرقون تعيين أماكنها ، ومعرفة ما يقابلها من الاسماء العربية ، الا بعد استنطاق الآثار بتوالى التنقيب وقراءة الخط المسند المعروف بالحميرى . وقد بلغ عدد ما اكتشفوه من النقوش فى جنوبى بلاد العرب ، وحملوه أو حملوا صورته الى أوربا نحو ٢٠٠٠ نقش أو قطعة . وهذه أسماء الذين نقلوها ومقدار ما نقله كل منهم :

عدد النقوش	اسم الرحالة
١٠٣٢	ادورد جلازر
٦٨٦	يوسف هاليفى اكثرها عن المعينيين
٦٩	يوليوس اوبتن اكثرها عن المعينيين
٥٦	توماس ارنو
١٨٩	آخرون
١٠٣٢ (*)	(الجملة)

فاذا اخرج من هذا العدد النسخ التى جاءت مكررة وعددها نحو ٤٥٠ ، فالباقى ١٥٦٠ نقشا أصليا . وقد توصلوا بالتنقيب الى اكتشاف معين عاصمة المعينيين ، ونشق والقرن — أو القرنة — وشبوة وظفار وغيرها . واكتشفوا مدنا اخرى ، لم يعرفها مؤرخو العرب ولا ذكرها اليونان ، وانما قرأوا أسماءها على الآثار واكتشفوا أطلالها بين الرمال . وعرفوا ممالك وملوكا واخباراً لم يرد لهـا ذكر فى التاريخ العربى ولا اليـانانى . ونحن باسطون فيما يلى ما وصلنا اليه ، بعد الاطلاع على ماكتبه العرب واليونان ، وما اكتشفه المنقبون من أســاطير اليمن وأحافيرها وأطلالها ، وما جاء عن هذه البلاد وسكانها عرضا فى آثار الامم القديمة فى اشور وبابل ومصر وغيرها

تمهيد فى أصل حكومات اليمن

كانت اليمن فى أقدم أزمانها واصل نظامها تقسم الى محافد (جمع محفد) ، والمحفد الى قصور ، والقصر كالحصن أو القلعة يحيط به سور ، ويقيم فيه شيخ أو أمير أو وجيه ، تحف به الاعوان والحاشية والخدم ، كما كانت حكومات بابل قديما على ما بيناه فى كلامنا عن دولة حمورابى . وهو يشبه نظام الاقطاع فى الاجيال الوسطى بأوربا . ويعرف صاحب المحفد أو القصر بلفظ « ذو » أى صاحب ، يضاف الى اسم المحفد فيقال : « ذو غمدان » أى صاحب غمدان ، و « ذو معين » أى صاحب معين ، وتعرف هـذه الطبقة من الحكام بالاذواء أو الذوين ، وهم كالبارونات أو اللوردات فى نظام الاقطاع . وكانت هذه المحافد عديدة ، لـكل منها حكومة قائمة بنفسها ، واشهر المحافد أو القصور التى وصلت الينا أسماؤها : غمدان وتلفم وناعط وصرواح وسلحين وظفار وشبام وبينون وريام وبراقش وروثان وارياب وعمران وغيرها ، وبعض هذه القصور بقى الى ما بعد الاسلام ، وذكره العرب ووصفوه ، كما سيجىء فى كلامنا عن عمران اليمن

(*) عثر البحاثون بعد ذلك على نصــوص أخرى كثيرة. وقد أشار الى معظمها جواد على فى كتابه الآنف الذكر

وقد تجتمع عدة محافد يتولى شؤونها أمير واحد يسمى « قيـل » جمعه « اقيال » ، ويسمى مجموع المحافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع « مخلاف » ، وهو كالكورة أو الرستاق أو القضاء ، يحكمه قيل أو ملك صغير . وينسب المخلاف الى أكبر محافده ، أو الى المحفد الذى يقيم فيه القيل أو الملك ، وقد يتحول القصر أو المحفد الى مدينة بعد ظهور الدولة ، وقد يبدل اسمه كما تحول قصر « ريدان » الى مدينة « ظفار » ، وسلحين الى « مأرب »

وكان الاقيال يتغازون ويتنازعون ، فيغير أحدهم على جاره ، وربما رجع عن غزوه لغير سبب . وقد أشار الطبرى الى ما تقدم بقوله : « لم يكن لملوك اليمن نظام ، وانما كان الرئيس منهم يكون ملكا على مخلاف لايتجاوزه ، وأن تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة ، من غير أن يرث ذلك الملك عن آبائه ولا يرثه أبناؤه ، انما هو شأن شداد المتلصصة يغيرون على النواحى باستغفال أهلها ، فاذا أقعدهم الطلب لم يكن لهم ثبات . وكذلك كان أمر ملوك اليمن : يخرج أحدهم من مخلافه بعض الاحيان ، ويبعد عن الغزو والاغارة ، فيصيب ما يمر به ، ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفا الى مكانه ، من غير أن يدين له أحد من غير مخلافه ، أو يؤدى اليه خراجا » (١)

وكان أكثر اشتغال الاذواء والاقيال بالتجارة ، لتوسط بلاد اليمن بين الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق ، فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد ، بعد دخولها الى جزيرة العرب بالقوافل فى طرق خاصة . وقد ينبغ بين الاقيال أو الذوين رجل ذو مطامع أهل للسيادة العامة ، فيمد سلطته على جيرانه ويسمى نفسه ملكا ، وينظم مملكة يجعل محفده قصبتها ، وتنسب المملكة اليه كما تقدم . ويتوالى الحكم فى أعقابه واهله ، فيتألف منهم دولة يطول بقاؤها أو يقصر ، ويتسع نفوذها أو ينحصر حسب الاحوال . فنشأ على هذه الكيفية عدة دول ، لم يصلنا من أخبارها الا القليل ، ولم يعرف العرب منها الا دولة حمير . والذى بلغنا خبره من دول اليمن — بما لدينا من أسباب العلم فى الكتب او الآثار حتى الآن — ثلاث دول رئيسية ، وهى : المعينية والسبأية والحميرية ، غير الدول الصغرى

(١) الطبرى نقله ابن خلدون ٥٨ ج ٢

الدولة المَعِينية

تنبه العلماء الى هذه الدولة مما ذكره اليونان عنها ، قال استرابون فى كلامه عن بلاد اليمن : « يشمل القسم الجنوبى من جزيرة العرب أربعة شعوب : المعينيون Minaei وعاصمتهم قرنا ، والسبائيون Sabaei وعاصمتهم مأرب ، والقتابيون Catabani وعاصمتهم تمناء ، والحضرموتيون وعاصمتهم شبوة » . وذكر فى مكان آخر أن المعينيين يحملون التجارة الى بطرا مدينة الانباط (١) ، وذكر بلينيوس أن المعينيين يقيمون فى بلاد كثيرة الغاب والاغراس ، وذكرهم أيضا ذيونيسيوس وبطليموس واطروا سلطتهم وسعة تجارتهم . ولم يكن العلماء يعرفون « معين » ولا اكتشفوا أنقاضها ، فذهب بعضهم الى أن المراد بلفظ Minaei المنائيون نسبة الى منى بقرب مكة . وقال آخرون غير ذلك ، حتى وفق المستشرق هاليفى الى ارتياد بلاد الجوف الجنوبى فى شرقى صنعاء ، واكتشف أنقاض معين ، وقرأ اسمها عليها بالمسند ، وبجانبها براقش ، فتوجهت الانظار اليها . وبلغت النقوش الكتابية التى اكتشفها هاليفى فى سفرته الى بلاد الجوف وحدها ٣٠٣ نقوش : ٧٩ نقشا فى معين نفسها ، ١٥٤ فى براقش بالقرب منها ، و ٧٠ فى السوداء — وهى القرن فى الآثار وكارنا أو قارنا عند اليونان . وكشف مدينة نشق ، وهى ناسكوس Nascus عند اليونان ، ويسميها العرب الآن البيضاء. فذهب هاليفى — ووافقه جلازر وغيره — ان معين هى البلد التى تنسب *اليها تلك الامة* ، وهم *المعينيون* ، وان هذه المدن التى اكتشفها هاليفى فى الجوف مدن معينية ، ولا سيما براقش واسمها على أنقاضها « يثيل » . ويؤيد ذلك ورود اسم معين وبراقش معا فى جملة ما حفظه العرب من أسماء المحافد فى الجوف . قال الهمدانى فى كتاب الاكليل : « محافد اليمن براقش ومعين ، وهما بأسفل جوف الرحب مقتبلتان ، فمعين بين مدينة نشان وبين درب شراقة » . وفيها يقول مالك بن حريم الدلانى :

ونحمى الجوف ما دامت معين   بأسفله مقابلة عرادا

أما براقش فقائمة فى أصل جبل هيلان ، قال فروة بن مسيك :

احل يحابر جدى عطيفا   معين الملك من بين البنينا
وملكنا براقش دون اعلى   وانعم اخوتى وبنى ابينا

---

(١) Straban, III, 355

وقال علقمة :

وقد أسوا برآقش حين أسوا   ببلقعة ومنبسط انيق
وحلوا من معين حين حلوا   لعزهم لدى الفج العميق (١)

وقرأ هاليفى فيما اكتشفه من الآثار كثيرا من أسماء ملوك هـذه الدولة وآلهتها وعادات أهلها وغير ذلك ، حتى لم يبق شك فى أن المعينيين ينسبون الى هذا المكان ، وهو الرأى المعول عليه الآن

ملوك معين

لم يذكر اليونان شيئا عن ملوك هـذه الدولة ، ولا أوردوا أسماءهم . ولكن المنقبين فى الآثار وقفوا على أسماء كثير منهم ، وبلغ عدد الملوك الذين عثروا على أسمائهم فى أنقاض الجوف بمعين وغيرها ٢٦ ملكا ، يشترك كل بضعة منهم فى اسم واحد ، ويتميزون بعضهم عن بعض بالالقاب ، اذ كان لملوكهم نعوت تفخيم ، مثل قولنا الغازى ، والفاتح ، والناصر ، والمنتصر ، ونحو ذلك . وهذه أسماؤهم الآتية مرتبة حسب تشابهها :

اب يدع	(بدون لقب)	حفن بن اب يدع	(ريام)
اب يدع	يثيع (أى المنقذ)	حفن صديق بن يثع كرب	
اب يدع	ريام (أى السامى)	حفن ريام بن اليفع ياسر	
اليفع	(بدون لقب)	يثع ايل	(بدون لقب)
اليفع	بفيس (أى الشهير	يثع ايل	صديق
اليفع	يأسر (أى السعيد)	يثع ايل	ريام
اليفع	يثيع (أى المنقذ)	خال كرب	صديق
اليفع	ريام (أى السامى)	هوفعثت بن اليفع	ريام
وقه ايل	يثيع (أى المنقذ)	معدى كرب	بن اليفع يثيع
وقه ايل	نبيط	تبع كرب	بن يثع ايل ريام
وقه ايل	صديق (أى الصادق)	ام يثع	بن أبو كرب
وقه ايل	ريام (أى السامى)	ابو كرب	
حفن بن اب يدع	(بدون لقب)	يثع كرب	(الجملة ٢٦ ملكا) (٢)

وقد وجد الاستاذ مولر — بعد درس النقوش المعينية — ان الحكومة فى هذه الدولة كانت وراثية تنتقل من الاب الى الابن ، وقد يتولى الاثنان معا . وان ملوك هذه الدولة كانوا يعرفون فى صدرها الاول بلقب «مزواد» ، كما كان ملوك سبأ فى أوائل دولتهم يسمون « مكرب » ، ولعل هـذين

---

(١) Muller, Burg. II. 95

(٢) Muller, Burg. II. 66

اللقبين يتضمنان معنى الكهانة فضلا عن الحكومة ، فيكون المراد بقولهم « مزواد معين » حاكم معين وكاهنها ، قبل تحول الدولة الى الملك العضود ، مثل الباتيسى فى بابل أيام الامارات الصغرى

وامتد نفوذ المعينيين فى ابان دولتهم الى شواطىء البحر المتوسط ، وشواطىء خليج العجم ، وبحر العرب ، اى انها شملت كل جزيرة العرب . ولا يظهر انها كانت دولة حرب وفتح ، بل كانت دولة تجارة ، مثل دولة الفينيقيين على شواطىء سوريا ، ودولة الانباط فى بطرا ، واكثر دول اليمن . وكانت طرقها التجارية ممتدة فى أواسط جزيرة العرب بين تلك البحور ، وانتشرت سيادتها ومستعمراتها شمالا الى أعالى الحجاز ، بدليل ما وقفوا عليه من النقوش المعينية فى العلاء قرب وادى القرى ، وفى الصفا وفى حوران وغيرها ، وسنأتى على ذلك فى كلامنا عن التجارة

ومع كثرة النقوش المعينية التى عثروا عليها وقرأوها ، ليس ثمة أثر تاريخى يساعد على تنسيق حوادثها أو مبدأ أمرها ، على انهم استدلوا على قدم عهدها بالاسباب التى تقدم ذكرها . ويؤخذ من نقش أثرى قرأه جلازر (رقم ١٠٠٠) ان السبأيين أفنوا المعينيين يوم كان ملوك السبأيين لا يزالون يلقبون «مكرب» (١) والظاهر أنهم غلبوهم على دولتهم ، وظل القوم يتعاطون أعمالهم التجارية ، فقد جاء ذكرهم مع القربيين فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد ، والسبأيون يومئذ فى ابان دولتهم (٢)

ويرى الاستاذ مولر ان كَارنا — أو قرنا التى ذكر استرابون أنها قصبة المعينيين — هى عاصمتها الحديثة ، وان معين هى عاصمتها القديمة (٣)

ولغة المعينيين كثيرة الشبه باللغة السبأية (لغة حمير) وحروفهما واحدة تقريبا ، لكنها تختلف عنها اختلافا واضحا فى ضمير المذكر الغائب ، فانه فى المعينية « السين » بدل الهاء فى السبأية وسائر اللغات السامية الا البابلية والحبشية

أصل المعينيين

المشهور فى تاريخ العرب ان دول اليمن — بعد القبائل البائدة — ترجع بانسابها الى قحطان ، فاذا صح هذا على دولتى سبأ وحمير فانه لا يصح على دولة معين ، لانها أقدم كثيرا من بنى قحطان . وقد جاء ذكر المعينيين فى سفر الاخبار الثانى ٢٦ عدد ٧ حيث يقول : « واعانه الله (عزيا) على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار بعل وعلى المعونيين » . ويظهر أنهم

---

(١) Glaser, Geo. II. 451 (٢) Glaser, Geo. II, 10 (٣) Muller, Burg. II. 58

اقدم من ذلك كثيرا ، لانهم عثروا على امة بهذا الاسم ، ذكرت فى اقدم آثار بابل بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ ق.م على نصب عليه نقوش مسمارية جاء فيها ان نرام سين حمل على معان (فى جزيرة سينا) ، وقهر ملكها معنيوم Manuim (والميم للتنوين فى البابلية) ، وانه اقتطع حجارة من جبالها حملها الى مدينة اكاد ، ونحت حجرا منها جعله نصبا نقش على قاعدته خبر هذا الفتح (١) . وجاء ذكر هذه الامة أيضا مع امة ماليق فى آثار بابل مرة اخرى سنة ٢٥٠٠ ق.م ، وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم

وقد يتبادر الى الذهن أنهم المراد بقول المصريين القدماء «من» أو « معن » Men ، ويريدون بها أمة من الشاسو عمالقة مصر فى أثناء استيلائهم على وادى النيل (٢) كما ظن جلازر ، ولكننا نستدل مما وقفنا عليه من احوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية ، ومن أسماء رجالهم وآلهتهم ، ان أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين ، الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل ظهور دولة حمورابى بعدة قرون . فلما ظهرت هذه الدولة فى بابل ، واقتبست ديانة السومريين وشرائعهم وانظمتهم وسائر احوال اجتماعهم ، كان المعينيون فى جملة القبائل التى نالت حظا من ذلك كله ، وتنوعت لغتهم بالحضارة ومخالطة السومريين — أو الاكديين — وغيرهم من سكان بين النهرين الاصليين فذهب منها الاعراب . ولم يظهر ذلك التغيير فى اللغة البابلية ، لانها ظلت محفوظة بالتقليد لاستخدامها فى المخابرات الرسمية كما تقدم ، ولكنه ظهر فى لغة التكلم

فلما ذهبت دولة العرب فى العراق ، نزح المعينيون فى جملة القبائل التى نزحت ، وقد تعودت الحضارة فلم يعد يطيب لها التجول فى البادية ، فالتمست مقرا تقيم فيه ، فنزلت اليمن وتوطنت الجوف ، وشادت القصور والمحافد ، على مثال ما عرفته فى بابل . وتعاطى رجالها التجارة عملا بما تقتضيه طبيعة الاقليم ، واضطروا الى الكتابة لتدوين حساباتهم التجارية أو المخابرات السياسية ، فاقتبسوا الابجدية الفينيقية ، لسهولة استعمالها وقرب تناولها بالنسبة الى الحرف المسمارى ، فدونوا بها لغتهم ، وهى فى الاصل لغة عامية بالنسبة الى لغة بابل المدونة . وتنوعت تلك الابجدية بتوالى الاجيال ، حتى صارت الى الحرف المسند المشهور ، كما تولدت الاقلام الآرامية ، وأخذه عنهم السبأيون والاحباش — وهذه هى الابجدية الحميرية مع ما طرأ على حروفها من التنوع حتى أصبح لبعضها عدة اشكال :

---

(١) King, 158 (٢) Brugsch, I. 268

ا	ض
ب	ط
ت	ظ
ث	ع
ج	غ
ح	ف
خ	ق
د	ك
ذ	ل
ر	م
ز	ن
س	و
ش	ه
ص	ي

الابجدية الحميرية أو الحرف المسند

وتنوعت اللغة أيضا ، جريا على ناموس الارتقاء ، فزادت بعدا عن لغة بابل ، لـكنها ما زالت تشترك معها فى علامة خاصـــة دون سائر اللغات السامية (الا الحبشية) نعنى بها « السين » ضمير الغائب ، فانها كذلك فى البابلية أيضا ، فيقولون : « بيتس » فى قولنا « بيته » . والسين المذكورة دخيلة على الاصل السامى ، فلعل البابليين اقتبسوها من اللغة الطورانيـــة (السومرية) اذ لا وجود لها فى سائر اللغات السامية الا الحبشيـــة ، كأن الحبشة عمرت فى الاصل من قوم نزحوا اليها من معين أو لسبب آخر

ويدل على اشتراك المعينيين وبدو الآراميين فى أصولهما أيضا تشـــابه الاسماء فى الامتين ، كما بيناه فى كلامنا عن الاسماء الحمورابية . ويؤيد ذلك اشتراك الامتين فى أسماء المعبودات وأسس الاعتقادات وطرق العبادة ، فان الشبه كثير بين الديانة المعينية وديانة بدو الآراميين سكان غربى الفرات ومن تحضر منهم فى أور الكلدانيين وحران ، كما سنبينه مفصلا عن كلامنا فى ديانة العرب القدماء

فالمعينيون اذا صح انهم كانوا نحو الالف الرابع قبل الميـــلاد فى جزيرة سينا ، فالارجح انهم جاءوا اليمن بعد نزولهم العراق واقتباسهم شيئا من

تمدن السومريين أو البابليين ودياناتهم ، مع وقوع التغيير فى لسانهم بتوالى الاجيال ، وسيأتى تفصيل ذلك عند كلامنا عن لغات العرب

فلما نزل المعينيون بلاد اليمن ساعدهم ذلك التمدن فى التغلب على من كان فيها قبلهم ، وما لبثوا أن امتدت سيادتهم على معظم جزيرة العرب قبل قيام دولة سبأ بأجيال . واختلف العلماء فى تقدير عمر الآثار التى عثروا عليها فى اطلال هذه الدولة ، فذهب جماعة الى انها تبدأ بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وقال آخرون بل من القرن السابع أو الثامن (١)

ووفق الباحثون فى انقاض معين وغيرها من اطلال المعينيين الى العثور على كثير من أسماء الملوك والمعبودات ، مما يؤيد أصلها البابلى

---

(1) Dussaud, 74

الدولة السبأية (*)

ذكر العرب سبأ ذكرا مبهما ، فقالوا انه حكم ٤٨٤ سنة ، ثم ملك بعده حمير (١) . يريدون بسبأ دولة سبأ ، أو أمة سبأ على اصطلاحهم فى مثل هذه الحال ، ولكنهم لم يذكروا من ملوكها احدا . وقد ذكرها اليونان حوالى تاريخ الميلاد ، ولم يتعرضوا لملوكها ، وانما ذكروها فى جملة الامم الاربع التى قالوا انها أكبر أمم اليمن ، وهم : المعينيون ، والسبأيون ، والقتابيون ، والقريون . وقالوا ان عاصمتهم ماريابا « مأرب » . وذكر استرابون كثيرا من احوالهم الاجتماعية والاقتصادية سنأتى عليها فى مكانها . وأما الدولة وملوكها فلم يتعرض لها اليونان ، والفضل فى معرفتها للآثار التى قرأوها فى اطلال اليمن وبعض اطلال أشور وغيرها

اصل السبايين

يقول العرب ان سبأ من قحطان ، ويسمونهم العرب المتعربة ، تمييزا لهم عن العرب الذين كانوا قبلهم . ولم يقولوا لنا من أين أتوا ، ولكنهم ذكروا ان قحطان أبو اليمن كلهم ، وانهم كانوا يتكلمون غير العربية ، فلما نزلوا اليمن كان فيها العرب العاربة ، فتعلموا العربية منهم . وذهب بعضهم الى أن قحطان تعريب يقطان من أبناء سام ، ولا سبيل الى تحقيق ذلك . ولكن يؤخذ من قراءة الآثار وغيرها ان دولة سبأ تبدأ نحو القرن الثامن قبل الميلاد ، ولم يقفوا لها على خبر ثابت أقدم من هذا التاريخ . ولعل تلك الامة نزلت اليمن قبل ذلك العهد ، وأقامت بجوار المعينيين حينا من الدهر ، واختلطوا بهم وبغيرهم من أهل تلك الجزيرة ، واقتبسوا لغتهم وعاداتهم ودياناتهم ، وتنوسى أصلهم — كما يصيب من ينزل مصر والشام لهذا العهد ، فاذا توالت اعقابه بضعة أجيال وتدينوا بدين البلاد عدوا من أهلها ، وان كان جدهم تركيا أو كرديا

واقرب جيران اليمن الحبشة ، وكانت العلائق التجارية متينة بين البلدين

(*) أتينا فى تعليقاتنا على ملوك سبأ وحمير بآخر أقوال المؤرخين والباحثين فى تاريخ سبأ وملوكها ، ولهذا تركنا هذا الفصل على حاله اكتفاء بما ذكرنا هناك

(١) المسعودى ١٩٣ ج ١

من اقدم ازمنة التاريخ ، حتى عدوا اليمن من اثيوبيا . فلا يبعد أن يكون القحطانيون طائفة من الاحباش ، عبروا بوغاز باب المندب الى اليمن قديما ، وأقاموا فيها أجيالا ريثما تعربوا ، ثم انشأوا الدولة . ولعلهم فى الاصل ساميون ، أو عرب نزلوا الحبشة بطريق الصحراء الشرقية المصرية ، لانها كانت قسما من جزيرة العرب كما علمت . أو كأن الشاسو عمالقة مصر — لما غلبهم المصريون وطاردوهم — نزحت قبائل منهم نحو الجنوب فى الصحراء الشرقية الى الحبشة ، فأقاموا فيها أجيالا وتوالدوا هناك ، ثم نزح بعضهم الى اليمن تدريجا لسبب من الاسباب ، وما زالوا يتقوون حتى أفضت اليهم الدولة . ويؤيد ذلك أن لفظى تبع وحمير حبشيان ، الاول معناه « القادر » والثانى « غبش » أى معتم من لون البشرة (١)

مبدا دولة سبا

ومهما يكن من أصل السبأيين ، فقد ثبت انهم انشأوا فى اليمن دولة كبرى جاء ذكرها فى اخبار اشور بقرميدة للملك سرجون الثانى (٧٢١ — ٧٠٥ ق.م) ذكر فيها الامم التى تؤدى اليه الجزية ، وفى جملتها فرعون ملك مصر وشمسية ملكة العرب (عريبى) ويثعمر السبأى ، وانه اسر حانو ملك غزة كما تقدم (٢) فيدل هذا القول على وجود السبأيين فى بلاد العرب فى القرن الثامن قبل الميلاد . ويؤيد ذلك انهم عثروا فى مأرب على نقش جاء فيه ذكر ملك — أو غير ملك — اسمه « يثعمر » سيأتى ذكره

ولكن الراجح عند العلماء اليوم أن سرجون لم يصل بفتوحه الى اليمن ، فالظاهر أن السبأيين كانوا يدفعون الجزية عن تجارتهم فى شمالى جزيرة العرب ، حتى يؤذن لهم بالمرور الى شواطىء البحر المتوسط ، وخصوصا الى غزة لانها فرضة تجارية قديمة

وبلغ عدد الملوك الذين قرأوا أسماءهم على آثار هذه الدولة بمأرب وصرواح وغيرهما بضعة وثلاثين ملكا ، ويستدل من مقابلة أسمائهم والقابهم أن السبأيين تدرجوا فى الحكم من الامارة البسيطة أو الكهانة الى الملك الواسع ، ولا يراد بسعة الملك انهم دوخوا البلاد كما فعل اليونان والرومان ، أو كما فعل عرب الحجاز بعد الاسلام ، لان سبأ ليست دولة فتح بل هى دولة قوافل وتجارة ، ولا تجد للحرب أو الفتح ذكرا فى آثارها ، الا قليلا ، خلافا للأشوريين والمصريين معاصريها ، فانك لا تكاد تقرأ على آثارهم غير

---

(١) Ency. Brit. Art. Arabia

(٢) Muller, Bury. II. 36

قولهم : « فتحت ، وغلبت ، وضربت الجزية ، وحملت الغنيمة » . واما السبأيون فأكثر ما وصل الينا من أخبارهم قولهم : « بنيت ، ووقفت ، ورممت » . وانما يراد بسعة ملك سبأ نشر نفوذها فيما يجاورها من المحافد أو المخاليف

والظاهر أن القحطانيين قضوا زمنا طويلا وهم من قبيل الاذواء أصحاب القصور والمحافد ، كما كان المعينيون فى أوائل دولتهم ، حتى اذا نبغ « سبأ » صاحب قصر صرواح شرقى صنعاء ، وكان قويا طامعا ، فاستولى على جيرانه . فلما اشتد ساعده أو ساعد خلفائه ، ذهبوا بدولة المعينيين فأصبحت صرواح قصبة مملكتهم ، ثم صاروا الى مأرب فغيرها

ويستدل مما قرأوه على الآثار حتى الآن ان السبأيين مروا على أربعة أطوار تتميز بألقاب ملوكها ، فكان ملكهم فى الطور الاول يسمى « مكرب سبأ » ، ثم قالوا : « ملك سبأ » ، ثم « ملك سبأ وريدان » — وكان ريدان محفدا من محافدهم الكبرى ، سمى بعد ذلك ظفار — ثم قالوا : « ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابها فى الجبال وتهامة »

وللتوفيق بين ما وصل اليه الباحثون فى الآثار المنقوشة وبين ما ذكره العرب منه فى أخبار هذه الامة ، نقسم هذه الاطوار الى عصرين : الاول العصر السبأى الحقيقى الذى كان صاحب سبأ فيه يسمى « مكرب سبأ » ويشمل الطورين الاولين ، ونعد الدولة فيهما « الدولة السبأية الحقيقية » . والعصر الثانى الذى صارت القاب الملوك فيه « ملك سبأ وريدان » أو « ملك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها » الى انقضاء الدولة نسميه العصر الحميرى ، مراعاة لتسمية العرب دولة حمير

دولة سبأ الحقيقية أو العصر السبأى

من نحو سنة ٨٥٠ — ١١٥ ق م

أن أول هذه الدولة لا يستطاع تحقيقه ، واذا اعتبرنا « يثعمر » (*) الذى دفع الجزية الى سرجون أقدم رؤسائها كان أولها فى القرن الثامن قبل الميلاد ، لكننا نجد فى التوراة ذكر ملكة سبأ فى أيام سليمان ، أى فى القرن التاسع قبل الميلاد ، فاذا كان المراد بها سبأ جزيرة العرب كانت بداءة هذه الدولة أقدم من ذلك ، فنفرض انها بدأت فى أواسط القرن التاسع

أما ملوكها فقد بلغ عدد الذين وصلت الينا أسماؤهم من استنطاق الآثار

(*) أنظر عن ذلك الملك ، جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٢ ص ١٦٤ وما بعدها

٢٧ ، منهم ١٥ مكربا و ١٢ ملكا ، وهذه أسماؤهم بحسب تعاقبهم باعتبار التوارث . ولهم القاب خاصة بهم غير القاب الدولة المعينية ، وهى هنا خمسة : وتار (العظيم) ، وبيين (الممتاز) ، وذرح (الشريف) ، ويوهنعم (المحسن) ، وينوف (السامى) كما ترى فيما يلى :

مكارب سبا	ملوك سبأ
يثعمر	ذمر على
ذمر على	ذرح
يدع ايل بن ذمر على	سمهعلى ذرح
سمهعلى ينوف بن ذمر على	كرب ايل بن سمهعلى ذرح
كرب ايل وتار بن ذمر على	اليشرح بن سمهعلى
يثعمر بيين بن سمهعلى ينوف	يدع ايل وتار
سمهعلى	يثعمر
يثعمر وتار بن سمهعلى	كرب ايل وتار
يدع ايل ذرح بن سمهعلى	يثعمر بيين
سمهعلى ينوف بن يدع ايل ذرح	يكرب ملك وتار
يثعمر وتار بن يدع ايل ذرح	يدع ايل بيين
يدع ايل بيين بن يثعمر	يريم أيمن
سمهعلى ينوف بن يثعمر	
كرب ايل بيين	
ذمر على وتار بن كرب ايل (*)	

فهؤلاء المكربون والملوك ، اذا اعتبرنا تعاقبهم من الآباء الى الابناء ، رأينا مدتهم لا تتجاوز ٢٣ جيلا ، وبتقدير الجيل ٢٥ سنة ، وان هناك أجيالا لم تصل معرفتها الينا ، لا نبالغ اذا قدرنا سنى الدولة نحو ٧٠٠ سنة. وقد دقق جلازر فى تحقيق الزمن الذى انتقلت فيه الدولة الى العصر الحميرى ، من مقابلة ما لديه من الاساطير المنشورة وغير المنشورة ، فترجح له أن دولة سبأ الحقيقية تنتهى سنة ١١٥ ق.م (١) وبها تبتدىء دولة حمير أى « ملوك سبأ وريدان » ، وسيأتى الكلام عليها

سبب انقضاء دولة سبا الحقيقية

ان هؤلاء الملوك — على كثرتهم — لم نقف حتى الآن على شىء من أخبارهم

(*) قارن هذه القائمة بقوائم ملوك سبأ التى أوردها جواد على فى كتابه الآنف الذكر ، ج ٢ ص ١٤٧ وما يليها

(١) Glaser Abb. 30

غير عنايتهم اجمالا بالتجارة ، مثل أسلافهم المعينيين ، فنترك أعمالهم التفصيلية لما عساه أن يكشفه المستقبل ، وننظر فى سبب انقضاء هذه الدولة . والمشهور عند كتاب العرب أن سبب انقضائها — وهم يعنون انقضاء دولة حمير — انفجار سد مأرب (سيل العرم) ونزوح القبائل الى العراق والشام والحجاز وغيرها دفعة واحدة حوالى تاريخ الميلاد . وذلك بعيد ، اذ لا يعقل أن تعجز الدولة فى ابان سطوتها عن اتقاء مثل هذا السيل ، واذا تصدع السد فلا تعجز عن ترميمه ، وسيتضح لك ذلك فى الكلام عن السدود . والغالب فى اعتقادنا ان دولة السبأيين ذهبت تدريجا بذهاب أسباب قوتها ، لانها خلفت المعينيين فى نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق ، حتى أصبحت فى القرون الاولى قبل الميلاد اكبر وسائل الاتصال بين تلك الامم هناك . فكانت السلع والاطياب تأتى من الهند والحبشة الى شواطىء جزيرة العرب ، فينقلها السبأيون على قوافلهم الى مصر والشام والعراق . ولم يكن عالم التجارة يستغنى عنهم ، فزهت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم الى أطراف الجزيرة شمالا وشرقا ، واحتفروا الترع وبنوا السدود وحولوا الرمال الى تربة خصبة ، وبنوا القصور والمحافد والهياكل ، وتفننوا فى تزيينها وزخرفتها وشادوا حولها الاسوار واغترسوا الحدائق ، حتى صارت البادية التى يهلك سالكها من العطش الآن جنة آهلة عامرة

وما زالوا فى عز وثروة ، واذا تصدع السد رمموه ، حتى أخذت طرق التجارة تتحول من البر الى البحر فأخذوا فى الضعف . وكان أصحاب « ريدان » — وهى أقرب الى البحر جنوبا — قد اشتد ساعدهم ، وهم من حمير فرع السبأيين ، فغلبوهم على مدينتهم أو اتحدوا معهم دولة واحدة ، كان يقيم ملوكها تارة فى مأرب وطورا فى ريدان (ظفار) على التوالى . ثم اقتصروا على الاقامة فى ظفار ، وذلك دليل على أن لقب « ملك سبأ وريدان » حدث فى أواخر الدولة ، بعد أن وجهت عنايتها نحو الجنوب على أثر تداعى السد. وبالجملة ان قصبة السبأيين كانت قبل انشاء دولتهم صرواح ، ورئيسهم يسمى « ذو صرواح » ، فلما أنشأوا الدولة بنوا مأرب — واسمها أيضا سبأ — فصار كبيرهم يسمى « مكرب سبأ » ، ثم صار « ملك سبأ » ، وهما الطوران الاول والثانى أو العصر السبأى الحقيقى ، ثم صارت ألقابهم « ملك سبأ وريدان » ، ثم « ملك سبأ وريدان وحضرموت الخ » — وهو العصر الحميرى

دولة حمير أو العصر الحميرى

من سنة ١١٥ق٠م – ٥٢٥ ب٠م

قد تقدم ان العصر الحميرى يبدأ سنة ١١٥ ق.م ، بانتقال عاصمة السبأيين الى ريدان (ظفار) ، والحميريون فرع من السبأيين ، وحمير عند العرب ابن سبأ ، ويؤيد ذلك ان اليونان لم يذكروا الحميريين فى كتبهم الى سنة ٢٠ ق.م (١) . والظاهر أن الحميريين كانوا يقيمون فى ريدان قبل ذلك التاريخ بأجيال ، وهم اقيال أو اذواء ، وكبيرهم يسمى « ذو ريدان » ، حتى سنحت لهم فرصة تغلبوا بها على اخوانهم السبأيين أو اتحدوا معهم فى أواخر دولتهم ، فصار لقب كبيرهم « ملك سبأ وذو ريدان » ، ولما ملكوا حضرموت قيل : « ملك سبأ وريدان وحضرموت » ، ثم ملكوا غيرها ، وكلما ملكوا بلدا أضافوا اسمه الى القابهم

وتختلف دولة حمير عن دولة سبأ انها أقرب منها الى الدول الفاتحة ، فقد نبغ من ملوكها قواد فتحوا الممالك وحاربوا الفرس والاحباش وغيرهما ، وتنتهى دولة حمير بذى نواس سنة ٥٢٥ م ، فكأنها حكمت ٦٤٠ سنة تقسم الى مدتين متساويتين تقريبا ، كان ملوكها فى المدة الاولى يلقبون « ملك سبأ وريدان » ، وهم ملوك الطبقة الاولى من حمير . وتنتهى هذه المدة بضم حضرموت الى ألقابهم ، وبضمها تبتدىء المدة الثانية ، واسم الملك فيها « ملك سبأ وريدان وحضرموت » ، وأصحابها ملوك الطبقة الثانية من حمير . وأول من نال هذا اللقب « شمر يرعش » ، فهو آخر ملوك الطبقة الاولى وأول ملوك الطبقة الثانية من حمير

بقى علينا النظر فى من هو أول ملوك حمير ، ولا يمكننا الاعتماد فى ذلك على روايات العرب لاختلاطها وتخالفها ، ولم تدلنا الآثار المنقوشة على شىء صريح بهذا الشأن ، فما لنا الا الجنوح الى الاستنتاج مما قرأناه فيها من أسماء الملوك وأنسابهم وتواليهم ، وتخمين مدد حكمهم ، ولا يخفى ما فى ذلك من أسباب الخطأ ، لان كثيرا من تلك الاسماء لملوك تعاصروا أو كانوا اخوة من أب واحد

على أن ملوك الطبقة الاولى من حمير ، الذين عثروا على أسمائهم فى الآثار المنقوشة ، اقل عددا مما تقتضيه المدة التى قدروها لتلك الطبقة من دولة حمير . فأضافوا اليها أسماء وجدوها على النقود وغيرها ، فاجتمع لديهم

---

(١) Sprenger, 78

مابين ٣٠ و ٤٠ اسما ، وفيهم كثيرون من المتعاصرين أو الاخوة ، وليس لاحدهم تاريخ مذكور يرجع اليه أو يقاس عليه ، فرجع الباحثون الى ما عرفه اليونان من ملوك هذه الدولة ومقارنته بما وجدوه على الآثار. وقد فعل ذلك جلازر فى كتابه « الاحباش » (١) فوجد ملكين ذكرهما صاحب كتاب « الطواف حول البحر الاريتري » فى أواسط القرن الاول للميلاد ؛ أحدهما اسمه « كريبايل Charibael ملك سبأ وريدان » والآخر « ايليازوس Eleazos ملك حضرموت » . ورأى من الجهة الاخرى أن بين أسماء ملوك هذه الطبقة على الآثار ملكين ، أحدهما أسمه « كرب ايل » والآخر « اليعزو باليط » ، فترجح له انهما نفس الملكين اللذين ذكرهما صاحب كتاب « الطواف » ، وهما معاصران له ، أى من أهل أواسط القرن الاول للميلاد . فجعل هذا التاريخ نقطة متوسطة يقاس عليها ويقابل بها ، فتوصل الى تحقيق أزمنة عدة ملوك من الطبقة الاولى الحميرية ، فأضفناها الى ما حققه فى جغرافيته (٢) ووصلنا بينهما بما استنتجناه من مطالعاتنا الخصوصية ، وفى جملتها اننا عثرنا على ملك عربى ذكره استرابون فى أثناء كلامه عن حملة اليوس غالوس على بلاد اليمن وسماه Elisaros اليزاروس ، يشبه أن يكون محرفا عن « اليشرح » ، ويوافق ذلك ورود هذا الاسم لملك تولى سبأ نحو ذلك الزمن ، أى فى أثناء تلك الحملة قبيل تاريخ الميلاد . فرتبنا ملوك حمير بحسب مدد حكمهم وتعاقبهم ، كما فى الجدولين الآتيين كل جدول لطبقة (*) :

---

(١) Glaser, ABB. 33 (٢) Glaser, Geo. II. 542

(*) سبق أن أوردنا فيما سبق تاريخ التطور السياسي لدولة سبأ . وبقى أن نضيف أن آخر الابحاث دلت على أن العهد الاول من تاريخ سبأ ، الذى كان ملوكها يلقبون فيه بملوك سبأ فقط ، ينتهى سنة ١١٥ قبل الميلاد ، ثم استولوا على ريدان واتسعت مملكتهم وأصبح ملوكها يسمون بملوك سبأ وذوى ريدان ، واستمر ذلك حتى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد ، ثم اتسعت رقعة مملكتهم فضمت حضرموت ويمنات ، وانتقلت العاصمة الى ظفار وأصبح الملوك يسمون « ملوك سبأ وذوى ريدان وحضرموت ويمنات » ثم غلب اسم يمنات على المملكة كلها وأصبح ما جنوبى عسير من جزيرة العرب يسمى يمنات أو اليمن

ولو يتم هذا التوسع الا بعد حروب طويلة بين ملوك سبأ ورؤساء النواحى التى ضموها الى بلادهم بالتدريج ، وهذه الحروب المستمرة هى التى أدت الى ضعف البلاد بصفة عامة ، وصرفت ملوكها عن العناية بالسدود مما أدى الى تهدمها ، وهى التى جرأت الاحباش ثم الفرس على غزو البلاد على ما هو معروف

وقد تعاقبت على العرش أسر مختلفة أولاها من ناحية سبأ ، وقد استمر رؤساء ريدان وحمير ينازعونها العرش حتى غلبوها عليه فى آخر أيام علهان نهفان ، وصارت رياسة المملكة لملوك من أصل حميرى ، وغلب اسم حمير على المملكة من ذلك الحين

أما قوائم ملوك حمير بطبقتيهم التى يوردها المؤلف فقد حققها جواد على فى كتابه الآنف الذكر (جـ ٢ ص ٢٢٦ وما يليها) ، وقد أورد قوائم تختلف بعض الشىء عما أورده جرجى زيدان ، ولكنه رغم دراسته المستبحرة لكل ملك وما أثر عنه من نصوص لم ينته الى قول قاطع فى أسمائهم أو ترتيبها أو الاعمال التى تنسب الى كل منهم،ولهذا رأينا أن ندع قائمتى المؤلف كما هما حتى ينتهى البحث الى رأى حاسم فى الموضوع

الطبقة الاولى من ملوك حمير

ملوك سبأ وذو ريدان

من سنة ١١٥ ق٠م ـ ٢٧٥ ب٠م

اسم الملك	مدة الحكم
علهان نهفان	١١٥ ـ ٨٠ قم
شعرا وتار بن علهان نهفان بريم ايمن بن علهان نهفان	٨٠ ـ ٥٠ قم
فرع ينهب	٥٠ ـ ٣٥ قم
اليشرح يخضب (Elisaros) وابنه يزل بيين	٣٥ ـ ١٥ قم
اليشرح يحمل بن يزل بيين	١٥ ـ ٥ بم
وتار	٥ ـ ٣٥ بم
كرب ايل وتار يوهنعم (وهو Charibael بريبلوس)	٣٥ ـ ٧٠ بم
ذمر على ذرح بن كرب ايل	٧٠ ـ ٩٥ بم
هلك امير بن كرب ايل	٩٥ ـ ١٢٠ بم
ذمر على بيين	١٢٠ ـ ١٤٥ بم
وهب ايل يحز	١٤٥ ـ ١٧٠ بم
(ملوك مجهولون)	١٧٠ ـ ٢٥٠ بم
ياسر انعم	٢٥٠ ـ ٢٧٥ بم

الطبقة الثانية من ملوك حمير

ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ ـ ٥٢٥ م

اسم الملك	مدة الحكم
شمر يرعش	٢٧٥ ـ ٣٠٠ بم
ذو القرنين أو افريقس (الصعب)	٣٠٠ ـ ٣٢٠ بم
عمرو زوج بلقيس	٣٢٠ ـ ٣٣٠ بم
بلقيس وتسمى الفارعة	٣٣٠ ـ ٣٤٥ بم
الهدهاد اخوها	٣٤٥ ـ ٣٧٤ بم
ملكيكرب يوهنعم (ينعم)	٣٧٤ ـ ٣٨٥ بم
أبو كرب أسعد بن ملكيكرب	٣٨٥ ـ ٤٢٠ بم
حسان بن أسعد	٤٢٠ ـ ٤٢٥ بم
شرحبيل يعفر بن أسعد	٤٢٥ ـ ٤٥٥ بم
شرحبيل ينوف	٤٥٥ ـ ٤٧٠ بم

اسم الملك	مدة الحكم
معدى كرب ينعم وابنه لحيعة	٤٧٠ ـ ٤٩٥ بم
مرثد اللات ينوف	٤٩٥ ـ ٥١٥ بم
ذو نواس (ويسميه اليونان دميانوس) (١)	٥١٥ ـ ٥٢٥ بم
ذو جدن (لم يكن له حكم)	٥٢٥ ـ ٥٣٣ بم

فترى ان هذا الجدول يخالف ما ذكره العرب من بعض الوجوه ، ولكنه أقرب الى الصواب لانه مبنى على التحقيق ومقابلة ما كتبه العرب واليونان وما نقش على الآثار . ولعل السبب فى زيادة عدد ملوك حمير عند العرب عما أثبتناه هنا انهم أدخلوا فى عداد أولئك الملوك اقيالا أو اذواء اشتهروا فى أثناء تلك الدولة ، فحسبوهم منها وادخلوهم فى عداد ملوكها

واذا أمعنت النظر رأيت الطبقة الثانية من ملوك حمير تقابل دولة التبابعة فى كتب العرب . لان العرب يشترطون فى التبابعة أن تكون حضرموت والشحر فى سلطتهم (٢) وهذا هو الواقع فى ملوك الطبقة الثانية كما رأيت. أما الاولى فتقابل ما قبل التبابعة عند العرب ، وان اختلفت الاسماء والازمنة ، ويسمونهم حمير وعاصمتهم ظفار

اعمال دولة حمير

لا مشاحة فى ان هذه الدولة أقرب الى الدول الفاتحة من دولتى سبأ ومعين سابقتيها ، ولكن العرب بالغوا فى وصف فتوحها الى ما يفوق طور التصديق . وليس لدينا من أخبار الفتح غير ما كتبه العرب ، ولذلك فلا سبيل الى تحقيقه أو اصلاحه الا اذا كشف المنقبون آثارا أخرى فيها نصوص تاريخية يمكن الرجوع اليها فى هذا الاصلاح . وأشهر ملوك حمير ـ على رواية العرب ـ شمر يهرعش . ذكروا انه وطىء أرض العجم وفارس وخراسان وافتتح مدائنها ، وخرب مدينة الصغد وراء جيحون ، فقالت العرب « شمركند » أى شمر خرب ، وبنى مدينة هنالك سميت باسمه وعربها العرب فصارت سمرقند ، وقال بعضهم انه ملك بلاد الروم (٣). هذا ما رواه العرب ، ولا نقول انه مستحيل على ملك عربى ، فان العرب أتوا ماهو أعظم من ذلك كثيرا ، ولكننا نستبعد حدوثه لأننا لانجد فى تواريخ الامم المعاصرة ما يؤيده ، فان مثل هذه الفتوح لو وقعت لايعقل أن يهمل ذكرها ملوك العراق وخراسان والترك والروى وغيرهم . ومن

(١) Sharpe 11.352 (٢) المسعودى ٢٠٨ ج ١ (٣) ابن خلدون ٥٢ ج ٢

مشاهيرهم افريقس ذو القرنين ، ويسمونه الصعب ، وهو عندهم فاتح بلاد المغرب بافريقية وناقل قبائل العرب اليها

ومنهم أسعد أبوكرب ، زعموا انه غزا اذربيجان ، ولقى الترك وهزمهم ، وقتلَ وسبى ثم رجع الى اليمن ، وهابته الملوك وهادنه ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك. وبعث ابنه حسانا الى الصفد ، وابنه يعفر الى الروم ، وابن اخيه شمر ذى الجناح الى الفرس . وان شمرا لقى كيقباد ملك الفرس فهزمه ، وملك سمرقند وقتله ، وجازَ الى الصين فوجد أخاه حسانا قد سبقه اليها ، فأثخنا فى القتل والسبى ، وانصرفا بما معهما من الغنائم الى أبيهما . وبعث ابنه يعفر الى القسطنطينية فتلقوه بالجزية والاتاوة ، فسار الى رومة وحصرها ، ووقع الطاعون فى عساكره فاستضعفهم الروم، ووثبوا عليهم فقتلوهم ولم يفلت منهم أحد . ثم رجع الى اليمن ، وزعموا انه ترك فى بلاد الصين قوما من حمير ، وانهم بها الى هذا العهد الخ (١) ❋

والقارىء يدرك لاول وهلة حظ هذه الاقوال من الصحة ، اذ يتبين له بعدها عن المعقولات ، كأن أبطال هذه الحوادث من الجان ، وكأن الصين والهند على ساعات من اليمن ، وكأن أهلها حشرات لا يستطيعون دفاعا . وناهيك بالاتاوة التى وضعوها على القسطنطينية ، وحصار رومة ، والمدينتان فى ابان تمدنهما ولم تعلما بهذه الفتوح

والى أسعد هذا ينسبون غزوات كثيرة وأعمالا عظيمة ، منها انه غزا المدينة (يثرب) وكسا الكعبة ، وانه أول من تهود من العرب فى حديث لا محل لذكره (٢) وقد يكون على اجماله صحيحا لقربه من المألوف . اما تتمة الغرائب من أخباره فهى انه عاش عمرا مضاعفا ، قال بعضهم ١٢٠ سنة ، وقال آخرون ٣٢٠ سنة

وقس على ذلك ما ينسبونه الى حسان بن تبع أسعد ، الذى ذكروا انه استباح طسما ونصر جديسا ، كما أشرنا الى ذلك فى كلامنا عن هاتين الامتين . ومثله تبع بن حسان وغيره مما لا فائدة من الخوض فيه

---

(١) ابن خلدون ٥٣ ج ٢

(❋) اسمه فى النصوص أب كرب أسعد ، وذكره بعض مؤرخى العرب باسم أسعد كامل تبع، ويذهبون الى أنه أول من تهود ونشر اليهودية بين أهل اليمن من التبابعة ، ولم تثبت النصوص ذلك ، وانما دلت على أن الحميريين فى أيامه كانوا يتعبدون لاله واحد يسمى ذو سموت أى اله السماء وقد حكم فيما بين سنتى ٤٠٠ و ٤١٥ أو ٤٢٠ بعد الميلاد ، وهو الذى أضاف الى لقب « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » عبارة و « أعربهمو طودم وتهمتم » أى « وأعرابها فى الجبال وفى تهامة » . وخلفه ابنه حسان يهأمن

أنظر : جواد على : العرب قبل الاسلام ، ج ٣ ص ١٥٤ وما بعدها

(٢) ابن خلدون ٥٤ ج ٢

العصر الحبشى فى اليمن

الاحباش واليمن

لا يعرف العرب من سيادة الاحباش على اليمن الا فتحها ، فى أيام ذى نواس بأوائل القرن السادس للميلاد ، وقلما ذكروا علاقة بين الامتين قبل ذلك . والواقع ان العلائق بين البلدين قديمة جدا ، والقدماء يعدون اليمن والحبشة بلدا واحدا ، حتى ذهب سالت وريتر وغيرهما من علماء التاريخ أن الحبشة مهد الساميين وأصل منبتهم (١) . وقد أشرنا الى ذلك قبلا . ويذهب آخرون الى أن الاحباش عرب ، هاجروا من اليمن الى الحبشة قبل زمن التاريخ ، استدلوا على ذلك من تشابه اللسانين الحبشى والحميرى ، وأحرف الكتابة تكاد تكون واحدة عندهما

وقد رأيت اننا نعد دولة سبأ حبشية المنبت ، نزح آباؤها من اليمن قبل الميلاد بعدة قرون ، وظلت العلاقات متبادلة بين البلدين بعد ذلك . وقد استدلوا من أثر سيأتى ذكره ، عثر عليه الرحالة بنت Bennet فى « يحا » بالحبشة ، انه كتب فى القرن السادس قبل الميلاد (٢) وصاحب ذلك الاثر من مهاجرى اليمن الى الحبشة — كل ذلك من قبيل الظنون التى لم تتأيد بالنصوص التاريخية المدونة فى الكتب أو المنقوشة على الاحجار ، ولعلهم يعثرون فى المستقبل على ما يؤيدها أو ينقضها

على اننا نستفيد من كتب اليونان والسريان وغيرهم ، ان الاحباش أخذوا يستخفون بالحميريين ويطمعون فى بلادهم من أوائل النصرانية ، على أثر تضعضع السبأيين وذهاب دولتهم وتفرق كلمتهم ، والاحباش يومئذ فى ابان سطوتهم وعاصمتهم « اكسوم » . والمظنون أن جماعة من الاحباش احتلوا شواطىء اليمن الجنوبية عند مهرا ، فى القرن الاول قبل الميلاد ، ومعهم الجند يترقبون فرصة يثبون بها على الحميريين ، كأن لهم عليهم ثأرا أو لعلهم فعلوا ذلك طمعا فى ثروة تلك البلاد ومعادنها ، أو للاستئثار بما بقى من تجارتها ، وقد اتيح لهم ذلك فى أوائل النصرانية

وأقدم اخبارهم الصحيحة فى هذا الشأن أن نجاشيا (٣) حمل على شواطىء اليمن فى أوائل القرن الثانى للميلاد (٤) قرأوا ذلك على أثر منقوش فى ادوليس (زيلع) . ويؤخذ من مصادر أخرى أن نجاشيا آخر حمل عليها فى أواخر القرن الثالث ، ففتح بعض اليمن وبعض تهامة وسهل العلاقات التجارية

(١) Renan, I. 306

(٢) Glaser, Abb. 13

(٣) النجاشى تعريب نجوس بالحبشية أى ملك

(٤) Muller, Burg. II. 33

بينهما ، فتعاون الحميريون عليه وغلبوه على ما فى يديه وأخرجوه من بلادهم. ولم تمض خمسون سنة أخرى حتى عاد الاحباش ، ولم يقنعهم ما فتحوه حديثا فاكتسحوا اليمن كلها ، وذكروا خبر ذلك الفتح على آثارهم ونقشوا أسماءهم على أبنية اكسوم باليونانية ولقبوا انفسهم « ملك اكسوم وحمير وريدان واثيوبيا وسبأ وزيلع وغيرها » . وعثر المنقبون على أثر باللغة الحبشية نحو ذلك الزمن تسمى به ملك الحبشة « ملك اكسوم وحمير وريدان وسلحين » (١)

وتوالت الوقائع بين الاحباش وحمير فى أواسط القرن الرابع للميلاد ، جرت فيها معارك كانت الحرب فيها سجالا . وممن واقف الحميريين من ملوك الاحباش ملك اسمه « العلى اسكندى » حارب الهدهاد ملك حمير سنة ٣٤٠ م ، وخلفه العلى عميدة (حكم من سنة ٣٤٠ — ٣٤٨ م) حارب الهدهاد وبلقيس ، وفتح اليمن سنة ٣٤٥ بمساعدة قيصر الروم قسطنطيوس رغبة فى نشر النصرانية ، وكانت قد دخلت الحبشة من عهد قريب على يد كاهن رومى اسمه فرومنتوس ، ساموه اسقفا عليها سنة ٣٥٤ فى اكسوم

وتولى الحبشة واليمن بعد العلى عميدة أولاده ، وهم عيزاناس (اذينة) حكم من سنة ٣٤٨ — ٣٦٥ م ، وسازاناس (شاذان) من ٣٥٠ — ٣٧٤ م (٢) وهو آخر من تولى اليمن من هذه العائلة ، فعادت الى أصحابها الحميريين ، وتولاها ملكيكرب يوهنعم سنة ٣٧٤ . وما زالت فى قبضة الحميريين حتى فتحها الاحباش المرة الاخيرة سنة ٥٢٥ التى عرفها العرب وذكروها

فتح الاحباش الاخير

١ — ما يقوله العرب عنه

اختلف الرواة فى سبب هذا الفتح ، فالعرب ينسبونه الى اضطهاد اليهود للنصارى ، وكانت اليهودية قد دخلت اليمن على يد أحد ملوك حمير ، ورغب الناس فيها فانتشرت فى اليمن كلها ، وكانت دولة الروم قد تنصر قياصرتها واخذوا يهتمون بنشرها وتأييدها ، ويستعينون بها على نشر نفوذهم وتوسيع دائرة تجارتهم ، فأرسل بعضهم فرومنتوس الذى ذكرناه الى الحبشة فنشر النصرانية فيها ، ثم اخذت تتسرب الى جزيرة العرب وخصوصا نجران وعدن ، وارسلوا اليهما الكهنة والرهبان ، وبنوا فى نجران مزارا أو حجا عرف بكعبة نجران ، فيه القسيسون والرهبان

(١) Muller, II. 33 Crimme 23

(٢) Glaser, Geo. 540-543

وأفضت حكومة حمير فى أوائلَ القرن السادس للميلاد الى ملك منهم اسمه ذو نواس ، والروم يسمونه دميانوس ، كان شديد التعصب لليهودية ، فغزا أهل نجران فحصرهم ، ثم انه ظفر بهم فخدد لهم الاخاديد ، وعرض عليهم اليهودية فامتنعوا فحرقهم فى النـــار ، وحرق الانجيل وهدم بيعتهم ، ثم انصرف الى اليمن . وافلت منه رجل اسمه دوس ثعلبان على فرس ركضه حتى أعجزهم فى الرمل ، ومضى الى قيصر الروم يستغيثه ويخبره بما صنع ذو نواس بنجران وأهلها ، فاعتذر القيصر ببعد الشقة ، ولـكنه كتب الى ملك الحبشة يحرضه على نصرته وفتح اليمن . فلما وصل كتاب القيصر الى النجاشى أمر أحد قواده المسمى ارياط أن يخرج معه فينصره ، فخرج ارياط فى سبعين ألفا من الحبشة ، وقود على جنده قوادا من رؤسائهم ، واقبل وفى جيشه عدد من الفيلة ، وكان معه أبرهة بن الصباح . وكان فى عهد ملك الحبشة الى ارياط : « اذا دخلت اليمن فاقتلْ ثلث رجالها واخرب ثلث بلادها وابعث الى بثلث نسائها » ، فخرج ارياط فى الجنود فحملهم فى السفن فى البحر، وعبر بهم حتى ورد اليمن، وقد قدم مقدمات الحبشة ، فرأىأهل اليمن جندا كثيرا . فلما تلاحقوا قام ارياط فى جنده خطيبا فقال : « يا معشر الحبشـــة ، قد علمتم انكم لن ترجعوا الى بلادكم أبدا . . هـــذا البحر بين أيديكم : ان دخلتموه غرقتم ، وان سلـكتم البر هلـكتم ، واتخذكم العرب عبيدا . وليس لـكم الا الصبر حتى تموتوا أو تقتلوا عدوكم » فجمع ذونواس جمعا كثيرا ، ثم سار اليهم فاقتتلوا قتالا شديدا ، فكانت الدولة للحبشة . فظفر ارياط وقتل أصحاب ذى نواس ، وانهزموا فى كلَ وجه . فلما تخوف ذو نواس أن يؤسر ، ركض فرسه واستعرض به البحر وقال : « الموت فى البحر احسن من الاسر » ، ثم أقحم فرسه لجة البحر فمضى به فرســـه ، وكان آخر العهد به . ثم خرج اليهم ذو جدن الهمدانى فى قومه فناوشهم ، وتفرقت عنه همدان ، فلما تخوف على نفسه قال : « ما الامر الا ما صنع ذو نواس » ، فأقحم فرسه البحر فكان آخر العهد به . ودخل ارياط اليمن ، فقتل ثلثا وبعث ثلث السبى الى ملك الحبشة وخرب ثلثا ، وملك اليمن وقتل اهلها وهدم حصونها (*)

(*) أوجزت فيما سبق الكلام عن علاقة الاحباش باليمن ، وبقى أن نضيف هنا أن ذا نواس يعرف في النصوص النصرانية باسم Dimianos و Damnos و Dimnus و Damian ومسروق ، ويرى جواد علي (وغيره) ان دميانوس هو ذو نواس • وتذهب الروايات الحبشية واليونانية الى انه لم يقتل نفسه بل أسره الاحباش وقتلوه • وقد نصب ملك الحبشة بعد موت ذى نواس رجلا اسمه السميفع أشوع Esimiphaeus حاكما على اليمن • وكان يمنيا نصرانيا ، وحكم اليمن تابعا لملوك آكسوم

وذكر بعض مؤرخي اليونان ـ ومنهم يوحنا الافسوسى Johannes Ephesus ـ أن اسم ذلك الحاكم لم يكن السميفع بل ابراميوس Abramios وهو أبرهة المعروف عند الاخبـــاريين

←

٢ ـ ما يقوله اليونان

ذلك ما يرويه العرب عن أسباب الفتح ، وأما اليونان فينسبونه الى سبب تجارى مالى ، وذلك ان اليمنيين لمـــا تضعضعت احوالهم ، بتقهقر دولتهم وخروج مقاليد التجارة من أيديهم ، كان الروم قد أخذوا ينشرون نفوذهم فى الشرق بواسطة النصرانية ، وتيسر لتجارهم المرور فى بلاد اليمن بين خليج العجم والبحر الاحمر ، يحملون تجارة الهند الى الحبشـــة ثم الى مصر ، والعرب يشق ذلك عليهم ولا حيـــلة لهم فى منعهم ، فجعلوا يضايقونهم فى تسيارهم

وأراد الفرس فى أثناء ذلك أن يعرقلوا مساعى الروم، أعدائهم القدماء ، فى متاجرهم عن طريق جزيرة العرب ، فنزل جند منهم بشواطىء خليج العجم من جزيرة العرب ، فأرسل القيصر جوستين الى بنى حمير أن يردوا الفرس عنهم ، وبعث من الجهة الاخرى الى الاحباش أن يأخذوا بيد تجار الروم فى ذلك السبيل . وكذلك فعل جوستنيان لما تولى (١) ولم يطل عهد الوفاق ، فعاد العرب الى معارضة قوافل الروم ــ قال ثيوفانس : « واتفق فى أوائل القرن السادس ان الحميريين تعدوا على تجار الروم ، فى أثناء اجتيازهم اليمن بتجارتهم الهندية ، وقتلوا جماعة منهم ، فتوقفت حركة التجارة ، فشق ذلك على الاحباش فتجندوا لفتح الطريق ، وقطعوا البحر الاحمر تحت راية ملـكهم هداد ، وحاربوا الحميريين فقتلوا ملـكهم دميانوس (ذى نواس) وجددوا المعاهدة مع قيصر القسطنطينية جستنيان على شرط أن يتنصر أهل اكسوم ، وأرسلوا الى الاسكندرية وفدا يطلبون قسيسا يعمدهم ويعلمهم ، فأرسل اليهم رجلا تقيا عاقلا اسمه يوحنا ، صار بعدئذ أسقفا على اكسوم(٢)

وبعد أن اقتص الاحبـــاش من الحميريين انســـحبوا الى بلادهم ، فعاد الحميريون الى ما كانوا عليه وعادت التجارة الى الانقطاع. فأعاد اليسباس(*)

= المسلمين . والآراء مختلفة فى أمر أبرهة ، فمن قائل أن ملك الحبشة لم يقمه ملكا على اليمن وانما أقام « أرياط أبا صحم » فأساء السيرة ، فثار عليه أبرهة وقتله وتولى الامر . ومن قائل أن العكس هو الصحيح ، وأن ملك الحبشة أقام أبرهة على أن يؤدى له جزية سنوية ، ثم قطعها فارسل اليه ملك الحبشة جيشا بقيادة أرباط . وتمكن أبرهة من التغلب على أرياط واسترضى ملك الحبشة فأقره على حكمها ، فأقام فيها وتزوج امرأة غصبها من زوجها أبى مرة بن ذى يزن، ذى جدن فولدت له ابنا يسمى مسروق وبنتا تسمى بسباسة ، وخلفه على العرش ابنه الاكبر يكسوم ثم ابنه الثانى مسروق

(١) Sharpe, II. 353

(٢) Sharpe, II. 352

(*) أليسباس المشار اليه هنا هو Hellestheaens أو Eiisbahay أو Elesbowan ملك الحبشة الذى عين أبرهة حاكما على الحبشة . ويذهب جواد على الى أن ذلك الاسم تحريف لاسم Ela-Asbah الحبشي وذلك بعيد فى رأينا ، لان هذا الاسم الاخير هو الذى يطلق على أبرهة فيسمى أبرهة الصباح . وربما جاز تفسير جواد على على اعتبار أن أصـــل اسم أبرهة الصباح شىء فى معنى أبرهة عامل الصباح

أنظر : جواد على ، نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها

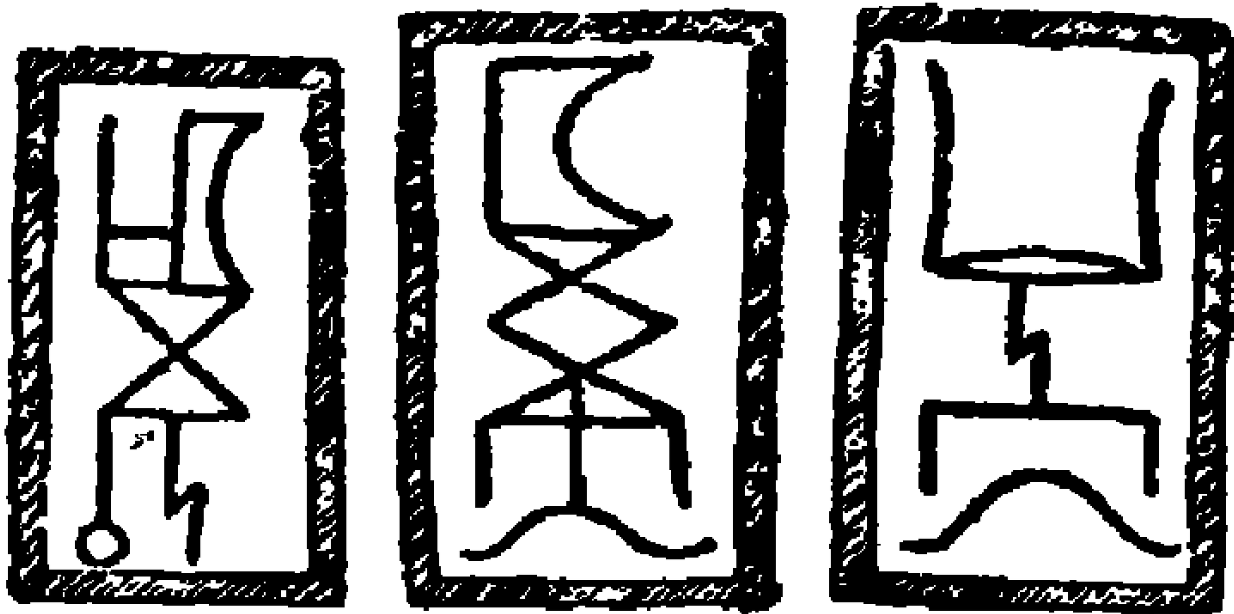
ملك الحبشة الكرة ، وفتح بلاد اليمن فتحا بحملة كبيرة حارب بها الحميريين، وغلبهم على بلادهم وولى عليها أميرا مسيحيا من امرائه اسمه اسيمافيوس (السميفع) وأوعز اليه أن يحمل اهلها على النصرانية ، استنجادا بالدين على السياسة ، واستعان بأسقف اسمه جريجنتوس كان خطيبا مفوها وعالما كبيرا على أن يبذل جهده فى هذا السبيل . وعقد مجلسا جمع فيه بين هذا الاسقف وحبر يهودى اسمه هربان وأمرهما بالمناقشة فى الدين ، فتناقشا وكتب الاسقف بعد ذلك كتابا نسب فيه الفوز لنفسه ، وذكر اعجوبة حدثت فى أثناء الجدال عمى بها كل الحاضرين من اليهود ، فصلى الاسقف والتمس شفاءهم فعادت اليهم أبصارهم فأفحموا وتنصروا . ولم يطل حكم أسيمافيوس على حمير ، لانهم ثاروا عليه وخلعوه فأرسل اليسابس جندا لاخضاعهم ، فانضم الجند الى العصاة فلما يئس الملك من اذلالهم قنع بعقد الصلح بينه وبينهم (١)

تلك هى أقوال اليونان عن أسباب ذلك الفتح ، ولعلها أقرب الى الواقع لانها مأخوذة عن مصادر كتبها أصحاب الشأن المعاصرون

وعثر الضابط ولستد فى شواطىء اليمن على مرتفع اسمه حصن غراب ، أو حصن الغراب ، عليه نقوش بالحميرية قرأها المستشرقون بعد ذلك فأذاعوا فحواها : « أن سميفع أشوى وأولاده ... نقشوا هذا التذكار فى حصن مويجت (حصن غراب) لما رمموا أسوارهم وزواياهم ودروبهم فى الجبال ، وتحصنوا فيه بعد أن فتحوا الحبشة وغلبوا أهلها ، وفتحوا طريق التجارة فى ارض حمير وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والارحابيين فى شهر حجتين سنة ٦٤٠ » (٢) . فاذا كان المراد بالسميفع وأولاده قواد حملة الاحباش فيكون ذلك أقرب الى ما ذكره اليونان ، لان السميفع يشبه لفظ أسيمافيوس المتقدم ذكره

لكنهم قرأوا على آثار اليمن اسم القائد الحبشى كما ذكره العرب « ابرهة » مكتوبا فى خرطوش بالخط الحميرى ، كما كان الفراعنة يكتبون أسماءهم ، وبجانب اسم أبرهة خرطوش باسم اراحميس زبيمان ، الملك الذى أرسله

وللتوفيق بين الروايتين ينبغى أن نعتبر لكل من ابرهة وملكه اسمين أو اسما ولقبا ، أو لعل هنالك التباسا بين قائدين أو ملكين . وقد فصل العرب تمرد الاحباش المشار اليهم ، مع تبديل فى الاسماء . قالوا ان بعض قواد ارياط نقموا عليه تمييز بعضهم



خرطوش أبرهة وأراحميس زبيمان

(١) Sharpe II. 354

(٢) Bent, 249

بالعطاء أو الغنائم ، فاجتمعوا بقيادة أحدهم « ابرهة » وحاربوه ، وتولى ابرهة مبارزته وغلبه ، وتولى حمير قيادة الجند مكانه ، وظل فى ذلك المنصب عشرين سنة ، وخلفه ابنه يكسوم ، ثم أخوه مسروق بن ابرهة

وعمل الاحباش فى أثناء حكمهم على نشر النصرانية فى حمير ، فبنى أبرهة فى صنعاء كنيسة كبيرة سماها « القليس » — تحريف اسم الكنيسة فى اليونانية — وبالغ فى تزيينها واتقانها ، فنقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الاصباغ وصنوف الجواهر ، وجعل فيها خشبا له رؤوس كرؤوس الناس ، ولونها بأنواع الاصباغ ، وجعل على خارج القبة برنسا ، فاذا كان يوم العيد كشف البرنس فيتلألأ رخامها مع ألوان الاصباغ حتى تكاد تلمع البصر . وكتب على بابها بالمسند : « بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه اسمك ، وأنا عبدك » (١)

دخول اليمن فى حوزة الفرس

ومل الحميريون سلطة الاحباش ، وكان فى أمراء حمير رجل من الاذواء اسمه سيف بن ذى يزن ، استنجده قومه فسعى فى انقاذهم من سلطة ذلك الاجنبى ، واشاروا عليه أن يستنصر قيصر الروم فاستنصره فرده ، فمضى الى كسرى فنصره بجند تحت قيادة رجل اسمه وهرز ، قهر الحبشة واخرجهم واحتل مكانهم وكتب الى كسرى يقول : « انى قد ملكت للملك اليمن ، وهى أرض العرب القديمة التى تكون فيها ملوكهم » . وبعث اليه بجوهر وعنبر ومال وعود وزباد ، وهى جلود لها رائحة طيبة . فكتب اليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن ويقدم هو اليه ، فخلف سيفا على اليمن . فلما خلا سيف باليمن وملكها عدا على الحبشة ، فجعل يقتل رجالها ويبقر نساءها عما فى بطونهن حتى افناها ، الا بقايا منهم أهل ذلة وقلة فاتخذهم خولا . فمكث على ذلك غير كثير، وركب يوما وتلك الحبشة معه ومعهم حرابهم يسعون بها بين يديه ، حتى اذا كان وسطا منهم مالوا عليه فطعنوه حتى قتلوه (٢). ولم يقم على الحميريين ملك حتى كان الاسلام، ودخلوا فى حوزة المسلمين. ومدة حكم الاحباش على قول العرب ٧٤ سنة : منها ٢٠ سنة لارياط ، و ٢٣ لابرهة ، و ١٩ ليكسوم ، و ١٢ لمسروق . وصارت عاصمة اليمن منذ فتحها الاحباش « صنعاء » والملك يجلس فى قصر غمدان ، وقد نظم أمية بن أبى الصلت قصيدة يهنىء بها سيف بن ذى يزن يوم تغلبه — قال فى مطلعها :

لا يطلب الثأر الا كابن ذى يزن   فى البحر خيم للأعداء احوالا

---

(١) ياقوت ١٧١ ش ٤

(٢) الاغانى ٧٥ ص ١٦

دول اليمن الصغرى

الاقيال والاذواء :

تلك دول اليمن الكبرى : من معين ، وسبأ ، وحمير . وقد عاصرتهم دول صغرى ، أو أمارات ، رؤساؤها أصحاب القصور أو المحافد ويعرفون بالاذواء — جمع « ذو » من قولهم ذو غمدان وذو سلحين — وهم حكام البـــلاد الاصليون ، ومنهم نبغ الملوك الذين أسسوا الدول كما تقدم . ولا غرو اذا عجزنا عن معرفة تاريخ تلك الامارات الصغرى ، ونحن عن معرفة تاريخ الدول الكبرى عاجزون . ولكننا وقفنا على أسماء بعضهم مشـــــتتة فى الكتب ، ورأينا بعضها مجموعا فى القصيدة الحميرية ، والاذواء فيها طبقتان : طبقة سماها الملوك الثامنة ، وهم ثمانية أذواء كانوا اقوياء ناهضوا حمير في أيام دولتهم على ما يظهر . والطبقة الثانية أذواء مستقلون . والاذواء الثامنة ضمنهم الشاعر فى الابيات الآتية :

أين الثــــامنة المـلوك وملــكهم ... ذلوا لصرف الدهر بعد جمـــاح
ذو ثعلبــان ، وذو خليل ، ثم ذو ... شجر ، وذو جدن ، وذو صرواح
أو ذو مغار بعد ، أو ذو جـرفز ... ولقد محــــا ذا عثكلان مـــاح

وأما سائر الاذواء فأكبرهم ذو مرائد جد الناظم ، وهذا قوله فيهم :

أو ذو مرائد ، جدنا القيل بن ذى ... شجر ، أبو الاذواء رحب الســاح
وبنوهم ذو فين ، ذو سفر ، وذو ... عمران أهــــل مكارم اســـماح
والقيل ذو ربيان من أبنــــائه ... راح الحمـــــام اليه بالروح
أم أين ذو الرمحين ، أو ذو يرحم ... سقينا بكأس للمـــــنون ذبـــاح
أم أين ذو بهر ، وذو يزن ، وذو ... نوش ، وذو نوح ، وذو الانـــواح
أم أين ذو فيقان ، أو ذو أصـبح ... لم ينج بالامســـاء والاصـــــباح
أم أين ذو الشعبين أصبح صـدعه ... لم يلتئم لمثقف الاقـــــــداح
أو ذو حوال حيل دون مرامــــه ... أو ذو منــــاح لم يبح بمـــراح
أم أين ذو غمدان ، أو ذو فــائش ... أو ذو رعين لم يفز بفـــــــلاح
أو ذو الكناس ، وذوالكلام ويحصب ... أضحوا وهم للنــــائبات أضاحى
أم أين ذو افنان ، أو ذو اقــرع ... أو ذو الجنــــاح هزبر كل كفاح
أو ذو العبير ، وذو ذرانج خانــه ... دهــــر بعيد اليسر كالـــذلاح

أم أين ذو بينـــين ، أم ذو انمر وبنو شراحيـــــل ، وآل شراح
أم أين ذو ثاب ، وذو هكر ، وذو نمـــر ، وذو ضر ، وذو المسراح
أم أين ذو غيمان ، أو ذو شودن الـ ـــلاهى ببيض فى النســـاء ملاح
أم أين ذو شهران ، أو ذو ماور اضحت ديارهم بلا قـــــداح
أم أين ذو فهد ، وشمال ابنـــه فلقد عفـاهم دهرهم بمتـــاح
أم أين ذو شحط ، وذو تبع معا أو ذو مـــلاح لهو خـير مـــلاح
أم أين ذو أوســان ، أو ذو ماذن أم أين ذو التــــيجان والابراح

أما الاقيال فهم صغار الملوك الذين يقتصرون على مملـكة صغيرة كالمحفد الـكبير ، أو مؤلفة من بضعة قصور ، وفيهم طائفة من العياهل أو الملوك لحضرموت وقد ذكر الحميرى بعضهم بقوله :

وعيـــاهل من حضرموت من بنى اجماد ذى الاشـــبا وآل صـــباح
والعز من جـــدن وابنـــا مرة وبنى شيب والاولى بمنـــاح
وبنى الهزبن وآل فهـــد منهمو من كل هش بالندى مرتاح (١)

ناهيك ببيوتات اليمن وأهل الشرف والسؤدد ، ممن لم تكن لهم دولة ولـكنهم كانوا هم والاذواء والاقيال يعترفون بسيادة ملوك حمير أو سبأ ، مع استقلال كل منهم بشؤونه الداخلية ، كما كان شأن ملوك المسلمين فى العصور الاسلامية الوسطى مع خلفاء بنى العباس . أو هم كملوك الطوائف فى الدول الـكبرى (٢) فلم تخل اليمن من الاذواء حتى فى ابان سيادة الدول الـكبرى ، ولما ذهبت دولة حمير ودخلت اليمن فى حوزة الاحباش ، ظل أولئك الاذواء أو الاقيال يتصرفون بشؤون أنفسهم ولهم ثروة ونفوذ ، الى ما بعد الاسلام بقرن وبعض القرن (٣)

الجبايون والقتبانيون

هما أمتـــان تجاريتان من أمم اليمن ، لم يعرفهما العرب وانما ذكرهما اليونان حوالى تاريخ الميلاد فى عرض كلامهم عن المعينيين والسبأيين ، قال بلينيوس : « ان المر المعينى هو فى الحقيقة غلة الجبأية والحضرموتية . وكانت الاطياب على العموم تحمل للتجارة على أيدى الجبأيين وحدهم » ، فيدل ذلك على علاقة بينهم وبين المعينيين . ويرى جلازر ان الجبائية طائفة من المعينيين ، لانه وجد اسمهم بالحرف المسند مرارا بجانب اسم المعينيين ، بقرائن تدل على اشتراكهم فى التجارة . ولم يكن الجبأيون دولة ، وانما هم عشيرة أو طائفة تشتغل بنقل التجارة ، لها زعيم كأمير القبيلة . ويظن مولر أن الاسم مشتق من جبأ أى جمع الاطياب ، وجاء ذكرهم مرة ، وعليهم ملك منهم ، وقد اشتد ساعدهم . وكانت تجارة افريقيا تنقل على يديهم ، وفرضتهم

---

(١) Kremer, Him. Kasideh (٢) حمزة ١٢٩ (٣) ابن خلدون ٢٤٣ ج ٢

التى يختزنون بها بضائعهم « عقيلَ » . وفى صفة جزيرة العرب للهمدانى : « جبأ مدينة المفاخر ، وهى لآل الـكرندى من بنى ثمامة آل‌حمير‌الاصغر» (١)

أما القتابية فنسبتهم الى السبأيين مثل نسبة الجبأية الى المعينيـــين . وظنهم‌سبرنجر بنى قضاعة عند العرب ، وخالفه مولر وجلازر.وبرهن‌مولر أنهم طائفة سبأية قائمة بنفسها ، ووجد اسمهم على الآثار بالمسند « قتابان » ولعل سد قتاب الآتى ذكره من سدودهم . وكانوا يقيمون فى عقيل نحو القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم جاءهم الجبأية وأخرجوهم منها ، فأقاموا فى تمناء ، فلحقهم الجبأية اليها واخرجوهم منها . وكان من أمرائهم أمير اسمه صحر ياليل بوهر جب اى المثمر ، ويظن مولر أن القتابية بطن من السبأية ، خرجوا من ظفار بلاد حمير ، ودخلوا فى حوزة السبأيين ، ثم نزحوا الى مأرب ، حتى تغلبت عليهم الجبأية (٢ *)

٣ ـ القريون

وذكر استرابون أمة عربية سماها جرهيين Gerrhae قال انهم أغنى العرب، يقتنون الرياش الفاخرة ويتمتعون بكل أسباب الرخاء والترف ، ويكثرون من آنية الذهب والفضة والفرش الثمينة ، ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة (٣) وقال أيضا ان مدينتهم جرا Gerra أو جرها ، واقعة فى بقعة كثيرة الملح تبعد نحو ٢٠٠ ستادة عن البحر . وقال اغاثر سيدس انهم أغنى أهل الارض ، وسبب غناهم اتجارهم بغلال بلاد العرب والهند ، فيحملونها على القوافل الى الغرب ، أو بحرا الى بابل بفرضة جرا ، ولهم سفن ضخمة تسير فى المحيط الهندى ، ومراكب تسير فى الانهر يصلون بها الى بابل . وقد يصعدون بها فى دجلة الى مدينة أوبيس ، ومنها تنقل البضائع الهندية والعربية وتنتشر فى بلاد مادى وارمينيا وما جاورها ، وان هذه الامة أصلها من بابل

---

(١) الهمدانى ٥٤

(٢) Müller Burg. II. 71-78 (٣) Strabon III, 382 .

(*) الجبايون يسمون أيضا الجبانيون ، وربما كان هذا هو الاصح فى اسمهم ، فقد ورد فى النصوص اللاتينية Gebbanitae أى الجبانيين ، وذكروا أيضا أنهم كانت لهم مدن كثيرة مثل Nagia و Thomas و Timna وكانت مدينة كبيرة بدليل أن عدد معابدها بلغ خمسة وستين والغالب أن الجبايين أو الجبانيين كانوا شعبا من القتبانيين.

أما القتبانيون فشعب معروف كان يسيطر على جانب‌كبير من التجارة‌اليمنية ، وكانت عاصمتهم « تمنع » وتدور فيها أعمال الحفر والتنقيب اليوم ، وقد قامت دولة قتبان قبل دولة سبأ ،ثم تلاشت واندمجت فيها.

انظر : جواد على ، نفس المصدر ، ج ٣ ص ٨ وما يليها عن القتبانيين ، و ص ٩٦ وما يليها عن الجبايين

ولم يذكر العرب امة ولا دولة ولا عشـــيرة بهذا الاسم . وقـــد ذهب المستشرقون الى انها من أمم البحرين على خليج فارس ، وان «جرا» أو « جرها » هى « الجرعاء » فرضة من فرض تلك الناحية بالاحساء ، ولها ذكر فى شعر العرب . ولـكننا نرى ان الجرهيين هم أهل اليمامة ــ تحريف القريين نسبة الى « قرية » ، اسم اليمامة القديم ــ ويؤيد ذلك قدم سكان اليمامة وعمرانها القديم فى أيام طسم وجديس كما تقدم . وفى كتب العرب ان ملك طسم كان عمليقا ، والعماليق أصلهم من بابل

وهناك دول أخرى تولت بعض اقسام اليمن ، جاء ذكرها عرضا فى كتب اليونان أو العرب ، لا نعرف من أخبـــارها شيئا نثق بصحتـــه ، كالدولة الحضرموتية التى ذكرها اليونان Chatramotitae (١) ولعلها التى يريدها العرب بقولهم « أمة حضرموت » ، ويعدونها من العرب العاربة غير البائدة . قال ابن خلدون : « وأما حضرموت فمعدودة فى العرب العاربة لقرب أزمانهم ، وليسوا من العرب البائدة لانهم باقون فى الاجيال المتأخرة . الا انه يقال أن جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الاولى ، واندرجوا فى كندة وصاروا من عدادهم ، فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا ، والله أعلم». ثم أتى بشىء من اخبارهم ، وذكر ملوكهم ذكرا يفتقر الى تمحيص ، فاكتفينا بالاشـــارة اليها (٢) وقد رأيت ذكر عياهل حضرموت فى القصيدة الحميرية

وقل نحو ذلك فى ما ذكره العرب عن حضورا وجرهم وغيرهما ، وسيأتى ذكر جرهم فى اثناء كلامنا عن الطبقة الثالثة من العرب

---

(١) Strabon III, 360

(٢) ابن خلدون ٣٠ جـ ٢

تمدن اليمن القديم

اذا عددنا دولة حمورابى عربية ـ كما ترجح عندنا ، للأسباب التى ذكرناها فى كلامنا عن هذه الدولة ـ كان العرب من أسبق الامم الى التمدن ، لانهم انشأوا الدول ، وشادوا المدن ، ونظموا الحكومة ، وسنوا الشرائع ، وبنوا المدارس والهياكل ، ورقوا الهيئة الاجتماعية بترقية شأن المراة منذ اربعة آلاف سنة . وقد أتينا بأمثلة من ذلك فى صدر هذا الكتاب ، وتقتصر هنا على تمدن عرب اليمن الذين لا خلاف فى عربيتهم . وقد رأيت انهم كانوا أهل تمدن ودولة لا تقل عن دول معاصريهم فى أشور وفينيقية ومصر وفارس ، فابتنوا المدن وشادوا القصور والهياكل ، وتبسطوا فى العيش مثلهم ، ولكن تمدنهم لم يكن حربيا كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين ، بل كان تجاريا كتمدن الفينيقيين . فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فى عهد ذلك التمدن ، فانقطعوا لاعمالهم وتفرغوا لاستثمار ارضهم ، بغرس الحبوب ، وحفر المناجم ، واصطناع العطور والاطياب ، وركوب القوافل فى القفار ، والسفن فى البحار لنقل السلع . وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم ، كما كان اخوانهم الفينيقيون فى أجيال أخرى ، وقد تعاصروا حينا وتعاونوا على ذلك دهرا طويلا

على ان هذا التمدن لم يرد له ذكر فى كتب العرب الا قليلا ، وانما استنتجناه مما كتبه اليونان عن التاريخ القديم ، وما اكتشفه العلماء من آثار المدن ، وما قرأوه على أطلالها من أخبارها . ونقسم الكلام فى ذلك الى سبعة أبواب :

١ ـ النظام الاجتماعى ، ٢ ـ الصناعة والزراعة والتعدين ، ٣ ـ العمارة ٤ ـ التجارة ، ٥ ـ الحضارة ، ٦ ـ الدين ، ٧ ـ اللغة والكتابة

١ ـ النظام الاجتماعى

الدولة

لم يصل الينا شىء من احوال الحكومة ونظامها فى تمدن اليمن ، الا ما قد يستفاد من قرائن الاحوال . والظاهر أن المعينيين مؤسسى ذلك التمدن فى اليمن أتوا به من بابل أو نسجوه على منوال تمدنها . فقد كانت المملكة عندهم مؤلفة من قصور أو محافد ، يملك كلا منها شيخ أو أمير هو صاحب

القصر أو المحفد كما تقدم ، وفى المحفد هيكل أو معبود . وينسب القصر الى صاحبه أو الى ذلك المعبود . ونشأ من أصحاب تلك القصور أو المحافد رجال طمعوا فى جيرانهم واخضعوهم وانشأوا الدول الكبرى ، كالمعينية والسبأية والحميرية . على ان هذه الدول كلها تجارية ، فاذا مدت سلطتها الى خارج اليمن فللاستعمار التجارى ، الا نادرا

راس الحكومة عندهم الملك ، وهو مطلق الحكم ، لا يخرج من قصره فى مأرب أو غيرها من قصباتهم الا نادرا . وقلما كانوا يعتنون بتنظيم الجند ، لقلة الحروب والفتوح ، الا ما يدفعون به عن أنفسهم عند الحاجة ، أو لحماية القوافل فى اسفارها ، وانما كانوا يجمعون الرجال لاستخدامهم فى بناء المدن أو القصور ، أو فى انشاء السدود أو ترميمها . وكانت الحكومة عندهم وراثية تنتقل الى الابناء أو الاخوة ، الا حضرموت قبيل النصرانية ، فقد ذكر استرابون أن الملك فيها لا ينتقل من الاب الى الابن أو احد أهله ، وانما هو ينتقل الى أول مولود من الاشراف ولد فى أثناء حكمه ، وأن من عاداتهم عند الاحتفال ببيعة الملك أن يرفعوا اليه قائمة بأسماء نساء الاشراف الحوامل ، فيعين لكل منهن من يخدمها ويراقب وضعها ، ليعلموا السابقة الى الوضع وهل وضعت غلاما أو جارية ، فاذا كان غلاما أمر الملك بمن يعتنى بتربيته واعداده للملك ، كما يربى ولاة العهد اليوم (١)

وكان لملوكهم القاب ذكرنا أمثلة منها بجانب أسمائهم ، مثل يثيع وريام وصديق فى الدولة المعينية ، وبيين وينوف ونار فى الدولة السبأية ، مثل ألقاب خلفاء المسلمين فى صدر دولتهم كالفاروق والصديق والولى ، والقاب العباسيين كالمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم

وقد ضرب اليمنيون نقودا نقشوا عليها صور الملوك وأسماءهم وأسماء المدن التى ضربت فيها بالحرف المسند ، وزينوها برموز سياسية أو اجتماعية كصورة البومة أو الصقر أو رأس الثور رمز الزراعة والفلاحة ، أو صورة الهلال وهو رمز دينى عندهم . وبجانب تلك الرموز كتابة بالقلم المسند كالخراطيش . ومن هذه النقود مجموعة حسنة فى المتحف الادبى فى فينا (٢)

ويؤخذ من صورهم على النقود التى وصلت الينا ، أن ملوك اليمن كانوا يضفرون شعورهم جدائل يرسلونها على أقفيتهم أو على جانبى رؤوسهم أو خديهم ، ويظهر أنهم لم يكونوا يرسلون لحاهم ولا شواربهم ، لاننا لم نجد

---

(١) Strabon, III, 360

(٢) Müller, Sudar. 67-77

لها صورة على النقود ولا غيرها من الصور التى اكتشفوها فى اليمن حتى الآن . فهم يشبهون المصريين أو الاثيوبيين من هـذا القبيل ، اكثر مما يشبهون الاشوريين وتلك الآثار من بقايا الدولة السبأية أو الحميرية دون المعينية ، وذلك يؤيد قولنا أن أصل السبأيين من الحبشة

وكانوا يركبون الافراس أو المركبات تجرها الخيول أو الافيال ، ولا سيما بعد اختلاطهم بالاحباش على عهد الدولة الحميرية. وقد ذكر ثيوفانس خبر الوفد الذى ارسله جوستن قيصر القسطنطينية فى أوائل القرن السادس للميلاد الى ملك حمير ، ورئيس الوفد اسمه يوليانوس ، قال انه رأى الملك واقفا على مركبة يجرها أربعة أفيال ، وليس عليه من الالبسة الا مئزر محوك بالذهب حول حقويه ، وأساور ثمينة فى ذراعيه يحمل بيده ترسا ورمحين ، وحوله رجال من حاشيته وعليهم الاسلحة يتغنون باطرائه وتفخيمه . فلما وصل السفير وقدم له كتاب القيصر ، تناوله الملك وقبله ثم قبل السفير نفسه وقبل الهدايا التى حملها ، وفحوى الكتاب أن يرسل رجاله لدفع الفرس عن حدود بلاده ، ويحفظ طريق التجارة مفتوحا لتجار الاسكندرية كما تقدم ، فوعد السفير انه فاعل ذلك (١)

الامة

كانت الامة فى دول اليمن مؤلفة من أربع طبقات أو طوائف : (١) الجند المسلح لحفظ النظام وحماية القلاع وحراسة القوافل : (٢) الفلاحون لزراعة الارض واستغلالها ، (٣) الصناع ، (٤) التجار . ولكل طائفة حدود لا تتعداها ولا ينتقل أحد منها الى سواها

وذكر استرابون ضربا من الاشتراكية عند أولئك العرب غريبا فى بابه ، فبعد أن أورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها ، وان رئيسها أكبر رجالها سنا ، قال : « والزواج مشترك عندهم .. يتزوج الاخوة امرأة واحدة ، فمن دخل منهم اليها أولا ترك عصاه بالباب . والليل خاص بأكبرهم وهو شيخهم ، وقد يأتون أمهاتهم . ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت. كان لاحد ملوك العرب ابنة بارعة فى الجمال لها ١٥ اخا كل واحد منهم يهواها ، حتى ملتهم واحتالت على منعهم بعصى اصطنعتها تشبه عصيهم ، وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت اذا خرج أحدهم من عندها حمل عصاه ومضى ، فتضع هى مكانها العصا التى اصطنعتها على مثالها ، فيتوهم سائر

---

(١) Sharpe. II. 345

الاخوة انه لا يزال عندها . وقد يجيء أحدهم يتفقد الباب ولما يرى العصا بجانبه يرجع ، فتبدل العصا الاولى بعصا مثل عصاه وهكذا . فاتفق مرة أن الاخوة كانوا جميعا فى ساحة ، ورأى أحدهم بباب اخته عصا ، وليس من اخونه أحد غائبا ، فظن فيها السوء فشكاها الى ابيها ، ولما اطلع على عذرها برأها » . هذه حكاية استرابون ، ولم نذكرها الا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة

٢ ـ الصناعة والزراعة والتعدين

١ ـ الصناعة

ليست جزيرة العرب بلدا صناعيا ، وانما صناعتها تحضير بعض أصناف التجارة : كالبخور ، واللبان ، والطيوب ، وغيرها ، وكان ذلك مشهورا عنها بين الامم القديمة لايشاركها فيه أحد ، قال هيرودوتس : « وبلاد العرب فيها وحدها البخور ، والمر ، والقرفة ، والدار صينى ، واللادن ، والعرب يجنون كل هذه الاشياء بتعب جزيل ، الا المر . ولاجتناء البخور يحرقون تحت الاشجار التى تولده صمغا يسمى ميعة ، يأتى به الفينيقيون الى الاغارقة ، فيحرقون هذا الصمغ تنفيرا لنوع من الحيات الطيارة التى تأوى الى تلك الاشجار ولا تذهب منها الا بدخان الميعة . أما القرفة فحين يذهبون لجنيها يغطون أبدانهم ووجوههم الا الحدق بجلود الثيران والماعز ، والقرفة تنبت فى بحيرة قليلة المياه تسرح حولها حيوانات كالخفافيش تصيح صياحا هائلا وهى شديدة الاذى ، فيتقى العرب اذاها بهذه الجلود ريثما يجنون القرفة . وأما الدار صينى فيجنى بطريقة أعجب من الاولى ، والعرب انفسهم لا يعرفون من أين يؤتى به . ويزعم البعض انه ينبت فى البلاد التى تربى بها باخوس ، وأن طيورا تحمل عيدان الدار صينى لتبنى بها أعشاشها مع الطين ، فى جبال وعرة بعيدة عن المدن لا يستطيع الانسان الوصول اليها ، فالعرب يقال انهم يحتالون فى الحصول على هذه العيدان بقطع من لحوم البقر اوالحمير ، يضعونها فى أقرب مكان من العش ، فيأتى الطير ويحملها الى فراخه ، وحالما يضعها فى العش تثقله فيسقط ، فيتناول العرب عيدانه ويتجرون بها . أما اللاذن فطريقة جنيه أعجب من هذه ، لانهم يجدونه فى لحى التيوس والاعناز كالعفن الذى يتولد على الخشب ، فيدخلونه فى تركيب طيوب كثيرة ، والعرب يتطيبون باللاذن خصوصا . وبلاد العرب زكية الرائحة حيثما سرت . وفيها نوعان من الغنم : احدهما ذيله يزيد طوله على ثلاثة أذرع ،

---

(١) Strabon, III. 389

«اذا أرسلته انسحبت وراء الغنم وتقرح ، والنوع الآخرعرضذيله ذراع» (١)

٢ ـ الزراعة

ومن قبيل الاعمال الصناعية أيضا الزراعة ، ومن يجوب بلاد العرب حتى يأتى حيث كانت مدائن معين وسبأ وحمير وغيرها من الدول القديمة ، لايرى الا رمالا محرقة وجبالا جرداء ، فيستغرب ما يسمعه عن ثروة تلك الامم وسعة سلطانها. والحقيقة ان تلك البادية المحرقة كانت على عهد ذلك التمدن بساتين وغياضا ، فيها الاغراس من الاشجار والرياحين والحنطة والازهار . وكانت الزراعة فى رقى حسن ، مع مشقة الرى فى بلاد لا نيل فيها ولا فرات ، وانما هى تسقى من السيول فى الشتاء ، فاذا أقبل الصيف شحت المياه ويبس الزرع ، فبلغ من رغبتهم فى العمارة وعلو همتهم انهم انشأوا سدودا كالجبال ، يحجزون بها المياه فى الاودية ، حتى ترتفع ويسقوا بها المرتفعات ، يصرفون الماء اليها من نوافذ حسب الحاجة ، كما يفعلون بخزانات هذه الايام . والعرب اول من انشأ الخزانات ــ وهى السدود ــ وأعظمها سد مأرب ، وسنذكرها فى الكلام على العمارة

وبلاد سبأ ذكر استرابون أنها أخصب بلاد العرب ، وذكر من محصولاتها المر ، والبخور ، والقرنفل ، والبلسم ، وسائر العطريات ، فضلا عن النخيل والغاب .. ووصف الهمدانى وادى ضهر باليمن ــ وقد شاهده شهادة عين ــ فذكر فيه نهرا عظيما يسقى جانبى الوادى وعليهما من الاعناب نحو عشرين نوعا ، قال : « وفيه أصناف العضاه من الخوخ الحميرى والفارسى والخلاسى والتين والبلس والكمثرى التى ليس فى الارض مثلها ، يقول ذلك من يفد من صنعاء من الغرباء ، والاجاص والبرقوق والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والرمان »

٣ ـ التعدين

ومن قبيل الصناعة أيضا التعدين ، أى استخراج المعادن من بطن الارض. وقد اشتهرت بلاد العرب بمعادنها وجواهرها عند القدماء ، وان ظهر ذلك غريبا الآن لتقلب الاحوال وتحول الازمان ، ولكن التاريخ أصدق شاهد على ما كان فى جزيرة العرب من الثروة فى جوفها ، فضلا عن سطحها . كان فيها كثير من مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، وكان ذلك من أهم

(١) هيرودوتس ٢٤٠ ــ ٢٤٢

أسباب طمع الفاتحين فيها فى ذلك العهد ، وقد شبهها بعضهم بكلفورنيا هذا الزمان لكثرة مناجمها . وأقدم هذه المناجم فى بلاد مديان ، ولها شهرة واسعة فى التاريخ القديم ، حتى ألف بعضهم كتبا خاصة فى معادنها وذهبها وآثارها ، وذكروا كثيرا من آثار هذه المناجم ، واكتشفوا مدنا كانت آهلة لم يبق غير اطلالها (١) ❋

وذكر الهمدانى فى صفة جزيرة العرب ، وياقوت فى معجم البلدان — وغيرهما كثيرا من مناجم الذهب ، بعضها فى اليمن والبعض الآخر فى اليمامة أو تهامة أو البحرين . منها معدن (أى منجم) نحب فى ديار بنى كلاب ، ومنجم حليت فى تلك الديار أيضا ، ومعدن بيش فى مخاليف اليمن ، ومعدن قفاعة فى اليمن ، ناهيك بذهب خولان الوارد ذكره فى التوراة باسم حويلة

وفى اليمامة كثير من المعادن خصص لها الهمدانى فصلا سماه معادن اليمامة وديار ربيعة ، وهى : معدن الحسن — أو الاحسن — هو معدن ذهب غزير ، ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير أيضا ، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب ، ومعدن الثنية — ثنية ابن عصام الباهلى ، ومعدن العوسجة من أرض غنى فويق المغيرا ببطن السرداح ، ثم معدن شمام للفضة والصفر ، ومعدن تياس ، ومعدن العقيق ، ومعدن المحجة بين العمق وبين أفيعية ، ومعدن بيشة ، ومعدن الهجيرة ، ومعدن بنى سليم ، فهذه معادن نجد (٢) . وقول العرب « معدن » كذا يراد به معدن الذهب ، الا اذا عرفوه بالفضة أو الصفر (أى النحاس) أو غيرهما

وفى بلاد العرب — فضلا عن مناجم الذهب — مناجم الجواهر (المعادن) الاخرى ، كمعدن الفضة فى الرضراض لا مثيل له ، ومعادن للحديد غير معمولة فى نقم وعمدان ، وفيها فصوص البقران ، ويبلغ المثلث منها مالا كثيرا ، وهو أن يكون وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود . والبقران ألوان ، ومعدنه بجبل انس والسعوانية — من سعوان واد جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ، ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد • والجمش فى شرق همدان ، والبلور يوجد فى مواضع منها • والمسنى الذى يعمل منه نصب (أيدى) السكاكين يوجد فى مواضع منها . والعقيق الاحمر والاصفر . وبها الجزع الموشى والمسير ، منه النقمى والسعوانى والضهرى والخولانى والجرتى . والشزب يعمل منه الالواح وصفائح وقوائم سيوف ونصف سكاكين ومداهن وغير ذلك . وليس سواه

---

(١) Burton, Mines, 88 & 134

(❋) هذا التشبيه غريب فى العصر الذى ألف بيرتون كتابه فيه (أوائل القرن العشرين) • ولم يكن أحد يعلم اذ ذاك أن فى جزيرة العرب من البترول ما يجعلها تشبه كاليفورنيا

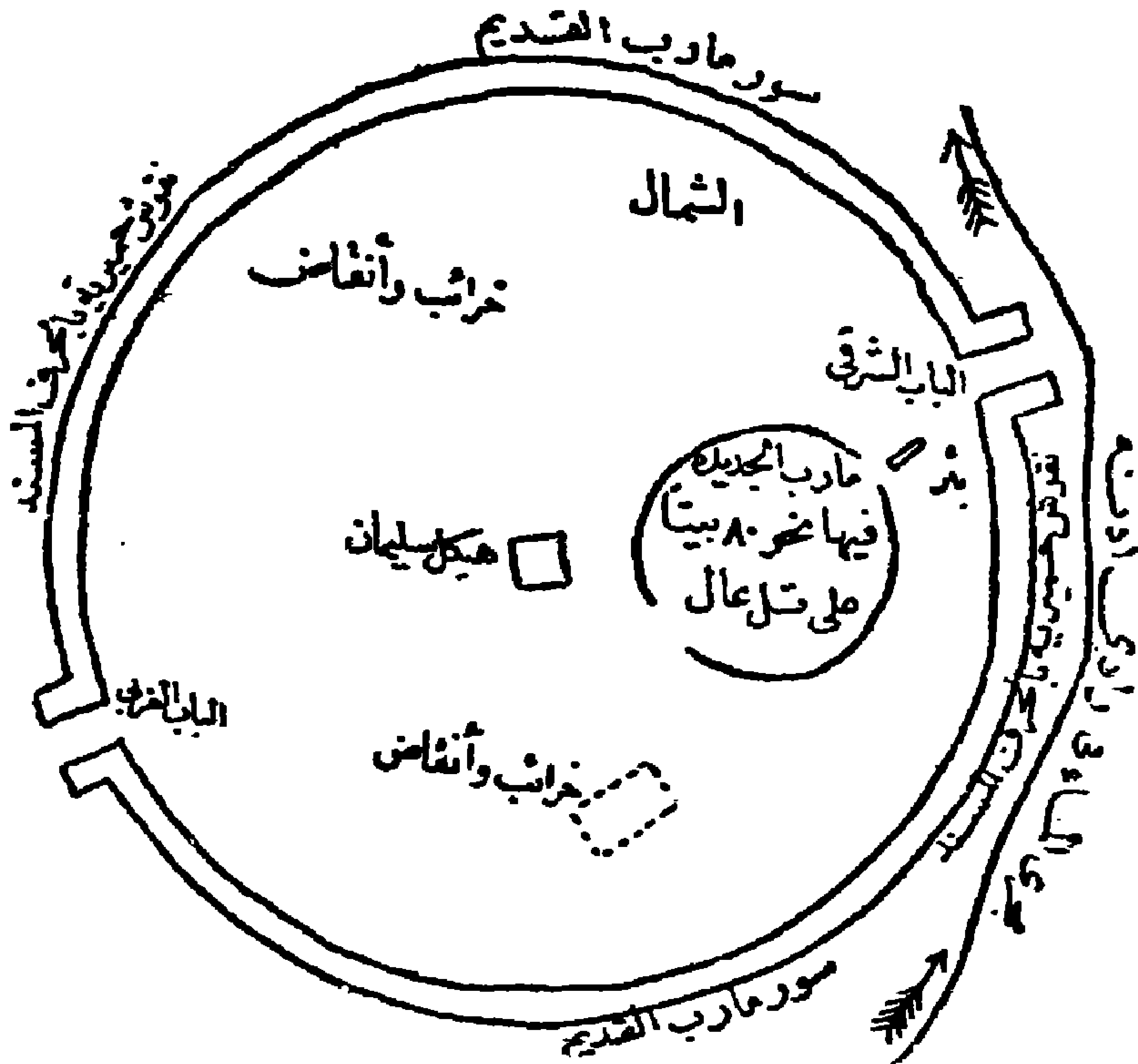
(٢) الهمدانى ١٥٣

الا فى بلد الهند ، والهندى بعرق واحد (١) . فضلا عن مغـــاوص اللؤلؤ فى البحرين وهى أشهر من ان تذكر (*)

٣ ــ العمارة

مدن اليمن

أنشأت العرب باليمن وغيرها مدنا أكثرها اندثر ولم يبق الا خبره ، مثل مأرب ومعين وبراقش وظفار وشبوة وناعط وبينون وصنعاء وغيرها ، وقد تقدم ذكر بعضها . وأصل العمارة فى مدن اليمن والقصور والمحافد ، وهى



الخريطة الثالثة ــ مدينة مارب أو سبا بعد خرابها

أشبه بالقلاع أو الهياكل يقيم فيها الاذواء كما تقدم . وربما احتوت المدينة الكبيرة على عدة قصـــور وهياكل فخمة البناء كثيرة الزينة . وقد أطرى استرابون زخرف تلك القصور وقال انها تشبه بشكلها القصور المصرية (٢) وذكر بلينيوس أن فى مدينتى ناجية وتمناء باليمن ٦٥ هيكلا ، وفى شبوة قصبة حضرموت ٦٠ هيكلا (٣)

مأرب : وتسمى أيضا « سبأ » ، هى أشهر مدائن اليمن . ويلوح لنا أن

---

(١) الهمدانى ٢٠٢

(*) أنظر : السيد محمود شكرى الالوسى : بلوغ الارب فى معرفة أحـــوال العرب (ط ٢ القاهرة ١٩٢٤) جـ ١ ص ٢٠٤

(٢) Strabon, III. 630 (٣) Glaser, Geo. II. 88

لفظها آرامى الاصل ، مركب من « ماء » و « راب » ، اى الماء الكثير او السيل الكبير . ويؤخذ مما عثر عليه من أنقاضها أنها كانت مستديرة الشكل ، قطرها نحو كيلو متر ، يحدق بها سور له بابان ، أحدهمـا شرقى والآخر غربى ، وبجانب الباب الغربى كتابة تفسيرها أنه من بناء يثعمر بيين بن سمهعلى ينوف مكرب سبأ (١) ، وفى وسطها آثار هيكل يسميه أهل تلك الناحية الآن هيكل سليمان

وقد قال الطمحان يذكر مأرب :

أما ترى مأربا ما كان احصنه   وما حواليه من سـور وبنيان

وبذلك اشارة الى سورها المنيع . وكان السيل فى وادى اذنة يجرى فى شرقيها (كما ترى فى الخريطة الثالثة) ليسقى ما بين يديها وما حولها ، فتصير كأنها فى جنان وغياض . غير ما كان فيها من الابنيـة الضخمة من الرخام ، كقصور سلحين والهجر والقشيب . قال علقمة :

ومنا الذى دانت له الارض كلها   بمأرب يبنى بالرخـام ديارا

وقد شـاهد الهمدانى أنقاض مأرب فى القرن الرابع للهجرة ، فذكر فى الاكليل بين تلك الانقاض أعمدة للعرش ، ولعله يريد قصر سلحين وهو القصر الذى كان يقيم فيه الملك . قال : « انها لا تزال قائمة ، ولو اجتمع جيل على أن يصرعوا واحدة منها لم يقدروا ، لأن كل عمود منها نقبوا له فى الصفا ، ثم ألقم أسفله وصب بينه القطر » . ويسمون قصر سلحين أيضـا قصر بلقيس . وقد افاض الشعراء فى وصف مأرب وآثارها ، قال علقمة :

وقصر سـلحين قد عفـاه   ريب الزمـان الذى يريب
تعوى الثعـاليب فى قراها   ما فى مسـاكينها غريب

وقال تبع :

ومأرب قد نطقت بالرخـام   وفى سقفها الذهب الاحمـر

وقال علقمة :

أو ما ترين وكلّ شيء للبـلا   سلحين خاوية كأن لم تعمر(٢)

ومن مدن اليمن القديمة معين وبراقش وظفار وصنعاء ، وهـذه الاخيرة لا تزال باقية الى الآن . اما معين فقد خربت وغطتها الرمال حتى خفيت عن أهل اليمن انفسـهم ، فكشفها هاليفى كما تقدم فى الكلام عن دولة المعينيين ، وذكرنا ما قيل فيها وفى براقش

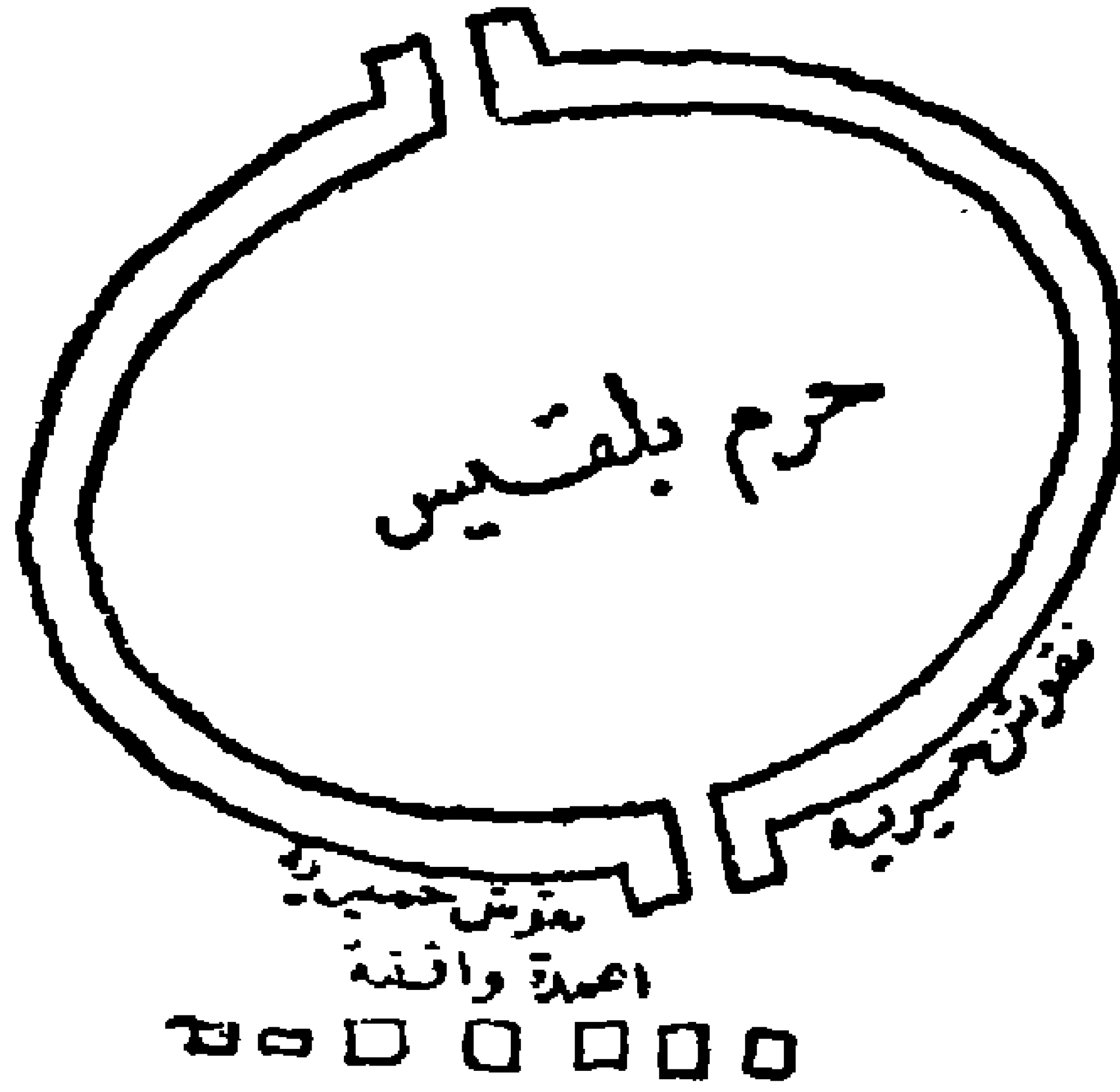
---

(١) Müller. Burg. II. 16   (٢) Müller. Burg. II. 86-88

صنعاء : أما صنعاء فأحدث عواصم اليمن قبل الاسلام ، نزلها الاحباش بعد فتح اليمن وفيها عدة قصور أشهرها غمدان . والمدينة طيبة الهواء تغنى الشعراء فى وصفها واطراء طقسها ورغدها ، قال ابو محمد اليزيدى : (١)

قلت ونفسى جم تأوهها — تصبو الى أهلها واندهها :
سقيا لصنعاء لا أرى بلدا — أوطنه الموطنون يشبهها
خفضا ولينا ولا كبهجتها — ارغد أرض عيشا وأرفهها
كأنها فضة مموهة — أحسن تمويهها مموهها
كم دون صنعاء سملقا جددا — تنبو بمن رامها معوهها
أرض بها العين والظباء معا — فوضى مطافيلها وولهها
كيف بها كيف وهى نازحة — مشبه تيهها ومهمهها

وفى صنعاء بنى أبرهة الحبشى كما مر



الخريطة الرابعة ــ حرم بلقيس

وعلى نصف ساعة من مأرب ــ نحو الشرق الشمالى ــ انقاض بناء عظيم يقال له « حرم بلقيس » ، وهو غير قصر بلقيس . ويظهر من بقاياه انه أهليلجى الشكل ، طوله من الشرق الى الغرب ، ومحيطه ٣٠٠ قدم ، حوله سور له بابان ، شمالى وجنوبى ، وعلى السور نقوش كتابية بالحرف المسند يستدل منها أن المكان كان هيكلا للعبادة ، منها نقش هذا تفسيره : « ان كرب ايل وتاريوهنعم ملك سبأ وريدان بن ذمر على يبين . وهلك أمير بن كرب ايل أعاد بناء هذا الحائط لالمقه (أو للمقه وهو الاله) من أجل تقديس قصر سلحين ومدينة مأرب » ، ونقش آخر بمثل هذا المعنى باسم اليشرح بن سمه على ذرح ملك سبأ ، وآخر باسم تبع كاهن ذات غضرن (٢) ، وعليه نقوش كثيرة غير هذه لا محل لايرادها

(١) ياقوت ٤٢٢ ج ٣   (٢) Müller. Burg. II, 18

٢ ـ قصور اليمن

أما قصور اليمن فهي كثيرة جدا ، ذكر العرب عشرات منها فى أشعارهم ، ووصفوا بعضها وصفا يوهم القارىء لاول وهلة انه بعيد عن الحقيقة ، لما سبق الى أذهان الناس من اعتقاد المبالغة فى اقوال العرب ، ولكنه عند التأمل لايرى فيه غرابة وان دل على فخامة وعظمة لا يعهدها الناس فى العرب قبل الاسلام . وسنعول فى ما ننقله من أخبارها على رجل شاهدها بنفسه ، وقد ثبت صدقه من قرائن كثيرة ، نعنى الهمدانى صاحب « كتاب صفة جزيرة العرب » و « كتاب الاكليل » . وهذا الاخير أجمع كتاب فى وصف محافد اليمن ومساندها ودقائقها ، ولم يعثر العلماء الا على جزء صغير منه عنى المستشرق مولر بنشره والتعليق عليه ، وفيه وصف كثير من الآثار الحميرية وفى جملتها سد مأرب ، وكان الناس يحسبون فى كلامه مبالغة ، حتى ذهب أرنو وهاليفى وجلازر وشاهدوا آثار ذلك السد وبعض أنقاض تلك القصور ، فوجدوا الرجل صادقا فى ما ذكره عنها ، فاعتقدوا صدقه فى سائر ما قاله ، وهو يقول ان أشهر قصور اليمن وأعجبها قصر غمدان

قصر غمدان : هو فى صنعاء ، ذكر الهمدانى وياقوت أن بانيه اليشرح يحصب (١) . فاذا صح قولهما كان بناؤه في القرن الاول للميلاد ، وظل باقيا الى أيام عثمان بن عفان (٢) فى اوائل القرن الاول للهجرة ، فيكون قد عاش نحو ٦٢٠ سنة . وشاهد الهمدانى بقاياه تلا عظيما كالجبل ، وقال فى وصفه انه كان عشرين سقفا ، غرفا بعضها فوق بعض ، اى عشرين طبقة مثل أكبر ابنية العالم المتمدين وأعلاها ، بين كل سقفين عشرة أذرع . وقال ان بانيه لما بلغ غرفته العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة ، وكان يستلقى على فراشه فى الغرفة فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحداة وهو تحت الرخام . وكانت على حروفه (أى أركانه) أربعة تماثيل أسود من نحاس مجوفة ، رجلا الاسد فى الدار وراسه وصدره خارجان من القصر ، وما بين فيه الى مؤخره حركات مدبرة . فاذا هبت الريح فدخلت أجواف الاسود سمع لها زئير كزئير الاسد ، وكان يصبح (أى يوقد) فيها بالقناديل فترى من راس عجيب . وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثنى عشر ذراعا . وكان للغرفة أربعة أبواب ، قبالة : الصبا ، والدبور ، والشمال ، والجنوب ، وعند كل باب منها تمثال من نحاس ، اذا هبت الريح زار . وفيها مقيل من الساج والابنوس . وكان فيها ستور لها أجراس ، اذا ضربته الريح تلك الستور تسمع الاصوات عن بعد . وقال فيه اليشرح شعرا بالحميرية بقى منه هذا البيت :

---

(١) Müller, Burg. I. 57 وياقوت ٨٦١ جـ ٢ (٢) المسعودى ٢٦١ جـ ١

وانى انا القيـــــيل اليــــــشرح حصنك(أى حصنت)غمدان بمبهمت (١)

ومما قيل فى وصف قصر غمدان :

يسمو الى كبد السماء مصعدا عشرين سقفا سـمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمـامة ومن الغمـــام منطـــق ومؤزر
متـــلاحكا بالقطر منه صخره والجزع بين صروحـــه والمرمر

قصر ناعط : ويلى غمدان فى العظمة والشهرة « ناعط » ، وهو محفـد مؤلف من عدة قصور . قال الهمدانى فى وصفه انه مصنعة بيضاء مدورة ، منقطعة فى راس جبل ثنين بهمدان . وضمن قصور ناعط قصر الملكة الكبير الذى يسمى « يعرق » ، ومنها قصر ذى لعوة المكعب بكعاب خارجة فى معازب حجارته ، على هيئة الدرق الصغار . قال : وذرعت فى معزب منه سبعة أذرع الا ثلثا . وبها غير هذا القصر ما يزيد على عشرين قصرا كبارا ، سوى أماكن الحاشية ، وكان عليها سور ملاحك (مبنى) بالصخر المنحوت ، وما فيها قصر الا وتحته كريف للماء (صهريج) مجوف فى الصخر فيبتلع الماء الذى ينزل من السطح ، وفيه الاسطوانات العظيمة طول كل واحدة نيف وعشرين ذراعا ، لا يحضن الواحدة منها الا رجلان . وفيها بقايا مسامير حديد ، قيل انها كانت مراقى الى رؤوسها ، ..نها كان ينفث عليها الشمع اذا أرادوا الصرخة (أى الاستنجاد) فتنظر النار من جبل سفيان ومن جبل حضـــور وراس مدع وغيرها . وفيها يقول الهمدانى ، على حد الخبرة ورأى العين ، ويصف ما شاهده عليها من التماثيل والصور : (٢)

فمن كان ذا جهـــل بأيام حمـــير وآثارهم فى الأرض فليـأت ناعطا
يجد عمـــدا تعلو القنـا مرمرية وكرسى رخـام حولهـــا وبلائطا
ملاحكهـــا لا ينفـــذ المـــاء بينها ومبهـومة مثـــل القراح خرائطا
على كرف من تحتهـــا ومصـــانع لها بسقوف السطح لبس وعابطا
ترى كل تمثال عليهـــا وصـــورة سباعا ووحشا فى الصفاح خلائطا
بجانب ما تنفض تنظر قابضـــا لاحدى يديه فى الحبـال وباســطا
ومستفعات من عقـــاب واجدل على أرنب هم ذا فـــراخ وقامطا
وسرب ظبـــــاء قد نهلن لمختف وغضف ضراء قد تعلقن باســــطا
وذا عقـــدة بين الجيـــاد مواكبا وســـامى هاد للركاب مواخـــطا

ويظهر أن ناعطا اقدم عهدا من غمدان ، لأن علهان نهفان أدخل فيه اصلاحا — وهو من ملوك حمير فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد — فهل تقل هــذه

---

(١) Müller, Burg. 15-18 (٢) Müller, Sudar, 80

الآثار كثيرا عن بقايا تدمر واثينا والاقصر وبعلبك وغيرها من مفاخر الدول القديمة ؟

ريدة أو تلفم (*) : قال الهمدانى : « قصر ريدة من أقدم قصور اليمن ، وهو قصر تلفم . وليس من قصور اليمن قصر فى أصل جبله بئر سوى تلفم ، وماؤها أعذب مياه اليمن واغزرها » . قال : « وحدثنى بعض أهله انه وجد حجرا فى تلفم مكتوب عليه : بناه يريم » . فاذا صح ذلك كان هذا القصر من بناء أواسط القرن الاول قبل الميلاد ، لأن يريم بن علهان . وأصبح هذا القصر بعد الاسلام دارا للعلويين

مدر : هو محفد مؤلف من ١٤ قصرا ، شاهدها الهمدانى وقال فى وصفها : « منها ما هو مشعب ومنها ما هو عامر . أما قصرها العامر فقد دخلته ، وهو بوجوه من الحجارة البلوطية خارجه ومثله فى داخله ، وقد أجرى عليه الماشق فلست ترى عليها فصلا ما بين الحجرين ، حتى لو كان داخله كريفا للماء ما خان ولا نفذ . وفيها اعداد تلك القصور كرف للماء ، بأعمدة حجارة طوال ، مضجعة على أعمدة قيام ، بضعة عشر ذراعا مربعة . وفى مسجد مدر أساطين مما نزع من تلك القصور ، ليس فى المسجد الحرام مثلها ، هى أطول منها واكثف ، وأحسن نجرا ، كأنها مفرغة فى قالب . وقبالة قصر الملك منها بلاطة مستقبلة للشرق ، عليها صورة الشمس والقمر يقابلانه اذا خرج »

صرواح (**) : هو قصر عظيم من أقدم أبنية اليمن ، ما بين صنعاء ومأرب . ذهب قديما ، وله ذكر فى أشعار العرب ، قال علقمة :

من يأمن الحدثان بعـ ـد ملوك صرواح ومأرب

وقال عمرو بن النعمان بن سعد بن خولان :

أبونا الذى كانت بصرواح داره — وفى جبلى نعمان عز تمكنا
ونحن ورثنا عز خولان ذى الندى — مآثر عز مثلها ــ لم يدمنا
فأورثها سعد بن خولان جدنا — بنيه فضافوها دهورا وأزمنا (١)

وقصور اليمن كثيرة ، وقد جمع أبو علكم المرانى أهمها فى قصيدة قال منها :

نحن المقاول والاملاك قد علمت — أهل المواشى بأنا اهل غمدانا
واننا رب بينون وأضرعة — والشيد من هكر ناهيك بنيانا
براقش ومعين نحن عامرها — ونحن أرباب صرواح وروثانا
وناعط نحن شيدنا مخالفها — وقصرها وقرى تشق ونوفانا
وتلفم البون والقصرين من خمر — وتنعما وقرى شرح ودعانا
والهندتين بنى ذو التاج من بتع — وقصر ذى الورد تاما رأس ملحانا

(*) يكتب أيضا تلعم بالعين . أنظر : الالوسى ج ١ ص ٢٠٥
(**) يكتب أيضا صرواخ بالخاء
(١) Müller, Burg. I. 66

وصبيح نحو ونجرا فوق قبتها — بنى لنا وشباما بيت اقيانا
وفى ريام وفى النجدين من مدر — على المنار وحف الشيد إيوانا
وفى ظفار بنت آباؤنا غرفا — فى كوكبان وقصر الملك ريدانا
وقصر بينون علاه وشيده — ذوالفخر عمرو وسوى قصر غمدانا
وقصر احور اس القيل ذو يزن — وقصر ذى فائش ارباب قد كانا
وقصر سلحين علاه وشيده — كهلان والدنا احبب بكهلانا
فأصبحت مأرب للريح مخترقا — بعد القصور وبعد الشيد ميدانا
ساق المياه الى سد بمأربنا — للجنتين مغانينا وبغيانا (١)

واكثر هذه القصور لها أوصاف أغضينا عنها خوف التطويل . غير القصور خارج بلاد اليمن ، كقصر الشموس فى اليمامة ، والبتل التى كان يبنيها طسم وجديس وقد تقدم ذكرها فى كلامنا عن هاتين الامتين . ناهيك بما خلفوه من أماكن الحج والنسك والكهانة ، مثل كعبة نجران للنصارى ، وريام بيت نسك كان يحج اليه الناس فى رأس جبل اتوة من همدان ، ينسب الى ريام بن نهفان وحوله مواضع كانت الوفود تحل فيها . وقدام باب القصر حائط فيه بلاطة عليها صور الشمس والهلال ، هى من بقايا الصائبة كما سيأتى فى الكلام عن الدين

هذا كله غير القلاع والمصانع ، وبعضها لا يزال قائما الى الآن ، منها مصنعة (اى مبنى) وحاظة واسمها سباع تشابه ناعط فى القصور والكرف (اى الصهاريج) كريفها اسمه درداع مساحته ٦٠٠ ذراع فى مثلها ، وقلعة خدد معاندة لقلعة وحاظة بينهما ساعة من نهار ، وفيها قصر عظيم يقصر عنه الوصف . وللقلعة طريقان ، على باب كل طريق ماء : فالطريق الجنوبى عليه كريف يسمى الوفيت ، منقور فى الصخر الاسود ، عمقه فى الارض خمسون ذراعا وعرضه عشرون ، وطوله خمسون ، محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه . والماء الثانى من شمال الحصن على باب الحصن الثانى ، فى جوبة من صفا كالبئر مطوى بالبلاط ، ودرج ينزل فيه من رأس الحصن بالسرج فى الليل والنهار على مسيرة ساعة حتى يؤتى الى الماء ، ولا يعلم من يكون على باب البئرمن فوق (٢)

دع عنك ما فى اليمن من آثار الهمة العالية والمهارة فى البناء ، من قطع الجبال كما قطعوا باب عدن ، وهو شق فى جبل محيط بموضع عدن ، فى ساحل لم يكن له طريق الى البر الا للرجل الواحد ، اذا ركب ظهر الجبل ، فقطعوا من الجبل بابا فى عرض الجبل ، حتى سلكته الدواب والحمائل وغيرها . ومثله قطع بينون ، جبل قطعه بعض ملوك حمير ، حتى أخرج فيه

(١) Müller, Sudar, 87 (٢) الهمدانى ٧٨ جـ ١

سبيلا من بلد وراءه الى أرض ينون . فهو أشبه بما ينقره أهل هذا التمدن من الانفاق فى الجبال ، لمرور المياه أو قطر السكك الحديدية . ومن هـــذا القبيل حصن غراب ، وهو بقية قلعة منحوتة فى الصخر عليها نقش بالمسند لفاتح اليمن الحبشى ، ذكر فيه خبر فتحه كما تقدم . واكتشف المستشرق هريس فى هران — قرب دامار — صهاريج من الماء لها آبار عميقة ، كانوا يختزنون الماء فيها للجنود أثناء الحصار ، وهى التى يسميها العرب الكرف وقد ذكرنا امثالها فى ناعط وغيرها

الاسداد

ومن أدلة العمارة فى بلاد اليمن الاسداد ، وهى جـــدران ضخمة كانوا يقيمونها فى عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه ، لرى الارضين المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث فى بناء الخزانات . وانما عمد العرب الى بناء الاسداد لقلة المياه فى بلادهم ، مع رغبتهم فى احياء زراعتها . فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسد ، فتكاثرت الاسداد بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . وذكر الهمدانى فى يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا ، والى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به ، أو بالاضافة الى بلده . فمن كبار هذه الاسداد : قصعان ، وربوان (وهو سد قتاب) وشحران ، وطمحان ، وسد عباد ، وسد لحج (وهو سد عرايس) وسد سحر ، وسد ذى شهال ، وسد ذى رعين ، وسد نقاطة (عند قرية ذى ربيع) وسد نضار وهران ، وسد الشعبابى ، وسد المليكى ، وسد النواسى ، وســـد المهاد ، وباقيها لطاف . وأشهر أسداد اليمن « العرم » ، وهو سد مأرب الشهير وسنعود اليه . وسد الخانق بصعدة ، بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذى يزن فى القرن السادس للميلاد ، ومظهره فى الخنفرين من رحبان ، وقد أخربه ابراهيم ابن موسى العلوى بعد هدم صعدة . وسد ريعان لابن ذى مأذن ، وسد سيان . واسداد بلاد عنس ، منها : سد خيرة ، وسد بيت كلاب فى ظـاهر همدان ، وآخر فى ظاهر دعان (١) وسد شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها (٢)

ولم يقتصر بناء العرب للأسداد على ما بنوه فى جزيرة العرب ، ففى مكران وبلوخستان فى عدوة خليج فارس الشرقية آثار أسداد كثيرة لا يعرف عنها اهل تلك الناحية شيئا ، فلعل بعض العرب نزحوا الى تلك البقاع قديما وابتنوا فيها تلك الاسداد

---

(١) Müller, Sudar, 88 (٢) ياقوت ٢٤٩ ج ٢

سد مأرب أو سد العرم

هو أعظم أسداد بلاد العرب واشهرها ، وقد كثر ذكره فى أخبار العرب واشعارهم على سبيل العبرة لما أصاب مأرب بانفجاره ، واليه أشار القرآن فى سبأ بقوله :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »

ذلك أقدم ما لدينا من خبر هذا السد ، واختلف المسلمون فى تفسيره التاريخى ، ودخل خبره كثير من المبالغات والخرافات . قال بعضهم ان بانيه سبأ بن يشجب ، وقال غيرهم بناه لقمان بن عاد ، وجعله فرسخا فى فرسخ ، وجعل له ثلاثين مثقبا (أى فتحة) وجعل بناءه بالصخر والقار ، يحبس سيول العيون والامطار حتى يصرفوها من خروق فى ذلك السد ، على مقدار ما يحتاجون اليه فى سقيهم . قالوا : ومكث كذلك ما شاء الله أيام حمير ، فلما انحل نظام مملكتهم وتقلص ظلهم وذهب الحفظة القائمون بأمر السد ، انذروا بخرابه على عهد عمرو بن مزيقياء ملكهم . زعموا أن كاهنة اسمها طريفة انذرتهم بذلك فى حديث طويل (١) لا فائدة من ذكره ، جاء فى جملته قصة جرذ رأوها تنقب فى السد فخافوا انفجاره

واختلفوا فى وقت حدوث ذلك السيل ، قال حمزة الاصفهانى انه حدث قبل الاسلام بأربعمائة سنة (٢) أى فى القرن الثالث للميلاد . وذكر ياقوت انه وقع فى ملك حبشان ، ولعله يريد الاحباش ، لانهم لما فتحوا اليمن فى القرن السادس خربوا كثيرا من قصورها وأبنيتها (٣) أو لعله أراد حسان بتصحيف اللفظ كما أراد ابن خلدون ، فقد ذكر أن السد تهدم فى أيام حسان بن تبان اسعد (فى القرن الخامس للميلاد) وقال آخرون غير ذلك مما يطول بنا ايراده (*)

---

(١) ياقوت ٣٨٣ ج ٤ (٢) حمزة ١٢٦

(٣) الاغانى ٧٣ ص ١٦

(*) ذكرنا فيما سلف من تعليقاتنا بعض التواريخ الثابتة الخاصة بانشاء سلسلة السدود التى تعرف بسد مأرب هذا

رواية الهمداني عن سد مأرب

وأوثق روايات العرب عن سد مأرب ما قاله الهمداني في كتاب الاكليل، وقد شاهد أنقاضه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة، وكان يقرأ المسند ويفهمه، فوصف تلك الانقاض مع تطبيقها على قول القرآن. وهذان القولان أصدق ما جاء عن خبر هذا السد، وأكثر مطابقة لما وجده المنقبون الذين اكتشفوا آثار ذلك الخزان في القرن الماضي ـ قال الهمداني: (١)

« قال الله تعالى: (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وهي (أي سبأ) كثيرة العجائب، والجنتان عن يمين السد ويساره. وهما اليوم غامرتان، والغامر العافي، وانما عفتا لما اندحق السد فارتفع عن أيدي السيول. ووجدت في احداهما غريق أراك، وفي أصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السواقي، فقال بعض من كان معي: لا أظنه الا من بقايا نخل الجنتين، وما أظنه بقي من العصر القديم. أما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضباع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالامس. ورأيت بناء أحد الصدفين، وهو الذي يخرج منه الماء، قائما بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير الا ان شاء الله. وانما وقع الكسر في العرم، وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمسة عشر ذراعا. قال تبارك وتعالى: « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل » قيل الخمط الاراك، والاثل الطرفاء، والسدر المعروف وهو العلب وبها من الاراك ما ليس ببلد. ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الصفة. وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن، من (عروش وجانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان) والوادي اسمه (اذنة)، وفي هذا السد يقول الاعشى:

كفى ذلك للمؤتسي أسوة	ومأرب قفى عليها العرم
رخام بناه له حمير	اذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث وأعنابهم	على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة	فجار بهم جارف منهزم
فطار القول وقيالها	ببهماء فيها سراب يطم

وكان العرم مسندا الى حائط ما بين عضاد بالمدخر بمعاذيب من الصخر عظام ملحمة ملس الاساس بالقطر » انتهى كلام الهمداني

(١) Müller, Burg. II. 83

وظل الناس مع ذلك فى شك من أمر هذا السد ، حتى تمكن المستشرق الفرنسى ارنو من الوصول الى مأرب سنة ١٨٤٣ ، وشاهد آثاره ورسم له خريطة نشرت فى المجلة الاسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٤ ، وزار مأرب بعده هاليفى وجلازر ووافقاه فى قوله وصادقا على وصفه ، وهو يطابق ما قاله الهمدانى من أكثر الوجوه ، وعثروا فى أثناء ذلك على نقوش كتابية فى خرائب السد وغيره تحققوا بها خبره . وأكثرهم اشتغالا فى هذا السبيل جلازر ، وبين الاساطير التى وقف عليها اثنتان جاء فيهما خبر ترميم السد فى زمن الاحباش فى القرن السادس للميلاد . فيدل ذلك على انه ظل قائما الى قرب ظهور الاسلام . ولعل السبب فى نسبة بنائه وتهدمه الى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين كثرة تصدعه وترميمه ، فكانوا يعدون كل تصدع تهدما وكل ترميم بناء

وبعد ما قدمناه من أقوال المؤرخين والمنقبين بشأنه يحسن بنا الاتيان على أصل وضعه وما هو عليه الآن ، ونوضح ذلك بالخريطة الخامسة

اصل وضع سد مارب

فى الجنوب الغربى من مأرب سلسلة جبال هى شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات من الاميال نحو الشرق الشمالى . وبين هذه الجبال أودية تصب فى واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى ، وهو أعظم أودية الشرق تمييزا له عن ميزاب مور ، أعظم أودية الغرب المتشعبة من جبل السراة المذكور . وشعاب الميزاب الشرقى كثيرة ، تتجه فى مصابها ومنحدراتها نحو الشرقى الشمالى . وأشهر جبالها ومواضعها فى ناحية رداع العرش وردمان وقرن ، والجبال المشرفة على سويق ، وفى ناحية ذمار بلد عنس جميعا ، وهو مخلاف واسع وبه بينون وهكر ، وفيها المحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا ، وجبل اسبيل ورجمة ، وجبال بنى وابش من مراد وغيرها ، ومخلاف ذى جرة وجهران وهران ، ومساقط بلد خولان من جنوبيه وما تيامن من القحف (١)

فشعاب هذه المواضع وأوديتها ، اذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا الى وادى اذنة ، وهو يعلو نحو ١١٠٠ متر عن سطح البحر ، فتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى ، حتى تنتهى الى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق ، عبرنا عن أحدهما بالايمن ، وعن الآخر بالايسر ، والمسافة بينهما

(١) الهمدانى ٨٠

الخريطة الخامسة ـ سد مأرب أو سيل العرم كما شاهده الباحثون فى القرن الماضى

ستمائة خطوة (أو ذراع) ويسميهما الهمدانى مأزمى مأرب ، يجرى السيل الاكبر بينهما من الغرب الجنوبى الى الشرقى الشمالى فى واد هو وادى اذنة (انظر الخريطة)

واليمن ــ مثل سائر بلاد العرب ــ ليس فيها أنهر ، وانما يستقى أهلها من السيول التى تجتمع من مياه المطر . فاذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس ، فيذهب معظمها ضياعا فى الرمال فاذا انقضى فصل المطر ظمىء القوم وجفت أغراسهم ، فكانوا اما فى غريق أو فى حريق : قلما ينتفعون حتى فى أيام السيل من استثمار البقاع العالية على منحدرات الجبال . وقد يفيض السيل حتى يسطو على المدن والقرى ، فينالهم من أذاه أكثر مما ينالون من نفعه ، فساقتهم الحاجة الى استنباط الحيلة فى اختزان الماء ورفعه الى سفوح الجبال وتوزيعه على قدر الحاجة . فاختار السبئيون المضيق بين جبلى بلق ، وبنوا فى عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو سد العرم الذى نحن فى صدده ، لرى ما يجاور مدينتهم (مأرب) من السهول أو سفوح الجبال

والجبلان المذكوران بعد أن يتقاربا عند بلق ينفرجان ويتسع الوادى بينهما ، وعلى ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقى فى مدينة (مأرب

او سبأ) فى الجانب الغربى أو الايسر من وادى اذنة ، فاذا جرى السيل حاذى بابها الشرقى (راجع الخريطة الثالثة) . وبين المضيق والمدينة متسع من الارض تبلغ مساحة ما يحيط به من سفوح الجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع (١) كانت جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضا وبساتين على سفحى الجبلين ، وهى المعبر عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنة اليمنى والجنة اليسرى

رسمه وكيف ينصرف الماء منه

والسد المشار اليه عبارة عن حائط ضخم أقاموه فى عرض الوادى ، على نحو ١٥٠ ذراعا (أو خطوة) نحو الشمال الشرقى من المضيق وسموه « العرم » ، وهو سد أصم طوله من الشرق الى الغرب نحو ثمانمائة ذراع ، وعلوه بضعة عشر ذراعا ، وعرضه ١٥٠ ذراعا . لايزال ثلثه الغربى أو الايمن باقيا الى الآن كما ترى فى الخريطة الخامسة (ج د ف هـ) وأما الثلثان الباقيان فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما ، وعجزت الدولة عن ترميمهما وجرفت السيول انقاضهما . وقد نقطنا حديهما بالخارطة ليظهر امتداد السد على طوله ، كما كان فى أصله بعرض الوادى . ويظهر مما شاهدوه فى جزئه الباقى انه مبنى بالتراب والحجارة ، ينتهى أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة ، تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه . ولو قطعت ذلك الحائط أو السور قطعا عرضيا لكان شكل مقطوعه على هذه الصورة :



فالعرم يقف فى طريق السيل كالجبل المستعرض ويصده عن الجرى ، فتجتمع مياهه وترتفع مثل ارتفاعها فى خزان أسوان بالنيل. وينتهى العرم فى طرفيه بمصارف للماء ، يختلف شكلها وأسلوبها عن مصارف خزان اسوان — وذلك ان الذين هندسوه جعلوا طرفيه عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة متينة ، فيها منافذ ينصرف منها الماء الى احدى الجنتين اليمنى أو اليسرى

فأنشأوا عند قاعدة الجبل الايمن (الشرق الجنوبى ، وهو جبل بلق الايمن) بناءين بشكل المخروط المقطوع (١ و ٢) علو كل منهما بضعة عشر ذراعا سموهما الصدفين ، أحدهما (١) قائم على الجبل نفسه والآخر

(١) O. M. O. (1897) 127

(٢) الى يساره ، وبينهما فرجة عرضها خمس اقدام ، وقـاعدة الايمن منهما تعلو قاعدة الايسر ثلاث اقـدام (انظر رسمهما فى طرف الخريطة الى اليسار) والايسر مبنى من حجارة منحوتة يمتد منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعا ينتهى فى العرم نفسه ويندغم فيه . وعلو الجـدار المذكور مثل علو الصدف ومثل علو العرم

وفى جانب كل من الصدفين المذكورين ، عند وجهيهما المتقابلين ، ميزاب يقابل ميزابا فى الصدف الآخر . والميزابان مدرجان ، أى فى قاع كل منهما درجات من حجارة كالسلم ، الدرجة فوق الاخرى . ونظرا لشكل الصدفين المخروطين ، ولما يقتضيه شكل الميزاب السلمى ، اصبحت المسـافة بينهما عند القاعدة أقصر منها عند القمة . وقد مثلنا الميزاب فى الخريطة بشـكل (ع غ) كأنك تنظر اليه بجانب الصدف

ويظهر من وضـع المخروطين أو الصدفين على هـذه الصـورة ، ان اصحاب ذلك السـد كانوا يستخدمون المسافة بينهما مصرفا يسيل منه المـاء الى سفح جبل بلق الايمن فيسقى الجنة اليمنى . وانهم كانوا يقفلون المصرف بعوارض ضخمة من الخشب او الحديد ، تنزل فى الميزابين عرضا ، كل عارضـة فى درجـة ، فتكون العارضة السفلى أقصرها جميعا فوقها عارضة أطول منها فأطول الى العليا وهى أطولها جميعا . والظاهر ان تلك العوارض كانت مصنوعة على شكل تتراكب فيه أو تتداخل ، حتى يتألف منها باب متين يسد المصرف سدا محكما يمنع الماء من الانصراف الا عند الحاجة . فاذا بلغ المـاء فى علوه الى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا ، فيجرى الماء على ذلك العلو الى سفح الجبل فى أقنية معدة لذلك ، حيث توجد احواض لخزن المـاء أو توزيعها فى سفح ذلك الجبل . فلا يزال الماء ينصرف حتى يهبط سطحه الى مساواة العارضـة الثانية فيقف ، فمتى أرادوا ريا آخر نزعوا عارضة اخرى . وهكذا بالتدريج وعلى قدر الحاجة

وفى الطرف الايسر من العرم — وهو الغربى الذى ينتهى بالجنة اليسرى — كالحائط (س ط م) دعوناه السد الايسر ، عرضـه عند قاعدته ١٥ ذراعا ، وطوله نحو ٢٠٠ ذراع ، وبجانبه من اليمين مخروطان أو صـدفان أيمنان (٣ و ٤) أحدهما (٣) متصل بالعرم نفسه والآخر (٤) بينـه وبين السـد الايسر ، فيتكون من ذلك مصرفان (٦ و ٧) مثل المصرف الايمن ، لـكل منهما ميزابان مدرجان متقابلان ، تنزل فيهما العوارض وتنزع حسب الحاجة لصرف الماء الى الجنة اليسرى ، وينتهى العرم من حده الغربى

بحائط منجلى الشكل (د ف) مبنى بحجـارة منحوتة صـلبة لعله الذى يسميه الهمدانى « العضاد »

فكان السيل اذا جرى فى وادى اذنة حتى تجاوز المضيق بين جبلى بلق ، صده العرم عن الجرى فيتعالى ويتحول جانب منه نحو اليسار الى السـد الايسر . فاذا أرادوا رى الجنـة اليمنى رفعوا من العوارض بين الصدفين الايمنين على قدر الحاجة ؛ واذا ارادوا رى الجنة اليسرى صرفوا المـاء من المصرفين (٧ و ٨) بنفس الطريقة ، فيجرى المـاء فى اقنيـة واحواض فى سفح الجبل الايسر حتى يأتى مأرب ، لانها واقعة الى اليسار كما تقدم

من بنى هذا السد .. ومتى ؟

وقد عثر المنقبون فى انقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على بانيه ، أهمها نقشان : أحدهما على الصدف الايمن (١) الملاصق للجنة اليمنى تفسيره : « ان يثعمر بيين بن سمه على ينوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرف رحب لتسهيل الرى » (١) والآخر على الصـدف الآخر (٢) تفسيره : « ان سمه على ينوف بن ذمر على مكرب سبأ اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الرى » . وسمه على هذا هو والد يثعمر المذكور ، وكل منهما بنى صدفا أو حائطا ، وكلاهما من أهل القرن الثـامن قبـل الميـلاد . فهما مؤسسـاه ، ولم يتمكنا من اتمامه فأتمه خلفاؤهما ، وبنى كل منهما جزءا نقش اسمه عليه . فعلى المخروط أو الصدف (٤) فى اليسار نقش قرأوا منه : « كرب ايل بيين بن يثعمر مكرب سبأ بنى ... » ، وعلى جزء آخر من السد اسم : « ذمر على ذرح ملك سـبأ » ، وفى محل آخر اسم : « يدع ايل وتار » ، وعلى السد الايسر مما يلى الجنة اليسرى عدة نقوش بمثل هذا المعنى (٢) مما يدل على أن هذا السـد لم يستأثر ببنائه ملك واحد — تلك هى العادة فى تشييد الابنيـة الـكبيرة فى كل زمان

أما تهدمه فالعرب يقولون انه حدث فجأة فتفرقت قبـائل الازد وغيرها فى جزيرة العرب بسبب ذلك . ويؤخـذ من مجمـل اقوالهم ان ذلك وقع حوالى تاريخ الميـلاد ، اى نحو ظهور دولة حمير (ملوك سـبأ وريدان) وانتقال عاصمة السبأيين الى ظفار . فالظاهر أن السد تصدع حينئذ للمرة الاولى فرمموه ، وظلوا خائفين منه فتحولت عنايتهم الى تعمير ظفار ، وقل

---

(١) Müller, Burg. II. 13 (٢) Müller, Burg. II..15

تمسكهم بالبقاء فى مارب ، فصاروا ينزحون بطونا وأفخاذا لأسباب مختلفة ، منها القحط وغيره ، وأخذت مأرب فى التقهقر ، وكلما انفتق العرم من ناحية رمموه ، الى قبيل الاسلام فتهدم واهملوه

ووفق جلازر فى أثنـــاء زيارته أنقاض ذلك السد الى اكتشاف اثرين ، عليهما كتابة مطولة تتعلق بتهدم السد بعد دخول اليمن فى حوزة الاحباش ، احدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ م ، والآخر سنة ٥٦٥ م ، وهما من أهم ما وقفوا عليه من آثار تلك الدولة ، لما فيهما من الاشـــارات التاريخية والاجتماعية والعلاقات السياسية ، أحدهما كتبه ابرهة الحبشى وهذه خلاصته :

« بنعمة الرحمن الرحيـــم ومسيحه والروح القدس ، ان أبرهة عزيز الاحبـــاش الاكسوميين ، ملك اراحميس زبيمان ، ملك ســـبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم فى نجد وتهامة ، قد نقش هــذا الاثر تذكارا لتغلبه على يزيد بن كبشة ، عامله الذى كان قد ولاه كندة ودىء ، وعينه قائدا ومعه اقيـــال ســـبأ الصحاريين ، وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وصنف ذو خليل ، واليزنيون اقيال معدى كرب بن السميفع وهفان واخوته أبنـــاء الاسلم ، فأنفذ الملك اليه الجراح ذازنبور ، فقتله يزيد وهدم قصر كدار ، وحشد من اطاعه من كندة وحريب وحضرموت ، وفرهجان الذمارى الى عبران . وبلغ الملك الاستصراخ ، فنهض بجنده الاحبـــاش الحميريين الوفا فى شهر ذو القيـــاط من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل أودية سبأ .. فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدى القواد . وهم فى ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف فى شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو ... وبعث الى القبائل بانفاذ الحجارة للأســـاس والحجر الخام والاخشاب ورصاص الصب ... لترميم السد فى مأرب ... فتوجه أولا الى مأرب وصلى فى كنيستها ، ثم عمد الى الترميم ، فنبشوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه . وعلم وهو فى ذلك أن القبائل تضايقت من العمـــل ، ورأى اعدامهم يعود بالضرر ، فعفـــا عنهم : احباشـــهم وحميريهم ، وأذن بانصرافهم ... ورجع الملك الى مأرب ، بعد أن عقد تحالفا مع الاقيال الآتى ذكرهم : اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجزف ذو ذرناح وعادل ذو فائش واذواء شولان وشعبان ورعين وهمدان والكلاع ... الخ وجاء اليه وفد النجاشى ووفد ملك الروم ورســـول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة ، وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته ... فى أواخر شهر داوان ، وبعثوا اليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البنـــاء ، فرمموه ووســـعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا

(ثم ذكر ما أنفق فيه من الحجارة والاطعمة للعملة والحيوانات للعمل) واستغرق العمل فى ذلك ٥٨ يوما و ١١ شهرا ، وكان الفراغ منه فى شهر ذو معان سنة ٦٥٨ » (*)

وهذه السنة فى حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣ للميلاد ، لانهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد ، وللجلازر كلام فى هذا الشأن (١) سنأتى عليه فى الكلام عن التوقيت عند العرب ، ونكتفى هنا بالاشارة الى تاريخ الفتح من نقش حصن غراب ، فقد رأيت انه سنة ٦٤٠ حميرية أو حبشية ، والمعول عليه انه كان سنة ٥٢٥ ميلادية ، والفرق بينهما ١١٥ سنة

٤ ـ التجارة فى بلاد العرب

ان توسط بلاد اليمن بين أمم العالم القديم جعلها واسطة التجارة بينها من أقدم أزمنة التاريخ ، فكان بينها وبين الهند علاقات تجارية لا يعرف أولها ، وكان للهنود محصولات ومصنوعات يحتاج اليها المصريون والاشوريون والفينيقيون وغيرهم ، فكان اليمنيون ينقلون هذه المتاجر الى تلك الامم فى سفن البحر أو قوافل البر ، وكان على شواطىء اليمن فرض ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادى الفرات أو وادى النيل ، كما ترسو اليوم السفن عند عدن فى أثناء أسفارها بين أوربا والهند . وكانت لهم فرضة اسمها « موزا » يبنون فيها السفن الكبرى لقطع المحيط الهندى . ولهذا السبب عمرت جزيرة سقطرى يومئذ لتوسطها فى طريق تلك التجارة ، كما عمرت مالطة فى البحر المتوسط لمثل هذا السبب . ومن الفرض التجارية المشهورة فى اليمن فى ذلك العهد عدن وقانا (حصن غراب) وظفار ومسقط ويغلب فى مسقط أن ترسو عندها السفن الصاعدة فى خليج فارس الى بابل

اصناف التجارة ببلاد العرب

أما السلع التى كانوا يحملونها من الهند ، فهى الذهب ، والقصدير ، والحجارة الكريمة ، والعاج ، وخشب الصندل ، والتوابل ، والافاوية

(*) أنظر مقال (نصان عن تهدم سد مأرب)
Glaser : Zwei Inschriften üuar den Dammbruch von Mareb
in Mitteilungen den Vorderasiatischen Gesellshaft II, 1897, S. 390 ff.
وقد نشر فى ذلك المقال النص المشار اليه ، ورقمه ٦١٨ (+ ٥٥٣ ـ ٥٥٥ ـ ٥٥٥) من مجموعة نصوص المسند التى نشرها،ورقم النص فى المجموعة العامة للنصوص اليمنية C/s 541 وهو ثانى هذه النصوص فى الطول وأهمها من الناحية التاريخية اذ أنه يتألف من ١٣٦ سطرا وحوالى ٤٧٠ كلمة ، وقد نشر جواد على صورته الفوتوغرافية وترجمته الكاملة كما نشرها المؤلف هنا ، وزاد عليها تعليقات نافعة

أنظر : العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ص ١٩٧ وما يليها
(١) Glaser, Abb. 132

كالبهار ، والفلفل ، ونحوهما والقطن . وكانوا يحملون من شواطىء افريقيا الشرقية العطور ، والاطياب ، وخشب الابنوس ، وريش النعام ، والذهب ، والعاج . غير ما كانوا يحملونه من حاصلات اليمن نفسها وهى البخور ، واللبان ، والمر ، واللادن . وأكثر الاتجار بهذه الاصناف على يد القريين — أو الجريين — (١) وبعض الحجارة الكريمة ، كاليشب ، والعقيق ، ويحملون من سقطرى العود ، والند ، ويحملون اللؤلؤ من البحرين

فكان الهنود والافريقيون يحملون هذه الاصناف الى اليمن ، أو يذهب اليمنيون أنفسهم لاستجلابها . ثم يحملونها الى مصر ، والشام ، والعراق ، وكانوا يفضلون حملها بالبر على القوافل ، فرارا من أخطار الانواء فى البحر الاحمر أو خليج فارس ، لانهما أشد خطرا عندهم من بحر الهند . وكانت علاقتهم التجارية على أمتنها مع اخوانهم الفينيقيين ، يحملون اليهم أصناف الهند وغيرها على القوافل الى صور وغزة وغيرهما من شواطىء البحر المتوسط ، لتحمل من هناك الى سائر الشواطىء . والى ذلك أشار حزقيال بقوله مخاطبا صور (ص ٢٧ ع ٢١) : « العرب وجميع رؤساء قيدار هم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس فانهم بهذه اتجروا معك . تجار شبا ورعمة متجرون معك وبأفضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك . حاران وقانا وعدن وتجار شبا وأشور وكلمد متجرون معك »

وكان السبئيون يحملون من الجهة الاخرى مصنوعات صور ومحصولات الشام الى بلادهم وغيرها بطريق المبادلة قبل سك النقود ، أهمها الحنطة والزيت والخمر ومصنوعات فينيقية ، أو ما يحمل من آسيا الشرقية كالمنسوجات الكتانية والقطنية والارجوان والميعة والزعفران والآنية من الحديد والصفر وسبائك الفضة ، لأن هذا المعدن كان قليلا فى اليمن ولا يحملونه من الهند ولا من افريقيا . والفينيقيون أنفسهم كانوا ينقلون بعض هذه المتاجر من الجنوب ، وان كانت أسفارهم الى الشمال ، وكان لهم على شواطىء خليج العجم مستودعات

طرق التجارة فى بلاد العرب

كان للقوافل بين اليمن وفينيقية ومصر طرق خاصة ، فيها مراحل (محطات) ومرافق ومعدات وأقوام من أهل البادية يخفرونها . فالقافلة

---

(١) Strabon, III. 355

كانت تنتقل من حضرموت أو عمان ، وتسير شمالا يخفرها عرب قيدار ، فيقطعون بها بادية الدهناء وما بعدها حتى تصل الى ددان فتعطف غربا فى نجد حتى تأتى الحجاز ، ومن هناك يستلم خفارتها المديانيون والادوميون أو الانباط ، ويعرجون بها الى مكة أو ينبع أو المدينة ، ومنها الى بطرا عن طريق مدائن صالح . ومن بطرا تسير اما شمالا الى فينيقية وفلسطين فتدمر ، واما غربا الى مصر . اما العراق فكانت التجارة تنتقل اليها بالقوافل ، رأسا من شرقى الجزيرة ، أو بحرا من خليج فارس ، ومنه على القوافل الى تدمر . على أن البابليين كانت لهم مستودعات تجارية أيضا على شواطىء ذلك الخليج ، مثل ما للفينيقيين فى القرية أو القطيف . وكان القريون يختصون بهذه التجارة الى بابل . وقد ذكر بلينيوس وبطليموس وغيرهما تفاصيل مهمة عن طرق التجارة ببلاد العرب ، وعينوا مسافاتها ومحطاتها مما لا محل له هنا

وكانت قوافل السبئيين تقاسى فى أسفارها مشقات وأخطارا من تعدى البدو فى أثناء الطريق ، كما كان يصيب قوافل التجار أو الحجاج فى بوادى جزيرة العرب فيما مضى ، فضلا عن طول مدة السفر ، فتحولت الافكار نحو السفر البحرى ، وهو أقرب تناولا وأقصر مسافة . فالبضائع التى تأتى للسبئيين من الهند وافريقيا كانت تخزن فى موزا أو عدن ، وبدلا من حملها بالقوافل برا الى بطرا أو غزة ، أصبحوا ينقلونها فى السفن بالبحر الاحمر الى خليج العقبة ، ومنها بالبر الى الشام أو فلسطين أو مصر . أو أن ترسو السفن فى القصير على البحر الاحمر ، وتنقل البضائع منها برا الى قفط على النيل . وكان المصريون قد سلكوا هذا البحر من عهد رعمسيس الثالث (هاكون) . وقد ذكرنا فى كلامنا عن غزو المصريين بلاد العرب أن رعمسيس هذا بنى أسطولا أنزله البحر الاحمر وسافر فيه لارتياد بلاد بنت (الحبشة والصومال) والارض المقدسة (بلاد العرب) وغرضه الرئيسى تسهيل التجارة البحرية بين مصر وأقصى الشرق ، وانه أنشأ طريقا تجاريا بريا بين القصير وقفط ، وطريقا بحريا بين المحيط الهندى والنيل من طريق بلاد العرب . ولما تولى سيتى الاول من الاسرة التاسعة عشرة احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الاحمر ، تسهيلا للعلاقات التجارية بين مصر وجزيرة العرب ، أو للدفاع أو الهجوم عند الحاجة . والملاحة يومئذ محصورة فى الفينيقيين فى البحرين : المتوسط ، والاحمر ، فكان ذلك الشعب النشيط يخترق البحار الى أقصى المعمور ، فاقتدى المصريون به

ولما مضى سيتى الاول لم يخلفه من يعمل عمله ، فأهملت القناة ، ولم

يكن المصريون أهـــل أسفار فبطلت الملاحة المصرية . واتفق على أثر ذلك سقوط صور ، واضطراب أحوال الفينيقيين وتوقف أسفارهم ، فأصـــبح البحر الاحمر فى حاجة الى من يسلـكه ، فاتحد سليمان صاحب اورشليم وحيرام صاحب صور وأنشــآ السفن للتعاون على الملاحة . ولعله أول اشتراك دولى من هذا القبيل ، وجعلا المرفأ فى ايلة (العقبــة) تسير منها السفن فى البحر الاحمر الى شواطىء بلاد اليمن ، تحمل منها البضـــائع الهندية والافريقية . ويقال انها كانت تستجلب تلك البضائع من مصادرها الاصلية . وفى سفر الملوك تفاصيل بهذا الشأن ، جاء فيها ذكر ملـكة سبأ ، وخبرها مشهور . ولمـا مات سليمان توقفت المـلاحة وعادت القوافل (١) وما زالت اليمن وســيلة التجارة فى العالم القديم ، يشتغل بها المعينيون والسبأيون والجبائيون والقتابيون والقريون ، حتى سلك الرومان البحور وعادت التجارة اليها فضعف أمر العرب

٥ ــ الحضارة

أهل اليمن حضر من أقدم أزمانهم ، ولذلك لم يطلق عليهم اسم «العرب» قديما ، لأنه كان يراد به « البدو » على الاجمــال كما تقدم . فهم أهل مدن وقصور ومحافد وهياكل وأثاث ورياش ، لبسوا الخز وافترشـــوا الحرير واقتنوا آنية الذهب والفضة ، واغترسوا الحدائق والبساتين . قال أغاثر سيدس : « وللسبأيين فى منازلهم ما يفوق التصـديق ، من الآنيـة والاوعية على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب ، وعندهم الاسرة والموائد من الفضة ، والرياش من أفخر الانسجة وأغلاها . قصـــورهم قائمة على الاساطين المحلاة بالذهب أو المزينة بالفضة ، يعلقون على أفاريز منـــازلهم وأبوابها صحائف الذهب مرصـــعة بالجوهر ، ويبذلون فى تزيين قصورهم أموالا طائلة ، لـكثرة ما يدخلونه فى زينتهـــا من الذهب والفضــــة والعاج والحجارة الـكريمة وغيرها من المواد الثمينة » (٢) . ويؤيد ذلك ما جاء فى شعر العرب من وصف القصور الفخمة ، كقول تبع يذكر بلقيس ، فقـــد قال فى وصف عرشها :

عرشـــها رافع ثمانون باعا كللتـــه بجوهر وفريـــد
وبدر قد قيـــدته وياقو ت بالتبر أيمـا تقييـــد

ومن قوله فى مأرب :

ومأرب قد نطقت بالرخام وفى سـقفها الذهب الاحمر

---

(١) Lenormand, III, 266

(٢) Lenormand III, 29

وذكر الهمداني في وصف قصر كوكبان انه « كان مؤزر الخارج بالفضة ؛ وما فوقهـا حجارة بيض ، وداخله ممرد بالعرعر والفسيفسـاء والجزع وصنوف الجوهر »

وقال علقمة في وصف بينون :

واسأل بينون وحيطانها   قـد نطقت بالدر والجوهر

وقد ذكرنا كثيرا من هذا القبيل في باب قصور اليمن ومحافدها . ولم يقدم اليمنيون على هـذا البـذخ الا لتوفر الثروة بين أيديهم ، وأغناهم السبأيون والقريون (١)

٦ و ٧ — الدين واللغة

سيأتي الكلام على ذلك في باب أديان العرب ولغاتهم على العموم في الجزء الثاني من هذا الكتاب — وبقي من القحطانية على قول مؤرخي العرب دول الغساسنة والمناذرة وكندة ، سيأتي ذكرها في جملة عرب الشمال في الطور الثاني أو الطبقة الثالثة



(١) Strabon, III, 382

الطبقة الثالثة

العدنانية أو الإسماعيلية

عرب الشمال

فى الطور الثانى

اصولهم

نريد بعرب الشمال على الاجمال الاسماعيلية او العدنانية فى اصطلاح كتاب العرب ، ومنازلهم شمالى بلاد اليمن فى تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالا الى مشارف الشام والعراق ، وهم يرجعون بأنسابهم الى اسماعيل بن ابراهيم . وحكاية اسماعيل عندهم مبنية على ما ذكرته التوراة من اخراج اسماعيل وأمه هاجر الى برية بئر سبع وسكناه برية فاران ، وان أولاده آباء القبائل التى أقامت ما بين حويلة الى شور ، وكانت شور عند برزخ السويس وحويلة خولان فى شمالى اليمن ، وبينهما الحجاز ونجد وتهامة ومديان وجزيرة سينا

أما العرب فروايتهم فى أصل عرب الشمال تكاد تكون منقولة عن التوراة ، الا من حيث المكان الذى أقام فيه اسماعيل وأمه ، فهم يجعلونه مكة بدل برية فاران . ويقولون أن اسماعيل أقام بمكة ، وتزوج امرأة من جرهم أصحاب مكة فى ذلك العهد ، فولدت له ١٢ ولدا . وليس لدينا رواية ثالثة عن أصل أولئك العرب . والروايتان متفقتان فى أن اسماعيل ربى فى البادية ، وانه كان راميا بالقوس شأن أهل البادية ، وانه خلف ١٢ ولدا أسماؤهم تطابق أسماء بعض قبائل الشمال . وانما اختلفوا فى المكان الذى أقام فيه اسماعيل . فالتوراة تقول انه برية فاران أو جبل فاران ، وكلاهما عند العقبة شمالى جزيرة سينا ، والعرب يقولون انه مكة بالحجاز. ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا أن جبال مكة أو جبال الحجاز تسمى أيضا فاران (١) فيكون المراد ان البرية التى أقام فيها اسماعيل برية الحجاز، أو انه أقام حينا فى سينا ثم خرج الى الحجاز وسكن هناك وتزوج . والتوراة لم تذكر اسماعيل بعد خروجه من بيت أبيه الا عند حضوره دفنه ، على عادتها من الاختصار فيما يخرج عن تاريخ امة اليهود أو ديانتها . وليس لدينا مصادر اخرى تنافى هذه الرواية أو تؤيدها ، ولا فائدة من الاخذ والرد فيها ، فنتركها ونعول على الثابت من أخبار عرب الشمال ، أو المتواتر الذى لا يخالف العقل أو النقل

---

(١) المشترك وضعا لياقوت ٣٢٧

قد رأيت فى كلامنا عن الطبقة الاولى من العرب فى صدر هذا الكتاب ، ان العمالقة وسائر القبائل البائدة كان مقامها فى شمال جزيرة العرب ، الى مشارف الشام وضفاف الفرات وشواطىء النيل . وقد ذكرنا ذهاب تلك الدولة بتوالى الاجيال ، وانما أردنا ذهاب دولها أو سيادتها ، وذلك لاينافى وجود بعض قبائلها او شعوبها فى حال البداوة أو الحضارة ، ولم تترك آثارا منقوشة فذهبت أخبارها كما ذهبت أخبار كثير من الامم قبل زمن التاريخ . ولا بد من تغييرات توالت عليها أوجبت نهوضها وتقهقرها ، مع تغيير حدث فى مساكنها شأن أهل البادية فى الانتقال والرحلة ، ولم يصل الينا من أخبارها الا القليل . ومن جملة تلك التغييرات نزول اسماعيل أو بعض أبنائه بينها • وكان لهذا النزول تأثير فى أحوالها أكثر من تأثير سواه ، فحفظته التقاليد ، مما لا نبحث فيه الآن . وانما ننظر فى أولئك العرب باعتبار انهم شعوب مشتركة فى الانساب ، ولها عادات وأخلاق وأحوال تميزها عن عرب اليمن أو القحطانيه • وعرفت قبائل الشمال فى تاريخ العهد القديم باسم الاسماعيلية ، نسبة الى اسماعيل ، والعرب يسمونها أيضا عدنانية ، نسبة الى عدنان أحد أعقاب اسماعيل (*)

(*) سبق أن أشرنا فى هذه التعليقات الى ما انتهت اليه أبحاث العلماء من أن تقسيم العرب الى شعبين كبيرين متعادلين يختلف أحدهما عن الاخر كل الاختلاف انما هو أمر ظهر بعد الاسلام، وأخذ صورته المعروفة فى التاريخ نتيجة للخصومات السياسية العنيفة التى وقعت بين العرب ابتداء من خلافة عثمان بن عفان

ونضيف الان أن هذا التقسيم الذى ظهر فى أعصر متأخرة لا بد وأن يكون له أصل فى تاريخ العرب القديم • فمن الثابت تاريخيا أن شعوب معد ونزار ومضر كانت تقطن شمالى شبه الجزيرة فيما يلى تهامة والحجاز شمالا ، وانها كانت منتشرة فى هذه الصحارى الواسعة ــ فيما عدا اقليم نجد ــ ممتدة من ساحل الخليج الفارسى الى البحر الاحمر ، مسترسلة الى بادية الشام

والاخباريون متفقون على أن هذه الشعوب الثلاثة الكبرى تفرعت عن أب واحد هو عدنان ، ويجعلونه مقابلا لقحطان ، ويذهب العلماء اليوم الى آن المقابلة بين عدنان وقحطان آخذها النسابة ــ وخاصة ابن الكلبى ــ عن التوراة التى قسمت العرب الى شعبين كبيرين : يقطان وقيدار ، ويقطان هو قحطان وشعبه هو شعب عرب الجنوب أى اليمن ، وقيدار هو شعب عرب الشمال أى انه هو عدنان

وبينما يجعل النسابة لقحطان أولادا كثيرين لا يجعلون لعدنان الا ولدين هما معد والحارث الذى يسمى « عك » أيضا • وولد معد نزارا ونسب بعضهم اليه قضاعة ، وان كان بعضهم الاخر يذهب الى أن قضاعة من قحطان ، ولكن الغالبية على أن قضاعة من ولد عدنان

والى نزار تنسب الشعوب العدنانية الكبرى ، وهى ربيعة ومضر وأياد وانمار ، وعن هذه الشعوب تفرعت معظم القبائل العدنانية الكبرى ، وهى ربيعة ومضر وأياد وأنمار ، وعن هذه الشعوب تفرعت معظم القبائل العدنانية المعروفة ، وأهمها كلها من الوجهة التاريخية قريش

أما عك بن عدنان ، ويسمى الحارث أيضا ، فمن النسابة من يجعله من قحطان ، ومنهم من يجعله حفيدا لعدنان ، ومنهم أيضا من يجعله من الازد أى من قحطان ، ومن هؤلاء نشوان بن سعيد الحميرى • ولكن الغالبية على ان عكا وما تفرع منها عدنانية من عرب الشمال ، ولم يهتم النسابة بضبط أنساب عك ، لان عنايتهم كلها انصرفت الى تتبع نسب الفرع الذى منه قريش • وأهم البطون التى تنسب للفرع العكى غافق ومساعدة وعبس وزهير ومالك • وبلغ من قلة حفل النسابة بهذا الفرع ان جعلوا معظم قبائله فى اليمن ، وعللوا ذلك بأن عكا تزوج فى اليمن وأقام أبناؤه هناك ، « فكانت الدار واحدة لهذا السبب »

وخلاصة أبحاث البحاثين فى شأن عرب الشمال ، أنها مجموعة من الشعوب الكبيرة كانت تملأ



أهم الفروق بين هذين الشعبين نظام الاجتماع واللغة والدين واسماء الاعلام ، كما يأتي :

(١) نظام الاجتماع : قد رايت فى كلامنا عن العرب فى صدر هذا الكتاب أن لفظ « العرب » أريد به فى الاصل سكان بادية جزيرة العرب فى الشمال ، ثم أطلق على سائر سكانها ، وقلنا ان لفظ العرب باللغات السامية يرادف لفظ البدو عندنا . فالعرب هم البدو ، وهذا التعبير يصدق على عرب الشمال الذين نحن فى صددهم ، فهم فى الاكثر أهل خيام وابل ورحلة وغزو ، لا يستقرون فى مكان ، لأن معاشهم من كسب الابل والقيام عليها فى ارتياد المراعي وانتجاع المياه والنتاج والتوليد ، وغير ذلك من مصالحها والفرار بها من أذى البرد عند التوليد الى القفار ودفئها ، وطلب التلول فى المصيف للحبوب وبرد الهواء . لا يبنون بيوتا ولا ينشئون مدنا ، بخلاف أهل اليمن فأكثرهم أصحاب قصور ومحافد ومدن وأسوار ومغارس وحدائق

(٢) اللغة : ان لغة اليمن أو عرب الجنوب تعرف بلغة حمير ، وهى تختلف كثيرا عن لغة عرب الحجاز أو الشمال ، وان كانتا من أصل واحد . ولكن الفرق بينهما يدل على تباعد أصحابهما فى العادات والاخلاق ، فهما تختلفان فى الاعراب وفى الضمائر وفى كثير من أحوال الاشتقاق والتصريف ، مما سنأتى عليه عند كلامنا على لغات العرب

(٣) الاديان : يشترك هذان الشعبان فى كثير من ضروب العبادة ، وفى عبادة بعض الاصنام ، ولكنهما يختلفان فى الاجمال . فآلهة اليمن أقرب الى معبودات البابليين ، وعندهم عشتار وايل وبعل وغيرها . واما الشماليون فيشتركون فى عبادات تختلف عن تلك ، كاللات والعزى ومناة وهبل وغيرها ، مما سنبينه فى فصل الدين

(٤) الاسماء : لكل من الطائفتين أسماء خاصة لا تشاركها فيها الطائفة الاخرى . ولا يخفى ما للأسماء من الدلالات الاجتماعية ، فأسماء اليمنيين فى الدولتين المعينية والسبأية تشبه أسماء الدولة الحمورابية أو البابلية ، كما بيناه فى محله ، كقولهم أب يدع واليفع ويثع ايل ومعدى كرب وأبوكرب

←

شمالى شبه الجزيرة وغربها ، والشعب فى المصطلح العربى أكبر من القبيلة ، وهذه الشعوب أكثرها من أولاد معد وأقلها من أولاد عك

وبينما يذهب النسابة الى ان نزارا ابن لمعد ، يقرر نص النمارة أن معدا ونزارا شعبان مختلفان ويرجح جواد على أن نسبة نزار الى معد وضعت فى صدر الاسلام

وعلهان واليشرح وكرب ايل وذمر على ووهب ايل وياسر انعم وشمر ومهرعش ونحو ذلك ، مما لا شبيه له عند عرب الشمال فى الطور الثانى . ويختص هؤلاء بأسماء لا تجدها عند اليمنيين ، لانها من مقتضيات البداوة ، ولذلك رأيت بينها كثيرا من أسماء الحيوانات لكثرة وقوع ابصارهم عليها فالفوها ، وأصبح لكل منها رمز عن خلق أو خصلة فسموا أبناءهم بها ، وليس ذلك من بقايا الطوتمية كما توهم بعضهم (١) فمن أسمائهم من هذا القبيل أسد ونمر وثعلبة وكلب وبكر وثعبان ونحوها

وبعض أسمائهم تنتسب الى آلهتهم ، كعبد اللات وعبد العزى وعبد مناة ، وبعضها مقتبس من الامم المجاورة لهم كاليونان والسريان وقد حرفوها ، فامرىء القيس مثلا نظنه تحريف ماركوس (مرقس) ، وربما تعمدوا تحريفه ليكون له صفة عربية كما حرفوا « سامراء » فجعلوها « سر من رأى » ، وكما جعلوا دوسارس المعبود اليونانى « ذو الشرى » ، ويؤيد ذلك ان هذا الاسم (امرؤ القيس) لم يكن معروفا عند العرب قبل النصرانية أو قبل مجاورتهم اليونان

وقد يتسمون بأسماء اليونان بعد ترجمتها ، « فالحارث » يجوز أن يكون ترجمة جيورجيوس اليونانية ومعناها العامل فى الارض ، و « صخر » ترجمة بطرس ونحو ذلك . وبعض أسماء أولئك البدو مأخوذ من الاوصاف أو المناقب ، مثل سعيد ، وعامر ، وحسان ؛ وعلى • ومحمد ؛ ونحوها •ولا عبرة بما أدخله العرب منها بين أسماء ملوك حمير ، مثل الحارث وعمرو فانه قليل ولم نجد له ذكرا فى الآثار المنقوشة

اقدم اخبار العدنانيين او عرب الشمال

يؤخذ من القرائن التى تقدمت أن عرب الشمال فى الطور الثانى تتصل اخبارهم بأقدم تاريخ تلك الجزيرة ، ولا سيما اذا اعتبرنا حكاية اسماعيل بدء تاريخ جديد لاولئك العرب . لان الاسماعيلية يبدأ تاريخهم فى القرن التاسع‌عشر قبل الميلاد ، ومع ذلك فليس لدينا من اخبارهم القديمة ما يعول عليه ، كأن أولئك العرب كانوا فى سبات ولم يستيقظوا الا حوالى التاريخ المسيحى . والغالب انهم كانوا خاملى الذكر ، لانهم لم ينشئوا دولا ، وكانت دول العرب الاخرى فى اليمن ومشارف الشام والعراق وغيرها تستخدمهم فى نقل التجارة على القوافل بين ممالك ذلك التمدن ، ويعبرون عنهم تارة بالاسماعيلية ، وطورا بقيدار أو غيرها

---

(١) راجع كتاب انساب العرب القدماء لمؤلف هذا الكتاب

وأقدم ما ذكره العرب عن أخبـــار الاسماعيلية مأخوذ أكثره عن اليهود وعليه صبغة عربية ، خلاصته ان اسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقيـــة من جرهم وآخرهم مضــــاض بن بشير ، فتزوج اسماعيل من بنـــاتهم وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم ، وأولاده هم العرب الاسماعيلية ، ويسمونهم المستعربة لانهم دخلوا فى العرب وهم ليسوا منهم ، كما فعل القحطـانية فى اليمن قبلهم . وأشهر أولاد اسماعيل قيدار ، توجه أخواله وعقـدوا له الملك عليهم بالحجاز ، واسمه وارد فى التوراة . وتناسل من قيدار أعقـاب كثيرة حتى ولد عدنان . والعرب تختلفـــون فى عدد الآباء بين اسماعيـــل وعدنان ، فقـــال بعضهم انهم أربعون أبا ، وقال آخرون انهم عشرون أو خمسة عشر أو أقل من ذلك . ومن عدنان تناســـل العرب الاسماعيلية ، فعندهم أن عدنان ولد عكا ومعدا ، ومعد هو أبو القبـــائل العدنانيـــة أو الاسماعيلية كما سترى

وأقدم ما علمناه من أخبار هذه القبائل وصـــل الينا عن طريق التوراة . فقد جاء فى ســـفر التكوين فى أثناء قصة يوسف بعد أن طرحه اخوته فى البئر قوله : « ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا فاذا بقـــافلة من الاسماعيليين مقبلة من جلعـــاد وجمالهم محمـــلة نكعة وبلسـانا ولاذنا وهم سائرون لينزلوا الى مصر » (١) . وكان ذلك فى القرن الثامن عشر قبـــل الميـــلاد وكان الاسماعيليون يحملون التجارة الى مصر وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بمصر

ثم جاء ذكرهم فى سفر القضاة بعد ذلك الحين بخمسة قرون وهم يحاربون الاسرائيليين ، ويسمون هناك تارة «بنى المشرق» وطورا «الاسماعيليين» (٢) وبعد ذلك بخمسة قرون آخر ذكر أولئك العرب فى ســـفر اشعيا باسم « قيدار » ، وهو فى التوراة ابن اسماعيل فيراد باسمه قبيلة الاسماعيلية على الاقل ، وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم (٣) وأصبح الاسماعيلية فى عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين : قيـــدار ونبيت ، وظن بعضهم ان المراد بالنبيت ــ أو النبيط ــ الانباط أصحاب بطرا ، وعارضهم آخرون

وبعد اشعيا بقرن وبعض القرن (فى القرن السادس قبل الميلاد) جاء نبوخذ نصر ــ الذى يســـميه العرب بختنصر ــ واكتسح شـــمالى جزيرة العرب وغلب على الاسماعيلية ــ أو بنى قيـــدار او بنى المشرق ــ فى

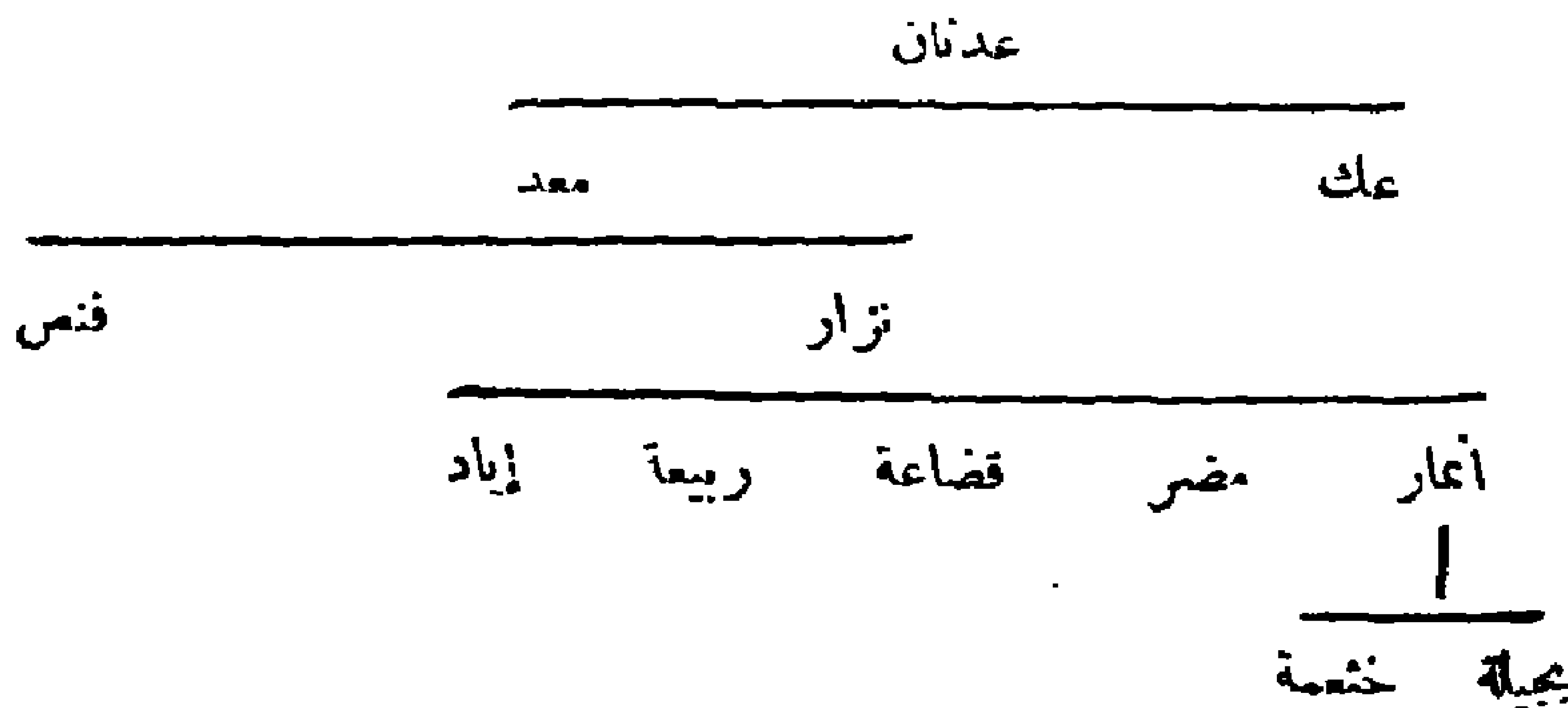
---

(١) سفر التكوين ص ٣٧ عدد ٢٥
(٢) القضاة ص ٦ عدد ٣٣ و ٧ ع ١٢ و ٨ ع ٢٤ و ٢٦
(٣) أشعيا ص ٢١ عدد ١٦ و ١٧

البادية . وقد جاء ذلك الخبر فى أسلوب التحذير أو النبوءة ، قال : « على قيدار وممالك حاصور التى ضربها نبوخذ نصر ملك بابل وهكذا قال الرب قوموا اصعدوا الى قيدار ودمروا أبناء المشرق انهم يأخذون اخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وابلهم وينادون عليهم بالهول من كل جهة » (١) . ذلك آخر ما ذكرته التوراة عن الاسماعيلية

ويظهر فى كل حال ان تلك القبائل كانوا اهل ماشية وخيام وابل ، وكانوا يحملون التجارة ، ولهم شأن وثروة وذهب وارجوان . وقد ذكرنا ما قاله حزقيال عن العرب وقيدار فى عرض رثائه مدينة صور . وجاء فى سفر القضاة : « قال لهم جدعون انى اقترح عليكم امرا واحدا يعطينى كل واحد منكم خرصا من غنيمته فقد كانت لهم خرصان من ذهب لانهم اسماعيليون فقالوا لك ذلك وبسطوا رداء فألقى عليه كل امرىء منهم خرصان غنيمته وكان وزن الخرصان الذهب التى طلبها ألفا وسبع مائة مثقال ذهب ما خلا الاهلة والنطفات والثياب الارجوانية التى كانت على ملوك مدين وما خلا القلائد التى كانت فى أعناق جمالهم » (٢)

أما العرب فأقدم ما ذكروه من أحوال الاسماعيلية انما يأتى متمما لاخبار التوراة ، ولعلهم أخذوه عن اليهود أو بنوه على روايتهم ، نعنى غزوة بختنصر العرب وقد أوردناها فى كلامنا عن غزوة الاشوريين بلاد العرب . ثم سكت المؤرخون عنهم دهورا ، كأن بختنصر أضعفهم فتفرقوا وذهبت شهرتهم أو خفيت أخبارهم . ثم تكاثروا وعادوا الى الظهور ، فى أوائل النصرانية أو قبيلها ، وهم قبائل وأمم ذات شأن ملأوا تهامة وتفرقوا فيها الى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها ، فى أزمان متفاوتة القبيلة بعد القبيلة ، وترجع كلها الى خمسة أصول لكل أصل منها فروع عديدة . أما الاصول المشار اليها فيتصل نسبها بعدنان على هذه الصورة :



أما الفروع فسيأتى كل مجموع منها فى محله

(١) يهوديت ٢ ع ٣ ونبوة ارميا ٤٩ ع ٢٨ (٢) القضاة ٨ ع ٢٤ و ٢٦

عرب عدنان

منازلهم فى تهامة ونجد والحجاز

كانت العرب العدنانية بادية أقامت فى تهامة والحجاز ونجد ، الا قريشا فقد تحضروا فى مكة . وتقسم العدنانية أولا الى فرعين عظيمين : عك ومعد . أما عك فنزلت فى نواحي زبيد جنوبى تهامة ، وقد ذكرها اليونان فى كتبهم فسموها Acchitae ، وبقى من عك بقية الى أيام الاسلام وليس لهم تاريخ يذكر

أما « معد » فهو البطن العظيم ، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم ، واذا قال العرب « معد » يريدون القبيلة لا الرجل . فاذا صحت غزوة بختنصر كما ذكرها العرب ، كانت معد قبيلة كبرى فى القرن السادس قبل الميلاد . وانقسمت الى فرعين كبيرين : نزار وقنص ، والكثرة والنسل فى نزار ، وهم عدة فروع أشهرها خمسة : قضاعة ، ومضر ، وربيعة ، واياد ، وانمار ، وكانت منازلهم فى تهامة والحجاز ونجد على هذه الصورة (١)

كانت مساكن قضاعة ومراعى أغنامهم جدة من شاطىء البحر الاحمر فما دونها شرقا ، الى منتهى ذات عرق وهى الحد بين نجد وتهامة ، الى حيز الحرم من السهل والجبل . وقبائل مضر أقامت فى حيز الحرم الى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد ، وأقامت ربيعة فى مهبط الجبل من غمر ذى كندة (بينه وبين مكة مسيرة يومين) وبطن ذات عرق وما صاقبها من بلاد نجد الى الغور من تهامة . وأقامت اياد وانمار معا ما بين حد أرض مصر الى حد نجران وما والاها وصاقبها ، وصار لقنص وغيره من ولد معد أرض مكة وأوديتها وشعابها وجبالها وما صاقبها من البلاد

وما زالت هذه القبائل فى منازلها هذه بوفاق ، كأنهم قبيلة واحدة فى اجتماع كلمتهم وائتلاف أهوائهم ، تضمهم المجامع وتجمعهم المواسم ، حتى وقعت الفتنة بينهم فتفرقت جماعاتهم وتباينت مساكنهم ، والى ذلك يشير المهلهل بقوله :

---

(١) البكرى ١٣

غنيت دارنا تهامة فى الدهـــــر وفيها بنو معد حلولا
فتســاقوا كأســا امرت عليهم بينهم يقتل العزيز الذليــلا

واليك ما يذكره العرب من أخبار هذه القبائل وأسباب تفرقها كل على حدة

١ ـ قضاعة

هى أول من نزح من قبائل معد ، وبعض النسابين يعدون قضــاعة من القحطانيـــة والارجح عندنا انها من عدنان . وكان السبب فى نزوحها حربا وقعت بينها وبين ربيعة ، بسبب فتاة ربيعية تعشقها رجل قضاعى من بنى نهــد ، وانتصرت مضر واياد وانمار لربيعة ، وانتصرت عك القضــاعة ، فدارت الدائرة على قضــاعة فأجلوا عن أماكنهم ويمموا نجدا ، وفى ذلك يقول عامر بن ظرب وهو من مضر :

قضــاعة اجلينــا من الغور كله الى فلجات الشام تزجى المواشيا
وما عن تقال كان اخراجنــا لهم ولــكن عقــوقا منهمو كان باديا
بما قــدم الهنــدى لا در دره غــداة تمنى بالحرار الامانيــا

وتقسم قضاعة الى بطون تفرقت فى جزيرة العرب على نجد والبحرين ومشارف الشام ، فأنشأ بعضها دولا فى العراق والشام وغيرهما ، وظــل الباقون بادية رحلا . أما بطون قضاعة فهى مع اسماء منازلها :

(١) تيم اللات : نزحت الى البحرين ، وكان فيهــا قوم من النبــط فأجلوهم وأقاموا مكانهم

(٢) تزيد بن حلوان : نزلوا عبقر من أرض الجزيرة بالعراق ، واليهم تنسب الزرابى العبقرية والثرود التزيدية

(٣) سليح : نزلوا مشارف الشام وفلسطين ، وكانت لهم دولة سيأتى خبرها

(٤) اسلم : هم أربعة أفخاذ : عذرة ونهد (*) وحوتكة وجهينة ، نزلوا جميعا الحجر بوادى القرى ثم نزحوا الى نجد

(٥) تنوخ : نزلوا البحرين ثم رحلوا الى الحيرة وأنشــأوا بها دولة سنذكرها

(*) تسمى أيضا نهدة

(٦) ربان بن حلوان : هى ثلاثة افخاذ : كلب ، وجرم ، والعلاف (*) ، لحقوا بالشام

(٧) بلى وبهرا : نزحوا الى بلاد اليمن حتى نزلوا مأرب ، واقاموا بها زمانا ثم تفرقوا ، فجاء بلى الى ما بين تيماء والمدينة

وهذا جدول يوضح تفرع قبائل قضاعة باختصار :

هبولة ــ زياد
سليح ــ معد ضجعم ــ عوف ــ عمر | هبالة ــ داود اللثق
اسلم ــ جهينة | يزيد
قضاعة | عمران ــ حلوان
عمرو | بهرا | بلى
ربان | تغلب . وبرة
النمر | أسد ــ تيم اللات ــ تنوخ | كلب ــ كنانة

ولم يكن نزوح هذه البطون وغيرها من قضاعة دفعة واحدة ، ولا نظن السبب الذى ذكروه لنزوحها صحيحا ، أو لعله بعض السبب . واما السبب الحقيقى فهو البداوة ، لان أهل البادية اذا تكاثروا مع الزمن تضيق بهم مواطنهم ، لتقاعدهم عن الزرع وقلة عنايتهم فى اصلاح الارض واستثمارها : ينزلون المكان وفيه من الماء أو الكلأ ما يكفيهم ، فاذا تكاثروا وتقاصر عن كفايتهم ذهب بعضهم يطلبون سواه ــ غير ما قد يدعو الى النزوح من أسباب العدوان وطلب الغزو

وكان بنو قضاعة أقدم النازحين من بنى عدنان ، ويظهر انهم نزحوا حوالى تاريخ الميلاد او قبله قليلا ، فمن نزل البلاد العامرة انشأ دولا وفتح مدنا ، ومن نزل البادية ضاعت اخباره . على أن لكل فرع من فروعهم شأنا خاصا واخبارا وصل الينا بعضها مختلطا متضاربا ، فلا نذكر منهم الا الذين انشأوا الدول أو كان لهم تأثير سياسى فى تاريخ ذلك العصر

دول قضاعة

وقد رأيت أن بطون قضاعة كثيرة ، ولم يصل الينا من أخبارهم الا القليل . ويقال بالاجمال انهم نبغوا وانساحوا فى الارض حوالى تاريخ الميلاد . ولعلهم هبوا للفتح على أثر دخول الجنود الرومانية بلادهم بحملة اليوس جالوس قبيل الميلاد كما تقدم ، فان مثل هذه النهضة طبيعى بعد

(*) فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٤٢١ : ربان وهو علاف

الحركات الحربية ، كما حدثت نهضة قريش قبيل الاسلام بعد هجوم الاحباش على مكة فى عام الفيل . ويؤيد ذلك ما جاء فى كتب العرب أن قضاعة كانوا فى تهامة ثم نزحوا الى البحرين (١) فلعل نزوحهم كان فرارا من جند الروم . ووافق ذلك تضعضع ملوك الطوائف (من الفرس) فى العراق وفارس ، وهم يسمعون بخيرات تلك البلاد وخصبها بالنظر لباديتهم فحملوا على العالم المتمدن يلتمسون الرزق . أو ربما كان لنزوحهم سبب آخر . وعلى كل حال فقد مر بمشارف الشام والعراق بضعة قرون كان يتنازع السيادة عليها القضاعيون ، كما كان يتنازعها قبلهم النبطيون والتدمريون ، وكما تنازعها بعدهم الغساسنة والمناذرة

وأشهر بطون قضاعة التى كان لها تأثير فى التاريخ أربعة ، وهى :

١ و ٢ - جهينة وبلى

هما القسم الغربى من بطون قضاعة ، وكانت منازل جهينة من حدود رضوى والاشعر الى واد ما بين نجد والبحر . ومنازل بلى فى حدود جهينة شمالا الى حد تبوك ثم الى جبال الشراة ثم الى معان ثم راجعا الى ايلة الى المغار ثم الداروم ثم الجفار غربا الى الفرما فى حدود مصر (٢) وبعبارة أخرى كانت منازلهم ما بين ينبع ويثرب وحدود مصر ، فى متسع من برية الحجاز وعلى شواطىء البحر الاحمر ، كأنهم كانوا يشغلون الجزء الشمالى من الحجاز العربى وبرية سينا الى حدود مصر . ولم تكن لهم دولة وملوك ، ولكنهم غلبوا على بادية مصر وصعيدها أجيالا . فقد ذكر ابن خلدون انهم « اجتاز منهم أمم الى العدوة الغربية من البحر الاحمر ، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هناك سائر الامم ، وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم الى هذا العهد » (٣)

ويوافق ذلك ما ذكره اليونان عن أخبار مصر لاوائل النصرانية ، فقد ذكر استرابون وبلينيوس « ان العرب تكاثروا فى أيامهما على العدوة الغربية من البحر الاحمر ، حتى شغلوا ما بينه وبين النيل فى أعلى الصعيد ، وأصبح نصف سكان قفط منهم . وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل » . وكان العرب فى أيام أوغسطس قيصر فى أوائل النصرانية قد دوخوا الحبشة وتملكوها ، وأوغلوا فى بلاد النوبة ، ولهم فيها

---

(١) حمزة ٩٤ (٢) الهمدانى ١٣٠ (٣) ابن خلدون ٢٤٧ ج ٢

وفى مصر طرق مختصرة يعرفونها . وبالغ اليونان فى وصف حتـرمتهم وحبهم للغزو وقالوا : « ان زعماءهم يدهنون وجوههم بالزنجفر كما يدهنون وجوه آلهتهم ، وانهم يقاتلون للغزو لا للفتح حتى ضايقوا مصر ، واضطر اليونان أن يقيموا الحامية عند شلال اسوان . واتفق فى أثناء ذلك تجريد الروم حملة لفتح بلاد العرب بقيادة جالوس المتقدم ذكره ومعه معظم جند مصر ، فانتهز أولئك العرب تلك الفرصة وزحفوا على الصعيد وضايقوا اهله » ، ويسميهم المؤرخ « عرب الاحباش » ، وكانت عليهم ملكة يقال لها قندافة ، وتغيرت لغة الاثيوبيين وعبادتهم بنزول أولئك العرب فيها ، فبعد ان كانت مصرية أصبحت عربية (١)

فيستدل من ذلك ان العنصر العربى كان فى أوائل النصرانية غالبا على صحراء مصر الشرقية والحبشة والنوبة ، فان لم يكن المراد بهم قبيلتى جهينة وبلى اللتين ذكرهما ابن خلدون فقد مهدتا فتح تلك البلاد لهم ، لان الرومانيين ما زالوا منذ دخلت مصر فى حوزتهم وهم يجردون الجند لرد هجمات العرب والعرب يهزمونهم

جذيمة الابرش

٣ ـ تنوخ

تنوخ فرع كبير من قضاعة جاء ذكره فى كتب اليونان وهم يلفظونه « تانويت » Thanouite (٢) وذكر النسابون أن تنوخا مزيج من قضاعة والازد ، قالوا ان « زعيما من الازد اسمه مالك بن فهم أتى البحرين والتقى هناك بزعيم من قضاعة اسمه مثل اسمه ، فتحالفا على التعاون فى القتال فسموا « تنوخا » ، وكان ذلك فى أيام ملوك الطوائف أو فى أوائل النصرانية (٣)

وكان لتنوخ دول فى مشارف الشام والعراق ، اقدمها فى العراق لجذيمة الابرش أو الابرص أو الوضاح بن مالك بن فهم المذكور . والعرب مختلفون فى نسبه ، ويرى المسعودى وحمزة انه من تنوخ قضاعة (٤) وهو الراجح عندنا جريا على ما يقتضيه سياق التاريخ . ولهذه الدولة شأن فى تاريخ العرب ، لانها مهدت السبل لدولة المناذرة أصحاب الحيرة ، وكانت دار ملكها فى المضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا . وأول ملوكها مالك بن فهم ، وخلفه

---

(١) Sharpe, II. 90 & 37
(٢) Sprenger, 208
(٣) حمزة ٩٥
(٤) المسعودى ٢٠٠ ج ١ وحمزة ٩٤

ابنه جذيمة المتقدم ذكره ، وذكروا انه كان معاصرا للزباء وله معها واقعة ذكرناها فى كلامنا عن تدمر — فهو اذن من أهل القرن الثالث للميلاد

وكان جذيمة ملكا عظيما ، ثاقب الراى شديد النكاية ظاهر الحزم ، ذكروا انه أول من غزا بالجيوش ، فشن الغارات على قبائل العرب ، واستولى من السواد على ما بين الحيرة والانبار والرقة وعين النمر والقطقطانية وسائر القرى المجاورة لبادية العراق ، فكان يجبى أموالها وله هيبة وسطوة ، فمدحه الشعراء واستجدوه . ولم يكن له غلام ذكر يرث ملكه ، فبعد أن ملك ستين سنة خلفه على ملكه ابن أخته عمرو بن عدى ، وهو أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب ، وأول ملك ذكره أهل الحيرة فى كتبهم ، وهو جد دولة آل نصر — أو لخم — ومنهم المناذرة (١) وسيأتى ذكرهم

اما تنوخ الشام فجاءوها عند انحلال دولة النبطيين فى بطرا ، وكانت دولة الروم قد ملكت الشام فقربوهم واستعملوهم على بادية العرب ومشارف الشام ، كما استعملوا اخوانهم بنى سليح ثم الغساسنة بعدهم . وأخبار دولة تنوخ هذه مضطربة متناقضة ، لم يذكر العرب من ملوكها الا ثلاثة ، هم النعمان بن عمرو وعمرو بن النعمان والحوارى بن عمرو (٢) ولم يذكروا شيئا من أعمالهم ولا زمن ملكهم ، على انه لم يطل ، فغلبهم على تلك البلاد بطن آخر من قضاعة اسمه سليح — وتفرقت تنوخ وأقام بعضها فى قنسرين (٣)

٤ — سليح

جاءت سليح مشارف الشام مع التنوخيين اخوانهم ، لكنهم لم يملكوا الا بعدهم . وكانت الدولة فى بطن من بطونهم يقال لهم « الضجاعمة » (*) خلفوا التنوخيين على حكومة مشارف الشام ، وكان نزولهم فى بلاد مواب من ارض البلقاء وفى سلمية وحوارين والزيتون (٤) ولم يذكر العرب من ملوكهم الا ثلاثة ، هم النعمان بن عمرو بن مالك ، ومالك بن النعمان وعمرو ابن مالك (٥) كانوا يملكون العرب فى مشارف الشام ، ويأخذون منهم الاتاوة دينارا عن كل رجل ، ويجمعونها للروم عند الحاجة الى حرب أو عمل

(١) حمزة ٩٦
(٢) ابن خلدون ٢٤٩ ج ٢ واليعقوبى ٢٣٤ ج ١ والمسعودى ٢٠٦ ج ١
(٣) ياقوت ١٨٥ ج ٤
(*) هم أبناء ضجعم بن سعد بن سليم بن جلوان بن عمران بن الحافى بن قضاعة . انظر ابن حزم ، الجمهرة ص ٤٢١
(٤) الهمدانى ١٧٠ (٥) المعارف ٢١٥

يستطيعونه . وما زالوا على ذلك حتى غلبهم الغساسنة على الشام وحلوا محلهم كما سيجىء

والظاهر أن ملوكهم كانوا أكثر من ذلك ، فقد ذكر أصحاب الاخبار ان بنى غسان لما أتوا مشارف الشام كانت فى حوزة الضجاعم ، وعليهم ملك منهم اسمه زياد اللثق بن هبولة ، فطالب الغسانيين بالاتاوة فاستنكفت وابت اداءها ، فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على غسان واقرت بالصغار وادت الاتاوة ، حتى صارت حكومة الضجاعم الى سبطة بن المنذر بن داود وقيل سبيط بن ثعلبة بن عمرو . وفى ايامه تغلب الغسانيون واخرجوا الضجاعمة من الشام فى حديث ذهب مثلا . وذلك ان سبيطا لما طالب الغسانيين بالاتاوة كان اميرهم ثعلبة بن عمرو ، وشدد فى طلبها ،وكان ثعلبة حليما فقال : « هل لك فيمن يزيح علتك فى الاتاوة ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « عليك بأخى جذع بن عمرو » . وكان جذع فاتكا فأتاه سبيط فخاطبه بذلك فخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال : « هل فيه عوض من حقك ؟ » أى من أن أجمع لك الاتاوة ، قال : « نعم » ، قال : « خذه » ، فمد سبيط يده وتناول غمد السيف ، فاستل جذع نصله وضربه حتى قتل ، فقيل : « خذ من جذع ما أعطاك » ، وذهبت مثلا (١) ، وصارت مشارف الشام الى غسان من ذلك الحين — هذا ما رواه العرب . وفى تاريخ الروم أن أميرا من العرب فى القرن الرابع للميلاد اسمه ايكوموس Ikomos صار من عمالهم المعروفين برتبة فيلارك Phylarck (٢) فربما كانت ايكوموس تحريف ضجعم هذه (*)

مدينة الحضر

فلما غلب الضجاعمة على أمرهم بالشام نزح بعضهم الى العراق ونزلوا الجزيرة ، وفيها مدينة يقال لها الحضر قرب تكريت ، بينها وبين الموصل والفرات ويسميها اليونان (اترا) Atra ، وكانت حصينة عليها الابراج والقلاع ، يتولاها حاكم من اهلها اسمه الساطرون ، وعلى الضجاعمة ملك اسمه الضيزن فتح الحضر وتولاها حينا ، وكانت الدولة الساسانية فى أوائلها ، فلما افضى الملك الى سابور بن اردشير — وهو سابور الاول — ورأى من الضيزن طمعا وغزوا ، سار اليه وحاربه وفتح المدينة بعد ان

---

(١) ابن خلدون ٢٧٩ ج ٢ وحمزة ١١٥

(٢) Noeldelke

(*) يبدو أن التشابه منعدم بين الاسمين

حاصرها اربع سنين . وتتبعهم سابور حتى اخرجهم من بلاده (١) وذهب ملك الضجاعمة من ذلك الحين

سائر قضاعة

كلب : وكان لقضاعة ايضا دولة صغرى فى دومة الجندل وتبوك فى أعالى الحجاز ، حكامها من كلب من قضاعة خلفهم عليها السكونيون من كندة

وكان لقضاعة بطون أخرى اقامت فى أماكن مختلفة من جزيرة العرب ، فى البحرين ووادى القرى واليمن كما تقدم ، ولكنهم لم يكن لهم دولة تذكر

فانتقال القضاعيين الى شمالى جزيرة العرب نهضة عربية فى طلب الفتح أو التوسع فى الرزق من جملة نهضات كثيرة مما علمناه أو لم نعلمه ، أهمها وأكثرها تأثيرا نهضتهم فى زمن المسلمين فانهم قلبوا فيها العالم وغيروا وجه التاريخ

٢ — انمار

فلنرجع الى تفرق قبائل عدنان من تهامة ، فبعد قضاعة ضاقت تهامة عن انمار فنزحت ، والعرب يجعلون سبب النزوح خصاما بينها وبين مضر ، وان انمار فقأ عين أخيه مضر وهرب — ولعلهم يرمزون بذلك عن شيء — وانهما بطنان : بجيلة وخثعم ، فظعنا الى جبال السروات فنزلوها وملكوها وتخاصموا عليهـا فى خبر طويل ، وتفرقت بطون بجيلة من الحروب التى كانت بينهم .

٣ — اياد

ثم نزحت اياد من تهامة ، وذكروا أن السبب فى نزوحها حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر فى خانق ، وغلبت اياد على أمرها فخرجت من تهامة الى العراق ، وفى ذلك يقول أحد بنى حفصة من مضر :

اياداً يوم خانق قد وطينا ... بخيل مضمرات قد برينا
ثعادا بالفوارس كل يوم ... غضاب الحرب تحمى المحجرينا
فأبنا بالنهاب وبالسبايا ... واضحوا بالديار مجندلينا

ونزلت اياد فى سواد العراق قرب مكان الكوفة . أقاموا هناك دهرا وانتشروا فى تلك الانحاء ، وكانوا يغزون أهل العراق على عادة عرب البادية ، والعجم يتحملون منهم . حتى تولى كسرى انو شروان ، فأغارت اياد على نساء من الفرس فأخذوهن ، فغزاهم كسرى فقتل منهم ونفاهم عن أرض

(١) ابن خلدون ٢٧١ و ٢٤٩ ج ٢

العراق . فنزل بعضهم تكريت ، وبعضهم الجزيرة وارض الموصل ، فاستنصر عليهم قوما من بكر بن وائل ففتكت بهم ، وتفرقوا فى أرض الروم وبلاد الشام . وقيل فى سبب تكبتهم غير ذلك (١)

٤ — ربيعة

لم يبق من بنى معد فى تهامة من القبائل الكبرى الا ربيعة ومضر ، وهما اكبرها . فنزحت أولا ربيعة ، بسبب فتن قامت بين قبائلها وهذه اهم تلك القبائل بحسب تفرعها : (أنظر الجدول) . واشهر القبائل التى نزحت منها عبد القيس ، نزلت البحرين وهجر — وفيها اياد — فأجلت ايادا ، وغلبت عبد القيس على البحرين واقتسموها بين قبائلهم وهى كثيرة

ونزلت قبائل أخرى من ربيعة فى نجد والحجاز واطراف تهامة وما والاها ، ونزلت قبائل منها فى بلاد اليمن فخالفت اهله ومنهم اكلب (**) . وقامت سائر قبائل ربيعة فى ظواهر نجد والحجاز ، وهم بكر وتغلب وعنزة وضبيعة (***) ، حتى وقعت الحرب بينهم فى قتل جساس كما سيجىء

وما زالت الوقائع والحروب تنقلهم من أرض الى أرض ، وتغلب فى كل ذلك ظاهرة على بكر ، حتى التقوا يوم قضة — وهى عقبة فى عارض اليمامة — فكانت الدائرة لبكر على تغلب ، فتفرقوا وتبددت تغلب فى البلاد ، وانتشرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة ، فيما بينها وبين البحرين الى اطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الابلة الى هيت . وانحازت النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وعانات وما دونها الى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة من مشارف ارض (٢) — (راجع الخريطة الثامنة من خرائط هذا الجزء)

ربيعة — جديلة — أفصى (*) — عبد القيس
عنزة
هنب — قاسط — وائل
نمر
تيم — تغلب — جشم
علي — صعب — بكر — يشكر
لجيم — عكابة — ثعلبة — قيس — ضبيعة — مالك
حنيفة
عجل
شيبان — ذهل — مرة
ذهل — شيبان — سدوس

---

(١) البكرى ٧

(*) فى الاصل أفضى ، والتصويب من جمهرة الانساب لابن حزم (٢٢٨) وهو يجعلهم من مضر فيقول : بنو أفصى بن قمعة بن الياس بن مضر

(**) فى مختلف القبائل ومؤتلفها لابن جعفر محمد بن حبيب النسابة (طبعة فستنفلد جوتنجن ١٨٥) ص ٣٩ : وفى ربيعة أكلب — بضم اللام — بن ربيعة

(***) ضبيعة بن ربيعة بن نزار ، أنظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٢٧٥

(٢) البكرى ص ٥٦

اللواء فى ربيعة

ولربيعة شـــأن عظيم فى تاريخ العرب ، لانها هى التى بدأت باخراج العدنانية من سيطرة اليمن أو غيرها وطلبت الاستقلال كما يجيء . وكان من نظامهم فى اجتماعهم للحرب أو الغـــزو أن يكون اللواء للأكبر فالاكبر . فكان لواؤهم ــ أىزعامتهم ــ فى عنزة ، وكانت سنتهم ان يوفروا (اى يطيلوا) لحاهم ويقصوا شواربهم ، فلا يفعل ذلك من ربيعة الا من يخالفهم ويريد حربهم . ثم تحول اللواء الى عبد القيس ، وكانت سنتهم اذا شتموا لطموا ، واذا لطموا قتلوا من لطمهم . ثم تحول اللواء فى النمر بن قاسط ، وكان لهم غير سنة من تقدمهم . ثم تحول الى بكر بن وائل ، فساءوا غيرهم فى فرخ طائر كانوا يوثقونه بقارعة الطريق ، فاذا علم الناس بمكانه لم يسلك أحد منهم ذلك الطريق ، ومن اضطر للمرور ســـلك عن يمين الطـــائر أو يساره . ثم تحول اللواء الى تغلب ، فوليه منهم وائل بن ربيعـــة ــ وهو كليب المشهور ــ وكانت سنتهم اذا سار زعيمهم هذا أخذ معه جرو كلب ، فاذا مر بروضة أو موضع يعجبه ضرب الجرو ، ثم ألقاه فى ذلك المـكان وهو يصيح ويعوى ، فلا يسمع عواءه أحد الا تجنبه ولم يقربه . وكانوا يقولون : « كليب وائل » ، ثم اختصروه فقالوا : « كليب » فغلب عليه (١)

٥ ــ مضر

ولم تزل مضر بعد خروج ربيعة مقيمة وحدها بمنازلها فى تهامة ، حتى تباينت قبائلها وكثر عددهم وفصائلهم ، وضاقت بلادهم عنهم فطلبـــوا المتسع والمعاش وتتبعوا الكلأ والماء ، وتنافسوا فى المحال والمنازل ، وبغى بعضهم على بعض فاقتتلوا ، وهم قبائل عديدة كما ترى فى الجدول بالصفحة التالية . وهى ترجع الى حيين كبيرين : قيس عيلان وخندف ــ فظهرت أولا خندف على قيس ، فظعنت قيس من تهـــامة طالعين الى بلاد نجد الا قبائل منهم انحازت الى أطراف الغور من تهامة ، فنزلت هوازن ما بين غور تهامة الى ما والى بيشة وبركا وناحية السراة والطائف وذى المجاز وحنين واوطاس وما صاقبها من البلاد

وخنـــدف تشمـــل طابخة ومدركة ، فخرجت طابخة الى ظواهر نجد والحجاز . فنزلت مزينة جبال رضوى وما والاها فى الحجاز ، ونزحت تميم وضبة من الحجاز وحلوا منازل بكر وتغلب التى كانوا ينزلونها فى اثناء الحرب

---

(١) ابن الاثير ٢٣٦ ج ١

مضر

الياس

عيلان   مدركة   (ويقال لمدركة وطابخة خندف)   طابخة

قيس   هذيل   خذيمة   اد

سعد   جديلة   خصفة   أسد   كنانة   ضبة   مزينة   مر

غطفان   فهم   عدوان   عكرمة   عبد مناة   النضر   تميم

عبس   ذبيان   منصور   مدلج   الدئل   مالك   زيدمناة   الحرث   عمرو

هوازن   سليم   فهر (قريش)   سعد   مالك   مالك   أسيد   العنبر

منبه   سبيع   بكر   كعب   مالك   حنظلة   مازن

قسى   سعد   معاوية   زيد   عوف   عدن   عمرو   مالك

(وهو ثقيف)   نصر   صعصعة   بهدلة   عطارد   دارم   يربوع

عامر   شهبة   مجاشع

نمير   كعب   كلام   جناب   زيد   سفيان

جعدة   عقيل   قشير   صفوان   عدس ومنها زرارة

بينهم . ومضوا حتى خالطوا اطراف هجر ونزلوا ما بين اليمامة وهجر . ونفذت بنو سعد الى يبرين وتلك الرمال حتى خالطوا بنى عامر بن عبد القيس ، ووقعت طائفة منهم الى عمان ، وصارت قبائل منهم بين أطراف البحرين الى ما يلى البصرة ونزلوا هناك منازل كانت لاياد

واقامت قبائل مدركة بتهامة وما والاها من البلاد وصاقبها ، فصارت مدركة فى ناحية عرفات وعرنة وبطن نعمان . وكانت لهذيل جبال من جبال السراة ، ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية ومسايل تلك الشعاب والاودية . ونزل فهم وعدوان من قيس عيلان بجوار هذيل ، وخزيمة بن مدركة اسفل هذيل ، واستطالوا فى تلك التهائم الى اسياف البحر ، واقام ولد النضر بن كنانة حول مكة وما والاها وبها جماعتهم وعددهم ، فكانوا جميعا ينتسبون الى النضر بن كنانة . واقام ولد فهر حول مكة حتى انزلهم قصى بن كلاب الحرم وهم قريش (١) فنزل الحجاز من العرب على اختلاف أصولهم أسد وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل وخثعم وسلول وهلال وكلاب بن ربيعة وطى واسد وجهينة وغيرها (راجع الخريطة الثامنة)

وكل قبائل عدنان بدو رحل ، الا قريشا (٢) فانهم تحضروا فى مكة وسيأتى ذكرهم

هذه فذلكة اختصرنا فيها تفرق قبائل عدنان من تهامة الى انحاء بلاد العرب ، وقد حدث ذلك على الغالب فى القرون الاولى قبل الميلاد وبعده بالتدريج . بقى علينا ايراد أخبارهم بعد تفرقهم الى ظهور الاسلام . ولكنهم قبائل رحل لا كتابة عندهم ولا مقر لهم ، وأكثر حوادثهم الغزو والنهب ، الا ما ذكرناه عن بعض قبائل قضاعة . فلا يتأتى سرد وقائعهم متناسقة ، وقلما يكون لها أهمية تاريخية ، لان اكثرها خصام على مرعى أو ماء ، أو اختصام على فتاة او نهب او نحو ذلك . ولم يحفظ الاخباريون منها الا وقائع قليلة سموها « أيام العرب » ، سنأتى على خلاصتها بعد ان نذكر من بقى من دول الطبقة الثالثة غير عدنان من عرب الشمال فى الطور الثانى ، نعنى الدول القحطانية خارج اليمن

---

(١) البكرى ٥٦ ــ ٥٨ (٢) ابن خلدون ٢٩٩ ج ٢

الدول القحطانية خارج اليمن

قد رأيت من تاريخ سبأ وحمير انهم ملكوا اليمن بضعة عشر قرنا ، وكانوا دولا تجارية قليلة الغزو والحرب ، فكان القتل فيهم قليلا وكانوا يتكاثرون حتى تضيق بهم مواطنهم ، وهم عرضة للقحط من قلة المطر أو انفجار الاسداد ، فكانوا ينزحون بطونا وافخاذا يطلبون الرزق فى أطراف جزيرة العرب شرقا وشمالا ، فينزل بعضهم اليمامة أو البحرين أو عمان أو الحجاز أو مشارف الشام أو العراق ، فحيثما آنسوا فرجا استقروا وتناسلوا بدوا أو حضرا ، وقد تطول آجالهم حتى ينشئوا الدول ويبنوا المنازل أو تقصر فيبيدون بالحرب أو غيرها . ولقلة الكتابة عندهم لم يصل الينا من أحوال النازحين الا القليل . وقد وصلنا هذا القليل مشوشا مضطربا ، لضياع أخبارهم واختلاطها لبعد عهدها . وهذا هو سبب إختلاف الرواة فى أنسابهم ، بين أن يرجعوا بها الى حمير أو كهلان أو معد أو العمالقة أو غير ذلك مما يعسر تحقيقه . فننظر فى تلك الدول أو القبائل من حيث تأثيرها فى شؤون التاريخ

فالدول العربية التى ظهرت فى شمال جزيرة العرب من الطبقة الثالثة ــ غير قبائل عدنان التى تقدم ذكرها ــ بضع دول يعدها مؤرخو العرب من بنى قحطان ، وقد جاريناهم فى تسميتها ، واهمها : دول الغساسنة فى الشام ، والمناذرة فى العراق ، وكندة فى نجد وما يليها . ويقول نسابو العرب ان هذه الامم وبضع عشرة أخرى من القبائل التى عاصرتها فى شمالى جزيرة العرب ترجع بأنسابها الى كهلان بن سبأ بن قحطان على هذه الصورة :

كهلان	طى		
	الاشعر		
	بجيلة		
	جذام		
	الازد	مازن	
		غسان	
		عدنان	
		مزيقيا	الاوس
			الخزرج
			خزاعة
		ازد شنوءة	
	عاملة		
	كندة		
	لخم ـ نصر		
	مذحج		
	همدان		

فهذه القبائل ــ وعددها ١٩ قبيلة ــ لكل منها بطون ، وافخاذ ، وعمائر ، وعشائر لا يهمنا منها فى هذا المقام الا التى انشأت الدول وكان لها دخل فى التاريخ ، على ما وصل الينا من أخبارهم ، وهى غسان ولخم وكندة

انساب هذه الدول قحطانية ام عدنانية

أجمع النسابون تقريبا على نسبة هذه الامم الى كهلان من قحطان ، وانهم خرجوا من اليمن وتفرقوا فى انحاء جزيرة العرب مع من ذكرناهم من اخوانهم بعد تهدم سد مأرب ، وان هذه البطون هاجرت من اليمن على أثر سيل العرم . ولهم فى ذلك حديث لابأس من ايراد خلاصته : قالوا ان الامكنة المعمورة فى أرض اليمن كان اكثرها لكهلان وحمير ، وكان رئيس القوم يومئذ عمرو بن عامر ماء السماء من كهلان ، فتوفى عن عدة أولاد قبل السيل ، فخلفه على الرئاسة أخوه عمران بن عامر ــ وليس له أولاد ــ وكان ذا ثروة وله من الحدائق والبساتين ما لم يكن لاحد غيره مثله . وكان فى قومه كاهنة اسمها طريفة ، فأنبأته بقرب انفجار السد بجرذ تنقب فيه . فخاطب خاصته بذلك ، واستكتمهم الخبر حتى يحتال فى الخروج بهم الى بلاد أخرى ، فتواطأ مع ابنى اخيه على ان يخاصماه ويهيناه ، فيظهر الغضب ويعزم على الرحيل ويعرض أمواله للبيع فيشتريها الناس ويقبض أثمانها ويرحل . وقد وفق الى ما أراده فابتاع الحميريون بساتينه وحدائقه وقصوره وهم لا يعلمون ، وارتحل بنو كهلان من اليمن وهم أرهاط فنزل كل رهط منها فى بلد ، وهم :

(١) رهط ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ، نزلوا المدينة ومنهم الاوس والخزرج

(٢) رهط حارثة بن عمرو بن عامر ، نزلوا مكة وهم خزاعة

(٣) رهط عمران بن عامر نفسه ، ذهبوا الى عمان وهم أزد عمان

(٤) رهط ازد شنوءة فى تهامة

(٥) جفنة بن عمرو بن عامر ــ وهو مزيقياء ــ سار نحو الشام ، وهم الغساسنة

(٦) لخم فى العراق ، وهم المناذرة أو آل نصر

وهؤلاء غير طىء وكندة وغيرهما ، ولهم فى تفرقهم اقوال اخر . وكل هذه البطون او القبائل قد رايت انها ترجع بأنسابها الى كهلان بن سبأ ، اى

انهم قحطانية — ذلك ما أجمع عليه العرب ، ولكن لنا رأيا فى هذا الاجماع لا يخلو ذكره من فائدة

قد رأيت فيما ذكرناه عن الفروق بين القطحانية والعدنانية ان لكل منهما خصائص فى اللغة والاجتماع والعادات والدين وأسماء الاعلام ، واذا تدبرت أحوال هذه الدول من غسان ولخم وكندة رأيتها تنطبق على العدنانية اكثر مما تنطبق على القحطانية من حيث اللغة ، فاننا لم نر فى كلامهم واقوالهم ما يدل على انهم كانوا يتكلمون لغة حمير ، بل لغة العدنانية أو عرب الشمال فى الطور الثانى . وقد يقال انهم اقتبسوا لغة الوسط الذى انتقلوا اليه ، ولكنا نستبعد ذلك لان الغالب فى اقتباس لغة الآخرين أن يقع من الضعيف نحو القوى — فلو كان أولئك القوم قادمين من بلاد اليمن لحافظوا على لسانهم وسائر عاداتهم ، لانهم كانوا يومئذ أرفع منزلة من بدو الشمال، وكان هؤلاء ينظرون الى اليمنية نظرهم الى أهل الدولة ويعدونهم الملوك ، كما ينظر البدوى الامى الى المتمدنين أصحاب الصولة والعلم . وزد على ذلك ان اليمنية كانوا يكتبون بالحرف المسند ، ولا نرى لهذا الحرف ذكرا فى اخبارهم ولا أثرا فى أطلالهم

وقد علمت أن الكهلانيين أهل حضارة ، كما رأيت فيما ذكرناه من حديث سيل العرم ، وكيف ان الكهلانيين كانوا أهل حدائق وقصور باعوها وانتقلوا . فلو صح ذلك لاختاروا الاقامة فى بلد آخر من اليمن غير مأرب وما جاورها ، لان السيل لم يخرب الا جزءا صغيرا من اليمن ، فلم يكونوا يعدمون مكانا يقيمون فيه كما كان يقيم سواهم من قبائل الحضر . واخوانهم الحميريون ما زالوا أهل دولة وعمران ، وظلوا فى رغد ورخاء وسعة من العيش الى ظهور الاسلام

فما كان أغنى الكهلانيين عن الرحلة الى بادية الشام او العراق والرجوع الى البداوة ، وهى شاقة على من تعود الحضارة والرخاء

واعتبر ذلك فى معبوداتهم ، فانها من معبودات عرب الشمال أوالعدنانية ، ولم نجد عندهم ما يميزهم عن هؤلاء من هذا القبيل . ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم أسم عشتار أو ايل أو نحوهما

وهكذا يقال فى أسمائهم ، وليس فيها رائحة الاعلام السبأية أو المعينية ، بل هى مثل أسماء سائر عرب الشمال ، ولا سيما الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم كالانباط ونحوهم ، ومنها الحارث ، وثعلبة ، وجبلة ، والنعمان، وغيرها . ولا يعترض بما ذكره العرب بين أسماء ملوك حمير من امثال

هذه ، فان اكثرها مبدل بأسماء شمالية ، وانما عمدتنا فيما ذكرناه على الاسماء التي وقفوا عليها في الآثار المنقوشة

فلا دليل على قحطانية هذه الامم الا أقوال النسابين ، وهي أضعف من أن يعول عليها في هـــذا الشأن ، لاحتمال ان تكون تلك الامم قد انتحلت الانتساب الى عرب اليمن ، التماسا للفخر بين قوم لا يعرفونهم ، ولا سيما بعد أن تقربوا من الروم أو الفرس وصاروا من عمالهم

هذه ملاحظات نعرضها على أولي البحث لينظروا فيها ، فاذا رأوا فيها اصابة والا فلا دخل لها فيما سنورده من تواريخ تلك الدول وعلائقهم بالدول المعاصرة (*)

فلنتكلم عن هـــذه الدول واحـــدة واحـــدة ، وهي : غســـان ، ولخم ، وكندة . ونبدأ بغسان

(*) لا زال أصل المناذرة (اللخميين أصحاب الحيرة) موضع خلاف بين المؤرخين ، فلا ندري ان كانوا قحطانيين هاجروا من اليمن أو عدنانيين انتشروا نحو الشمال الغربي عندما ضاقت بهم بلادهم . وقد أورد ابن الكلبي روايات شتى ، بعضها يقول بهذا وبعضها يقـــول بذاك ، ولكن غالب رواياته يقول بانهم من عرب الشمال . وعن ابن الكلبي أخذ الطبري ورجح القول بأنهم يمن ، ولم يقطع جواد علي في الموضوع برأي (تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٤ ص١٧ وما يليها) ونحن نرجح رأي جرجي زيدان ، وان كنا لا نستبعد أن تكون جموع العرب التي نزلت في هـــذه النواحي وأقامت دولة اللخميين خليطا من عرب الشمال وعرب الجنـــوب . وغالبية المؤرخين على ان آل جذيمة الابرش الذين أنشأوا ملك اللخميين في الحيرة من أزد اليمن

دولة الغساسنة

يزعم نسابو العرب ان الغساسنة لم يرحلوا من اليمن الى الشام رأسا ، بل أقاموا حينا فى تهامة بين بلاد الاشعريين وعك ، على ماء يقال له غسان ، فنسبوا اليه . وكان هـذا المكان معروفا هناك حوالى تاريخ الميلاد ، وقد ذكره اليونان فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد فى جملة بلاد تهامة وشواطىء البحر الاحمر . اما القبيلة فذكرها بطليموس فى أواسط القرن الثانى للميلاد (١) قال : « انهم يقيمون على شواطىء جزيرة العرب الغربية نحو ما هو الآن تهامة » ، فاذا صح انتقادنا نسبة الغساسنة الى كهلان كانوا فى الحقيقة من عرب تهامة العدنانيين ، أو غيرهم ممن ضاعت أنسابهم

وعلى كل حال فان الغساسنة نزلوا مشارف الشام وفيها الضجاعم من قضاعة فغلبوهم على ما فى أيديهم كما تقدم ، وانشأوا لانفسهم دولة تحت رعاية الروم — فيما هو الآن البلقاء وحوران — عرفت بدولة الغساسنة أو بنى غسان ، فتحضروا بتوالى الاجيال وعمروا المدن وشادوا القصور والقلاع ، وكانت عاصمتهم بصرى فى حوران ، وتعرف انقاضها باسكى شام ، وكان فيها دير بحيراء الراهب



الخريطة السادسة — مشارف الشام والعراق ومنازل غسان ولخم

(١) Sprenger, 42 & 52

ملوك غسان

ان ما ذكره كتاب العرب عن ملوك هذه الدولة كثير الاختلاط والاضطراب ، لتناقضه ونقصه ومخالفته فى بعض أجزائه لحوادث الدول المعاصرة . واقدم ما لدينا عن تسلسل ملوك غسان واوفاها « كتاب سنى الملوك لحمزة الاصفهانى » وهو اقدم المحققين من مؤرخى العرب ، وغرضه على الاكثر تحقيق توالى الملوك ومدد حكمهم ومعاصريهم وقلما يلتفت الى أعمالهم . فعنده ان ملوك غسان ٣٢ ملكا حكموا نحو ستمائة سنة ، وقد أورد أسماءهم وأنسابهم ومدد حكمهم كما تراها فى الجدول الآتى :

ملوك غسان على رواية حمزة الاصفهانى

		مدة الحكم			مدة الحكم
١	جفنة بن عمرو مزيقياء	٤٥	١٧	النعمان بن الايهم	٢١
٢	عمرو بن جفنة	٥	١٨	الحارث الثالث بن الايهم	٢٢
٣	ثعلبة بن عمرو	١٧	١٩	النعمان بن الحارث الثالث	١٨
٤	الحارث الاول بن ثعلبة	٢٠	٢٠	المنذر بن النعمان	١٩
٥	جبلة بن الحارث الاول	١٠	٢١	عمرو بن النعمان	٣٣
٦	الحارث ٢ بن جبلة « ابن مارية »	١٠	٢٢	حجر بن النعمان	١٢
٧	المنذر الاكبر بن الحارث الثانى	٣	٢٣	الحارث الرابع بن حجر	٢٦
٨	النعمان بن الحارث	١٥ر٥	٢٤	جبلة بن الحارث الرابع	١٧
٩	المنذر الاصغر بن الحارث	١٣	٢٥	الحارث بن جبلة « بن أبى شمر »	٢١
١٠	جبلة بن الحارث	٣٤	٢٦	النعمان بن الحارث « أبو كرب »	٣٧
١١	الايهم بن الحارث	٣	٢٧	الايهم بن جبلة بن الحارث	٢٧ر٥
١٢	عمرو بن الحارث	٢٦	٢٨	المنذر بن جبلة بن الحارث	١٣
١٣	جفنة بن المنذر الاكبر	٣٠	٢٩	شراحيل بن جبلة بن الحارث	٢٥
١٤	النعمان بن المنذر الاكبر	١	٣٠	عمرو بن جبلة بن الحارث	١٠
١٥	النعمان بن عمرو المنذر الاكبر	٢٧	٣١	جبلة بن الحارث	٤
١٦	جبلة بن النعمان	١٦	٣٢	جبلة بن الايهم	٣

فمدة سيادة الغسانيين — على رواية حمزة المذكور — نحو ٦٠٠ سنة ، أى من أوائل القرن الاول للميلاد الى ظهور الاسلام . ولكننا نعلم من قرائن أخرى — ومما قدمناه من ان الغسانيين كانوا فى أواسط القرن الثانى للميلاد لايزالون فى تهامة — ان هذه الرواية لا تخلو من الخطأ

وقد عنى الاستاذ نولدكه الالمانى الشهير بدرس تاريخ هـــذه الدولة من مصادر يونانية وسريانية ، فوجد ملوكها الذين عرفهم الروم لا يتجاوز عددهم عشرة ملوك ، أقدمهم حكم فى آخر القرن الخامس للميلاد ، وآخرهم عنـد ظهور الاسلام فلا تتجاوز مدة حكمهم قرنا وبعض القرن

وهاك جدولا للملوك الغسانيين الذين اعترف نولدكه بوجودهم : (١)

١	جبلة أبو شمر	توفى نحو سنة ٥٠٠
٢	الحارث بن جبلة أبى شمر	٥٦٩
٣	المنذر أبو كرب بن الحارث	٥٨٢
٤	النعمان بن المنذر	٥٨٣
٥	الحارث الاصغر بن الحارث الاكبر	من سنة ٥٨٣ ــ ٦١٤
٦	الحارث الاعرج بن الحارث الاصغر	
٧	النعمان بن الحارث الاصغر	
٨ و ٩	عمرو أخو النعمان وحجر ابنه	
١٠	جبلة بن الايهم	٦٣٦

واستخرج نولدكه من أشعار العرب وغيرها أسماء ملوك وأفراد غسانيين لم يذكرهم المؤرخون ، كابن سلمى الذى ذكره حسان ، ويزيد بن عمرو فى الاغانى وغيرهما ، وعثر على تفاصيل من احوال اولئك الملوك لم يعرفها العرب او انهم شوهوها بالتناقل ، وانكر كثيرا من الحوادث التى ذكرها العرب للغسانيين ، أو وضع فيها شكا

والاستاذ نولدكه بحاث نقاد ، وقد عول فيما قاله على مآخذ وثيقة من تواريخ الـكنيسة أو الدولة البيزنطية ، أكثرها مدون فى حينـــه وجاءت أخبار هؤلاء الملوك فيها مقرونة بأخبار قياصرة القسطنطينية أو ولاة الشام ، وتواريخهم معروفة ثابتة . فلا ننكر عليه اصابته فى كثير من ملاحظـــاته ، ولكننا لا نوافقه على حصر تلك الدولة فى عشرة ملوك حكموا مائة سنة وبعض المائة ، كما إننا لا نوافق حمزة الاصفهانى على انهم ٣٢ ملكا حكموا ستة قرون للاسباب الاتية :

الروم والعرب

فتح الاسكندر الشام والعراق فى القرن الرابع قبـــل الميـــلاد ، وأراد أصحابه اكتساح جزيرة العرب فامتنعت عليهم لوعورة الطرق اليها وبداوة

(١) Noeldeke, 53

أهلها ، وقاتلوا النبطيين فارتدوا عنهم خائبين . وتبين خلفاء الاسكندر على الشام ان اخضاع اهل البادية لا يتيسر لهم ، فعمدوا الى مسالمتهم للاستعانة بهم فى نقل المتاجر أو حماية الطرق ، أو استنصارهم على جيرانهم الفرس أو غيرهم . ودخلت الشام فى حوزة الرومان فى القرن الاول قبل الميلاد ، وبادية الشام فى حوزة الانباط ومن والاهم وحالفهم من العرب . وقد رأيت ما آل اليه امر الانباط فى أول القرن الثانى للميلاد ، ولم يغلبهم الروم الا لتحضرهم واركانهم الى السكينة والرخاء ، فتفرقوا فى مشارف الشام والعراق

أما بدو العرب فى تلك الضواحى فلم يغلبهم الروم ولا غيرهم ، فكانوا يضايقون الدولة فينزلون أطراف المدن للغزو ، أو يتعرضون للقوافل بالنهب كما كان البدو يفعلون فيما مضى بقوافل الحج وغيرها . ويئس الروم منهم فعمدوا الى مسالمتهم لاتقاء شرهم ، وأشهرهم يومئذ الضجاعمة بنو سليح من قضاعة

وكانت العراق وفارس يحكمها ملوك الطوائف بعد الاسكندر ، يستبد كل منهم بقسم منها ، يشتغلون بذلك عن مناواة الروم أعدائهم القدماء . حتى اذا نشأت الدولة الساسانية فى أول القرن الثالث للميلاد ، وجمعت كلمة الفرس تحت لوائها ، اصبح الروم يخافونها على بلادهم ، لما بينهما من المنافسة القديمة ، فازدادت رغبتهم فى تقريب العرب ، ليس لاتقاء شرهم فقط بل للاستعانة بهم على أولئك المنافسين

واتفق نزوح الغسانيين نحو الشمال كما تقدم ، وقد نزلوا البلقاء — وفيها الضجاعمة وغيرهم من قبائل العرب — وتنازعوا على المقام هناك ، وتنافسوا فى النفوذ على أهل البادية ، فظهر الغسانيون . فلما احتاج الروم الى نصرتهم استنصروهم وقربوهم ، فتنصروا بتوالى الاجيال واصبح لهم شأن فى حروب الروم والفرس

عدد ملوك غسان ومدد حكمهم

لا مشاحة فى أن المؤرخين اختلفوا كثيرا فى عدد ملوك هذه الدولة وفى تسلسلهم ومدد حكمهم ، يدلك على ذلك اختلافهم فى عدد الملوك من كل اسم على حدة . فذكر حمزة مثلا خمسة ملوك باسم النعمان ، وهم عند ابن الكلبى واحد ، وعند نولدكه اثنان ، وقس على ذلك اختلافهم فى سائر الاسماء على هذه الصورة :

	عند ابن الكلبي	عند حمزة	عند نولدكه
النعمان	١	٥	٢
المنذر	٣	٤	١
الايهم	١	٢	١
عمرو	١	٥	١

واعتبر ذلك الاختلاف أيضا فى عدد الملوك على الاجمال ، فقد رايت أن عددهم عند حمزة الاصفهانى ٣٢ ملكا ، وهم عند أبى قتيبة ١١ ، وعند الجرجانى ٩ ، وعند المسعودى ١٠ ، واختلفوا فى أول من ملك منهم ، فقال بعضهم ثعلبة ، وقال آخرون الحارث بن عمرو ، وقال غيرهم جفنة ، وقال غيرهم فى ذلك . وقس عليه اختلافهم فى تعاقب أولئك الملوك وسنى ملكهم وأعمالهم ، مما يجعل القطع فى حقيقة ذلك كله مستحيلا ، فتقتصر على النظر فى قائمة حمزة وما جاء فى كتب اليونان

يقول حمزة ان عدد ملوك غسان ٣٢ ملكا ، اولهم جفنه بن عمرو وآخرهم جبلة بن الايهم ، وانهم حكموا نحو ستمائة سنة . وذلك كثير ، لان الغسانيين لم ينزلوا الشام الا بعد أواسط القرن الثانى للميلاد ، وقد يكون نزولهم فى القرن الثالث ، فلا تتجاوز مدة حكمهم ٤٠٠ سنة . وهذا ما قاله ابو الفداء (١) مع انه أورد من أسماء ملوك غسان مثل الذى أورده حمزة ، وفى مثل ترتيبه ، ولكنه خالفه فى مجمل سنى حكمهم ، وأغضى عن مدة حكم كل واحد منهم على حدة . ولعله تحاشى ذلك لتحققه من سياق التاريخ ان مدة دولتهم لم تتجاوز ٤٠٠ سنة ، مع اعتقاده صحة عدد ملوكها ، فخاف اذا جارى حمزة فى ذكر مدة حكم كل منهم ان تأتى النتيجة مخالفة لما تحققه ، فاكتفى بذكر المدة على الاجمال . ولو أمعن النظر فى تفصيل سنى الحكم ، مع تعاقب الحاكمين من حيث تسلسلهم من الاب الى أبنائه ، لظهر له سبب ذلك الاختلاف ، فيعلم أن ما أورده حمزة من تفصيل سنى الحكم لا يخالف ما تحققه هو عن مجملها

وبيان ذلك ان الاصفهانى نقل مدد أولئك الملوك كما سمعها أو قرأها ممن

(١) ابو الفداء ٧٦ ج ١

سبقه ، كل ملك على حدة كما فى القائمة التى ذكرناها ، ثم جمع السنين فبلغت نحو ستمائة سنة ، وجمع عدد الملوك فبلغ ٣٢ ملكا ، فذكر ذلك مجملا فى آخر الكلام ، وهذا مصدر الخطأ . لأن مدد الحكم ، اذا ثبت مقدار كل منها على حدة ، لا يستلزم أن يكون مجموعها صحيحا . اذ يؤخذ من تعدد الاخوة الذين تولوا الحكم فى بعض الاحوال ان كثيرين منهم كانوا يحكمون متعاصرين ، اذ لا يعقل أن يحكم أولاد الحارث الثانى بن جبلة (ابن مارية) الستة مثلا الواحد بعد الآخر بعد وفاة والدهم ، ومجموع مدد حكمهم ٩٤ سنة ، لأننا اذا فرضنا ان والدهم توفى فى سن الاربعين لاقتضى ان يعيش معظمهم اكثر من مائة سنة . ويقال نحو ذلك فى ابناء جبلة ابن الحارث بن أبى شمر ، وأبناء المنذر والنعمان — ولايضاح ذلك رتبنا ملوك غسان فى جدول ، حسب تناسلهم على رواية حمزة وأبى الفداء ، وبجانب كل اسم مدة الحكم تقريبا (انظر الجدول فى الصفحة التالية)

فاذا نظرت فى هذا الجدول تبين لك ما أردناه ، وهان عليك رد مجموع مدد الحكم الى ٤٠٠ سنة ، وان كنا لا نستطيع تعيين كل مدة على حدة تعيينا مدققا

بقى علينا النظر فيما صح عند الاستاذ نولدكه من قلة ملوك هذه الدولة . فعنده ان عددهم لا يتجاوز عشرة ملوك ، فكيف يمكن تطبيقها على قائمة حمزة ؟ ولو جعلنا مجموع المدد ٤٠٠ سنة فان الفرق لا يزال بعيدا . وتعليل ذلك فى اعتقادنا أن الغسانيين قضوا زمنا طويلا فى ضواحى الشام ، يتوارثون الامارة والروم لا يعرفون عنهم شيئا ، لانهم لم يحتاجوا الى نصرتهم ولم يستخدموهم فى جندهم . والغسانيون فى أثناء ذلك يحكمهم امراؤهم وهم يحصون سنى حكمهم . وقد يتعاصر أميران أو ثلاثة أو أكثر ، فيتولى كل منهم بطنا أو رهطا من القبيلة — وما زالوا على ذلك حتى احتاج الروم اليهم فى محاربة الفرس ، فلما استخدموا بعضهم ومنحوهم لقب ملك — كما سيجىء — أطلق العرب هذا اللقب على سائر أمرائهم فسموهم ملوك غسان ، كما يطلق المؤرخون على ولاة مصر من أبناء محمد على لقب «خديو» ، مع ان أول من نال هذه الرتبة منهم اسماعيل وهو خامسهم . وهذا هو جدول ملوك غسان :

حكم من سنة	
٢٢٠ م	جفنة بن عمرو
٢٦٥	عمرو بن جفنة
٢٧٠	ثعلبة بن عمرو
٢٨٧	الحارث الاول بن ثعلبة
٣٠٧	جبلة بن الحارث الاول
٣١٧	الحارث الثانى بن جبلة «ابن مارية»
٣٢٧	عمرو جبلة الايهم النعمان المنذر الاصغر المنذر الاكبر
٣٨٠	النعمان الحارث الثالث النعمان جفنة المحرق عمرو «لم يحكم»
٤٣٠	النعمان عمرو النعمان
٤٦٠	حجر المنذر عمرو جبلة
٤٨٦	الحارث الرابع
٥١٢	جبلة
٥٢٩	الحارث بن أبى شمر «الخامس»
٥٦٩	النعمان أبو كرب جبلة «لم يحكم»
٦٢٥	شراحيل الايهم المنذر عمرو الحارث «لم يحكم»
٦٣٣	جبلة جبلة

ويؤيد ذلك ان الروم لم يحتاجوا الى نصرة العرب لمحاربة الفرس فى أوائل الدولة الساسانية ، لانهم كانوا يحتقرونها ويعتدون بقوتهم ، حتى كانوا يهاجمون الفرس فى بلادهم ، وقد غلبوهم أيام دقلديانوس مرارا فى أواخر

القرن الثالث للميلاد وأوائل الرابع ، وتنازل لهم الفرس عن بعض بلادهم (١) ثم أصاب الدولة الرومانية الانقسام وتضعضعت أحوالها بالحروب الاهلية ، حتى استبد قسطنطين بالدولة وجمع شتاتها ، وانصرف الى نشر النصرانية وتأييدها . وافضت حكومة الفرس فى أيامه الى سابور ذى الاكتاف ، فحاربه الروم ، وكانت عاصمته فى جندى سابور فنقلها الى المدائن بالعراق ، وطال حكمه وحارب الروم فى عدة وقائع فى أواسط القرن الرابع . وفى اوائل القرن الخامس عقد يزدجر بن بهرام معاهدة صلح مع الروم لمائة سنة، وشعر الروم بضعفهم من ذلك الحين ، ورأوا الفرس يستنجدون اللخميين عرب العراق ، فاضطروا الى استنصار عرب الشام وهم الغساسنة

ملوك غسان فى تاريخ اليونان

أول من ذكره اليونان من أمراء غسان فى خدمة الروم أمير اسمه «جبلة» ، لم يذكروا والده ولا لقبا يمتاز به ، وانما قالوا انه نصرهم سنة ٩٤٧ م فأخمد ثورة اقلقت راحتهم ، فمنحوه رتبة فيلارك Phylarch أى أمير او رئيس قبيلة ، وجعلوه عاملا على بطرا . ويرى نولدكه ان جبلة هذا هو والد الحارث بن جبلة ، اكبر ملوك غسان واكثرهم ذكرا فى كتب اليونان من ٥٢٩ — ٥٦٩ م ، واذا نظرنا فى قائمة حمزة بعد تعديل سنى الحكم بحسب تعاقب الابناء نراه يوافق الحارث بن أبى شمر ، فقد قدرنا هناك أنه نبغ فى أوائل القرن السادس . وجاء فى أخباره بكتب العرب ما يلائم أخبار الروم عنه (٢)

وقد جاء فى تاريخ مالالاس أن الحارث المذكور حارب المنذر ملك الحيرة سنة ٥٢٨ م ، وهو المنذر بن ماء السماء (حكم من سنة ٥١٤ — ٥٤٦) كما سترى فى تاريخ ملوك الحيرة . وكان الحارث المذكور يومئذ يلقب فيلارك فاستعانه الروم بواقعة فى السامرة انتصر فيها ، فرقوه سنة ٥٢٩ وسموه « باسيليوس » ومعناه فى لسانهم « الملك » ، ولكنهم كانوا يستخدمونه اصطلاحا لقبا للأمراء على أعمالهم ، كما فعل المسلمون بعد ذلك فى الاعصر الاسلامية الوسطى ، فكانوا يسمون الوزراء والقواد ملوكا . ولما عرض لكتاب السريان ذكر هذا الامير فى كتبهم ترجموا اللقب حرفيا فقالوا :

---

(١) Gibbon, 1.243

(٢) ابن خلدون ٢١٩ ج ٢

« ملك » ، وجاراهم العرب فى ذلك . اما الروم فلا يفهمون منه هذا المعنى ، ولذلك فلما أرادوا ترقية الحارث المذكور بعدئذ لقبوه بالبطريق ، وهو لقب أشراف الروم وعمالهم . وعرف من ذلك الحين باسم « البطريق الحارث » ، وقد تمتع بهذا اللقب هو وابنه أبو كرب ، وشـــاع ذلك وعرفه السريان واليونان . وكانوا يلقبونه أحيانا « فلافيوس » ، وهو من ألقاب القواد عند الروم . اما العرب فلم يحفظوا من ألقابه غير « الملك » ، وأطلقوه على سائر أمراء هذه الاسرة (*)

الحارث بن جبلة عند الروم

كان للحارث هذا مقام رفيع عند الروم ، وكانوا يهابون سطوته ويعجبون بشجاعته ، وقد بالغوا فى تقريبه وترقيته والخلع عليه ، حتى سموه ملـكا وبطريقا كما رأيت ، وبلغ من شهرته فى الشجاعة وشدة البـأس ان كانت النساء يخوفن أولادهن باسمه ، فاذا بكى الطفـــل أو تمرد قالت له أمه : « اسكت والا أتيتك بالحارث بن جبلة » ، ولم يبلغ هذه الشهرة الا بعد ان أبلى فى نصرة الروم والدفاع عن مملـكتهم

وكان الحارث هذا من أكبر أعوان بليزاريوس القائد الرومانى فى محـاربة الفرس ســـنة ٥٣١ م ، لرد هجمات الفرس والعرب المناذرة عن مملـكة الروم . وكان كسرى أنوشروان قد خلف اباه قباذ على عرش ايران فى تلك السنة ، وكان على مملـكة الروم القيصر جوســـتنيان العظيم ، فتعاصر الملـكان وكلاهما شديد البأس . وكان جند الروم يومئذ فى حرب فى أوربا وافريقية ، وقائده الاكبر بليزاريوس المذكور . فسعى جوستنيان فى مصالحة الفرس ليتفرغ لتلك الحرب ، فصالحه أنوشروان على شروط رضياها . ثم ادرك انوشروان ما كسبه عدوه بتلك المصالحة ، لان بليز اريوس امعن فى فتوحه فى افريقيا وايطاليا ، فندم على صلحه ، ولم يتعود النكث ، فلجأ الى عامله على العرب فى الحيرة — وهو اذ ذاك المنذر بن ماء السماء اللخمى — وكان ذا دهاء ولم يدخل فى المعاهدة . والمنافسة بين المنذر هذا وبين الحارث زعيم الغسانيين طبيعية يومئذ ، وكانا فى نزاع على طريق للماشية فى جنوبى

(*) الثابت من النصوص ان الرومان ثم يطلقوا على رؤساء العرب جمـــلة الا لقبى بطريق Patricius وفيلارخوس Phylarchos ومعناه عامل أو رئيس قبيلة ، وسمحوا لهم بأن يضعوا لفظ فلافيوس Flavius قبل اسمائهم ، وهى من تسميات الاباطرة الرومان ، فقالوا « فلافيوس المنذر البطريق »

تدمر ، يزعم المنذر انها من مملكته ، ويقول الحارث انها له . وتحاربا فانتصر كسرى لعامله ، وكأنه أوعز اليه سرا أن يوغل فى سوريا غزوا ونهبا ، ففعل فعادت الحرب بسبب ذلك بين الدولتين . وحمل كسرى على سوريا وآسيا الصغرى وكاد يفتح القسطنطينية ، ونصيره المنذر المذكور. فاهتزت مملكة الروم وارتعدت فرائص القيصر ، فاستنهض قائده بليزاريوس ، واستنصر عرب غسان وخلع على زعيمهم الحارث بن جبلة ، فمشى جند الروم بقيادة هذين الرجلين . وتقدم بليزاريوس فى معظم هذا الجيش ، حتى خالف جند كسرى فى الطريق ، فنزل ما بين النهرين ، وتجاوز نصيبين الى بلاد الفرس ، وخلف الحارث وراءه ليستأثر هو بثمار الفتح والنهب ، وأدرك الحارث غرضه فقطع أخباره عنه . وبلغ كسرى ما فعله الروم ، فرجع اليهم واخرجهم من بلاده ، ولم يفلح الروم فى حملتهم هذه لأسباب لا محل لها هنا

ثم تقاتل الغساسنة واللخميون ، وطالت الحرب بينهما وانتهت بواقعة آلت الى دخول قنسرين فى حوزة الحارث ، بعد أن قتل بعض ابنائه وقتل المنذر بن ماء السماء . وهى المعركة التى يسميها العرب يوم ذات الخيار او عين اباغ . ويقولون فى سببها أن المنذر المذكور نزل عين اباغ وبعث الى الحارث بالشام يقول : « اما أن تعطينى الفدية فأنصرف عنك بجنودى ، واما أن تأذن بحرب » ، فأرسل اليه الحارث : « انظرنا ننظر فى أمرنا » . فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل اليه يقول : « انا شيخان فلا تهلك جنودنا ، وانما يخرج رجل من ولدى ورجل من ولدك ، فمن قتل خرج عوضه آخر ، واذا فنى أولادنا خرجت أنا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك » . فتعاهدا على ذلك ، وغدر المنذر بالحارث فأنزل بعض رجاله بدلا من أولاده ، فقتل للحارث ولدان ، ثم علم بالمكيدة فحمل على المنذر برجاله وهم ...ر٤٠ فقتلوا المنذر وهزموا رجاله (١)

واعقب « يوم اباغ » « يوم حليمة » ، وفيه حمل المنذر بن المنذر المقتول (تولى سنة ٥٨٢) للأخذ بثأر أبيه فلاقاه الحارث الاعرج (غير ابن أبى شمر) فى مكان اسمه مرج حليمة ، ودارت الحرب بينهما أياما لا ينتصف احدهما من صاحبه . فجعل الحارث ابنته زوجة لمن يقتل المنذر ، فقتله لبيد بن عمرو الغسانى . وكانت واقعة هائلة اجتمع فيها عرب العراق كافة تحت راية المنذر ، وعرب الشام كلهم تحت راية الحارث . وفى ابن الاثير أن

---

(١) ابن الاثير ٢٤٥ ج ١

الحارث صاحب يوم حليمة هو نفس الحارث صاحب يوم اباغ ، ولـكن سياق التاريخ يقتضى أن يكون سواه . فلعله الحارث حفيد ابن أبى شمر ، ولم يذكره حمزة بين ملوك غسان بل ذكر ابنه جبلة (راجع الجدول) أو لعل المنذر ثأر لأبيه قبل أن يتولى الملك

وشـــخص الحارث بن أبى شمر سنة ٥٦٣ الى القسطنطينية ، لمخابرة القيصر بشأن ابنه المنذر ، ليكون خلفا له فى امارة القبائل ، وفيما ينبغى اتخاذه من الوسائل على صاحب الحيرة ، وهو يومئذ عمرو بن هند مضرط الحجـــارة . وهى أول مرة زار الحارث عروس المدائن (القسطنطينية) فأدهشه ما رآه فيها من العظمة والابهة والثروة ، كما دهش أهلهـــا من رؤية الحارث الذى طالما سمعوا به وخوفوا أبناءهم باسمه ، فرأوه رجلا ذا هيبة وقامة وجلال ، أما هو فلم يستأنس بالمدينة ولا بأهلها ، لبعدها عما ألفه من طلاقة البادية وسذاجة عيشها

والحارث هذا هو الذى توسط لامرىء القيس الشاعر فى الذهاب الى قيصر القسطنطينية ، بعد أن أودع السموال ادراعه فى القصة المشهورة (١) وتوفى الحارث سنة ٢٦٩ م ، وقد قضى أربعين سنة فى الحروب والغزوات ، ونال من المنزلة والسطوة ما لم ينله سواه ، وخلفه ابنه المنـذر ، والروم يسمونه المنذروس . وكان على الحيرة قابوس ، أخو عمرو بن هند ، فحاربه المنذر وغلبه . وكان المنذر قد حارب مع جند الروم فى حيـــاة أبيه وهو امير ، فلما خلف اباه سمى بطريقا واعان الروم فى مواقع كثيرة ، وحاز فوق ما حازه أبوه من الاحتفـــاء ، فشخص الى القسطنطينية سنة ٥٨٠ مع ولديه فاحتفل به الروم — وقيصرهم يومئذ طيباريوس ، فألبســـه التاج ولم يلبس أبوه قبله غير الاكليل ، وسماه بعض مؤرخى الروم لذلك « المنذر ملك العرب »

فاذا كان الحارث بن جبلة هذا هو الحارث بن أبى شمر عند العرب كما قلنا ، فالمنذر ابنه هو النعمان بن الحارث عندهم ، ويلقبـــونه أبا كرب . وليس عندهم للحارث ابن اسمه المنذر ، وانما هو ابن ابنـــه كما ترى فى الجدول ، فلا ندرى أوقع الخطأ من العرب أم من الروم

وذكر الروم بعد المنـذر ابنه النعمان ، حكم سنة ٥٨٢ ولم يطل حكمه

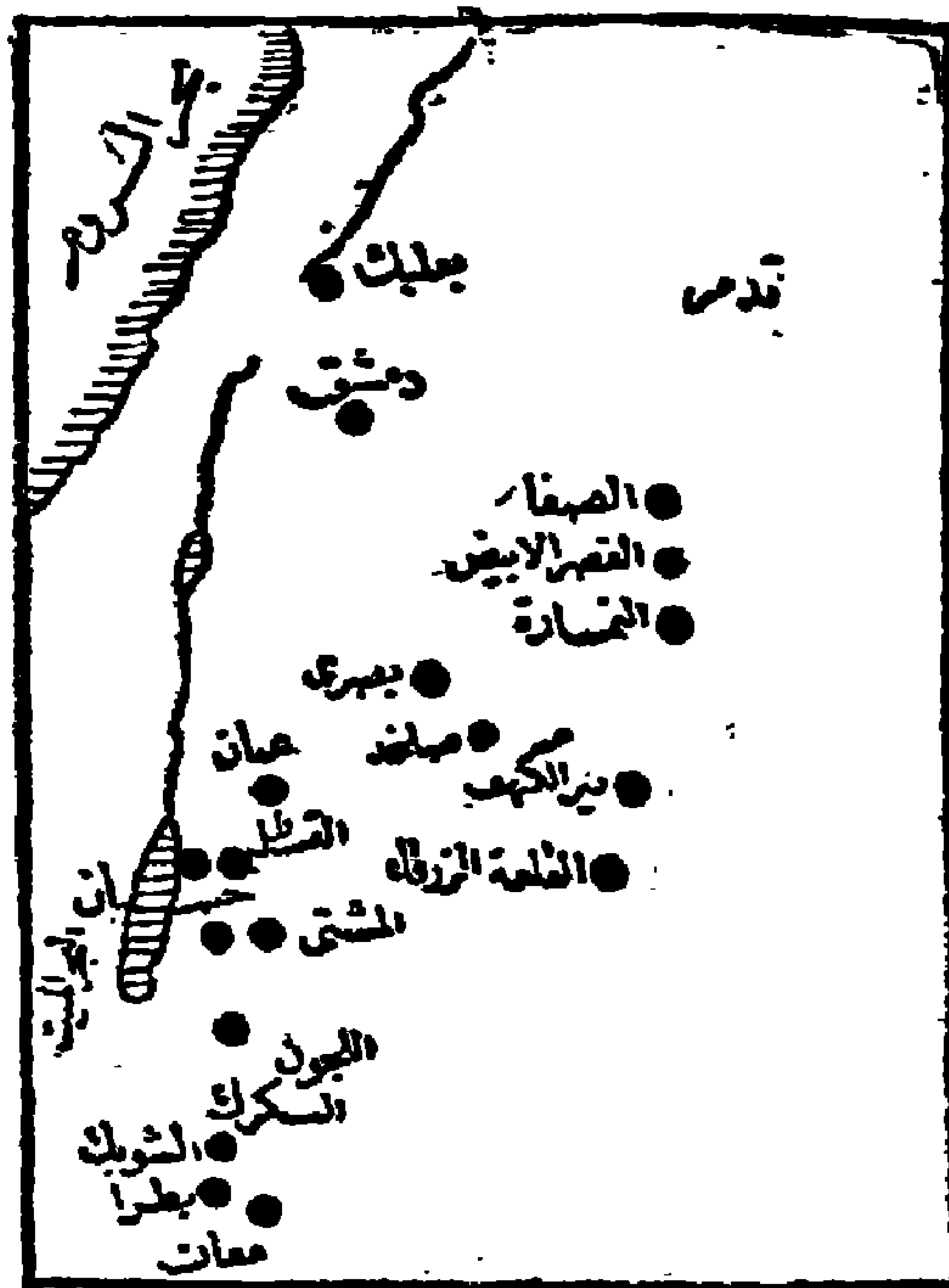
---

(١) الاغانى ٩٩ ج ١٩

فخلفه الحارث الاصغر ، ثم غيره وغيره كما مر بالجدول المنقول عن نولدكه.
ولم يذكر الروم من أعمالهم شيئا ، لانهم قلما استنجدوهم فى أواخر الدولة ، لاشتغال الفرس عنهم واشتغال الروم بأنفسهم ، الا ما كان من حمل الفرس على مملكة الروم سنة ٦١٣ ، وفتحوا سوريا فذهبت دولة العرب منها وانقضت بذلك الفتح ، وآخر ملوكها عند الروم حجر بن النعمان . فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانيين جبلة بن الايهم ، وخبره مع عمر بن الخطاب فى صدر الاسلام مشهور

مملكة الغساسنة وآثارها

لما نزل آل غسان الشام خيموا فى باديتها من جهة حوران ، ثم سكنوا البلقاء واذرح ، واتسعت مملكتهم باتساع سلطانهم ، فبلغت معظم اتساعها فى أيام الحارث بن جبلة المذكور وأولاده ، وأصبحت كلمة الغسانيين نافذة



الخريطة السابعة ــ منازل الغساسنة وقصورهم فى حوران

فى حوران وسائر مشارف الشام ، وفى تدمر وعلى سائر عرب سوريا وفلسطين ولبنان البدو والحضر . وشاد الغسانيون كثيرا من القصور والاديار ، وأنشأوا المدن والقرى ، وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج .

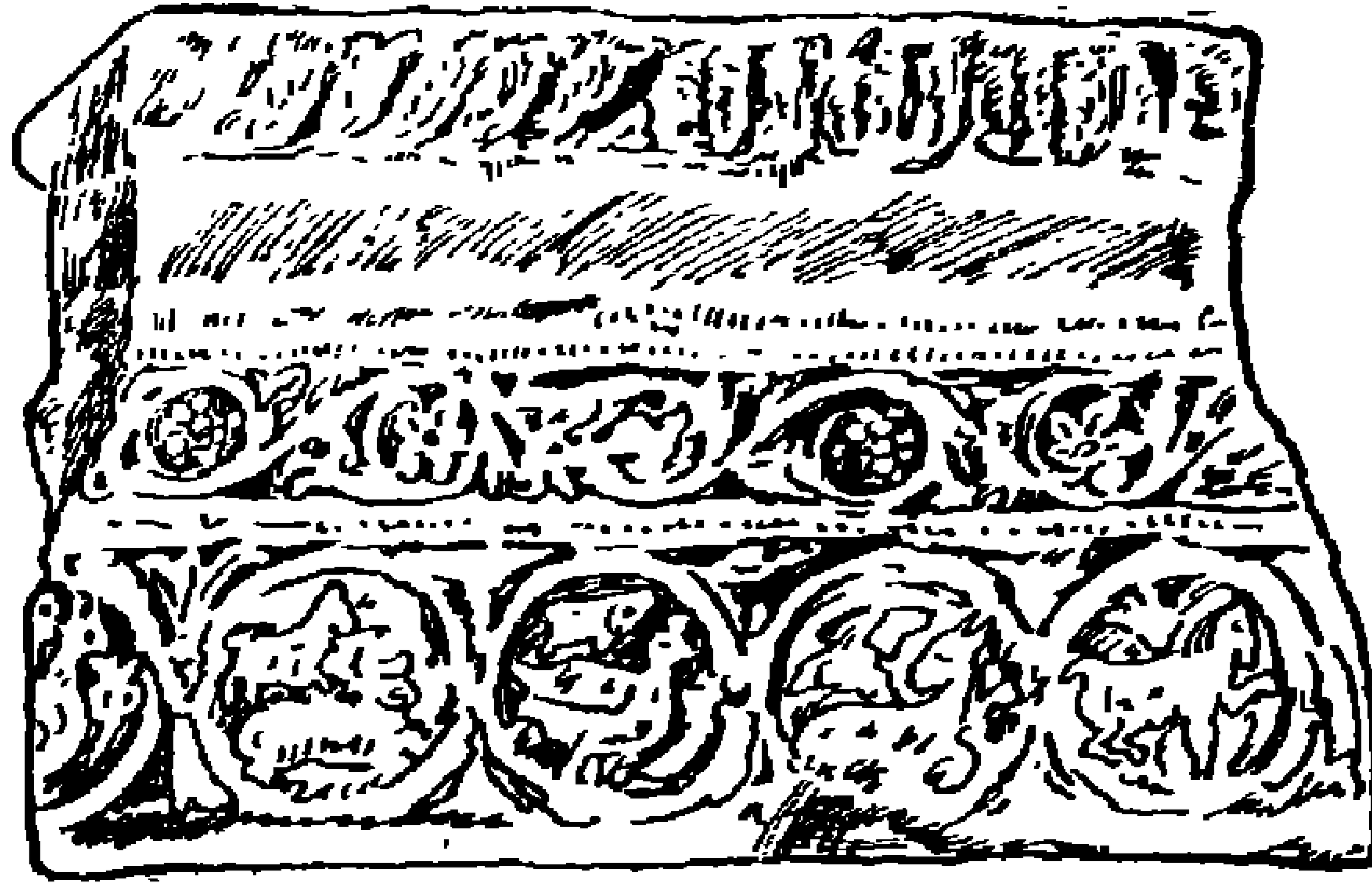
ومما ينسبون بناءه اليهم من المواضع أو البلاد « قسطل » بالبلقاء ، وفيها يقول كثير :

سقى الله حيا بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب (١)

ومنها اذرح من اعمال الشراة ، والجرباء بجانبها . ويقال ان فى اذرح كان امر التحكيم بين أبى موسى الاشعرى وعمرو بن العاص . وشادوا نجران ومعان

ومما ينسبونه اليهم من القصور صرح الغدير والقصر الابيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وقصر الصفا وقصر النمارة وقصر السويداء وقصر بركة وقصر ابين وغيرها . ومن الاديار دير حالى ودير الكهف ودير هند ودير النبوة . ومن الابنية الاخرى القناطر وجسر عاملة ، واصلاح صهاريج الرصافة ــ رصافة الشام . وذكر لهم العرب أبنية أخرى يصعب معرفة اماكنها ، لقلة العناية بالتنقيب عن آثار هذه الدولة ولتصحيف بض اسمائها

وآخر من عنى بالتنقيب عن تلك الآثار الاستاذ دوسو René Dussaud الفرنسي ، ارتاد جبال حوران ووعورها فى اللجا والحراء والرحبة وجبل الصفا ، واطلع على كثير من الآثار والانقاض ، فاستدل من ذلك على خط



بقايا القصر الابيض

دفاع كان فى أطراف حوران يفصل بينها وبين البادية . وهذا الخط كان مؤلفا فى الاصل من عدة حصون ، فى جملتها القصر الابيض والنمارة ودير الكهف والقلعة الزرقاء . وقد شاهد انقاضها ، فرأى القصر الابيض مبنيا

---

(١) ياقوت ٩٥ ج ٤

فى منبسط من الارض مربع الشكل حوله سور فيه برج عال . ووصف قصور النمارة ودير الـكهف وغيرها كما شاهدها ، وليست كلها من بنـاء الغسانيين وان كنا لا نعلم بانيها . وعلى كل حال فالقصر الابيض يمتـاز من بينها بنقوش جميلة ، فيها صور وطيور وخيول وفهود وأسود وبقر وأفيال حتى السمك . وفيه شيء من الطراز الفارسى الساسانى ، والمظنون ان الغسانيين بنوه فى ظل الروم ، ليقيموا فيه على حدود البـادية لدفع العرب المهاجمين . ويرى دوسو خلاف ذلك ، مجاراة لنولدكه بقرب عهـد الغساسـنة (١) وتلك الابنية أقدم منها عهـدا ، لا سيما وانهم عثروا فى انقاض النمارة على أثر عربى مكتوب بالحرف النبطى سنة ٣٢٨ م ، عن أمير لخمى ، ولم يجدوا فيه ذكرا لامير غسانى . وسنعود الى ذلك (*)



(١) Dussaud, 32

(*) أورد جواد علي فى الجزء الرابع من كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ص ١٢٤-١٥٩ تفاصيل أعمال كل ملك من ملوكه الغساسنة بحسب مارواه حمزة الاصفهانى وراجعها على ماذكره نولدكه وما عثر عليه فى النصوص

دولة اللخميين

فى العراق

كان اللخميون عمال الفرس على أطراف العراق ، كما كان الغساسنة عمال الروم على مشارف الشام . وقد رأيت فى كلامنا عن قضاعة أن أول من حكم العراق آل تنوخ ومنهم جذيمة الابرش ، وان الحكم صار بعده الى ابن أخته عمرو بن عدى وهو من آل نصر فرع من لخم . ولذلك فان هـــذه الدولة تسمى دولة آل نصر ، أو آل لخم أو آل عمرو بن عدى ، أو ملوك الحيرة ، أو المناذرة على السواء

وتاريخ هذه الدولة أوضح من تاريخ آل غسان واثبت ، لانه كان مدونا فى كتب الحيرة مثبتا فى كنائسهم وأشـــعارهم ، وفيهـــا أنسابهم وأخبـــارهم ومبـــالغ أعمار من ولى منهم للأكاسرة وتاريخ نسبهم ، وعليهـــا كان معول المسلمين فيما ورد من أخبار هذه الدولة (١)

وأكمل ما وصـــل الينـــا من توالى ملوك هذه الدولة ومبالغ أعمارهم ما ذكره حمزة الاصفهانى فى كتابه سنى الملوك ، فانه أورد نسب كل ملك ومدة حكمه ومن عاصره من ملوك الفرس ومدة معاصرة كل ملك ، ولذلك هان علينا تعيين بداية حكم كل منهم ونهايتـــه مع ملاحظـــة قرائن أخرى اقتضت التعديل فى بعض الاحوال . ولا سيما فى مدد حكم بعض الملوك التى تجاوزت طور المعقول ، كمدة حكم عمرو بن عدى فقد جعلوها ١١٨ سنة ، ومدة خلفه امرىء القيس ١١٤ سنة ، فعدلنا ذلك وأمثاله بالتطبيق على مدد حكم المعاصرين من ملوك الفرس وغيرهم وبقرائن أخرى — وهذا جدول بأسماء ملوك الحيرة وبداية تاريخ كل منهم ، وبجانبه جدول ملوك الفرس الساسانية الذين عاصروا تلك الدولة :

---

(١) ابن خلدون ٢٦٢ ج ٢

جدول ملوك آل لخم فى الحيرة

اسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم
عمرو بن عدى	٢٦٨م	٢٠
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨	٤٠
عمرو بن امرؤ القيس	٣٢٨	٤٩
اوس بن قلام	٢٧٧	٥
امرؤ القيس المحرق بن عمرو	٣٨٢	٢١
النعمان الاعور بن امرؤ القيس	٤٠٣	٢٨
المنذر بن النعمان الاعور	٤٣١	٤٢
الاسود بن المنذر	٤٧٣	٢٠
المنذر بن المنذر اخوه	٤٩٣	٧
النعمان بن الاسود بن اخيه	٥٠٠	٤
علقمة أبو يعفر	٥٠٤	٣
امرىء القيس بن النعمان	٥٠٧	٧
المنذر بن امرىء القيس الملقب ابن ماء السماء والحارث بن عمرو الكندى	٥١٤	٤٩
عمرو بن هند مضرط الحجارة	٥٦٣	١٦
قابوس اخوه	٥٧٨	٤
فيشهرت « أو زيد »	٥٨١	١
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨٢	٣
النعمان بن المنذر ابوقابوس	٥٨٥	٢٨
اياس بن قبيصة	٦١٣	٥
زاديه	٦١٨	١١
المنذر المغرور	٦٢٨	٤

ملوك الدولة الساسانية فى فارس

اسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم
أردشير	٢٢٦	١٥
سابور الاول بن اردشير	٢٤١	٣١
بهرام الاول هرمز بن سابور	٢٧٢	١
بهرام الثانى بن بهرام	٢٧٣	٣
بهرام الثالث بن بهرام بن بهرام	٢٧٦	١٧
نرسى بن بهرام	٢٩٣	٩
هرمز الثانى بن نرسى	٣٠٢	٧
سابور الثانى ذو الاكتاف	٣٠٩	٧٠
اردشير الثانى بن سابور	٣٧٩	٦
سابور الثالث بن سابور	٣٨٣	٥
بهرام الرابع بن سابور	٣٨٨	١١
يزدجرد الاول بن بهرام « الاثيم »	٣٩٩	٢١
بهرام جور الخامس بن يزدجرد	٤٢٠	١٨
يزدجرد الثانى بن بهرام	٤٣٨	١٩
هرمز الثالث فيروز بن يزدجرد	٤٥٧	٢٧
بلاش بن فيروز	٤٨٤	٤
قباذ الاول بن فيروز	٤٨٨	٤٣
كسرى أنوشروان بن قباذ	٥٣١	٤٧
هرمز الرابع بن كسرى انوشروان	٥٧٩	١١
كسرى برويز بن هرمز	٥٩٠	٣٨
من شيرويه بن كسرى الى يزدجرد الثالث	٦٢٨	٤

فملوك الحيرة ٢٢ ملكا ، تولوا الملك ٣٦٤ سنة ، وكلهم من نسل عمرو ابن عدى من آل نصر أو لخم ، الا ستة من الدخلاء ، وهم : اوس بن قلام ؛ والحارث بن عمرو بن حجر الكندى ، وعلقمة بن يعفر ، واياس بن قبيصة ، وفيشهرت ، وزاديه الفارسيان وقصبة ملكهم جميعاً الحيرة .

الحيرة

كانت الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الـكوفة ، فى موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية ، فى حدود البادية بينها وبين العراق ، وتقع الآن فى الجنوب الشرقى من مشهد على (١) . وقد أكثر العرب من تحليل اسمها وتعليله ، على عادتهم فى ارجاع الاعلام الى مشتقات عربية ، فقالوا سميت بذلك من الحيرة أى الضلال ، لأن تبعا لما بلغ موضع الحيرة — على ما يزعمون — ضل دليله وتحير . وزعم آخرون أن مالـكا لما نزلها جعلها حيرا — أى حظيرة أو بستانا — واقطعه قومه ، ثم صارت الحـيرة . وقال غيره بل سميت الحيرة من الحوار ، أى البياض ، لبياض أبنيتها . والحقيقة ان لفظها سريانى معناه الحصن أو المعقل حوله الخندق ، وهى والحير العربية من أصل واحد ، كما نرى من تقارب اللفظ والمعنى . ولذلك كانوا يعرفونها بقولهم : « حيرة النعمان » أو « حيرة المنذر » ، أى حصنه أو معقله على جارى العادة فى انشاء المدن يومئذ . فكان الملك أو الامير يبنى معقلا لنفسه وحاشيته ، ثم يبنى الناس حوله فيتسع المـكان بتوالى الازمان ويصير مدينـة . وعلى هذا النمط نشأت البصرة والـكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها من المدن الاسلامية (٢) ✻ ومن هذا القبيل ما بناه الغساسنة على حدود البادية فى شرقى حوران من المعاقل او القصور ، فقد كان المراد ببنائها حماية حدود المملـكة من جهة البادية ، كما هو الغرض من حيرة العراق

والحيرة المذكورة ما لبثت الا قليلا حتى صـارت مدينـة ، فيها المنـازل والقصور والحدائق والانهار ، على حد قول الشاعر عاصم بن عمرو :

صبحنـا الحيرة الروحاء خيـلا ورجـلا فوق اثبـاج الـركاب
حضرنا فى نواحيهـا قصـورا مشرفـة كأضراس الـكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها لقربها من هواء البرية النقى ، حتى قالوا : « يوم وليـلة فى الحيرة خير من دواء سنة » . وظلت الحيرة عامرة بعـد الاسلام عدة أجيال . وكان بجوارها قصران كبيران هما الخورنق والسدير

---

(١) Rothstein, 13 (٢) تاريخ التمدن الاسلامى

(✻) الحيرة مدينة قديمة على مقربة من الموضع الذى قامت فيه الكوفة العربية فيما بعد . ويرجع أقدم نص ورد فيه اسمها الى سنة ١٣٢ ميلادية ، والغالب أن العرب أخذوا اسـمها من صيغته السريانية « حيرتا » أو « حارتا » بمعنى المخيم أو المعسكر . وقد ذكرت الحيرة فى مؤلفات السريان بانها « مدينة العرب » أو « حيرة النعمان » . وتذكر مع الحيرة فى بعض كتـب السريان مدينة أخرى هى « العاقولاء » التى يذهب ابن العبرى الى أنها الكوفة

Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden. S. 9 sqq.

كالقلاع ، والاول منهما على مرتفع مشرف على الحيرة على نحو ميل فى شرقيها ، وسيأتى ذكرهما

سكان الحيرة

لما كانت الحيرة على طرف العراق فى الغرب ، وليس بعدها غير البادية ، رغب فيها البدو فكان يؤمها البدوى لابتياع بعض الحاجيات ، ثم لا يلبث أن يقيم فيها . وكان يأتيها جماعات من مدن العراق والجزيرة ، فرارا من حكم أو تنحيا عن عمل ، كأن يحدث أحدهم حدثا فى قومه أو تضيق به المعيشة فى بلده ، فيخرج الى ريف العراق وينزل الحيرة ، ولذلك كان سكانها أخلاطا من أمم شتى أكثرهم من العرب . وقد قسمهم هشام الكلبى الى ثلاثة أقسام (١) : تنوخ ـ من بقايا العرب الذين كانوا مع مالك بن فهم وجذيمة الابرش ، وكانوا يسكنون المظال والبيوت من الشعر أو الوبر فى غربى الفرات ما بين الحيرة والانبار وما فوقها : (٢) العباد ـ وهم سكان الحيرة نفسها الذين نزلوا فيها وابتنوا المنازل لسكانهم (٣) الاحلاف ـ الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم ، وهم ليسوا من تنوخ سكان بيوت الشعر ولا من العباد (*)

وللعباد شأن فى تاريخ العراق قبل الاسلام وبعده ، وقد اختلف الناس فى حقيقتهم ، فقال بعضهم أن المراد بهم نصارى الحيرة على الاجمال ، وهم فى

(*) لم يقتصر أهل الحيرة على البلدة نفسها ، فقد كانت حولها مزارع يفلحها الزراع ومراع يرعى البدو فيها ماشيتهم ، وكانوا جميعا يعتصمون فى البلد فى أوقات الخطر . ويرجح أن هذا هو السبب البعيد لتقسيم أهل الحيرة الى ثلاث طوائف هى تنوخ والعباد والاحلاف فتنوخ هم جماعات البدو الذين كانوا « ينيخون » حول البلد وعلى مقربة منها ، ويرجح أنهم لم يكونوا قبيلا واحدا كما يفهم من النصوص ، بل أخلاطا من عرب البحرين وعمان وبوادى الشام غالبهم من الاسماعيلية. ويذهب ابن الكلبى الى أن تنوخ أصلهم من أولاد معد بن عدنان الذين سكنوا تهامة ثم هاجروا بطونا شتى ، واجتمعوا بالبحرين ، وتحالفوا على التنوخ ، وهو المقام ، فصاروا يدا على الناس ، وضمهم اسم « تنوخ »

ولابن اسحاق رواية أخرى ، تذهب الى أن ربيعة بن نصر اللخمى هاجر بقومه لخم من اليمن خوفا من غزو الاحباش لليمن ، وأن سابور بن خرزاذ ملك الفرس أسكنهم الحيرة ، والغالب كما قلنا أن تنوخا اسم عام على جماعات العرب التى تجمعت حول الحيرة ، وقد يكون بعضهم قد سكنها . أما تفسير ابن الكلبى وغيره للاسم فلا يمكن الاخذ به ، وقد رجح جواد على انه تعريب لاسم قبيلة عربية قديمة كانت تقيم فى هذه النواحى ذكرها بطليموس فى جغرافيته باسم Tanueitae و Thanuitae وقد انتقلت النصرانية الى جماعات العرب التى عرفت بتنوخ من الحيرة ، وكانت مدينة نصرانية من قديم الزمان ، وكان لها أسقف يحضر المجامع الدينية النصرانية ممثلا لها

أما العباد ، فاسم يطلق على نصارى الحيرة نفسا دون غيرهم من نصارى العرب ، وقد أطلق الاسم تمييزا لنصارى الحيرة عمن كان فيها من الوثنيين ، وقد يكون أصل الاسم عباد المسيح، وهذا هو رأى نولدكه فى « تاريخ الساسانيين » وروتشتاين فى تاريخ اللخميين

والاحلاف هم الذين نزلوا الحيرة أو ما حولها ولم يكونوا عربا أو عبادا ، وكان معظمهم من الفرس والنبط ، وقد كان بعض أولئك النبط يتحدثون العربية برطانة ظاهرة ، وتأثرت عربية عرب الحيرة بهذه الرطانة

الاصل قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فى الحيرة . ولما صارت النصرانيـــة فى أواســـط القرن الخامس ثلاث كنائس : الملـكانية واليعقوبية والنسطورية ، كانت النسطورية من حظ المشارقة على الخصوص فى العراق وفارس ، والعبـــاد من جملتهم . وابتنوا فى الحيرة بيعة كبرى لهذه الطائفة ، تولاها عدة اساقفة وزادت أهميتها على الخصوص بعد أن تنصر ملوكها ، يدل على ذلك كثرة ما بنوه من البيع والاديار ، حتى النساء فقد كانت لهن عناية بانشاء المعاهد الدينية ، أشهرها دير هند الـكبرى فى الحيرة بنته هند أم الملك عمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند ، وكان على صدر الدير نقش هذا نصه :

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملـكة بنت الاملاك وأم الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبده فى ملك ملك الاملاك خسرو انو شروان فى زمن مار افريم الاسقف . فالاله الذى بنت له هذا الدير يغفر لها خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها وبقومها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر »

ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر . وللنصرانية فى الحيرة تاريخ ليس هذا محله . ولايضاح تاريخ ملوك الحيرة نذكر تسلسلهم فى جدول ، ثم نأتى على اعمال كل منهم على حدة

ملوك الحيرة آل نصر حسب تسلسلهم ، غير الدخلاء

عمرو بن عدى

امرؤ القيس بن عمرو

عمرو بن امرىء القيس

امرؤ القيس بن عمرو

النعمان الاعور بن امرىء القيس

امرؤ القيس — المنذر بن النعمان

المنذر بن ماء السماء — المنذر الأسود

عمرو بن هند — المنذر — قابوس — النعمان

النعمان (أبو قابوس)

المنذر (المغرور)

ملوك الحيرة

(١) عمرو بن عدى (من سنة ٢٦٨ - ٢٨٨ م) *

هو ابن عدى بن نصر من لخم . تولى عدى شراب جـذيمة الابرش فى أثناء دولته ، وكان لجذيمة أخت اسمها رقاش ، أحبت الشاب واحتالت فى تزوجه ، وتواطأت معه على أن يسقى أخاها حتى يسكر ثم يخطبها ، ففعل فأجـابه جذيمة وهو سكران . فلمـا صحا ندم ، فخاف عدى فهرب . ووضعت رقاش غلاما جميلا ، جاء به بعضهم الى جذيمة فأحبه لجمـاله وذكائه وسماه عمروا . ولما كان ما كان من أمر الزباء وقتلها جذيمة ، قام ابن أخته عمرو المذكور مقامه ، وأخذ بثأر خاله بحيلة على يد رجل من لخم اسمه قصير حتى قتلها فى حديث طويل جاء فيه كثير من الامثال القديمة (١) واتخذ عمرو الحيرة منزلا خاصا به وبأهل دولته فى أوائل الدولة الساسانية ، فعاصر سابور الاول والبهرامات الثلاثة

(٢) امرؤ القيس بن عمرو (من سنة ٢٨٨ - ٣٢٨ م)

وهو امرؤ القيس الاول بن عمرو بن عدى ، ويسمونه البدء . وقد اتسع سلطانه وطالت مدة حكمه وبالغ العرب فيها فجعلها بعضهم مائة سنة وبعض المائة ، وهى لا تزيد على أربعين سنة . وامرؤ القيس هذا أول من وقف المنقبون على اسمه من ملوك لخم منقوشـا على قبره وفيه تاريخ وفاته ، وذلك ان دوسو المستشرق الفرنسى عثر فى خرائب النمارة - التى ذكرناها بين آثار الغسـانيين فى حوران - على حجر مربع الشكل من البـازلت مساحته ٤ر٠٤ متر فى ٣ر٣٠ متر ، أصله من أنقاض قبر قديم وهو العتبة العليا من ذلك القبر ، وعليه خمسة أسطر منقوشة بالحرف النبطى واللسان العربى الشمالى - وليس باللغة الحميرية أو الحرف المسند كما ينتظر لو

(*) للاخباريين أقوال مختلفة فى أصل ملوك الحيرة وأول من حكم منهم . فيذهب الطـبرى واليعقوبى الى أن أول ملك للحيرة من العرب هو مالك بن فهم من الازد وخلفه أخـوه عمرو بن فهم على رواية وجذيمة الابرش المعروف بجذيمة الوضاح فى رواية أخـرى . وجذيمة شخصية معروفة عند مؤرخى العرب ولكنها تكاد تكون أسطورية ، فالطبرى يقول عنه انه « من أفضل ملوك العرب رأيا وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية ، وأظهرهم حزما ، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب ، وغزا بالجيوش » (ج ٢ ص ٢٩) . وحكم عشرين سنة

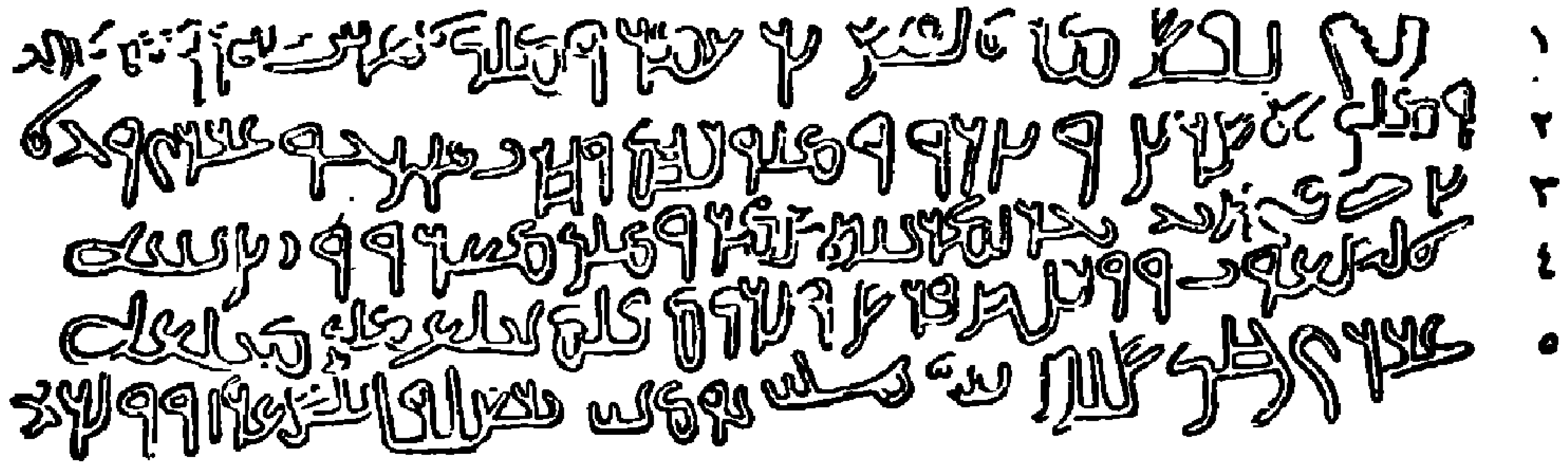
وانتقل الملك من بعـده الى ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود ابن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم ، ولهذا يعرف ملوك الحيرة من العرب بآمال عمرو بن عدى وآل نصر وآل لخم ويجعل الاخباريون أصلهم فى اليمن ، ويقولون أنهم من حمير ومن التبابعة

أنظر حمزة الاصفهانى ، ص ٦٠ وما يليها

والطبرى ، جـ ٢ ص ٣٠ وما يليها

(١) ابن الاثير ١٤٩ ج ١

ان آل نصر من بنى قحطان كما يقولون — بل هى منقوشة باللغة العربية الشمالية أو لغة عدنان كما كانت فى ذلك الحين ، اى فى أوائل القرن الرابع للميلاد ، وبالحرف النبطى الذى كان يكتب به عرب الشمال . وهذه أقدم كتابة عربيـــة شمالية قراوها منقوشـــة على الآثار ، طولها متر ، و ١٦ سنتيمترا فى ٣٣ سنتيمترا ، هذه صورتها :



كتابة عربية بخط نبطى على قبر امرىء القيس بن عمرو

وهذا نصها بالحرف العربى كل سطر على حدة :

١ — تى نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج
٢ — وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء
٣ — بزجو (؟) فى حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
٤ — الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ — عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

هذا لسان عربى تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها الى ايضاح . ففيها من الالفاظ الآرامية أو النبطية « تى » أى هذا ، و « نفس » قبر ، و « بر » ابن ، و « عكدى » اليوم . وكان العرب يومئذ فى دور الانتقال لاستخدام لغتهم بدل اللغة الآرامية للـكتابات الرسمية . واذا نظرت فى صورة الخط نفســـها رأيتها فى أول دور الانتقال أيضا من الشكل النبطى الى الشكل العربى ، لان الخط العربى الشائع بيننا الآن متحول عن الحرف النبطى الذى كان شائعا فى مملـكة الانباط (١) وقد نشرنا أمثلة منه فيما تقدم

وتفسير هذه الـكتابة باللغة العربية الفصحى هو :

١ — هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج
٢ — واخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
٣ — الظفر الى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٥٤ ج ٣ (طبعة رابعة)

٤ — على القبائل وإنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ — الى اليوم . توفى سنة ٢٢٣ ، فى اليوم السابع من ايلول (سبتمبر)
وفق بنوه للسعادة

وكان أهل الشام وحوران وما يليهما يؤرخون فى ذلك العهد بالتقويم البصروى نسبة الى بصرى عاصمة حوران ، وهو يبدأ بدخولها فى حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد ، فاذا اضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد ، وهى السنة التى توفى فيها هذا الملك

فامرؤ القيس المذكور يرجح انه ملك الحيرة الذى نحن فى صدده ، لاننا لا نعرف ملكا بهذا الاسم عاش نحو ذلك الزمن . ويرى المسيو كليرمون جانو المستشرق الفرنسى أن لفظ التاج كاف وحده للدلالة على علاقته بالفرس ، وان وجدوا قبره فى حوران وهى تابعة للروم ، لان لقب « ذى التاج » من القاب ملوك الحيرة . وأما وجود قبره فى حوران بعيدا عن الحيرة فلعل سببه ان سلطته امتدت على قبائل العرب فى بادية الشام والعراق ، واقواها يومئذ معد وأسد ونزار ومذحج . ويظهر انه حارب شمر يهرعش صاحب حمير وهو معاصر له (راجع قائمة ملوك حمير) وولى أولاده على تلك الاعمال كما ذكر على قبره . ويؤيد ذلك قول العرب : « ان امرأ القيس كان عاملا للفرس على مذحج من ربيعة ومضر وعلى سائر بادية العراق والجزيرة والحجاز » (١) ولعله جاء الى حوران فى مهمة أو شأن وتوفى فيها فبنوا له قبرا دفنوه فيه . بنوا قبره فى أرض رومانية ، وكتبوا عليها بالحرف النبطى قلم تلك الولاية ، وارخوه بتاريخها ، مما يدل على علائق ودية كانت بينه وبين الشام (٢) . وعاصر امرؤ القيس من ملوك الفرس بهرام الثالث ، ونرسى ، وهرمز بن نرسى ، وسابور ذا الاكتاف (*)

(٣) عمرو بن امرئ القيس (من ٣٢٨ — ٣٧٧ م)

ولما توفى امرؤ القيس بن عمرو خلفه ابنه عمرو بن امرىء القيس ، وأمه هند بنت كعب بن عمرو . وطالت مدة حكمه نحو نصف قرن ، فعاصر

---

(١) ابن خلدون ١٧١ ج ٢ ، (٢) Dussaud, 37

(*) يذكر الطبرى أن أمرأ الخيس هذا هو أول من تنصر من ملوك الحيرة من آل لخم ، وذكر ايضا أنه كان عاملا للفرس « على خراج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية الشام والحجاز والجزيرة » ، وقد أيد نص النمارة الذى يتحدث عنه جرجى زيدان باسهاب هذا القول ، ونستدل نحن من قول الطبرى على أن عرب الحيرة لم يكونوا كلهم من الاسماعيلية أو القحطانية ، بل كانوا خليطا ، أما قول الطبرى أنه كان أول من تنصر فلم نستطع تأييده ، وان كان يغلب على الظن انه كان نصرانيا بدليل ان اسمه امرؤ القيس « وهو تعريب مرقص »

ذا الاكتاف معظم حكمه ، ولا نعرف عنه شيئا كأن أيامه كانت أيام سلم ورخاء فلم يذكره التاريخ . وأقل الناس ذكرا فى التاريخ أقربهم الى السعادة (*)

(٤) اوس بن قلام (من ٣٧٧ – ٣٨٢ م)

هذا دخيل فى دولة آل نصر ، ليس له نسب فيهم . حكم خمس سنين فى أيام ازدشير بن سابور ، حتى قتله أحد بنى نصر فعادت حكومة الحيرة اليهم (**)

(٥) امرؤ القيس بن عمرو بن امرىء القيس من (٣٨٢ – ٤٠٣ م)

ويعرف بامرىء القيس البدن ، وهو محرق الاول لأنه اول من عاقب بالنار . وحكم ٢١ سنة فى أيام سابور بن سابور ، وبهرام بن سابور ، ويزدجرد الاول . وليس لدينا من أخباره ما يستحق الذكر

(٦) النعمان بن امرىء القيس الأعور السائح (من ٤٠٣ – ٤٣١ م)

هو من أشهر ملوك الحيرة ، حكم ٢٨ سنة عاصر فيهما من ملوك الفرس يزدجرد الاول وبهرام جور . وكان من اشد ملوك العرب نكاية بأعدائه وأبعدهم مغارا . غزا الشام مرارا ، وأكثر من المصائب فى أهلها ، وسبى وغنم ، وجند الجند على نظام عرف به . وكان عنده من الجيش كتيبتان ، احداهما مؤلفة من رجال الفرس اسمها « الشهباء » ، والاخرى من تنوخ اسمها « دوسر » ، فكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب . وكان صارما حازما ضابطا لملكه ، واجتمع له من الاموال والرقيق والخول ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة

وكانت الحيرة على شاطىء الفرات ، والفرات يدنو من أطراف البر حتى يقرب من النجف ، فلما تبسط النعمان فى العيش رأى أن يتخذ مجلسا عاليا يشرف منه على المدينة ، فاتخذ « الخورنق » على مرتفع يشرف على النجف وما يليه ، من النخل والبساتين والجنان والانهار ، مما يلى المغرب وعلى الفرات مما يلى المشرق ، فأعجبه ما رأى فى البر من الخضرة والنور

(*) يذهب المسعودى فى مروج الذهب الى أن أم عمرو بن امرىء القيس هى مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك الغساسنة . وذكر بعض الاخباريين أنه حكم ٢٥ سنة فقط وذهب اليعقوبى انه حكم ٤٠ سنة

(**) تجمع الروايات على أن آوسا هذا غصب العرش من آل نصر وحكم خمس سنين حتى قتله رجل يسميه ابن الكلبى جحجبا بن عتيك بن لخم ويسميه حمزة جحجبا بن عبيل أحد بنى فاران . وذكر ابن الاثير ان ملك الفرس سابور ذا الاكتاف استخلف على الحيرة بعد أوس امرأ القيس بن عمرو بن امرىء القيس الكندى ، وهذا وهم منه لان امرأ القيس المراد هنا هو ابن عمرو ابن امرىء القيس الاول اللخمى

والانهار الجارية ولقاط الكماة ورعى الابل وصيد الظباء والارانب . وفى الفرات من الملاحين والغواصين وصيادى السمك ، وفى الحيرة من الاموال والخول من يموج فيها من رعيته . ففكر في ذلك وقال فى نفسه : « أى درك فى هذا الذى قد ملكته اليوم ويملكه غدا غيرى » . فبعث الى حجابه فنحاهم عن بابه ، فلما جن الليل التحف كساءه وساح فى الارض فلم يره احد . وفيه يقول عدى بن يزيد يخاطب النعمان بن المنذر الآتى ذكره :

وتدبر رب الخورنق اذ اشـ ... ـرف يوما وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك ... والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال : وما ... غبطة حى الى الممات يصير ؟

وقد ذكروا من حديث بناء الخورنق ما هو مشهور متناقل ، نعنى حديث سنمار الذى بناه وكيف قتله حتى لا يبنى سواه

وكان النعمان هذا زوجا لابنة زهير بن قيس بن جذيمة من بنى عبس ، فأرسل الى حميه المذكور يستزيره بعض أولاده ، فأرسل ابنه شاسا فأكرمه النعمان وأعطاه مالا وطيبا ، فلما رجع شاس يريد قومه قتله فى الطريق رباح بن الاشل الغنوى وأخذ ما كان معه ، وعلم أبوه فحمل عليهم ، فحصلت معركة عرفت بيوم رحرحان سيأتى ذكرها فى كلامنا على أيام العرب (*)

(٧) المنذر بن النعمان بن امرىء القيس (من ٤٣١ ـ ٤٧٣ م)

ذكر حمزة هذا المنذر وقال ان أمه هند بنت زيد مناة بن زيد عمرو الغسانى ، وانه حكم ٤٤ سنة ، وذكر ملوك فارس الذين عاصرهم وهم : بهرام جور بن يزد جرد الاثيم ، ويزدجرد بن بهرام ، وفيروز بن يزدجرد . ومع ذلك فهم يقولون انه تولى تربية بهرام جور ، دفعه اليه أبوه يزدجرد الاثيم ليربيه من الرضاعة فما بعدها ، فلما بلغ خمس سنين أحضر له مؤدبين علموه الكتابة والرمى والفقه بطلب من بهرام بذلك ، وأحضر له حكيما من حكماء الفرس ، فوعى كل ما علمه . فلما بلغ ١٢ سنة فاق معلميه ، فأمرهم المنذر بالانصراف وأحضر معلمى الفروسية فأخذ عنهم كل

(*) يورد مؤرخو العرب أخبارا كثيرة عن النعمان هذا ، والكثير منها يناقض بعضه بعضا ، فبينما يقولون انه زهد فى الملك وساح فى الارض فلم يعرف له خبر يذهبون فى روايات أخرى الى أنه قتل فى معركة وقعت بينه وبين الحارث بن عمرو الكندى . ويذهب ابن خلدون الى أن النعمان تنصر ، ويذكر لويس شيخو أنه اعتنق النصرانية بتأثير القديس سمعان العمودى Symeon Stylites الذى كان يبشر اذ ذاك بالنصرانية فى أرض الحيرة . وفى رأينا أن آل نصر قد تنصروا قبل ذلك

ما ينبغى له ، ثم صرفهم وامر فأحضرت خيل العرب للسباق فعلمه ركوب الخيل والرمى والصيد وغير ذلك ، فأقبـــل على اللهو والتلذذ فمات أبوه وهو عند المنذر . فتعاهد العظماء وأهل الشرف على أن لا يملـكوا احــدا من ذرية يزدجرد ، لسوء سيرته ونشوء بهرام عند العرب وتخلقه بأخلاقهم ، وملـكوا رجلا من عقب ازدشير بن بابك ، فاستنصر بهرام بالمنذر فنصره ورد اليه الملك بالسيف ، وأطاعه الجميع فى حديث طويل (١) ولـكنه ظل على لهوه حتى طمع فيه ملك الترك فعاد الى رشده وحاربهم وغلبهم

وللمنذر هـذا فضل على بهرام جور وعلى أبيه يزدجرد ، لانه أعانه فى حروب كثيرة ومن جملتها حرب مع الروم . وذلك ان يزدجرد اضطهـد النصارى فى بلاده ، وجاراه ابنه بهرام جور ، فنهض الروم لنصرة النصارى — أو هى ذريعة للحرب طمعـــا فى الفتح على عادة الطامعين من دول أوربا فى الشرق ، ولا يزال ذلك دأبهم الى اليوم — فانتشبت الحرب بين الدولتين، وحاصر الروم نصيبين ، فاستنصر بهرام المنذر فلباه ، ووعد أن يكتسح له سوريا أيضا ، وقد فعل وبالغ رجاله فى النهب والقتل . فلمـــا بلغ خبر ذلك الى القسطنطينية وقع الرعب فى قلوب الروم ، وعمدوا الى الصـلاة والاستعاذة بالله من ذلك الاسد العربى . ولو دخل الفرس عاصمة النصرانية يومئذ لتغير وجه أوربا ، كما تغير لما فتحها العثمانيون بعد ذلك بنيف والف سنة . ولـكن أوربا نجت يومئذ باضطراب وقع فى معسكر المنذر اضطره الى عقد الصلح (*)

(٨) الأسود بن المنذر بن النعمان (٤٧٣ — ٤٩٣ م)

اشتهر هذا الملك بمعركة حارب بها الغساسنة وأسر عدة من ملوكهم ، ثم أراد أن يعفو عنهم ، وكان له ابن عم اسمه أبو اذينة قد قتل آل غســان له أخا فى بعض الوقائع ، فقال ابو اذينة فى ذلك قصيدة يغرى بها الاســود على قتلهم مطلعها :

ما كل يوم ينول المرء ما طلبـا ولا يســوغه المقـدار ما وهبـا
وأنصف الناس من ان فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول مقتضبا

الى أن قال :

---

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ١

(*) ذكر نولدكه أن المنذر أصيب بخسارة كبرى عندما حاول عبور الفرات لنجـدة الفرس أثناء حصارهم القسطنطينية ، فقد غرق من جيشه ألف رجل
نولدكه ، تاريخ الساسانيين ، ص ٨٦

والعفـــو الا عن الاكفـــاء مكرمة — من قال غير الذى قد قلتـــه كذبا
قتلت عمرا وتستبقى يزيد لقـد — رايت رايا يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الافعى وترســـلها — انكنتشهما فأتبعرأسها الذنبا (١)

فقتلهم

(٩) المنذر بن المنذر ، اخوه (٤٩٣ ـ ٥٠٠ م)

ليس له حوادث تستحق الذكر

(١٠) النعمان بن الاسود (٥٠٠ ـ ٥٠٤ م)

لم يورد له العرب خبرا هاما ، ولـكن جاء فى كتب اليونان انه قضى مدة حكمه الصغيرة وهو خارج الحيرة يحارب الروم فى سوريا والجزيرة وأبلى بلاء حسـنا . وفى أيامه تعدى بكر وتغلب على حدود العراق ، فجرد النعمان المذكور اليهم فلم يقو عليهم ، وقتل من أهله كثيرون ، ولم يحضر المعركة بنفســـه ، ولـكنه مات فى ذلك العام وهو محاصر الرها مع قبـــاذ وهى ممتنعة عليهم ، وينسب مؤرخو النصرانية وفاته الى معجزة دينية (٢) وكان معاصرا لقباذ والد كسرى انو شروان

(١١) علقمة أبو يعفر (٥٠٤ ـ ٥٠٧)

كان معاصرا لقباذ ، وهو من غير آل نصر ، وليس له خبر يستخق الذكر

(١٢) امرؤ القيس بن النعمان (٥٠٧ ـ ٥١٤ م)

شأنه مثل شأن علقمة

(١٣) المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء (٥١٠ ـ ٥٣٣ م)

هو أشهر ملوك لخم وأكثرهم عملا ، لانه عاصر من ملوك الفرس قبـــاذ المذكور وابنه انو شروان ، ومن قياصرة الروم جستنيان ، ومن الغساسنة الحارث بن جبلة ، وكلهم من كبار الرجال اجتمعوا فى عصر واحد . وفى أيامه فتح الاحباش بلاد اليمن على يد ابرهة ، وكان المنذر فى جملة الوفود على ابرهة كما تقدم ، وهو صاحب يوم اباغ

افضت سيادة الحيرة الى المنذر المذكور فى أواسط حكم قباذ ، وظهر فى اثناء ذلك مذهب مزدك وغايته الاشتراك فى الاموال والاشياء . وكان أعيان الفرس واشرافهم قد أحرزوا أموالا طائلة ومجوهرات وعقارات لا تقدر ـ

(١) أبو الفداء ٧٤ ج ١ — (٢) Assemani Biblio or. vol. I, 276

قالوا : فأراد قباذ أن يستعين بهذا المذهب على مشاركتهم فيها ، فانتحله وتعصب لصاحبـــه وحمل رجاله عليه ، ومنهم من أطاع ومنهم من أبى ، والمنذر من جملة الذين أكبروا هــذه البدعة فلم يتبعها . وكانت دولة كندة الآتى ذكرها قد ظهرت ، وتوالى منها بضعة ملوك منهم الحــارث بن عمرو ابن حجر الـكندى ، وكان معاصرا لقبــاذ والمنذر . وملوك كندة يومئذ ينافسون اللخميين فى السيادة على عرب الشمال كما ينافسهم الغسانيون . وكان الحارث الـكندى المذكور يتقرب من الاكاسرة لفرصة يغتنمها لتأييد ســلطته ، وهم يدافعونه أو يسايرونه ، حتى اذا تغير قباذ على المنــذر تصدى الحارث للولاية ، فولاه قباذ الحيرة واخرج المنذر منها ، فظل مختبئا بقية أيام قباذ ، فلما تولى انو شروان — وكان على غير رأى والده — اقبل عليه المنذر فرحب به ثم اعاده الى منصبه ، بعد ان قتل مزدك وهرب الحارث ونجا . وأصلح انو شروان ما أفسده أبوه ومزدك (١)

وقد ذكرنا فى تاريخ الحارث بن جبلة الغسانى ما كان من حروبه مع المنذر المذكور فى يوم اباغ وغيره . وهو صاحب الغريين ويومى البؤس والنعيم . وذكروا فى سبب ذلك انه كان للمنذر نديمان من بنى أسد ، ثملا فراجعا الملك مرة فى بعض كلامه ، فأمر وهو سكران فحفروا لهما حفرتين فى ظهر الحيرة ودفنوهما حيين . فلما صحا ندم وأمر ببناء صــومعتين عليهما ، واقسم الا يمر أحد من وفود العرب الا بينهما . وجعل لهما فى السنة يوم بؤس ويوم نعيم ، يذبح فى يوم بؤسه كل من يلقاه ويطلى بدمه الصومعتين ، ويحسن الى من يأتيه فى يوم النعيم . ولبث على ذلك برهــة من الدهر ، حتى جاء عبيد بن الابرص الاسدى الشاعر ممتدحا ، واتفق قدومه يوم البؤس فشق على المنذر قتله ، ولم ير بدا من البر بقسمه فى حديث لطيف لا محل له هنا (٢)

وفى رواية أخرى ان الذى اتاه فى يوم البؤس حنظلة بن أبى عفراء ، ولما علم بقرب اجله استمهل الملك ريثما يعود الى اهله ، وكفله رجل من خاصة المنذر حتى عاد ، وكان لرجوعه ووفائه تأثير على المنذر حتى ابطل هــذه العادة (٣) . وقال بعضهم أن النعمان تنصر لهذا السبب ، ولقول حنظلة انه انما حمله على الوفاء النصرانية — وتشبه هذه القصة قصة يونانية عن رجل يونانى اسمه دامون ، من أصحاب فيثاغورس وتابعى مذهبه ، كان له

---

(١) ابن الاثير ١٨٣ ج ١ والاغانى ٦٣ ج ٨ (٢) ياقوت ٧٩٣ ج ٣
(٣) الاغانى ٨٧ ج ١٩

صـــديق من هـــذا المذهب اسمه فنطيـــاس ، حكم عليه ديونيسيوس الاول صاحب سرقوسة بالاعدام لتهمة وجهت اليه ، فالتمس الرجوع الى أهله يقضى عندهم أياما يدبر بها شؤونه ثم يعود لتنفيـــذ الحكم ، فطلبوا من يضمنه فتصدى دامون وضمنه . ثم وفى فنطياس وعده وعاد قبل الموعد بيوم واحد ، فأعجب ديونيسيوس بأريحية دامون ووفاء فنطياس ، فعفا عنهما وقربهما اليه وجعلهما من خاصـــته . وللمنذر بن ماء السماء يوم مشهور بين أيام العرب يعرف بيوم اوارة بينه وبين بكر بن وائل سيأتى ذكره فى أيام العرب (*)

(١٤) الحارث بن عمرو الكندى

جاء خبره فى أثناء خبر المنذر بن ماء السماء ، مدة حكمه داخلة فى مدة حكم المنذر

(١٥) عمرو بن هند مضرط الحجارة (من ٥٣٣ ـ ٥٧٨ م)

هو عمرو بن المنذر بن أمرىء القيس ، ويسمونه المحرق الثانى ، ويعرف باسم امه هند بنت عمة أمرىء القيس الشاعر الشهير ، ولدت للمنذر عمرا هذا وقابوسا . وكان عمرو شديد السلطان ، وقد عزا بنى تميم فى دارهم ، وقتل من بنى دارم كثيرين يوم اوارة الثانى ، وبالغ فى العظمـــة والـكبرياء حتى توهم فى نفسه الفضل على الناس كلهم ، وخيل له انه ليس من أمير فى العرب لا يخدمه ويتمنى رضـــاه ، وكانت تلك الدعوى سبب قتله ــ وذلك انه قال يوما لجلسائه : « هل تعرفون أحدا من أهل مملكتى يأنف أن تخدم أمه أمى ؟ » ، قـــالوا : ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم

(*) أخبار المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء كثيرة فى التواريخ العربية ، وكلها فى حاجة الى تحقيق ، وهو يعرف عند معظم الاخباريين بالمنذر بن امرىء القيس بن النعمان ، وبذى القرنين ، وبالمنذر بن ماء السماء ، أو بابن ماء السماء فحسب . وماء السماء هى أمه . ويسميها بعضهم مارية ابنة عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة .. بن النمر بن قاسط ، ويحرف بعضهم الاسم الى ماوية . وقد ذكر المنذر هذا فى النصوص اليونانية باسم الاموندراوس Alamoundaros وكان النزاع مستمرا بينه وبين البيزنطيين ، مما أدى بجوستنيان الى تنصيب الحارث بن جفنة فيلارخا على عرب الشام ليقوم بمدافعة المنذر عن أرض الروم . واشتدت العـــداوة بين الملكين العربيين : المنذر بن ماء السماء اللخمى والحارث بن جبلة الغسانى ، الاول يناصر الفرس والثانى يناصر الروم ، وانتهى الصراع بينهما بقتل المنذر على يد خصمه الحارث بن جبلة فى موقعة عند عودايا Wdaja فى ناحية قنسرين على مقربة من تدمر . ويذهب حمزة الاصفهانى وابن الاثير ونفر من المؤرخين الى أن المعركة التى قتل فيها المنذر هى المعروفة فى أيام العرب باسم « عين أباغ » ، وعين أباغ « واد من أودية العراق وراء الانبار على الفرات بين الكوفة والرقة » ، لا يبعد كثيرا عن الحيرة (ياقوت ، ج ١ ص ٧٣) ويسمى بعض الاخباريين عين أباغ باسم ذات الخيار أو ذات الحيار . وهو موضع ببرية قنسرين . ويستنتج من قراءة النصوص أن المراد بعودايا وعين أباغ وذات الخيار شىء واحد

التغلبي ، فان امه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو » . فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه ، وبعث الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره ان تزور أمه أمه . فقدم ابن كلثوم في فرسان من تغلب ومعه أمه ليلى ، فنزل على شاطىء الفرات . وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وصنع طعاما دعا اليه وجوه أهل دولته ، فقرب لهم الطعام على باب السرادق . وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق ، ولأمه هند قبة في جانب السرادق ، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة. وكان مضرط الحجارة قد قال لأمه : « اذا فرغ الناس من الطعام ولم تبق الا الطرف نحي خدمك عنك ، فاذا دنت الطرف استخدمي ليلى ومريها ، فلتناولك الشيء بعد الشيء » ففعلت . فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى : « ناوليني ذلك الطبق » ، قالت : « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها » ، فألحت عليها ، فقالت ليلى : « وا ذلاه ! يا آل تغلب ! » ، فسمعها ولدها ابن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون . فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه ، ونهض ابن كلثوم الى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره ، فأخذه وضرب به مضرط الحجارة فقتله ، وخرج فنادى : « يا آل تغلب ! » فانتهبوا مال عمرو بن هند وخيله وسبوا النساء ولحقوا بالحيرة . وعاصر عمرو المذكور كسرى انو شروان

(١٦) قابوس بن المنذر (٥٧٨ – ٥٨١ م)

هو أخو عمرو المتقدم ذكره ، وكان ضعيفا وفيه لين ، وسموه فتنة العرس أو « قينة العرس » ، وله مع بني يربوع « يوم طخفة » وسيأتي خبره ، « وقد قتله رجل من يشكر وسلب ما كان عنده وعليه » (*)

(١٧) فيشهرت (أو زيد) (٥٨١ – ٥٨٢ م)

ليس له خبر يذكر (**)

(*) حمزة الاصفهاني : سني ملوك الارض • ص ٧٣
ويذهب حمزة الى أن قابوس بن المنذر لم يحكم ، ولكن الواقع انه حكم ، بدلالة اشارات عند مؤرخي البيزنطيين

(**) يقول جواد علي تعليقا على حكم فيشهرت هذا : « ولم يشر الاخباريون الى الاسباب التي أدت الى تعيين هذا الرجل الغريب ملكا على الحيرة ، دون سائر آل لخم ، ومنهم المنذر أخو عمرو بن هند وقابوس • فلعل اضطرابا حدث في المملكة أو نزاعا وقع بين أولاد قابوس ، أو بين آل لخم ، أدى الى تدخل الفرس ، فقرروا تعيين رجل غريب عن أهل الحيرة ، حتى تزول أسباب الخلاف ، فقرروا تعيين واحد منهم (أي فارسي) فلما زالت تلك الموانع عن المنذر ملكا على الحيرة، وبذلك عاد الملك الى آل لخم »
تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٤ ص ٨٤

(١٨) المنذر بن المنذر بن ماء السماء (٥٨٢ ـ ٥٨٥ م)

هو صاحب يوم حليمة الذى تقدم ذكره

(١٩) النعمان بن المنذر ابو قابوس (٥٨٥ ـ ٦١٣ م)

كان معاصرا لهرمز الرابع وكسرى ابرويز ، وبلغت الدولة فى أيامه منتهى الترف والرخاء اقتداء بالفرس . وبعد أن كان الاكاسرة فى أوائل الدولة يعجبون بنشاط العرب وانفتهم ويعهدون اليهم بتربية أولادهم وتثقيفهم ، أصبح هؤلاء يعهدون بتربية اولادهم الى آخرين . وذلك أن المنذر بن المنذر ـ والد النعمان المذكور ـ عهد بتربيته الى رجل من عباد الحيرة اسمه عدى ابن زيد ، وكان للمنذر ١٢ ولدا يسمون الاشاهب ، وكان النعمان من بينهم احمر أبرش قصيرا ، وكان قابوس عم النعمان قد بعث الى انو شروان بعدى ابن زيد واخوته ، وهم من اهل الكتابة يعرفون الفارسية والعربية ، فكانوا فى جملة كتابه ومترجميه . فلما حضرت المنية المنذر بن المنذر لم يعهد بالعرش لأحد من بنيه ، فوكل الامر الى الياس بن قبيصة الطائى ، فتولاه اشهرا . وفكر انو شروان فيمن يملكه على العرب بعد المنذر المتوفى ، وشاور عدى بن زيد المذكور واستنصحه فى بنى المنذر فأشار عليه بالنعمان

وكان فى خاصة ملك الفرس رجل آخر من بنى مرينا (*) اسمه عدى أيضا ، وكان هواه مع أخ للنعمان اسمه الاسود ، فساءه انتخاب النعمان للملك وعزم على الكيد له ولعدى بن زيد ، وحرض الاسود على ذلك ، واخذ هو يسعى سرا للايقاع بعدى لدى النعمان نفسه ، بالاغتياب والوشاية واسترضاء الحاشية ، حتى أضغن النعمان عليه . وكان عدى يومئذ فى المدائن عند كسرى ، والنعمان فى الحيرة . فبعث النعمان يستزيره (أى يستزيد عديا) فاستأذن كسرى فى ذلك ، ووصل الى الحيرة فأمر النعمان بحبسه ، فجعل عدى يقول الشعر ، فبلغ النعمان قوله فندم على حبسه ، وخاف منه اذا أطلقه . وبلغ كسرى حال عدى ، فكتب الى النعمان أن يطلقه . وعلم النعمان بالرسالة قبل وصول الرسول ، فشاور أصحابه فخوفوه من اطلاقه ، فبعث اليه جماعة خنقوه ودفنوه . وكان الرسول قد رآه فى السجن قبل وصوله الى النعمان ، فلما أدى الرسالة قال له النعمان : « اذهب الى السجن فخذه » ، فقيل له انه مات منذ أيام ، فعلم انهم غدروا به وقتلوه ، فعاد الى النعمان بذلك فرشاه واستوثقه ألا يقول لكسرى ، وقد ندم على ما فرط منه

(*) اسمه عدى بن أوس بن مرينا ، وكان بنو مرينا من البيوت ذات القوة والجاه فى الحيرة

ورأى النعمان ابنا لعدى اسمه زيد ، فأراد أن يكرمه تكفيرا عن اساءته لأبيه ، فطلب اليه زيد أن يسعى له عند كسرى ليجعله مكان أبيه ففعل ، فتقرب زيد من كسرى ، وفى نفسه شيء على النعمان يضمره ويظهر الثناء عليه ويترقب الفرص . فاتفق ان كسرى احتاج الى نساء لتزويج أولاده ، فأشار عليه زيد أن يطلب من النعمان بعض بنات عمه ، واثنى على جمالهن وهو يعلم ان النعمان يضن بذلك ، فكلفه كسرى أن يسير فى طلبهن ، وانفذ معه سفيرا يعرف العربية ليسمع جواب النعمان

فلما دخل زيد والرسول على النعمان أفهماه ما طلبه كسرى ، فشق ذلك عليه فقال : « ما فى عين السواد وفارس ما تبلغون به حاجتكم ؟ .. » ، فسأل الرسول زيدا عن معنى لفظ « عين » فقال : « البقر ! » فلما عادا الى كسرا أخبراه بما قاله فغضب لقوله : « ما فى بقر السواد ما يكفيه » ، وسكت اشهرا ثم بعث يستقدمه اليه . وبلغ النعمان غضبه فأخذ سلاحه وما استطاع حمله ولحق بجبلى طيء ، وكان متزوجا منهم ، وطلب اليهم أن يمنعوه فأبوا عليه خوفا من كسرى . فأقبل وليس أحد من العرب يقبله ، حتى نزل فى ذى قار على بنى شيبان سرا ، فلقى هناك هانىء بن مسعود الشيبانى — وكان سيدا منيعا — فأودعه أهله وماله وفيه ٤٠٠ درع ، وتوجه الى كسرى . فلما وصل الى بابه بعث اليه من قيده وأرسله فخوراً الى خانقين ، وحبسه فيها حتى جاء الطاعون فمات فيه سنة ٦١٣ م ويقول بعضهم أن النعمان هذا هو صاحب الغريين (*) ، وانه كان يعبد الوثن فتنصر على يد عدى بن زيد المذكور ، وانه بانى قناطر النعمان قرب قرميسين ، والغالب انها من بناء الاكاسرة

وهو صاحب يوم طخفة ويوم السلان . الاول بينه وبين بنى يربوع وسببه ان الردافة — وهى بمنزلة الوزارة ، والرديف يجلس عن يمين الملك — كانت لبنى يربوع من تميم يتوارثونها صغيرا عن كبير . فلما كانت أيام النعمان — وقيل أيام ابنه المنذر — سألها حاجب بن زرارة الدرامى

(*) الغريان قبران مشهوران فى الاقاصيص التى تحكى عن عرب الحيرة . يقال ان المنذر بن ماء السماء بناهما لذكرى نديمين من ندمائه يسمى أحدهما مضلل والاخر عمرو بن مسعود . وقد غضب عليهما المنذر بن ماء السماء ذات مرة وهو سكران ، فامر فحفر لهما قبران ودفنا حيين . فلما أفاق فى الصباح سأل عنهما ، فقيل له ما فعله بهما ، فندم ، وأمر ببناء طربالين (أى مغارتين) على قبريهما ، وحلف الا يفد عليه وفد من وفود العرب الا مر بينهما ، وجعل لهما فى السنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم ، فلا يلقاه رجل فى يوم بؤسه الا قتله ، ولا يلقاه رجل فى يوم نعيمه الا أحسن اليه . وممن أتاه فى يوم البؤس الشاعر عبيد بن الابرص فقتله . والمراد هنا المنذر بن ماء السماء لا المنذر بن المنذر أبو قابوس

الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ، طبعة دار الكتب ، جـ ٥ ص ٢١٣

التميمي النعمان لبني دارم ، فقال النعمان لبني يربوع فى هذا وطلب منهم أن يجيبوا الى ذلك فامتنعوا . وكان منزلهم أسفل طخفة ، فلما امتنعوا من ذلك بعث اليهم النعمان قابوسا ابنه وحسانا أخاه ، على أن يكون قابوس على الناس وحسان على المقدمة ، وضم اليهما جيشا كثيفا فيهم الصنائع والوضائع (*) وناس من تميم وغيرهم ، فساروا حتى أتوا طخفة فالتقوا هم ويربوع واقتتلوا ، وصبرت يربوع وانهزم قابوس ومن معه ، وضرب طارق أبو عميرة فرس قابوس فعقره وأسره ، وأراد ان يجز ناصيته فقال قابوس : « ان الملوك لا تجز نواصيها » فأرسله . وأما حسان فأسره بشر ابن عمرو بن جوين فمن عليه وأرسله ، فعاد المنهزمون الى النعمان . وكان شهاب بن قيس بن كياس اليربوعى عند الملك ، فقال له : « يا شهاب ، ادرك ابنى وأخى . فان أدركتهما حيين فلبنى يربوع حكمهم ، واردد عليهم رفادتهم واترك لهم من قتلوا وما غنموا وأعطيهم ألفى بعير » . فسار شهاب فوجدهما حيين فأطلقهما ، ووفى الملك لبنى يربوع بما قال ولم يعرض لهم فى رفادتهم (**) . وقال مالك بن نويرة :

ونحن عقرنا مهر قابوس بعد ما — راى القوم منه الموت والخيل تلجب
عليه دلاص ذات نسج وسيفه — جراز من الهندى أبيض مقضب
طلبنا بها انا مداريك نيلها — اذا طلب الشأو البعيد المغرب

ويوم السلان بين النعمان المذكور وبنى عامر بن صعصعة ، وسببه أن كسرى برويز كان يجهز كل سنة لطيمة (قافلة تجارية) تباع بعكاظ ، فأغار بنو عامر على لطيمة منها فى بعض السنين ، فغضب النعمان واستنفر أخاه لأمه وبرة بن رومانوس (***) الكلبى ، وأرسل الى بنى تميم فجمعهم ، ووجه معهم عيرا وقال لهم : « اذا فرغتم من عكاظ وانسلخت الحرم ورجع كل قوم الى بلادهم ، فاقصدوا بنى عامر فانهم قريبون بنواحى السلان » . فخرجوا وكتموا أمرهم وقالوا : « خرجنا لئلا يعرض أحد للطيمة الملك » . فلما فرغ الناس من عكاظ علمت قريش بحالهم ، فأرسل عبد الله بن جدعان قاصدا الى بنى عامر يعلمهم الخبر ، فسار اليهم وأخبرهم

(*) الوضائع فى القبائل العربية كانوا قوما من سراة الناس فى مكانة شيوخها ، والصنائع هم العرب الذين يصطنعهم الملوك ليحاربوا باسمهم

(**) أنظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ص ١٠٢ والالفا بعير التى أداها قابوس لبنى يربوع ، هى دية الملوك ، وكان الملك أو الامير اذا أسر افتدى بألف بعير ، وقد افتدى قابوس ابنه وأخاه

(***) تكتب أيضا رومانس

خبرهم ، فحذروا وتهيأوا للحرب وتحذروا ووضعوا العيون ، وعاد عليهم عامر بن مالك ملاعب الاسنة واقبل الجيش فالتقوا بالسلان ، فاقتتلوا قتالا شديدا ودارت الدائرة على جيش النعمان (١) ❋

(٢٠) اياس بن قبيصة (من سنة ٦١٣ - ٦١٨ م)

فلما مات النعمان استعمل كسرى اياس بن قبيصة الطائى مكانه ، وامره ان يجمع ما خلفه النعمان ويرسله اليه ، فبعث اياس الى هانىء بن مسعود بارسال ما استودعه النعمان ، فأبى فغضب كسرى ، فأشار عليه أحد أعداء شيبان وسائر بكر بن وائل أن ينتظر ريثما ينزلون ذى قار فيبعث من يأخذهم بالقوة . فصبر كسرى حتى نزلوا المكان فبعث اليهم أن يسلموا ما خلفه النعمان عندهم أو الحرب ، فاختاروا الحرب ، فحمل عليهم اياس ابن قبيصة ومعه جند الفرس والعرب واياد بالافيال والعدة الثقيلة . اما هانىء بن مسعود ففرق سلاح النعمان فى رجاله وعزم على الفرار خوفا من كثرة جند الفرس ، فاعترضه رجل من عجل اسمه حنظلة بن ثعلبة وقال : « يا هانىء ، أردت نجاتنا فألقيتنا فى الهلكة » . فرد الناس وقطع وضن الهوادج (أحزمتها) وضرب على نفسه قبة وأقسم لا يفر حتى تفر القبة ، فرجع الناس واستقوا ماء لنصف شهر ، فانهزم الفرس بصفوفهم وخيولهم ، وثبت العرب ثباتا جميلا فانتصروا وفر الفرس مع كثرة عددهم سنة ٣ للبعثة ، وتعرف هذه الواقعة فى تاريخ العرب بيوم ذى قار ، وقد انتصف فيه العرب من العجم (❋❋) ونقمت سائر العرب على اياس

(٢١) زاديه (من ٦١٨ - ٦٢٨ م)

ليس له خبر يذكر (❋❋❋)

(٢٢) المنذر بن النعمان المغرور (٦٢٨ - ٦٣٢ م)

هو آخر ملوك الحيرة ، قتل فى البحرين يوم جواثما ، وليس له من الاعمال ما يستحق الذكر (❋❋❋❋)

---

(١) ابن الاثير ٢٩٥ ج ١

(❋) وتذكر الروايات أن النعمان تنصر فى أخريات أيامه على مذهب النسطورية فى قبر طويل

(❋❋) الطبرى ، ج ٢ ص ١٥٢

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ يوم ذى قار ، فقالوا انه وقع يوم ولادة الرسول (صلعم) أو بعد غزوة بدر الكبرى مباشرة

وقال رونشتاين انه كان سنة ٦٠٤ ، أما نولدكه فيجعله بين سنتى ٦٠٤ و ٦١٠

(❋❋❋) بين المؤرخين خلاف فى اسمه ، فيقول حمزة انه ازادبه بن ماهبيان بن مهرا بنداد ، ويقول الطبرى انه آزاذبه بن يابيان بن مهر بن بنداد الهمدانى ، ويقولون أنه حكم ١٧ سنة فى زمن أبرويز وشيرويه بن أبرويز وأردشير بن شيرويه وبوران بنت شيرويه

(❋❋❋❋) يذهب ابن الكلبى الى أن المنذر بن النعمان هذا حكم ثمانية أشهر بالحيرة ، وذلك قبل فتح خالد لها . ويذكر جواد على ان ذلك غير صحيح وان المنذر لم يحكم الحيرة وانما حكم

←

مبلغ سيادة اللخميين

كان فى بادية الشام والعراق والجزيرة والحجاز والبحرين ونجد قبائل كثيرة من البدو أهل الرحلة — أكثرهم من عدنان — يتولاهم أمراؤهم أو مشائخهم ، بلا دولة أو جند ولا حصون أو قلاع الا نادرا ، وانما قلاعهم شجاعتهم وبداوتهم . وكانت الدول المتحضرة تستعين بهم فى حربها كما تقدم . فتسابق الغساسنة والمناذرة الى ادخالهم فى رعايتهم ، وكل منهما تنتمى الى دولة كبرى : الغساسنة للروم ، والمناذرة للفرس . ونشأت فى أثناء ذلك دولة كندة الآتى ذكرها ، وهى تنتمى الى حمير ، وكانت تنازعهما تلك السيادة . فأصبح عرب الشمال يتنازع السيادة عليهم ثلاث دول عربية ، تتناوب الفوز فى ذلك على مقتضى الاحوال

وكانت قبائل البدو من الجهة الاخرى ترغب فى الدخول تحت حماية احدى تلك الدول لتأمن على نفسها بسبب ما فطر عليه أهل البادية من التنازع والتغازى والتخاصم . فكانت كل قبيلة تسعى فى الانضمام الى دولة تستنجدها أو تلجأ الى جندها عند الحاجة ، وقد يتسابق بعضهم الى التقرب منها للتفاخر بخدمتها ، كما كان بنو يربوع يتفاخرون بردافة ملوك الحيرة . وكان لكل دولة من تلك الدول صنائع ووضائع — والصنائع من كانوا يصطنعونه من القبائل للغزو به ، والوضائع كالمشائخ . ومرت برهة من الدهر كان فيها الانتماء الى احدى تلك الدول كالفرض الواجب ، فمن لا ينتمى الى احداها سموه « الاحمس » ، والجمع الحمس . واشهر الحمس فى الجاهلية حمس قريش ، فكانوا لقاحا لايدينون للملوك (١)

وكانت تلك القبائل أكثر احتكاكا بدولة اللخميين منهم بدولة الغساسنة ، وأكثر تعظيما لأمرها وتهيبا منها . فكانوا أشد رغبة فى الانضمام اليها والدخول فى رعايتها ، فاتسع سلطان اللخميين اتساعا كبيرا ، ولا سيما فى ابان سطوة الفرس وضعف الروم . وقد رأيت مبلغ ذلك فى أيام امرىء القيس بن عمرو صاحب قبر النمارة ، فانها شملت معظم القسم الشمالى من جزيرة العرب وبعض جنوبيها . ثم اختلفت بعد ذلك مما لا يتيسر حصره أو تحديده ، ولكننا نعلم أن مجالسهم كانت مرجع المستنجدين وميدان

البحرين فى أثناء الردة . وقد حاربه المسلمون وسقط أسيرا فى أيديهم ، ويقال أنه أسلم فى أثر ذلك وسمى نفسه المغرور بدلا من « الغرور » وهو اللقب الذى كان يعرف به قبل اسلامه . والمنذر هذا هو آخر ملوك آل لخم

تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٤ ص ١٠٤

(١) ياقوت ٥١٩ ج٣ وابن الاثير ٢٩٥ ج١

الشعراء والمادحين . ومن شعرائهم النابغة ، وحسان ، والمتلمس ، والمنخل اليشكرى . ولهم مع الشعراء وقائع تدخل فى مجلد كبير

ديانتهم

واختلفوا فى ديانة ملوك الحيرة ، فمن قائل أنهم تنصروا على عهد امرىء القيس الاول بن عمرو فى أوائل القرن الرابع ، وقائل ان أول من تنصر النعمان بن المنذر فى آخر القرن السادس ، وبينهما أقوال كثيرة لاسبيل الى تحقيقها ، لاختلاف القائلين فيها ، مثل اختلافهم فى عدد الملوك وفى تعاقبهم وسنى حكمهم

على اننا نرى فى سجل الكنيسة الشرقية Synodicon Orientale ان الحيرة كان عليها أسقف سنة ٤١٠ ، وان ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠ م ، ونرى من الجهة الاخرى أن النساطرة واليعاقبة اشتد جدالهم فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وتنافسوا فى الرئاسة ففاز النساطرة ، وملوك الحيرة كانوا الى أواسط القرن المذكور على الوثنية ، وان المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من البشر الى العزى (١) وكان بين نسائه امرأة من غسان اسمها هند الكبرى أم عمرو بن هند مضرط الحجارة ، كانت مسيحية فبثت مبادىء النصرانية فى ابنها فنشأ نصرانيا ، ويؤيد ذلك ما نقشته على ديرها وقد ذكرناه (*)

ولكن يظهر أن النصرانية لم تثبت بعد عمرو المذكور ، فلما مات رجع خليفته قابوس أو المنذر بن المنذر الى الوثنية ، ونشأ ابنه النعمان فيها يذبح للاصنام حتى تنصر على يد الجاثليق صبر يشوع (٢) (*) ويقول العرب انه تنصر على يد عدى بن زيد (٣) وقد يتفق القولان بأن يكون رغبة فى النصرانية والجاثليق عمده

---

(١) Labourt, 109 8, 206

(*) هند بنت النعمان أبى قابوس هى احدى بناته الاربع ، وهى المعروفة بهند الصغرى ، ولها خبر طويل عند المؤرخين ، لانها كانت شديدة التعلق بالنصرانية ، وقد ترهبت فى أخريات أيامها واعتزلت الدنيا فى ديرها المعروف بدير هند الصغرى . وقد عاشت حتى أدركها الاسلام ، ولم تسلم . ولما ماتت دفنت فى قبر فى ديرها الى جانب قبر النعمان أبيها . وقد بقى الديرمعروفا مدة طويلة بعد الاسلام ، ويقال انها كانت أخت النعمان ، ولم تكن بنته ، ويقال أيضا انهزوجها من عدى بن يزيد قبل أن تترهب

جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٤ ص ٩٧

(٢) Labourt, 207

(*) يورد لويس شيخو فى شعراء النصرانية (ص ٤٣١) خبر تنصر النعمان ويقول انه أصيب ملوثة عجز الكهان عن شفائه منها فلجأ الى آباء الكنيسة ومنهم شمعون بن جابر أسقف الحيرة وسبر يشوع أسقف لاشوم وايشو عراخا الراهب وتنصر وعمد على مذهب النسطورية ، وتنصر أولاده . وكانت أختاه هند ومارية قد سبقتاه الى التنصر . وهند هذه هى التى ترهبت فى أخريات أيامها وابتنت الدير المنسوب اليها

أنظر : لويس شيخو ، شعراء النصرانية ، ص ٦٢١ وما يليها

(٣) ابن خلدون ١٧١ ج ٢ والاغانى ، ج ٢ ص ١١٥

دولة كندة

كندة ــ على قول العرب ــ بطن من كهلان ، وحكمنا فيهم مثل حكمنا على سائر عرب الشمال فى الطور الثانى ، وقد بسطناه . وأصلهم فيما رواه الثقات من البحرين والمشقر ، وانهم أجلوا عنهما الى حضرموت وعددهم ٣٠,٠٠٠ نفس فى زمن لا يمكن تحديده . وأقاموا هناك ما شاء الله فى بلد يعرف باسمهم « كندة » ، مرتفع عن الارض يشرف على حضرموت وتصب أوديته فيه ثم الى مهرة ، وقصبته الكبرى اسمها دمون (١) . أقام الكنديون هناك دهرا وهم على وفاق مع الحميريين حكام تلك البلاد .. وكان الحميريون يستخدمون خاصة كندة وكبارهم فى بعض مصالحهم ويدخلونهم فى حاشيتهم أو بطانتهم

واتفق على عهد حسان بن تبع ملك حمير أن حجر بن عمرو سيد كندة دخل فى خدمته لقرابة بينهما ، لان حسانا وحجرا كانا أخوين لأم واحدة . وقد ذكرنا ما كان من فتوح حسان فى جزيرة العرب شمالا وجنوبا ، وكان حجر معه ، فلما أراد الرجوع الى اليمن رأى أن يختصه بكرامة ، فولاه قبائل معد كلها ، وهى كما علمت من قبائل البادية التى لا تجمعها دولة ، فولاه عليها ورجع الى بلده فدانت معه لحجر المذكور ، وهو حجر بن عمرو المعروف بآكل المرار (٢)

وذكر اليعقوبى لنزوح كندة (*) عن حضرموت سببا آخر ، قال : انه وقع بين القبيلتين حروب طالت حتى كادت تفنيهما ، وكندة أضعفهما فرات الرحيل الى اليمن ، فصارت الى أرض معد فجاورتهم ، ثم ملكوا رجلا

---

(١) الهمدانى ٨٨

(٢) ابن خلدون ٢٧٢ ج ٢

(*) لم ينته المؤرخون الى رأى فى أصل كندة ، وهل هي من عرب الشمال أو من عرب الجنوب. والاغلب ان موطن كندة الاول بجبال اليمن مما يلى حضرموت وذكر ياقوت أن كندة مخلاف باليمن ، وأنه سمي كذلك باسم قبيلة كندة .. ولابن الكلبى رواية تقول ان موطن كندة الاول فى غمر ذى كندة أى فى مواطن العدنانيين . وذكر صاحب الاغانى ان كندة من قبائل عدنان .ولا تعرف كيف انتقلت كندة من غمر ذى كندة الى حضرموت . ولكن اليعقوبى يذكر سبب هجرتهم من حضرموت الى الشمال ، الى أرض معد واستقرارها بناحية نجد ، فيقول ان حربا قامت بين كندة وحضرموت واضطرت كندة الى الرحيل الى نجد وملكت عليها رجلا يسمى مرتع بن معاوية بن ثور، وهو فى رأى الاخباريين أول ملوك كندة

وقال جواد على (ج ٣ ص٢١٩) : « وتدل هذه الروايات على أن هذه القبيلة كانت على اتصال وثيق بالقبائل الحجازية المنتسبة الى معد وعدنان ، وربما كان اتصالها هذا أوثق وأقوى من اتصالها بقبائل قحطان ، مع أن النسابين يعدونها من قبائل قحطان »

منهم هو أول ملوكهم واسمه مرتع بن معاوية بن ثور ، وخلفه آخر فآخر كما ترى فى هذا الجدول :

	مدة الحكم
مرتع بن معاوية بن ثور	٢٠
ثور بن مرتع . حكم مدة قصيرة	..
معاوية بن ثور . حكم مدة قصيرة	..
الحارث بن معاوية بن ثور	٤٠
وهب بن الحارث	٣٠
حجر بن عمرو آكل المرار	٢٣
عمرو بن حجر بن عمرو آكل المرار	٤٠

الحارث بن عمرو بن حجر : كان معاصرا للمنذر بن ماء السماء ، وقد تقدم ذكره

هذا ما ذكره اليعقوبى فى تاريخه ، ولـكن الاكثرين يصرون على أن أول من ملك كندة حجر بن عمرو آكل المرار ، ولعل هذا هو الصواب وان المراد بمن ذكر قبله آباؤه . وعلى كل حال ليس لأحدهم عمل مذكور

واول من ذكرت أعمـــاله حجر بن عمرو ، وقالوا فى سبب تملـكه على العرب فى نجد أن سفهاء بكر غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الامر ، واكل القوى الضعيف ، فنظر العقلاء فى أمرهم فرأوا أن يملـكوا عليهم ملـكا يأخذ للضعيف من القوى ، ورأوا مع ذلك ان هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم ، اذ يطيعه قوم ويخالفه آخرون . فأجمعوا على أن يسيروا الى تبع اليمن (حسان) وكان التبابعة للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا اليه أن يولى عليهم ملـكا . وكان حجر المذكور ذا رأى ووجاهة فولاه عليهم . ومع اختلاف الروايات فى الصورة فان المغزى واحد ، وهو أن دولة كندة تابعة لدولة حمير . فقدم حجر الى نجد ونزل بطن عاقل ، وكان اللخميون قد ملـكوا كثيرا من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر بن وائل ، فنهض حجر بهم وحارب اللخمـــيين وانقذ أرض بكر منهم . فاجتمعت كلمـــة القوم على احترامه ، وما زال كذلك حتى مات ودفن فى بطن عاقل (*)

(*) يذهب معظم النسابين الى أن حجر بن عمرو المعروف بآكل المرار من سـلائل عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية على رواية حمزة الاصفهانى ، والى عمرو بن معاوية بن الحارث الاصغر بن معاوية بن الحارث الاكبر بن معاوية بن كندة بحسب رواية ابن خلدون ، ولابى الفرج الاصفهانى رأى ثالث فى أصله ، وقيل انه كان أخا لحسان بن تبع لامه ، وأن حسان هو الذى ولاه على معد بن عدنان ، وذهب فيليب حتى الى أن ذلك كان حوالى سنة ٤٨٠ ق٠م٠

ملوك كندة

فأفضت الحكومة الى ابنه عمرو بن حجر بن عمرو آكل المرار ، ويسمونه المقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه . فلما مات خلفه ابنه الحارث بن عمرو ، وكان شديد الملك واسع الصوت كبير المطامع ، وفى أيامه فتح الاحباش اليمن واذهبوا دولة حمير ، فضعف شأن كندة لانها تنتمى اليها . فوجه الحارث التفاته الى بنى لخم ، وكان يحسدهم على تقربهم من الاكاسرة ، وما زال يترقب الفرص حتى رأى تغير قباذ على المنذر بن ماء السماء لسبب المزدكية كما تقدم ، فوافقه الحارث عليها وتولى الحـــيرة . فعظم فى أعين القبـــائل واستضعفوا بنى لخم ، وتوافدوا اليه وفيهم الاشراف من معد يهنئـــونه ويتقربون اليه بالطاعة ، وطلبوا منه أن يولى عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما قام بينهم من القتل حتى كاد يفنيهم ، مما ستراه فى كلامنا عن أيام العرب . ففرق فيهم أربعة من أولاده ، تولى كل منهم بعض تلك القبــائل على هذه الصورة :

١ حجر بن الحارث تولى بنى أسد بن جذيمة وغطفان

٢ شرحبيل بن الحارث تولى بكر بن وائل بأسرها وبنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن تميم والرباب

٣ معدى كرب بن الحارث تولى قيس عيلان وطوائف غيرهم

٤ سلمة بن الحارث تولى تغلب والنمر بن قاسط (*)

أما أبوهم الحارث فلم يطل سلطانه على الحيرة (**) ، فما هو الا أن مات قباذ وتولى انو شروان حتى أرجع المنذر ، وفر الحارث بماله وأولاده على الهجن ، فتبعه المنذر على الخيل من تغلب واياد وبهراء ، فلحق بأرض كلب ونجا فانتهبوا ماله وهجانه . وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بنى آكل المرار ، فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث ، فقدموا بهم على المنذر فقتلهم فى ديار بنى مرينا . وفى ذلك يقول امرؤ القيس :

ولما كان معظم الثقات مجمعين على أن حجر بن عمرو هو أول ملوك كندة ، فليس لدينا ما يمنع عن القول بأن من سبقوه من شيوخ كندة كانوا رؤساء قبائل ، وانه كان أول من تلقب بالملك منهم

أما آكل المرار فنسبة الى المرار وهو عشب مر اذا أكلته الابل قلصـــت عنها مشافرها فبدت أسنانها وبدت كالمكشرة عن أنيابها ، فكان آكل المـرار يراد به المكشر عن أنيابه . وللاخباريين قصص كثير حول منشأ هذا اللقب

أنظر بصفة خاصة : Gunnar Alinder, The Kings of Kinda or the Family of Akil al-Murar. 1927.

(*) تذكر الروايات انه كان له ولدان آخران هما عبد الله وقد ولاه عبد القيس وسلمة ولاه على قيس . وهناك روايات أخرى تقول ان الحارث فرق بنيه على القبائل على نحو آخر

(**) يذهب أوليندر (ص ٦٥) الى أن حكم الحارث للحيرة كان بين سنة ٥٢٥ و ٥٢٨ ميلادية فى ابان ظهور المزدكية فى ايران

ملوك من بنى حجر بن عمـرو يســـاقون العشية يقتـــلونا
فلو فى يوم معركة أصيـــبوا ولـكن فى ديار بنى مرينـــا
ولم تغسل جماجمهم بغســل ولـكن فى الدمـــاء مرملينـــا
تظـــل الطـــير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيـــونا

أما الحـــارث فظل فى بنى كلب حتى قتـــل فيهم ، واختلفوا فى سبب قتله (*) . وبقي أولاده الاربعة على ما ملـكوه ، ولـكن موت أبيهم اضعف نفوذهم . وعمل المنذر صاحب الحيرة على الانتقام لنفسه ، فسعى فى الافساد بينهم بالتحاسد على الهدايا ، وذلك انه وجه الى أحدهم سلمة بن الحارث أمير تغلب بهدايا ، ودس الى أخيه شرحبيل من قال له : « ان سلمة أكبر منك وهذه الهدايا تأتيه من المنذر » فقطع الهدايا عنه . ثم اغرى بينهما حتى تحاربا . فقتل شرحبيل فى معركة تعرف بيوم الـكلاب ، خرج كلٌ منهما بمن تحت رعايته من قبائل عدنان واقتتلوا فعـــادت العـــائدة على شرحبيل . وخاف الناس أن يخبروا أخاه سلمة بقتله ، فلما علم جزع جزعا كثيرا وأدرك أن المنذر انما أراد أن يقتل بعضهم بعضا ، فأصبح لا يأمن على نفسه . وخرج من تغلب والتجأ الى بكر بن وائل ، فأذعنت له وحسدت عليه وقالوا لا يملـكنا غيرك . فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا ، فحلف ليسيرن اليهم فان ظفر بهم ليذبحنهم على قنة جبل اوارة حتى يبلغ الدم الحضيض . وسار اليهم فى جموعه فالتقوا بأوارة فاقتتلوا قتالا شديدا، وانجلت الواقعة عن هزيمة بكر وأسر يزيد بن شرحبيل الـكندى ، فأمر المنذر بقتله فقتل ، وقتل فى المعركة بشر كثير . وأسر المنذر من بكر اسرى كثيرة ، فأمر بهم فذبحوا على جبـــل اوارة فجعل الدم يجمد فقيـــل له : « أبيت اللعن ، لو ذبحت كل بكرى على وجه الارض لم يبلغ دمهم الحضيض، ولـكن لو صببت عليه المـــاء » ففعل فسال الدم الى الحضيـــض . وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار . وتسمى هذه المعركة فى تاريخ العرب يوم أوارة الاول . فلما قتل الاخوان سلمة وشرحبيل وذهب سلطانهما ، أضعف ذلك نفوذ أخويهما الآخرين : حجر صاحب بنى أسد ، ومعدى كرب صـــاحب قيس عيلان . ورأى بنو أسد تضعضع تلك الدولة ، فتنكروا لحجر ملـكهم وساءت سيرته فيهم . فاجتمعوا على خلافه وبدأوا بنبذ الطاعة ، وامسكوا عن أداء الاتاوة وضربوا الجباة الذين أرسلهم فى طلبها . فحمل عليهم حجر بجند من ربيعة فأعمل فيهم السيف وأباح الاموال وحبس الاشراف ، ومنهم عبيد بن الابرص الشاعر فقال شعرا يستعطفه ، فرق لهم فبعث فى اطـلاق

(*) توفى الحارث سنة ٥٢٨ وكان قد اتجه نحو الروم فى أخريات أيامه بعـــد أن رأى تغير الفرس عليه ، فمنحه جستنيان لقب فيلارخوس

سراحهم فخرجوا وفى نفوسهم غل ، فلما وصلوا اليه قتلوه طعنا وانهزم رجاله (*) . وهو والد امرىء القيس بن حجر الشاعر المشهور

وكان امرؤ القيس عند مقتل أبيه غائبا ، فلما علم بقتله رجع وهو يعلم عجزه عن الاخذ بثأره لأن عدوه قوى ، وعلم أيضا أن ذلك العدو اذا عرف مقره قبض عليه ، فقضى برهة من الدهر وهو يتجول متنكرا فى اليمن ، ونجد ، والحجاز ، يستجير القبائل فلم يجره أحد ، حتى اتى السموأل صاحب حصن الابلق فاستجاره فأجاره . فاستودعه ادراعه وأمتعته وهو لايرى مرجعا يستنصره على أعدائه الا قيصر الروم ، لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه ، على جارى عادة العرب فى ذلك العهد : اذا تظلموا من احدى الدولتين استنصروا الاخرى . ولم يكن لامرىء القيس سبيل الى القيصر ، فوسط الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب النفوذ عند الروم يومئذ ، وطلب اليه أن يوصله اليه ففعل ، فسار امرؤ القيس الى القيصر . ويقول العرب أن القيصر بعد أن اجاب دعوته وسمع مدائحه وشى به احد بنى أسد أعدائه وقال للقيصر : « ان امرأ القيس شتمك » فصدق الوشاية والبس الشاعر حلة مسمومة قتلته ، ولا نعرف سما يفعل هذا الفعل . وعلى كل حال فان امرأ القيس قتل ولم ينل أربا (**)

(*) الاغانى ، ج ٢ ص ٦٣

(**) لم يحقق أحد من مؤرخى الادب العربى وقائع حياة امرىء القيس أو التواريخ الرئيسية فيها على نحو نستطيع قبوله والتعويل عليه . وقد غلب على ظن أوليندر ، مؤرخ ملوك كندة ، أنه ولد حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية . ونشك كثيرا فيما ذكره الرواة من أن أمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير أخت كليب ومهلهل التغلبيين . بل يشك فى تفاصيل قصته مع بنى أسد واستنجاده بقيصر وموته مسموما على مقربة من أنقرة

والثابت عند المؤرخين انه ابن لحجر بن عمرو آكل المرار ، وان أباه لم يكن راضيا عنه لانصرافه الى اللهو والعبث وقوله الشعر واتصاله بنفر من زعار القبائل والخلعاء وعيشه معهم . وانه ولد ببلاد بنى أسد وقضى معظم أيامه فى نجد ، لأن الديار التى وصفها فى شعره كلها ديار بنى أسد. ولا نعلم فى أى موضع كان امرؤ القيس عندما جاءه خبر مقتل أبيه ، وان كان الغالب انه كان فى اليمن ، فاستجار ببكر وتغلب ، فلم يجد عندهما الكفاية من العون . وحاول أن يوقع ببنى أسد دون جدوى ، وان كان لا يستبعد انه أصاب بعض قبائلهم مثل بنى كنانة . ومن الثابت أن امرأ القيس بعد أن يئس من نصر العرب اتجه ببصره الى أمبراطور الروم ، وسار نحو الشمال حتى بلغ شيزر ، ولا نعرف كيف وصل الى القسطنطينية ، بل لا نستطيع القطع بأنه وصل اليها أصلا . أما ما يؤكده الرواة فى هذا الموضوع فمعظمه موضوع ، وقد يكون الامر قد اختلط عليهم ، فاسم امرىء القيس كان شائعا بين العرب اذ ذاك ، حتى أن فلهاوزن عد خمسة عشر شاعرا كل منهم يسمى امرأ القيس ، ثم ان شيوخ القبائل العربية كانوا يترددون على بلاط القسطنطينية مستنصرين بالروم ، فلا يبعد ان الرواة والقصاصين ابتكروا قصة ذهاب امرىء القيس الى عاصمة الروم . وقد روى جواد على خبرا وجده عند المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس يقول فيه ان شيخا عربيا يسمى قيس Kaisus قتل أحد أقارب السميفع Esimiphaeus ملك حمير ، وهرب الى البادية ، فتوسط له القيصر وطلب الى السميفع أن يقيمه رئيسا على معد Maddeni . وروى أيضا عن المؤرخ نونوس Nonnosus ان القيصر جستنيان كلفه (أى نونوس) بالتوجه فى سفارة الى قيس Kaisus حفيد الحارث Aretas وكان رئيسا لقبيلتين كبيرتين من قبائل العرب (السراسينوى

وتضعضعت دولة كندة ولم يبق من ملوكها غير معد يكرب رئيسا على قيس عيلان ، وأمراء صغار لهم سيادة على بعض القبائل هى بقية نفوذ آبائهم ، وربما حكم الواحد منهم بلدا أو واديا . وأشهر فروع تلك الدولة أربعة فى الاماكن الآتيـــة : (١) دومة الجنـــدل (٢) البحرين (٣) نجران (٤) غمر ذى كندة . وكل من هذه الفروع دولة صغيرة قائمة بنفسها ، حتى ظهر الاسلام فذهبت جميعها

أما بداية هـــذه الدولة فاذا اعتبرنا أول ملوكها حجر بن عمرو آكل المرار فقد توالى بعده أربعة من اعقابه فيهم امرؤ القيس الشاعر ، وكان معاصرا للحارث بن جبلة الغسانى المتوفى سنة ٧٦٩ م ، فاذا اعتبرنا وفاة امرىء القيس فى وسط القرن السادس سنة ٥٦٠ ، وحسبنا ما ذكروا من مدد الحـكم لحجر وابنه عمرو ، وجعلنا ما بعدها على تلك النسبة ، يكون لنا القائمة الآتية عن زمن وفاة كل ملوك كندة على وجه التقريب :

حجر بن عمرو آكل المرار	توفى ٤٥٠ م
عمرو بن حجر بن عمرو	توفى ٤٩٠ م
الحارث بن عمرو معاصر ابن ماء السماء	توفى ٥٤٠ م
حجر بن الحارث والد امرىء القيس	توفى ٥٥٠ م
امرؤ القيس	توفى ٥٦٠ م

Saracynoi) هما كندة Kindgnoi ومعـــد Maadynoi ليطلب اليه الشـــخوص الى القسطنطينية ، فذهب اليها ولقى القيصر وسمع ما أمره به وعاد الى بلده لينفذ أوامره . وروى أخبارا أخرى من هذا القبيل تدل على كثرة تردد زعماء العرب على بلاط الروم ، فلعل ذلك كله هو الاصل الذى نشأت عنه قصة ذهاب امرىء القيس الى بيزنطة ووشاية الناس به وسمه على يد الامبراطور

ويحيط الشك كذلك بقصة امرىء القيس مع السموأل بن عاديا (وفى نســبه اختـلاف) وايداعه اياه دروعه ، وقتل الحارث بن أبى شمر الغسانى لابن السموأل فى قصة الوفاء المعروفة فى الكتب العربية

أنظر البحث المسهب عند جواد على ، جـ ٣ ص ٢٥٢ — ٢٧٣

عرب الصَّفا

امم سباية فى الشمال

فالدول الثلاث التى ذكرناها انما هى نموذج للدول التى نشأت فى شمالى جزيرة العرب فى أثناء الطور الثانى من عرب الشمال أو الطبقة الثالثة من العرب . ولو أن هذه الدول لم تحتك بالروم أو الفرس وتبقى منها بقية الى ظهور الاسلام حتى تناقل القوم خبرها ودونوا ما علموه منها لذهبت آثارها فى جملة ما ذهب من آثار الدول الاخرى . وبعض الدول الذاهبة لا يرجى كشف أخبارها ، لانها لم تخلف آثارا منقوشة ، والبعض الآخر خلفت آثارا تدل عليها فاذا كشفها المنقبون ودرسها الباحثون انجلت حقيقتها واطلعنا على تتمة أخبار العرب منها

وقد اخذ المنقبون يبحثون فى شمالى جزيرة العرب من أواسط القرن الماضى ، وذكرنا ما وفقوا الى كشفه من النقوش النبطية والتدمرية وغيرها من الاقلام الآرامية . على انهم وفقوا أيضا الى كشف نقوش حميرية هى فروع من القلم المسند (السبأى) يدل وجودها فى شمالى جزيرة العرب على أن السبأيين والمعينيين توطنوا هذا الجزء من الجزيرة ، أو كان لهم فيها مستعمرات أو فروع أو محطات . وأهم ما وفقوا الى كشفه من تلك الاثار وجدوه فى الحراء بجوار حوران ، وفى العلاء بجوار وادى القرى ، وفى أماكن أخرى ، وكلها تشترك بشكلها الحميرى أى قلم المسند . ولكن بينها فروقا تدل على أن كلا منهما لأمة مستقلة بآدابها وعاداتها عن الاخرى ، وقد سموا كل قلم منها باسم خاص يدل على محل وجوده أو القوم الذين يظن انهم استخدموه وهى ثلاثة :

	السبأى	القلم اللحيانى	القلم الثمودى	القلم الصفوى
ا	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ذ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ه	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
خ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ظ	[illegible]			[illegible]
ى	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
غ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ض	[illegible]		[illegible]	[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ث	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

القلم السبأى وفروعه فى الشمال

(١) القلم الصفوى : سموه بذلك لأنهم عثروا عليه فى جبل الصفا بحوران.
(٢) القلم اللحيانى : نسبة الى بنى لحيان لأنهم كانوا يستخدمونه على مايظن
(٣) القلم الثمودى : سموه بذلك لظنهم أن ثمودا كانت تكتبه. وفى الصفحة السابقة جدول للأبجديات الثلاث المذكورة وبجانبها الابجدية السبأية الاصلية ليظهر الفرق بينها

على انهم لايزالون حتى الآن فى أوائل البحث ، ولم يتمكنوا من كشف نقوش توضح لهم حقيقة أصحاب هذه الخطوط ، ويتوقعون الوصول الى ذلك فى المستقبل ويرجون من ورائه كشف حقائق هامة . لكنهم استطاعوا معرفة بعض الشىء عن الكتابة الصفوية وأصحابها مما لا يخلو ذكره من فائدة

جبل الصفا

حوران واقعة شرقى الشام ، تنتهى فى الشرق بجبال حوران ، ووراءها نحو الشرق بقعة وعرة يسمونها « الحراء » ، ووراءها نحو الشرق الشمالى جبل بركانى الشكل يقال له جبل الصفا ، وفيه وجد الرواد الآثار التى يسمونها الصفوية وسموا خطها القلم الصفوى . وأول من عثر على تلك الآثار كريلوس جراهام سنة ١٨٥٧ ، فنبه الاذهان اليها بمقالة كتبها فى مجلة الجمعية الجغرافية فى لندن

وفى السنة التالية خرج قنصل بروسيا فى دمشق لارتياد حوران وما جاورها ، وكتب رحلته سنة ١٨٦٠ ، وفيها نحو ٢٦٠ شكلا من النقوش الصفوية التى وقف عليها هناك . وبعد سنتين فرغ ودنتون وفوجيه من رحلتهما السورية ، وكانت خاتمتها وصول فوجيه الى الصفا ونشر فى تلك الرحلة نحو ٤٠٠ نقش . ثم توالى الزوار على تلك الاصقاع ، ومنهم برتن ودراك وستيبل وأوبنهايم وغيرهم

وآخر من عنى بارتياد ذلك المكان رينه دوسو ، فجمع سنة ١٨٩٩ نحو ٤١٢ نقشا ، وجمع مع مكلير سنة ١٩٠١ ، نحو ٩٠٠ نقش . وفعل ذلك ايضا ليتمن أستاذ اللغات السامية فى ستراسبورج ، فبلغ عدد النقوش التى جمعها الى سنة ١٩٠٥ ، نحو ١٧٥٠ نقشا . ومع كثرة ما اكتشفوه من النقوش فانهم لم يتيسر لهم قراءتها الا قريبا ، وأول من حاول ذلك منهم مولر فى مجلة الجمعية الشرقية Z.D.M.G. ، ثم هاليفى فى المجلة الاسيوية الفرنسية لسنة ١٨٧٧ ، وبعدهما بريتوريوس ، وأخيرا ليتمن المتقدم ذكره . وكتب فى ذلك فصلا ضافيا بالالمانية ضمنه تاريخ حل تلك الكتابة(١)

(١) Zur Entzifferung der Safa Inschriften

وعين لفظ كل حرف ومكانه من الابجدية كما ترى فى الشكل الســـابق . وكتب دوسو فصلا ضافيا عن هذه الابجدية فيه انتقاد وملاحظات تتعلق بنسبة هذا الحرف والحرف الســـبأى الى الاصـــل الفينيقى أو اليونانى القديم (١) ومن هو السابق الى الوجود ، وستعود الى هذا البحث فى كلامنا عن الـكتابة فى بلاد العرب قبل الاسلام

وغاية ما وقفوا عليه بعد هذا العناء قراءة بعض الاعلام ، ومنها أسمـاء الاشـــخاص أو الآلهة أو الاماكن فى عرض الدعاء او الوقف أو نحو ذلك . وقنما قرأوا نقشا فيه فائدة تاريخية صريحة . ولـكنهم استفادوا من قراءة الاعلام فوائد كثيرة ، أكثرها تتعلق بالآلهة التى كانوا يعبدونها . وقد وفقوا الى استخراج أنساب بعض الـكهان أو الامراء الذين تعاقبوا فى أوائل تاريخ الميلاد ، نشر دوسو عائلة منهم اسم جدها الاعلى قصى ، وابنه اسمه روح ، له ولد اسمه أكلب ، ولهذا ولدان : قصي ومالك ، ولمالك ولد اسمه روح ، ولقصى ولد اسمه مالك (الثانى) (٢)

ووجدوا بين معبوداتهم عدة من آلهة الجنوب وبعض آلهة الشمال ، وفى جملة ذلك عشتار ، واللات ، وذو الشرى ، وشمس ، وغيرها ، وسنعود الى ذلك فى الـكلام عن اديان العرب

وعلى كل حال فان معرفتنا عن عرب الصفا ضعيفة جدا ، واكثر ما يقال عنهم من قبيل الظنون . والراجح من ذلك كله ان هذه الآثار المنقوشة لامة عربية اقامت فى جهات حوران حوالى تاريخ الميلاد ثم اندثرت ، ولعل موالاة البحث توضح لنا الصحيح وتكشف لنا عن أمم أخرى

---

(١) Dussaud, 57

(٢) Dussaud, 124

أيام العـــرب

العدنانية والدول المعاصرة

يراد بأيام العرب الوقائع التى جرت بين القبائل البدوية فى شمالى جزيرة العرب فى الطور الثانى ، اى فى الطبقة الثالثة من تاريخ العرب قبل الاسلام . وأهم هذه القبائل من عدنان ، وقد تفرقت بأحيائها وبطونها وقبائلها كما تقدم ، وكان كل منها مستقلا بأحكامه وأعماله ، يتخاصمون ويتحاربون على ما تقتضيه طبيعة البداوة ، ويندر أن يجتمعوا تحت راية واحدة . يدلك على ذلك انهم لم يجتمعوا فى الجاهلية كلها الا ثلاث مرات سيأتى ذكرها

على أن بعضها كانت تدخل فى رعاية احدى الدول الـكبرى المعاصرة لها على يد بعض عمال هذه الدول من العرب ، فتدخل فى حوزة الفرس على يد المناذرة ، أو الروم على يد الغساسنة ، أو حمير على يد كندة . ولـكنهم لم يكونوا يخضعون فى الحقيقة لدولة الا لمصلحة مشتركة بينهم وبينها ، ولا يثبتون على ولائها الا لمطمع

وكان أكثر خضوعهم لدولة حمير باليمن ، لانها كانت اكبر دول العرب يؤدون لها الاتاوة كل عام . أما الدول العربية الصغرى فكانت علائقها معها على الاكثر على سبيل المحالفة . فالمناذرة مثلا كانوا يقربونهم ليستعينوا بهم على الغساسنة ، وكذلك كان يفعل هؤلاء للاستعانة بهم على المناذرة ، شأن الدول المتحضرة فى ذلك العهد من الاستعانة بالبداوة على الحضارة

والعدنانية كانوا أشداء ، ولو انهم اتحدوا لم تقو عليهم دولة ، ولـكنهم كانوا لا يبرحون فى انقسام وخصام فيستظل الضعيف منهم بدولة تحميه من أخيه القوى . وكثيرا ما كانوا يلجأون الى بعض تلك الدول للحكم بينهم فى ما يختصمون فيه لاحترامهم علوم الحضارة وقوانينها . فكانت القبيلة من أهل البادية اذا دخلت فى رعاية حمير مثلا طلبت اليها أن تولى عليها أميرا ، ويغلب أن تختار واحدا من امراء تلك القبيلة ، أو أحد رجال تلك الدولة ، أو بعض المعروفين بالقوة والسطوة من احدى القبائل التى تعودت السيادة كقضاعة أو غسان أو لخم أو كندة

واشهر من تولى الرئاسة على بدو الشمال تحت رعاية دولة اليمن زهير

ابن جناب الـكلبى من قضاعة فى أواسط القرن الخامس للميلاد ، وكان شديد البطش باسلا شجاعا وله عقل وسداد رأى حتى سموه الـكاهن ، وله وقائع مشهورة سيأتى ذكرها . واتفق فى أثناء سيادته على نجد أن صاحب اليمن أتى نجدا ، فقدم زهير اليه فأكرمه الملك وفضله على من عرفهم من أمراء العرب ، وولاه الامارة على بكر وتغلب وكلاهما من ربيعة ، فكان يحكم فيهم ويجمع الاتاوة منهم (*)

استقلال عدنان عن اليمن

فرسخ فى اعتقاد البدو بتوالى الاجيال أن الاذعـــان لدولة حمير فرض واجب ، وكان النزاع بينهم يزيدهم تعلقا بذلك ، حتى رأوا ما أصابها فى أثناء حروبها مع الحبشة ، فتبين لهم ضعفها عن حفظ استقلالها وذهبت هيبتها من قلوبهم ، فأخذوا يفكرون فى الخروج من سيطرتها والامساك عن دفع الاتاوة لها ، وأحسوا بالحاجة الى الاتحاد فى هذا السبيل ، فاتحدوا . ولم يطل اتحادهم كما طال فى الاسلام ، اذ لم يكن الباعث عليه من قبيل الوجدان

والفضل الاكبر فى كسر قيد الاتاوة والخروج من طاعة اليمن لقبيلة ربيعة ، لأن البادىء بكسر ذلك القيد منهم وهو كليب الفارس الباسل المشهور ، وكان معاصرا لزهير بن جناب الذى ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب وهما أكبر قبائل ربيعة . وكان زهير يتقاضى الاتاوة أو الخراج منهم فى مقابل النجعة والـكلأ والمرعى ، وكان يخرج فى حاشيته لجمع الاتاوة ، فأصابهم فى أثناء امارته ضيق وأجدبت أرضهم فتأخروا عن الدفع ، فجاءهم زهير وألح فى مطالبتهم فشكوا عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ لشكواهم . ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم ، فصبروا حتى كادت مواشيهم تهلك . وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم ، فلما أصابهم ذلك الظلم شقوا عصا الطاعة ونقموا على زهير ورجاله ، فدسوا رجلا منهم اسمه زيابة من بنى تيم الله ـ وكان فاتكا ـ وأوعزوا اليه أن يقتل زهيرا غدرا ، ولم يقدموا

(*) يذكر الاخباريون أخبارا كثيرة أسطورية الطابع عن زهير بن جناب بن هبـــل الحميرى هذا ، فيذكرون مثلا أنه عاش ٢٢٠ سنة وأنه امتاز على قومه بعشر خصال : السيادة ، والشرف، والخطبة ، والشعر ، والوفادة على الملوك ، والطب ، والكهانة ، والفروسية ، وكثرة الولد ، وشرف البيت . ولا يهتم الاخباريون بدوره السياسى بقدر ما يهتمون ببلاغة شعره وكهانته ، ولكننا نفهم من مجموع الاخبار أنه كان سيد قضاعة ، وأن ملوك حمير كانوا يعتبرونه الرئيس الاعلى للعدنانيين ويحكمونهم عن طريقه . وكان من أفهم الناس بطبائع العرب وأوسعـــهم علما بشئونهم وأعرفهم بمطالب الرياسة فيهم . وقد عمر طويلا حتى خرف ، وله شعر كثير وحكم تجعله من أكبر حكماء العرب ، والغالب أنه توفى فى أواخر القرن الخامس الميـــلادى أو أوائل السادس

أنظر : الالوسى ، بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤) ح ٣ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

على مناوأته جهارا لئلا يستنجد جنده . فأتاه زيابة وهو نائم وطعنه، ورجع الى قومه واخبرهم انه قتله ، والحقيقة ان السيف مر بجانب البطن ولم يصب من زهير مقتلا . وعلم هذا انه سالم فلم يتحرك لئلا يجهز عليه . فلما انصرف زيابة أوعز زهير لمن معه أن يظهروا موته ويستأذنوا بكرا وتغلب فى دفنه ، فلما أذنوا دفنوا ثيابا ملفوفة وفروا به مجدين الى قومهم ، فجمع زهير الجموع . وفى ذلك يقول زيابة :

طعنة ما طعنت فى غلس الليل زهيرا وقد توافى الخصوم
حين يحمى له المواسم بكر أين بكر وأين منها الحلوم
خاننى السيف اذ طعنت زهيرا وهو سيف مضلل مشئوم

وجمع زهير من قدر عليه من أهل اليمن وغزا بكرا وتغلب ، وقاتلهم قتالا شديدا انهزمت به بكر ، وقاتلت تغلب بعدها ثم انهزمت ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة وأخذت الاموال وكثرت القتلى فى بنى تغلب ، وأسر جماعة من وجوههم وفرسانهم

فعظم ذلك على قبائل ربيعة وتجمهروا وولوا عليهم ربيعة والد كليب ومهلهل ، وخرجوا على زهير وأنقذوا الاسيرين منه . ودالت الايام وعاد زهير الى سطوته فوضع الاتاوة أو الخراج على بنى معد جميعا

وفى أواخر القرن الخامس توفى ربيعة أمير وائل ، فخلفه ابنه كليب وفى نفسه على اليمن ضغائن لما قاساه فى أسرهم ، فجمع معدا تحت لوائه ــ أى ربيعة وقضاعة ومضر واياد ونزار ــ وحارب اليمن فى معركة عرفت «بيوم خزاز» سيأتى ذكرها ، وهزمهم واستقلوا من سيطرتهم ، ولم يدفعوا اليهم اتاوة أو خراجا من ذلك الحين . ونظرت معد الى كليب نظرها الى منقذ عظيم ، فولوه الملك عليهم وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته (١) وكان ذلك آخر عهدهم بسلطة اليمن

على ان خروجهم من هذه السلطة لم يفض الى الاستقلال التام وانشاء الدول المستقلة لتغلب البداوة على طباعهم ، فكانوا اذا خرجوا من رعاية اليمن دخلوا فى رعاية كندة أو غسان أو لخم على غير نظام وبلا شروط ، وهم مع ذلك فى خصام ونزاع فيما بينهم أو مع سواهم من الامم المعاصرة ، وتعرف حروبهم المشار اليها بأيام العرب

ويريدون بأيام العرب ما حفظه التاريخ من الوقائع بين قبائل البادية من

(١) ابن الاثير ٢٣٨ ج ١

عدنان ، أو بينها وبين قبائل اليمن أو بعض الدول . فنقسم تلك الايام الى : حروب العدنانية مع سواهم ، وحروبهم بين انفسهم

أيام العدنانية مع سواهم

١ ــ يوم البيضاء : بين عدنان واليمن

هذا أقدم ما حفظه التاريخ من أخبار تلك الحروب ، وهى حرب وقعت بين العدنانية ومذحج ، فى أواسط القرن الرابع للميلاد . وكانت مذحج قادمة من اليمن طلبا للتوسع فى المعاش ، فنزلوا تهامة وفيها من بنى معد قبائل متفرقة ، ومن جملتها عدوان ، وكان أمير عدوان يومئذ عامر بن الظرب المشهور بعقله وحكمته ، فتضايق المعديون من مذحج ، فاجتمعوا تحت لواء عامر بن الظرب ، وهى أول مرة اجتمعت كل قبائل معد تحت لواء واحد ، وهى انما تجتمع لدفع جيش يمنى عملا بالمثل : « أنا واخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » . وقد فازت معد تحت قيادة عامر ، وغلبت اليمنيين شر غلبة فى مكان يقال له البيضاء ، وهى أول وقعة بين تهامة واليمن . ولم تجتمع معد فى الجاهلية تحت لواء واحد الا ثلاث مرات : الاولى تحت لواء عامر بن الظرب المذكور ، والثانية تحت قيادة ربيعة بن الحارث فى قضاعة فى يوم السلان المتقدم ذكره (١) ، والثالثة تحت لواء كليب بن ربيعة فى محاربة جيش اليمن كما رأيت

وعامر المذكور هو حكم العرب المشهور ، الذى كانت العصا تقرع له . ويقولون فى سبب هذا التعبير انه لما شاخ قال له الثانى من ولده : « انك ربما اخطأت فى الحكم فيحمل عنك » ، قال : « فاجعلوا لى امارة أعرفها ، فاذا زغت فسمعتها رجعت الى الصواب » ، فجعلوا قرع العصا أمارة ينبهونه بها . فكان يجلس قدام بيته ويقعد ابنه فى البيت ومعه العصا ، فاذا زاغ أو هفا قرع له الجفنة فيرجع الى الصواب (٢) قالوا : وهو أول من جلس على منبر أو سرير وتكلم ، ولذلك سموه ذا الاعواد

٢ ــ يوم خزاز (*) بين عدنان واليمن أيضا

وكان سببه ان أحد ملوك اليمن وقع له أسرى من مضر وربيعة وقضاعة ، وكلهم من معد ، فأوفد بنو معد وافدا من وجوههم يكلمونه فى اطلاق الاسرى فأطلقهم ، لكنه استبقى بعض الوفد رهينة وقال للباقين : « ائتونى برؤساء

(١) ابن الاثير ٢٩٥ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٣٧ ج ١ والاغانى ٣ ج ٣

(*) معركة بين معد ومذحج ، وفد انتصرت فيه معد . وخزاز جبل بين البصرة الى مكة . وهذه المعركة هي أكبر انتصارات معد على اليمن ، وتعد من أسباب تحرر عرب الشمال من حمير ، ويسمى أيضا خزازى



قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لى والا قتلت أصحابكم » . فرجعوا الى قومهم فأخبروهم ، فشـــق عليهم غدره بهم . وكان أكبر أمرائهم ورجل العصر يومئذ كليب وائل ، فبعث الى ربيعة وهى قبيلته فجمعها تحت رايته واجتمعت اليه معد كلها كما تقدم . فلما اجتمعوا اليه سار بهم ، وجعــل على مقدمتهم السفاح التغلبى ، وأمره أن يوقد على خزاز نارا ليهتدوا بها ــ وخزاز جبل ما بين البصرة الى مكة ــ وقال له : « ان غشيك العــدو فأوقد نارين » . وكان ملك اليمن قد أرسل جندا من مذحج ، فلمــا علم هؤلاء باجتماع معد اقبلوا بجيوشهم ، واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن وساروا اليهم ، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا الى ربيعـــة ، ووصلت مذحج الى خزاز ليلا فرفع السفاح نارين ، فلما رأى كليب النارين أقبل اليهم بالجموع فصبحهم ، فالتقوا فى خزاز واقتتلوا قتالا شـــديدا أكثروا فيه القتل ، وانهزمت مذحج وانتصر العدنانيون ، وفى ذلك يقول الفرزدق يخاطب جريرا ويهجوه ويفاخر بأجداده :

لولا فوارس تغلب ابنـــة وائـــل دخـــل العـــدو عليك كل مكان
ضربوا الصـــنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفنـــا على النـــيران

٣ ـ يوم الصفقة (*) أو المشقر : بين فارس وتميم

سببه ان باذان ـ نائب كسرى أبرويز باليمن ـ ارســـل اليه فى أوائل القرن السابع للميلاد أحمالا من حاصلات اليمن ومصنوعاتها ، فلما بلغت النطاع من أرض نجد أغارت عليها تميم وانتهبتها ، وسلبوا رســـل كسرى وأساورته . فعرج هؤلاء على اليمامة ـ وصاحبها هوذة بن على الحنفى ـ فلما رآهم مسلوبين أحسن وفادتهم وكساهم . وكانت له معهم أياد بيضاء فى ما كان الفرس يرسلونه من التجارة الى اليمن ، ويسمونها « اللطيمة » ، فكان هوذة اذا مرت اللطيمة جهز رسلها وخفرهم وأحسن جوارهم ، وكان كسرى يشتهى أن يراه ليجازيه على فعله . فلما أحسن اخيرا الى هؤلاء الرسل الذين سلبتهم تميم قالوا له : « ان الملك لا يزال يذكرك ويحب أن تقدم عليه » ، فسار معهم اليه فلما قدم عليه أكرمه وأحسن وفادته وحادثه لينظر عقله ، وأمر له بمال كثير وتوجه بتاج من تيجانه ، وأقطعه اموالا فى هجر كانت تحت سيطرة الفرس ، وكان هوذة نصرانيا . وأمره أن يغزو بنى تميم مع حملة من عساكر كسرى بقيادة المـكعبر ، فسافروا الى هجـــز ونزلوا فى المشقر ـ وهو حصن ، وخافوا أن يدخلوا بلاد تميم ، لان العجم لا تستطيع فتحها وأهلها ممتنعون فيها . فعمد هوذة والمـكعبر الى الحيلة والغدر ، فبعثا رجالا من بنى تميم يدعونهم الى الطعام ، وكانت سنة شديدة فأقبلوا على كل صعب وذلول ، فجعل المـكعبر يدخلهم الحصن خمســـة خمسة ، وعشرة عشرة ، وأقل او أكثر على أن يخرجهم من باب آخر ، فكل من دخل ضرب عنقه . فلما طال ذلك عليهم ورأوا النـــاس يدخلون ولا يخرجون ، بعثوا رجالا يستعملون الخبر ، فشـــد رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها ، وخرج من كان بالباب فأمر المـكعبر رجـــل من عبس فضرب السلسلة فقطعها ، وخرج من كان بالباب فأمر المـكعبر بغلق باب المدينة وقتل كل من فيها ، وكان يوم الفصح فاستوهب هوذة منه مائة فكساهم وأطلقهم يوم الفصح ، فقال الاعشى من قصيدة له يمدح هوذة :

بهم تقرب يوم الفصح ضـــاحية يرجو الاله بما أســـدى وما صنعا

وكان يوم الصفقة فى العقد الثانى من القرن السابع للميلاد ، أى بعد ظهور الدعوة الاسلامية فى مكة وقبل مهاجرة النبى الى المدينة (١)

(*) لكسرى على تميم . وسمى الصفقة لأن كسرى أصفق الباب على تميم فى حصن المشقر . والمشقر حصن بالبحرين بناه رجل من أساورة كسرى
الاغانى ١٦/٧٥ ، معجم البلدان لياقوت : ٣٦٨/١

(١) ابن الاثير ٢٨٦ ج ١

٤ ـ يوم الكلاب الثاني

هو تابع ليوم الصفقة الذى قتل فيه بنو تميم . وذلك ان رجلا من بنى قيس بن ثعلبة قدم نجران على بنى الحارث بن كعب وهم أخواله ، وحدثهم بما اصاب بنى تميم وان أموالهم وذراريهم فى مساكنهم لا مانع لها ، فاجتمعت بنو الحرث من مذحج وأحلافها من نهد وحزم فى جيش عظيم ، وساروا يريدون بنى تميم فحذرهم كاهن لهم ونصح لهم فى الخطة التى يتخذونها فى نيل ما يريدون فالتقت سعد والرباب على ماء اسمه الكلاب ، واقتتل القوم قتالا شديدا وعادت الغلبة على مذحج . وأما يوم الكلاب الاول فقد دخل فى تاريخ بنى كندة

أيام العدنانية فيما بينهم

ان المعارك الحربية التى جرت بين قبائل عدنان فى القرنين الاولين قبل الهجرة تكاد تكون قاصرة على ربيعة ومضر ، اما بينهما أو بين قبائل كل منهما . لان هذين الشعبين كانا فى ذلك العهد أقوى شعوب عدنان وأكثرها رجالا وأشدها بداوة ، تنتقل فى نجد واليمامة والحجاز وتعيش بالغزو والحرب . وكانت متجاورة تغتنم كل منهما غفلة صاحبتها وتسطو عليها ، وقد لا يكون لذلك السطو سبب غير الغزو ، طمعا فى مال الجار من ابل أو ماشية أو ماء أو متاع أو أخذ بالثأر لمثل ذلك الغزو

وتقسم هذه المعارك الى ثلاثة أقسام كبرى :

الاول : الوقائع التى جرت بين قبائل من ربيعة وقبائل من مضر

والثاني : الوقائع بين قبائل ربيعة نفسها

والثالث : بين قبائل مضر

١ ـ الوقائع بين ربيعة ومضر

أهم هذه الوقائع جرت بين قبيلة تميم من مضر وبكر بن وائل من ربيعة. وكانت تميم تخيم بين اليمامة وهجر وبكر فى شماليها . فهما متجاورتان ، ولذلك كثر النزاع بينهما وانتشبت الحروب وتوالت الفزوات . والغالب أن تكون بكر الهاجمة على أثر جدب لحق بمنازلها ، لان أرض تميم أخصب من أرضها ، وأشهر تلك الوقائع ١٢ واقعة ، فازت تميم بست منها وبكر بست

الوقائع التى فازت بها تميم على بكر

(١) يوم النباج وثيتل (*) : وسببه حب الغزو ، وكان زعيم التميميين فيه قيس بن عاصم المنقرى وغيره ، فغزوا البكريين فى مكان يقال له النباج

(*) ثيتل ماء على عشر مراحل من البصرة . والنباج موضع قريب من ثيتل

كان البكريون مجيمين فيه ، فلما وصل التميميون اليه أمر قيس أن تسقى الخيول فسقوها ، ثم أراق ما بقى معهم من الماء وقال لرجاله : « قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم » فأغاروا على من فى النباج من بكر صبحا ، فقاتلوهم قتالا شديدا وانهزمت بكر واصيب من غنائمهم ما لايحد لكثرته

وكان قيس قد انفذ أميرا اسمه سلامة برجال ليغزو مكانا آخر للبكريين اسمه ثيتل ، فلما فرغ من النباج صار الى ثيتل ، فرأى القوم لم يغزوا بعد فأغار عليهم برجاله وهزمهم ، وأصاب من الغنائم نحو ما أصاب بالنباج ؛ وفى ذلك يقول شاعرهم قرة بن زيد بن عاصم :

أنا ابن الذى شق المزاد(*) وقد رأى	بثيتل احياء اللهازم حضرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم	فلم يجدوا الا الاسنة مصدرا
سقاهم بها الزيفان قيس بن عاصم	وكان اذا ما أورد الامر أصدرا
على الجرد يعلكن الشكيم عوابسا	اذا الماء من اعطافهن تحدرا
فلم يرها الراؤون الا فجاءة	نثرن عجاجا كالدواخن اكدرا
وحمران ادته الينا رماحنا	فنازع غلا فى ذراعيه أسمرا

(٢) يوم ذى طلوح (**) : ولهذا اليوم سبب غير حب الغزو ، وذلك أن رجلا من تميم اسمه عميرة بن طارق اليربوعى (ويربوع بطن من تميم) زوج امرأة من بكر اسمها مرية بنت جابر العجلى ، وسار الى اهلها ليبنى بها ، وخلف فى بنى تميم امراة أخرى اسمها ابنة النطف . وكان لمرية أخ اسمه أبجر ، جاء ليزور أخته وزوجها عميرة عندها ، فقال لها : « انى لارجو أن آتيك بابنة النطف امرأة عميرة » يريد انه عازم على أن يأخذها منه بدل أخته ؛ فغضب عميرة وقال له : « ما أراك تبغى على حتى تسبينى أهلى » فندم أبجر على تفريطه بالكلام بين يديه ، وكان يجب أن يفعل ذلك سرا فقال : « ما كنت لاغزو قومك »

وخرج فتجهز ومضى فى رجاله لغزو تميم ، ووكل بعميرة من يحرسه لئلا يسير الى قومه فينذرهم . فاحتال عميرة على الموكل بحفظه وهرب الى قومه فأنذرهم ، فاستعدوا وخرجوا لملاقاة أعدائهم واقتتلوا فى ذى طموح ، وكان الفوز ليربوع وانهزمت بكر

(٣) يوم جدود (***) : هو بين بنى منقر من تميم وبكر بن وائل .

(*) جمع مزادة ، وهى الرواية

(**) ذو طلوح موضع فى صحراء بنى يربوع بين الكوفة وفيد وهو يوم الصمد ويوم أود

(***) جدود اسم موضع فى بلاد بنى تميم قريب من صحراء بنى يربوع على سمت اليمامة ، فيه الماء الذى يقال له الكلاب ، قال فى اللسان : وكانت فيه وقعة مرتين ، وقد يسمى بعضهم يوم الكلاب الاول يوم جدود كذلك

وسببه أن الحوفزان الشيباني (من بكر) كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع (من تميم) موادعة ، فهم الحوفزان بالغدر ، وجمع بني شيبان ومن حالفهم وغزا بني يربوع وهو يرجو أن يصيب منهم غرة ، ولكنهم علموا بقصده فاستعدوا للقائه والتقى الفريقان في جدود . وتصدى من التميميين على الخصوص بنو منقر ، فقاتلوا البكريين قتالا شديدا فانهزمت بكر وخلوا السبي والاموال ، وتبعتهم منقر فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين . وكان رئيس منقر قيس بن عاصم المتقدم ذكره ، فجعل همه الحوفزان فتبعه على مهر والحوفزان على فرس ، فلم يدركه وقد قاربه فلما خاف أن يفوته حفزه بالرمح في ظهره فاحتفز بالطعنة ونجا . وفي ذلك يقول سوار بن حيان المنقري يفاخر رجلا من بكر ويذكر الايام التي غلبوهم فيها :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة ... كسته نجيعا من دم البطن اشكلا (*)
وحمران قسرا أنزلته رماحنا ... فعالج غلا في ذراعيه مثقلا
فيالك من أيام صدق نعدها ... كيوم جؤاثى والنباج وثيتلا
قضى الله انا ــ يوم تقتسم العلا ــ ... احق بها منكم فأعطى وأجزلا
فلست بمستطيع السماء ولم تجد ... لعز بناه الله فوقك منقلا

(٤) يوم الاياد : وهو يوم اعشاش ويوم عظالي بين شيبان من بكر وبني يربوع من تميم . وسببه ان بكرا كانوا تحت كسرى ، أي انهم كانوا يخدمون الفرس في ما يحتاجون اليه في أسفارهم بالبادية ، فيقرونهم ويجهزونهم ، وكانوا يراقبون حركات جيرانهم بني يربوع ويتوقعون انحدارهم في السهل ليثبوا بهم ، ورئيس البكريين بسطام بن قيس الشيباني . والتقى القومان يوما واحتدم القتال بينهما ، فانهزمت شيبان بعد أن قتلت من تميم جماعة كبيرة ، وقتل من شيبان جماعة ايضا واسر جماعة فيهم هانىء بن قبيصة ففدى نفسه ونجا ، فقال متمم بن نويرة في هذا اليوم :

لعمري لنعم الحي اسمع غدوة ... أسيد وقد جد الصراخ المصدق
واسمع فتيانا كجنة عبقر ... لهم ريق عند الطعان ومصدق
أخذن بهم جنبي أفاق وبطنها ... فما رجعوا حتى أرقوا واعتقوا

(٥) يوم الغبيط : كانت الواقعة فيه بين شيبان وتميم ، أسر فيه بسطام ابن قيس الشيباني . وسببه ان بسطاما والحوفزان ومفروق بن عمرو ساروا في جمع من بني شيبان الى بلاد تميم للغزو ، فأغاروا على عشائر منهم متجاورين في صحراء فلج ، فاقتتلوا فانهزم التميميون وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وغنم بنو شيبان اموالهم وساروا بها فمروا بعشيرة أخرى من

(*) اشكال اي احمر

تميم استاقوا ابلهم . وبلغ ذلك بني يربوع فأكبروا هذا التعدى ، فمشـوا بقيادة عتيبة بن الحارث اليربوعي يتقصون آثار بنى شيبان ، فأدركوهم في مكان اسمه غبيط المدرة ، فقاتلوهم وصبر الفريقان ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم ما كانوا غنموه منهم ، والح عتيبة المذكور فى اسر بسطام حتى أسره . فأشار اليربوعيون على عتيبة أن يقتله لانه قتل منهم كثيرين قبلا فأبى . وسار به الى بنى عامر بن صعصعة لئلا يؤخذ فيقتل ، فلما توسط عتيبة بيوت بنى عامر صاح بسطام : « واشيباناه ولا شيبان لى اليوم » فبعث اليه عامر ابن الطفيل رئيس بنى صعصعة : « ان استطعت أن تلجأ الى قبتى فافعل فانى سأمنعك » فعلم عتيبة بذلك فأتى ابن الطفيل وقال له : « قد بلغنى الذى أرسلت به الى بسطام ، فانا نخيرك فيه خصالا ثلاثا » ، قال : « وما هى ؟ » ، قال : « اعطنى خلعتك وخلعة أهل بيتك فأطلعه لك » ، قال عامر : « هذا لا سبيل اليه » ، فقال : « ضع رجلك محل رجله فليست عندى بشر منه » ، فلم يقبل ، فقال : « تتبعنى الى هذه الرابية فتقارعنى عنه على الموت » فأبى ، فانصرف عتيبة ببسطام فرأى بسطام عتيبة على رحل رث فقال : « يا عتيبة هذا رحل أمك » ، قال : « نعم » ، قال : « ما رأيت رحل أم سيد قط مثل هذا » . فقال عتيبة : « واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتينى أمك بهودجها » ، وكان كبيرا ذا ثمن كثير . وهذا الذى أراد بسطام ليرغب فيه فلا يقتله ، فأرسل بسطام فأحضر هودج أمه وفادى نفسـه بأربعمائة بعير — وقيل بألف بعير وثلاثين فرسا وهودج أمه وحدجها وخلص من الاسر . فلما خلص أذكى العيون على عتيبة حتى اغتنم غفلته ، وأغار عليه وأخذ الابل كلها ومالهم جميعا

(٦) يوم شقيقة : بين شيبان من بكر وضبة من مضر ، قتل فيه بسطام ابن قيس سيد شيبان . وكان سببه أن بسطاما غزا بنى ضبة فغلب على أمره وقتل

الوقائع التى فازت بها بكر

(١) يوم فلج (*) : هو غزوة بسيطة سببها أن جمعا من بكر ساروا الى الصعاب وشتوا ، فلما انقضى الربيع انصرفوا ، فمروا بالدو فلقوا أناسا من تميم فأغاروا على نعم كانت لهم ، ومضوا فنادى التميميون وأقبلوا على آثار بكر ، وساروا يومين وليلتين حتى أجهدهم السير ، وانحدروا فى بطن فلج والتقوا هناك ، وانهزمت تميم وبلغت بكر منها ما أرادت ، وكان فى جمـلة الاسرى عند بكر شاعر تميمي اسمه خالد بن مالك ، فأطلقه رجل من بكر اسمه عرفجة وجز ناصيته فقال خالد :

(*) واد لبنى العنبر عمرو بن تميم ، يقع أول الدهناء . ويسمى أيضا صحراء فلج

وجـــدنا الرفد رفد بنى تميـــم ... اذا نزلت مجـــللة شـــــدادا
همو ضربوا القبـــاب ببطن فلج ... وذادوا عن محـــــــارمهم ذيادا
وهم منوا على وأطلقـــــــونى ... وقـــد طاوعت فى الجنب القيـــادا
اليس همو عمـــــاد الحى بكرا ... اذا نزلت مجـــللة شـــــدادا

(٢) يوم الوقيظ (*) : بين اللهازم من بكر بن وائل وبنى تميم ، سببه ان اللهازم اجتمعوا ومعهم بنو عجل وعنزة من ربيعة للاغارة على بنى تميم ، وكان عندهم أسير تميمى اسمه ناشب بن بشامة ، فأراد أن يحتال فى ايصال الخبر الى قومه فقال للهازم : «اعطونى رجلا أرسله الى أهلى أوجهه ببعض حاجتى» ، فقالوا له : « ترسله ونحن حضور » ، قال : « نعم » . فأتوه بغلام مولد فقال : «أتيتمونى بأحمق» ، فقال الغلام : « والله ما أنا بأحمق » ، افقال : « انى أراك مجنونا » ، قال : « والله ما بى جنون » ، قال : « اتعقل ؟ » قال : « نعم انى لعاقل » ، قال : « فالنيران أكثر أم الـكواكب ؟ » قال : « الـكواكب وكل كثيرة » ، فملأ كفه رملا وقال : « كم فى كفى ؟ » ، قال : « لا أدرى فانه كثير » ، فأومأ الى الشمس بيده وقال : « ما تلك ؟ » ، قال : « الشـــمس » ، قال : « ما أراك الا عاقلا . اذهب الى قومى فأبلغهم السلام وقل لهم ليحسنوا الى أســيرهم فانى عند قوم يحســـنون الى ويكرموننى ، وقل لهم فليعروا جملى الاحمر ، ويركبوا ناقتى العيســـاء ، وليرعوا حاجتى فى بنى مالك . وأخبرهم ان العوسج قد أورق ، وان النســـاء قد اشتكت ، وليعصوا همام بن بشامة فانه مشئوم مجدود ، وليطيعوا هذيل ابن الاخنس فانه حازم ميمون ، واسألوا الحارث عن خبرى » . فســـار الرسول فأتى قومه فأبلغهم فلم يدروا ما أراد ، فأحضروا الحارث وقصـــوا عليه خبر الرسول فقال للرسول : « اقصص على أول قصتك » فقصها عليه من أولها الى آخرها ، فقال : « أبلغه التحية والسلام واخبره أنا سنتوصى بما اوصى به » فعاد الرسول . وقال الحارث لقومه : « ان صاحبكم بين لكم . أما الرمل الذى جعله فى كفه فانه يخبركم أنه قد أتاكم عدد لا يحصى ، وأما الشمس التى اومأ اليها فانه يقول ذلك أوضح من الشمس ، واما جمله الاحمر فالصمان (**) فانه يأمركم أن تعروه يعنى ترحلوا عنه ، وأما ناقته العيساء فانه يأمركم أن تحترزوا فى الدهناء ، وأما بنو مالك فانه يأمركم أن تنذروهم معكم ، وأما ايراق العوسج فان القوم قد لبسوا السلاح ، وأما اشتكاء النساء فانه يريد أن النساء قد خرزن الشكاء وهى أسقية الماء للغزو » فحذر بنو العبر ، وركبوا الدهناء ، وأنذروا بنى مالك فلم يقبلوا منهم . ثم ان اللهازم وعجلا وعنزة أتوا وأدركوا من بقى وقتلوا منهم مقتلة وأسروا كثيرين

(*) الوقيظ المكان الصلب الذى يستنقع (لا يغيض) فيه الماء . أطلق على موضع
(**) الصمان جبل أحمر فى أرض بنى تميم

(٣) يوم الزويرين (*) : بين بكر (من ربيعة) وتميم ، وسببها طبيعى فى تلك البادية ـ نعنى التنازع على الماء والمرعى والطعام . وذلك ان بلاد بكرا أجدبت ، فانتجعوا بلاد تميم وهى خصبة يلتمسون الـكلأ والحنطة ، حتى تدانوا فجعلوا لا يلقى بكرى تميميا الا قتله ، ولا يلقى تميمى بكريا الا قتـله أو أخذ ماله ، حتى تفاقم الشر فخرج الحوفزان بن شريك الذى عرفنـاه والوادك بن الحارث ـ وكلاهما من شيبان ـ ومعهم قوم من بكر وعليهم أبو مفروق الاصم وغيره ليغيرا على تميم ـ وأمير تميم ابو الرئيس ـ فلما تدانوا جعلت تميم بعيرين جللوهما وجعلوا عندهما من يحفظهما ، وتركوهما بين الصفين معقولين وسموهما زويرين يعنى الهين وقالوا : « لا نفر حتى يفر هذان البعيران » . فلما رأى أبو مفروق البعيرين سأل عنهما فأعلموه حالهما فقال : « أنا زويركم » وبرك بين الصفين وقال : « قاتلوا عنى ولا تفروا حتى أفر » فاقتتل الناس قتالا شديدا انهزمت فيه تميم ، وقتل أبو الرئيس ومعه بشر كثير واجترفت بكر أموالهم ونساءهم وأسروا كثيرين ، وفى ذلك يقول الاعشى :

يا سـلم لا تسألى عنا فلا كشـف	عند اللقاء ولا سـود مقاريف (**)
نحن الـذين هزمنـا يوم صبحنـا	جيش الزويرين فى جمع الاحاليف
ظلـوا وظلت تكر الخيـل وسـطهم	بالشـيب منـا وبالمرد الغطـاريف
تستـأنف الشرف الاعلى بأعينهـا	لمح الصقور علت فوق الاظاليف (***)
انسل عنها نسيل الصيف فانجردت	تحت اللبود متون كالزحاليف (****)

(٤) يوم نعف قشاوة (*****) : بين شيبان (بكر) وتميم ، أغار بها بسطام بن قيس على بنى يربوع (تميم) وهم بنعف قشاوة فأتاهم ضحى يوم ريح ومطر ، فوافق النعم حين سرح فأخذه كله وكر راجعا ، وتداعت عليه بنو يربوع فلحقوه وفيهم عمارة بن عتيبة بن الحرث فكر بسطام فقتله ، ولحقهم مالك بن حطان اليربوعى فقتله ، وأتاهم أيضا بجير بن أبى مليل فقتله بسطام ، وقتلوا من يربوع جمعا وأسروا جمعا وعادوا غانمين

(٥) يوم مبـايض (******) : بين شيبان وتميم ، وسببه أن طريفا العنبرى التميمى كان جسيما يلقب مجدعا ، وهو فارس قومه . حج فى عام

(*) يسمى أيضا يوم الزورين . والزوران بعيران . قال أبو عبيده : وهما بكران مجللان قد قيدوهما وقالوا هذا زورنا أى الهنا .. كما سيأتى فى القصة
العقد الفريد ، ج ٣ ص ٣٤٣
(**) وردت أيضا : ولسنا بالمقاريف
(***) الاظاليف جمع أظلوفة ، وهى الارض الحزنة الخشنة
(****) الزحاليف جمع زحلوفة ، وهى آثار تزلج الصبيان من فوق التل الى أسفله
(*****) قشاوة موضع قال عنه ياقوت : كانت به وقعة بنى شيبان على يربوع ، وهو يوم نعف قشاوة
(******) مبايض ، ماء من مياه بنى تميم

وبينما هو يطوف لقيه خميصة بن جندل الشيباني وهو شاب قوى شجاع فأطال النظر اليه ، فقال له طريف : « لم تشد نظرك الى ؟»قال:«أريد ان اثبتك لعلي ألقاك في جيش فأقتلك » • فقال : « اللهم لا يحول الحول حتى القاه » • وكان كذلك ، فلم يمض العام حتى اختصمت القبيلتان واشتد القتال في مكان اسمه مبايض ، ودارت الدائرة على تميم وانهزموا • ولم تصب تميم بمثلها ، لم يفلت منهم الا القليل ، ولم يلو احد وانهزم طريف فاتبعه خميصة فقتله

(٦) يوم الشيطين (*) وقع في ايام النبي قبل الهجرة ، وسببه انالشيطين وهما بلد مخصب كان لبكر بن وائل ، فلما ظهر الاسلام في نجد سارت بكر الى السواد ، ولحقهم الوباء والطاعون الذى كان ايام كسرى شيرويه فعادوا هاربين ، فنزلوا لعلع وهي مجدبة وقد اخصب الشيطان وفيهما تميم ، وبلغت اخبار الخصب الى بكر فاجتمعوا وقالوا : « نغير على تميم ، فان في دين ابن عبد المطلب من قتل نفسا قتل بها فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها » • وارتحلوا من لعلع واغاروا على المكان فانهزمت تميم ، فقال العنبرى يفخر بذلك :

وما كان بين الشيطين ولعلع لنسوتنا الا مناقل اربع
فجئنا بجمع مثله لم ير الناس مثله يكاد له ظهر الوديعة يطلع

ومن الواقع بين ربيعة ومضر يوم بارق بين تميم وتغلب في ناحية السواد • ويوم آخر بين سليم وشيبان • ويوم اعباد والنقيعة بين ضبة وعبس فازت فيه ربيعة • ويوم ساحوق بين عامر بن صعصعة وذبيان وغيرها • ومنها يوم ذى قار ، وفيه ظهرت مصر وقد ذكرنا خلاصته في تاريخ ملوك الحيرة

الوقائع بين قبائل ربيعة

او الايام بين بكر وتغلب

نريد بها ما حدث من الواقع في ربيعة نفسها بين قبائلها ، وأهمها ما جرى بين بكر وتغلب أو حرب البسوس بين كليب وجساس ، وهي مشهورة وهذه خلاصتها :

قد رأيت في ما تقدم ما بلغ اليه كليب بن ربيعة من السيادة ونفوذ الكلمة ، حتى اجتمعت تحت رايته كل قبائل معد والبسوه التاج وهو من تغلب • فبقي برهة من الدهر في هذه الحال ، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه • ومعنى ذلك في اصطلاحهم أن الرجل اذا اعتز جانبه اتخذ لنفسه بقعة من الارض

(*) الشيطان واديان

لا يجسر أن يطأها أو يوقع الاذى فى شيء منها تشبها بحرم المعابد فى الجاهلية · فاتخذ كليب حرما او حمى ، وتجاوز من تقدمه من اصحاب الحمى أنه جعل حمايته تشمل انواع الوحش خارج حماه فيقول : « وحش ارض كذا فى جوارى فلا يصاد » ، ولا يورد أحد ابله ، ولا يوقد نارا مع ناره ، ولا يمر احد بين بيوته ، ولا يحتبى فى مجلسه

وتزوج كليب امرأة من شيبان (من بكر) اسمها جليلة بنت مرة ، لها اخ اسمه جساس بن مرة ·وكان حمى كليب فى ارض اسمها « العالية» لا يقربها إلا المحارب ، واتفق ان رجلا يقال له سعد الجرمى نزل ضيفا على البسوس بنت منقذ خالة جساس المذكور ، وهى خالة جليلة امرأة كليب · وكان للجرمى ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جساس ، وكانت نوق جساس ترعى مع نوق كليب · فخرج كليب يوما يتعهد الابل ومراعيها ومعه جساس ، فنظر كليب الى سراب وانكرها واستفهم عن امرها فقال له جساس : «هذه ناقة جارنا الجرمى » فقال كليب : « لا تعد هذه الناقة الى هذا الحمى » فاستاء جساس من ذلك ، لان الجرمى نزيله وله عليه حق الجوار ولم يملك غضبه ، فقال « لا ترعى ابلى مرعى الا وهذه معها » فغضب كليب وقال : « لئن عادت لاضعن سهمى فى ضرعها » ، فقال جساس : « لئن وضعت سهمك فى ضرعها لاضعن سنان رمحى فى لبتك » وافترقا

فذهب كليب الى امرأته وقال لها : « اترين أن فى العرب رجلا يمنع منى جاره ؟ » قالت : « لا اعلمه الا جساسا » · فحدثها الحديث فخافت عاقبة ذلك التنافر ، وأصبحت اذا رأت زوجها يريد الخروج الى الحمى منعته وناشدته الله أن لا يقطع رحمه ، ونهت اخاها جساسا عن أن يسرح ابله فيها

وخرج كليب الى الحمى يوما وجعل يتصفح الابل ، فرأى ناقة الجرمى فرمى ضرعها فأنفذه ، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها · فلما رأى الجرمى ما حل بناقته صرخ : « يا للذل ! » فسمعت البسوس صراخه فخرجت اليه، ولما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها وصاحت : « واذلاه ! » تشير الى ما لحقها من الذل بسبب اذية جارها لحرمة الجوار عندهم · ورآها جساس تفعل ذلك فخرج اليها وقال لها : « اسكتى ولا تراعى » وأسكت الجرمى وقال لهما: « انى سأقتل جملا اعظم من هذه الناقة » يعنى كليبا · وكان لكليب عين يسمع ما يقولون ، فنقل الحديث الى كليب فاستخف بما سمعه وقال : « لقد اقتصر عن يمينه » · أما جساس فأخذ يترقب الفرص لنيل مرامه

فخرج كليب يوما آمنا ، فلما بعد عن البيوت ركب جساس فرسه وأخذ رمحه وادرك كليبا ، فوقف كليب فقال له جساس : « ياكليب الرمح وراءك» ، فقال له : « ان كنت صادقا أقبل الى من أمامى » . ولم يلتفت اليه فطعنه

جساس فارداه عن فرسه ، فقال : « يا جساس أغثنى بشربة من ماء » فلم يأته بشيء وقضى كليب نحبه . فأمر جساس رجلا كان معه اسمه عمرو بن ذهل من شيبان فجعل عليه أحجارا لئلا تأكله السباع ، وانصرف على فرسه يركضه حتى أتى أباه مرة وقال له : « طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدا لها رقصا » ، قال : «من طعنت ؟.. لأمك الثكل !..» ، قال : «قتلت كليبا» ، فأجفل مرة وقال : « أفعلت ؟ » ، قال : « نعم !..» ، قال : « بئس والله ما جئت به قومك » ، ولم ير بدا من التأهب للحرب فدعا قومه الى نصرته فأجابوه ، وأجلوا الاسنة وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتهيأوا للرحلة

ولما علم قوم كليب بمقتله دفنوه ، وقد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه وخرجت الابكار وذوات الخدور والعواتق ، وقمن للمأتم وقلن لاخت كليب : « اخرجى جليلة (امرأة كليب) أخت جساس عنا فان قيامها فيه شماتة وعار علينا » . فقالت لها أخت كليب : « أخرجى من مأتمنا فأنت أخت قاتلنا » . فخرجت تجر أعطافها وأتت أباها مرة

وكان لكليب أخ اسمه مهلهل وهو الفارس الشاعر المشهور ، وكان فى يوم مقتل كليب مشتغلا بالشراب فما صحا الا وهو يسمع الصياح والعويل .. فسأل فقالوا : « كليب قتل » ، فقال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

كنا نغار على العواتق أن ترى ... بالامس خارجة عن الاوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسرا ... مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا ... اذ حان مصرعه من الاكفان

ثم جز شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب وجمع اليه قومه للثأر . ولكنه رأى أن يبدأ بالمخابرة ، فبعث رجالا من قومه الى بنى شيبان ، فأتوا مرة والد جساس وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : « انكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناقة ، وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وانا نعرض عليك خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع : اما أن تحيى كليبا ، أو تدفع الينا قاتله جساسا فنقتله به ، أو هماما فانه كفء له ، أو تمكننا من نفسك فان فيك وفاء لدمه » . فقال لهم مرة : « أما احيائى كليبا فلست قادرا عليه ، وأما دفعى جساسا اليكم فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ولا أدرى أى بلاد قصد . وأما همام فانه أبوعشرة وأخو عشرة وعم عشرة ، وكلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره . واما أنا فما هو الا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت . ولكن لكم عندى خصلتان ، أما احداهما فهؤلاء أبنائى الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم . وأما الاخرى فانى أدفع اليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر » فغضب القوم من جوابه وقالوا : « قد أسأت ببذل هؤلاء

وتسومنا اللبن من دم كليب » . ونشبت الحرب بينهم ولحقت جليلة بأبيها وقومها

جرت بين الفريقين عدة وقائع ، أولها يوم عنيزة عند فلج ، وكانوا على السواء فتفرقوا ثم التقوا بعد برهة من الزمان بماء يقال له النهى ، كانت بنو شيبان نازلة عليه ، وكان رئيس تغلب مهلهلا ، ورئيس شيبان الحارث بن مرة اخو جساس ، وكانت الدائرة على بنى تغلب . ولم يقتل فى ذلك اليوم أحد من بنى مرة

ثم التقوا بالذنائب ، وهى أعظم واقعة كانت لهم ، وقد ظفر بها التغلبيون وقتلوا من بكر مقتلة كبيرة : قتل فيها شراحيل بن مرة جد الحوفزان الذى تقدم ذكره ، وجد معن بن زائدة الجواد الحليم المشهور فى الاسلام ، وقتل غيرهما

ثم التقوا يوما آخر فى واردات فاقتتلوا قتالا شديدا وكان الظفر لتغلب أيضا ، وكثر القتل فى بكر ، ومن جملة القتلى همام بن مرة أخو جساس ، وكان مهلهل يحبه فلما رآه مقتولا قال : « ما قتل بعد كليب أعز على منك ، وتالله لا تجتمع بكر بعدكما على خير أبدا » . والتقوا أيضا فى مواضع أخرى يطول بنا شرحها (١)

ويقال بالاجمال أن الايام التى اشتدت فيها الحرب بين الفريقين خمسة أيام : يوم عنيزة تناصفوا فيه ، ويوم واردات كان لتغلب على بكر ، ويوم الحنو كان لبكر على تغلب ، ويوم القصيبات أصيبت فيه بكر حتى ظن رجالها انهم لن يستقيلوا ، ويوم فضة وهو يوم التحالق (*)

وكان بعد ذلك أيام دون هذه ، منها يوم « النقية » ويوم « الفصيل » ، ثم لم يكن بينهما مزاحفة وانما كانت مغاورات . ودامت الحرب بينهما أربعين سنة ، مات فى أثنائها الشيوخ ، وشاخ الشبان ، وشب الولدان ، وولدت طبقة من الناس لم تكن فى الحسبان

ثم قال مهلهل لقومه : « قد رأيت أن تبقوا على قومكم فانهم يحبون صلاحكم ، وقد اتت على حربكم أربعون سنة ، وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوتركم ، فلو مرت هذه السنون فى رفاهية عيش لكانت تمل من طولها ، فكيف وقد فنى الحيان وثكلت الامهات ويتم الاولاد ؟.. ورب نائحة لا تزال تصرخ فى النواحى ، ودموع لا ترقأ ، وأجساد لا تدفن ، وسيوف مشهورة ، ورماح مشرعة . وأن القوم سيرجعون اليكم غدا بمودتهم ومواصلتهم ، وتتعطف الارحام حتى تتواصوا . أما انا فما تطيب نفسى أن أقيم فيكم ، ولا أستطيع

(١) ابن الاثير ٢٤٢ ج ١

(*) هو يوم تحلاق اللمم ، أى حلق الشعور وهو الذى وقع بعد قتل بجير ابن أخى الحارث ابن عباد الشيخ بكر وقد انتصرت فيه بكر بن وائل على تغلب

أن انظر الى قاتل كليب ، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال ، وانا سائر عنكم الى اليمن »

وفارقهم وسار الى اليمن ، قضى فيها حينا ثم عاد الى ديار قومه ، فأخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة البكرى أسيرا بنواحى هجر ، فأحسن أسره وافرد له بيتا ، فمن عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هجر ، وكان صديقا لمهلهل فاهدى اليه وهو أسير زقا من خمر ، فاجتمع اليه بنو مالك فنحروا عنده ناقة وشربوا معه فى بيته ، فلما أخذ فيهم الشراب تغنى مهلهل بما كان يقوله من الشعر وينوح على اخيه كليب ، فسمع منه عمرو ذلك فقال : « انه لريان والله لا يشرب ماء حتى يشرب زبيب » ، وزبيب فحل كان له لا يشرب الا مرة كل خمسة أيام فى حمارة القيظ ، فمات مهلهل عطشا . وكان لوصية مهلهل تأثير على ربيعة ، لانهم قلما تحاربوا فيما بينهم بعد ذلك ، وانما كانت وقائعهم مع مضر كما تقدم ، الا واقعة جرت بقرب الفرات عرفت بيوم « الفرات » قبيل الاسلام بين شيبان وتغلب ، وفاز بنو شيبان

الوقائع بين قبائل مضر

نريد بها ما جرى من الحروب بين القبائل المضرية ، وهى أكثر مما جرى بين قبائل ربيعة أو بين ربيعة ومضر . وأكثر قبائل مضر دخلا فى هذه الوقائع عبس وهوازن وذبيان وعامر بن صعصعة واسد وغطفان وقيس عيلان وكنانة وقريش . واهم هذه الحروب بين عبس وهوازن ، وبين عبس وذبيان تعرف « بحرب داحس والغبراء » . وبين قريش وكنانة وهى « حروب الفجار » . وبين عامر بن صعصعة وقبائل مختلفة كما تراه فى ما يلى

ايام عبس وهوازن

(١) يوم الرحرحان (*) : كان زهير بن قيس بن جذيمة العبسى سيد قيس عيلان فى أوائل القرن الخامس للميلاد ، وترى من مراجعة جداول الانساب فى هذا الكتاب أن قيس عيلان تنطوى على عدة قبائل كبرى ، منها عدوان وغطفان وعبس وذبيان وهوازن وغيرها : فلذلك كان زهير المذكور ذا شرف ورفعة ، وكان معاصرا للنعمان بن امرىء القيس المتوفى سنة ٤٣١ م جد النعمان بن المنذر ، وقد تزوج النعمان اليه وبعث يستزيره بعض أولاده ، فأرسل اليه أصغر ولده « شاسا » فأكرمه النعمان وحباه . فلما انصرف الى أبيه كساه حللا وأعطاه مالا طيبا ، فخرج شاس يريد قومه فبلغ ماء من مياه غنى بن أعصر ، فقتله رياح بن الاشل الغنوى واخذ ما كان معه وهو لايعرفه . وبلغ زهيرا أن ابنه أقبل من عند الملك ، وكان آخر العهد به بماء من مياه

(*) يسمى أيضا يوم رحرحان . وهو لعامر بن صعصعة على تميم . ورحرحان جبل قريب من عكاظ ، خلف عرفات

غنى ، فبذل زهير جهده فى البحث بالحيلة وغيرها حتى اكتشف القاتل وعرف انه من بنى غنى ، فجعل يغير عليهم ويقتل منهم ، وكانوا حلفاء بنى عامر بن صعصعة وهم بطن من هوازن ، فانتشبت الحرب بين عبس وعامر أو هوازن

واتفق فى أثناء ذلك أن زهيرا خرج فى أهل بيته بالشهر الحرام الى عكاظ كجارى العادة ، فالتقى هناك بخالد بن جعفر سيد هوازن فقال له خالد : « لقد طال شرنا منك يا زهير » . فقال زهير : « اما والله ما دامت لى قوة ادرك بها ثأرا فلا انصرام له » . وكانت هوازن تؤتى زهير بن جذيمة الاتاوة كل سنة فى عكاظ ، وهو يسومها الخسف وفى أنفسها منه غيظ وحقد . ثم عاد زهير وخالد الى قوميهما ، فسبق خالد الى بلاد هوازن فجمع اليه قومه وندبهم الى قتال زهير فأجابوه ، وتأهبوا للحرب وخرجوا يريدون زهيرا ، وسار زهير حتى نزل على أطراف بلاد هوازن ، فقال له ابنه قيس بن زهير صاحب حرب داحس والغبراء الآتى ذكرها : « انج بنا من هذه الارض فانا قريب من عدونا » . فقال له : « يا عاجز !.. ما الذى تخوفنى به من هوازن وتتقى شرها ؟.. فأنا أعلم الناس بها » . فقال ابنه : « دع عنك اللجاج وأطعنى وسر بنا فانى خائف عاديتهم » فلم يطعه

وكان خالد يتجسس أخبارهم وعلم بمكان زهير ، فركب اليه فالتقيا واقتتلا طويلا فقتل زهير ، وعادت هوازن الى منازلها وحمـــل بنو زهير أباهم الى بلادهم وخالد يعلم أن زهيرا سيد غطفان وعبس وذبيان ، فخاف أن تطلبه فسار الى النعمان بالحيرة فاستجاره فأجاره وضرب له قبة . أما أبناء زهير فجمعوا لهوازن ، فقـــال الحـــارث بن ظالم المرى : « اكفونى حرب هوازن فأكفيكم خالد بن جعفر » . وسار الحارث الى النعمان فدخل عليه وعنده خالد وهما يأكلان تمرا ، فأقبل النعمان على الحارث يسأله فحسده خالد فقال للنعمان : « أبيت اللعن ، هذا رجل لى عنده يد عظيمة : قتلت زهيرا وهو سيد غطفان فصار هو سيدها » ، فقال الحارث : « سأجزيك على يدك عندى » . وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من بين أصـــابعه من الغضب ، وكان عروة اخو خالد حاضرا ، فقال لاخيه : « ما أردت بكلامه وقد عرفته فتاكا ؟ » ، فقال خالد : « وما يخوفنى منه ؟.. فوالله لو رآنى نائما ما أيقظنى » . ثم خرج خالد وأخوه الى قبتهما فشرجاها عليهما ، ونام خالد وعروة عند رأسه يحرسه . فلما اظلم الليل انطلق الحارث الى خالد فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة : « لئن تكلمت قتلتك » ، ثم ايقظ خالدا فلما استيقظ قال : « أتعرفنى ؟ » ، قال : « انت الحارث » ، قال : « خذ جزاء يدك عندى » وضربه بسيفه فقتله ثم خرج وركب راحلته وسار . وخرج عروة من القبة يستغيث ، حتى اتى باب النعمان فدخل عليه وأخبره الخبر ، فبعث الرجال فى طلب الحارث ــ قال الحارث : « فلما سرت قليلا خفت ان أكون لم أقتله ، فعدت متنكرا واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربتـــه بالسيف حتى تيقنت انه مقتول ، وعدت فلحقت بقومى »

فأصبح الحارث بن ظالم بين طالبين : النعمان يطلبه ليقتله بجاره ، وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها ، فاستجار بتميم فأجاروه . فلما علم النعمان بذلك جهز جيشا حمل به على تميم ، وأعانهم أهل خالد ببنى عامر ، وأتى قيس بن زهير فى بنى عبس وذبيان ، فانهزمت بنو عامر وجيش النعمان (١) بعد معركة كبيرة فى وادى رحرحان لم يشتف قيس بها

أيام داحس والغبراء

سببها أن قيس بن زهير سيد عبس المذكور سار الى المدينة يبتاع الاسلحة والادراع وغيرها من مهمات الحرب لقتال بنى عامر بن أبى صعصعة والاخذ بثأر أبيه . فأتى أحيحة بن الجلاح (*) يشترى منه درعا موصوفة يقال لها « ذات الحواشى » فباعه اياها بابن لبون . وعاد قيس الى قومه وقد فرغ من جهازه ، فمر بالربيع بن زياد ودعاه الى مساعدته على الاخذ بالثأر فأجابه . ولما أراد فراقه نظر الربيع عيبته فقال : « ما فى حقيبتك ؟ » ؛ قال : « متاع عجيب » وأناخ راحلته فأخرج الدرع وأراه اياها . فأبصرها الربيع فأعجبته ، ولبسها فكانت فى طوله ، فاستبقاها عليه ثم حبسها عنده ومنعها من قيس ، وترددت الرسل بينهما بشأنها عبثا . فغضب قيس وأغار على ابل الربيع فاستاق منها ٤٠٠ بعير ، وسار بها الى مكة فباعها واشترى بها خيلا ، وكان فيما اشترى من الخيل فرسان أسماهما داحس والغبراء

ثم أقام فى مكة ، وكان أهلها يفاخرونه بما عندهم ، وكان قيس فخورا ، فقال : « نحوا كعبتكم عنا وحرمكم وهاتوا ما شئتم » . فقال له عبد الله بن جدعان : « اذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فبم نفاخرك ؟ » . فمل قيس مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم . وسر ذلك قريشا لانهم كانوا قد كرهوا مفاخرته ، فقال قيس لاخوته : « ارحلوا بنا من عندهم أولا والا تفاقم الشر بيننا وبينهم ، وألحقوا ببنى بدر فانهم أكفاؤنا فى الحسب وبنو عمنا فى النسب ، لايستطيع الربيع أن يتناولنا معهم » . فلحق قيس ببنى بدر ، وهم بطن من ذبيان

وسعى الربيع فى رد بدر عن اجارته فأبوا ، فغضب الربيع وغضبت عبس لغضبه . ثم ان حذيفة رئيس بدر كره قيسا وأراد اخراجه عنهم ، ولم يجد سببا يستند اليه . فاتفق خروج قيس للعمرة فى مكة ، وفى أثناء غيابه تفاخر مالك وحذيفة فى الخيل ، ثم تراهنا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة . ولما عاد قيس وعلم بالرهان كرهه لعلمه انه سيجر الى خصام ،

---

(١) تفصيلها فى ابن الاثير ٢٥٦ ج ١

(*) سيد الاوس فى الجاهلية ، وكان زوجا لسلمى أم عبد المطلب بن هاشم ، وكان أمرها بيدها ، فتركته وتزوجت هاشم فولدت له عبد المطلب ، وكان أحيحه واسع الغنى

فركب الى حذيفة وسأله ان يفك الرهن فلم يفعل ، كأنه رآها فرصة للتخلص من قيس وجواره وقد أضمر أن يغدر به

فاعدوا معدات السباق بين فرسي قيس — وهما داحس والغبراء — وفرسي حذيفة — وهما الخطار والحنفاء — وقادوا الخيل الى الغابة ، وحشدوا ولبسوا السلاح ، وتركوا السبق على يد عقال بن مروان القيسي ، وأعدوا الامناء على ارسال الخيل . واضمر حذيفة الغدر ، فاقام رجلا من بنى أسد فى الطريق ، وأمره أن يلقى داحسا فى وادى ذات الاصاد ، فاذا وجده سابقا فيرمى به فى أسفل الوادى . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقا بينا ، والناس ينظرون اليه وقيس وحذيفة جالسان على رأس الغابة فى قومهما . فلما هبط داحس فى الوادى عارضه الاسدى فلطم وجهه فالقاه فى الماء فكاد يغرق هو وراكبه ، ولم يخرج الا وقد فاتته الخيل . اما راكب الغبراء فانه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد الى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة . ثم سقطت الحنفاء وبقى الغبراء والخطار . واخيرا جاءت الغبراء سابقة ، وبعدها الخطار فرس حذيفة ، ثم الحنفاء له أيضا . ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، فأخبر الغلام قيسا بما فعله الاسدى ، فانكر حذيفة ذلك وادعى السبق ظلما وقال : جاء فرساى متتابعين . ومضى قيس واصحابه . ثم جاء الاسدى واعترف لقيس بما فعله ، فغضب حذيفة وزاد التنافر بين الاميرين ، وحذيفة يلح بطلب حقه من السبق ، وأرسل ابنه الى قيس فى ذلك فطعنه طعنة قتلته ، ورجعت فرسه الى أبيه ، ونادى قيس : « يابنى عمى الرحيل ! » فرحلوا

اما حذيفة فلما أتته فرس ابنه وحدها علم أن ولده قتل ، فصاح فى الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بنى عبس ، فرآها خالية ورأى ابنه قتيلا فنزل اليه وقبله بين عينيه ودفنوه

وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجا فى فزارة ونازلا فيهم ، فأرسل اليه قيس يستنجده فأجابه : « انما ذنب قيس عليه » ولم يرحل اليه . فأرسل قيس الى الربيع بن زياد يطلب منه العود اليه ويمت اليه بالعشيرة والقرابة فلم يجبه . ثم أن بنى بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس ، وكان نازلا فيهم فبلغ خبره بنى عبس ، وعظم عليهم الامر وأسف الربيع أيضا لموته ، وكان ذلك سببا فى مصالحته قيسا فتعانقا وبكيا ، واجتمع العبسيون يرثون مالكا وفيهم عنترة فقال مرثيته التى مطلعها :

فلله عينا من رأى مثل مالك   عقيرة قوم ان جرى فرسان

فليتهما لم يطعما الدهر بعدها   وليتهما لم يجمعا لرهان

وبلغ حذيفة ان قيسا والربيع اتفقا ، فشق عليه ذلك واستعد للبـــلاء فجمع قومه من فزارة وتعاقدوا على عبس ، وجمع قيس والربيع قومهما واستعدوا للحرب

والتقوا أولا على ماء يقال له « العذق » وهى أول موقعة كانت بينهم ، وانهزمت فزارة وقتلوا قتلا ذريعا واسر حذيفة ، فاجتمعت غطفان وسـعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن يهدر دم بدر بن حذيفة بدم مالك أخى قيس ، وتساووا فيما بقى فأطلق حذيفة من الاسر

ثم دخل اناس بينهما قبحوا لحذيفة رضاه بالصلح على تلك الشروط ، وحشـــوه على النكث والحرب ، فأغار على عبس واغارت عبس على فزارة ، وتفاقم الشر فانهزمت فزارة

فعاد حذيفة فجمع كل بنى ذبيـــان ، فعمد العبسيون الى ضم أطرافهم وحدثت بينهم على أثر ذلك عدة وقائع على نحو ما تقـــدم ، كانت الحرب فيها سجالا يوما لذبيان ، ويوما لعبس ، حدث فى اثنائها حوادث فتك هائلة من قتـــل الابناء انتقاما . ومن أكبر وقائعهم واقعة البوار قتل فيها ٤٠٠ من فزارة وأسد وغطفان وعشرون من عبس ، وكان الفوز فيها لعبس وقال فيها قيس بن زهير قصيدته التى مطلعها :

أقام على الهباءة خير ميت   واكرمه حذيفة لا يريم

وحدثت بعدها واقعة فى « ذات الجراجر » دامت يومين ، وكان فيهـــا عنترة بن شـــداد فظهرت شجاعته يومئذ ، وعلى هذه الوقائع وغيرها مما جرى بين عبس وذبيان تدور قصة عنترة المشهورة . والخلاصة ان القبيلتين ملتا القتل والنهب وعادتا الى المصالحة فى حديث طويل (١) *

حرب الفجار

بين قريش وكنانة وقيس عيلان

هما واقعتان أو يومان ، سبب اليوم الاول منهما ان رجلا من كنانة كان عليه دين لرجل من بنى نصر من هوازن (من قيس عيلان) فأعدم الـكنانى فوافى النصرى سوق عكاظ بقرد وقال : « من يبتغى مثل هذا بما لى على فلان الـكنانى ؟ » . فعل ذلك تعبيرا للرجل وقومه . فمر به رجل من كنانة فضرب القرد بالسيف فقتله انفة مما قاله النصرى . فصرخ هـــذا فى قيس عيلان وصرخ الـكنانى فى كنانة فاجتمع النـــاس وتحاوروا ثم اصطلحوا ولم تحدث حرب

---

(١) ابن الاثير ٢٥٨ — ٢٦٧ ج ١

(*) وقد توقفت الحرب بين عبس وذبيان بفضل الحارث بن عـــوف بن حارثة المرى وهرم ابن سنان . وقد مدحهما لذلك زهير بن أبى سلمى بمعلقته التى مطلعها : « أمن أم أوفى »

اما يوم الفجار الثانى فقد وقع بعد عام الفيـــل بعشرين سنة فى اواخر القرن السادس للميـــلاد ، ولم يكن فى أيام العرب أشهر منه وانما سمى الفجار لما استحله الحيان كنانة وقيس من المحارم . وسـببه ان البراض الـكنانى كان رجلا فاتكا خليعا قد خلعه قومه لـكثرة شره ، فخرج حتى قدم على النعمان بن المنذر أبى قابوس ، وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة تباع له فى عكاظ او ذى المجاز أو غيرهما من أســواق العرب بالمواسم ، فقال النعمان : « من يجيز لى لطيمتى هــذه حتى يبلغها عكاظ ؟ » . فقال البراض : « أبيت اللعن ، أنا أجيزها على كنانة » . فقال النعمان : « انما أريد من يجيزها على كنانة وقيس » . وكان عروة بن عتيبة الكلابى (من قيس عيلان) حاضرا ، فقال : « أكلب خليع يجيزها لك ؟.. أبيت اللعن ، انا اجيزها على أهل الشيخ والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد » ، فغضب البراض وقال : « وعلى كنانة تجيزها يا عروة ؟ » . فقال عروة : « وعلى الناس كلهم » ، فدفع نعمان اللطيمة الى عروة وسار بها ، وخرج البراض يتبع اثره وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه . ولـكن البراض غدره بضربة بالسيف فقتله ، فلما رآه رجاله قتيلا انهزموا فاســتاق البراض العير الى خيبر ، وبعث رســولا مستعجلا الى حرب بن أمية فى عكاظ — وهو كبير قريش يومئذ — يخبره انه قتل عروة فليحذر قيسا . فنشر حرب بن أمية الخبر بين أشراف قريش — ومنهم عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة والد أبى جهل — واجتمعوا وتشــاوروا وقالوا : « نخشى أن تطلب قيس بثأر قتيلها ولا ترضى أن يقتــل البراض به لانه خليــع » . واتفق رأيهم ان يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك ، فأتوه وقالوا له ذلك فأجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا

واتفق ان قوما من قريش كانوا فى عكاظ وبلغهم ما فعــله البراض ، وخافوا أن يكون قومهم فى ضيق فركبوا الى مكة لنصرتهم ، فلما بلغ رئيس قيس ذلك عده غدرا من قريش (أو كنانة لانهما فرعان) وأقســم أن لا تنزل كنانة عكاظ أبدا ثم ركبوا فى طلبهم حتى أدركوهم فى نخلة ، فاقتتل القوم وكادت قريش تنهزم ولـكنها لجأت الى الحرم فاحتمت به ، وكان معهم فى ذلك اليوم محمــد صاحب الشريعة الاسلامية (صلعم) وســنه عشرون سنة

فلما دخلت قريش الحرم رجعت قيس عنها ، وواعدوهم على الالتقــاء بسوق عكاظ بالعام المقبــل لانهم لا يتركون دم عروة ، وعادت الى بلادها يحرض بعضها بعضا على الاخذ بالثأر

ثم جمعت جموعها ومعها ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جموعها وفيهم كنانة والاحابيش ، وفرقت الســلاح فيهم وخرجــوا وعلى كل بطن منهم

رئيس وعلى الجماعة حرب بن امية (أمير الامراء) لمكانه من عبد مناف سنا ومنزلة

وكانت قيس قد تقدمت الى عكاظ قبل قريش ، على كل بطن منهم رئيس. ومشت قريش حتى نزلت عكاظ وبها قيس . وكان مع حرب بن أمية اخوته سفيان وأبو سفيان والعاص وأبو العاص بنو أمية ، فقيد حرب وسفيان وأبو سفيان وأبو العاص أنفسهم وقالوا : « لن يبرح رجل منا مكانه حتى نموت أو نظفر » ، فيومئذ سموا العنابس ، أى الاسود

واقتتل الناس قتالا شديدا ، فكان الظفر أول النهار لقيس ، وانهزم كثير من بنى كنانة وقريش وثبت بنو أمية ثبات الجبال ، حتى اذا انتصف النهار عاد الظفر لقريش ، وقتلوا كثيرا من قيس ، ثم انهزمت قيس ثم تداعوا الى الصلح على أن يعدوا القتلى ، فأى الفريقين فضل له قتلى أخذ ديتهم من الفريق الآخر ، وفعلوا وعادوا الى الوفاق والوئام (*)

الوقائع بين عامر بن صعصعة وقبائل أخرى

عامر بن صعصعة قبيلة من هوازن من قيس عيلان ، ولها شأن بين قبائل العرب ، وجاء ذكرها غير مرة فيما تقدم ، ولها وقائع عديدة جرت لها مع قبائل مضر وهى :

(١) يوم شعب جبلة (**) : بين عامر بن صعصعة وتميم ، وسبب

(*) بدأت حروب الفجار بعد مولد الرسول صلوات الله عليه الى قبيل بعثته . وهى فى مجموعها حروب قبلية قليلة الاهمية ، ولكن قيمتها بالنسبة للمؤرخ أنها تعطى فكرة عن حال قريش وقوتها وأنصارها وخصومها قبيل البعثة النبوية . ومع أننا نعتقد أن الكثير من وقائعها قد حرفه الاخباريون ، الا آن الفكرة العامةالتى نخرج بهامنها صحيحة. وأيام هذهالحروبتظهر لنا تماسك قريش واتحاد بطونها ورجالها ، وما كان لهم من بعد نظر وقدرة سياسية وتنظيمدقيق، وأبسط ما نلاحظه أن القرشيين لا يتهورون تهور بكر وتغلب فى حرب البسوس أو عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، بل يميلون الى التعقل والتدبير والتشاور قبل الاقدام علىحرب. ونلاحظ أيضا أن قريشا كانت موحدة الكلمة فى حرب خصومها رغم ما كان بين بيوتها من تنافس

ويقسم الاخباريون حروب الفجار دورين :

الدور الاول يسمى أيام الفجار الاولى ، ووقعت فيه مناوشات ثلاث قليلة الاهمية تعرف بأيام الفجار الاول والثانى والثالث

والدور الثانى يسمى أيام الفجار الثانية وهى :

يوم نخلة : لقيس عيلان على كنانة وقريش ، ونخلة موضع قريب من مكة فيه نخل وكروم

يوم شمطة : لقيس على كنانة وقريش ، وشمطة موضع قريب من عكاظ

يوم العبلاء: لقيس علىكنانة وقريش .والعبلاءعلم على صخرة بيضاء الى جنب عكاظ

يوم عكاظ : لكنانة وقريش على هوازن . وقد خرجت فيه قريش كلها وعلى كل بيت من بيوتها كبير ذلك البيت ، فكان على بنى هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكانت سنه ٢٠ سنة)

يوم الحريرة : لقيس على كنانة وقريش ، والحريرة موضع بين الابواء ومكة قرب نخله

(**) لعامر (بن قيس) وحلفائهم من عبس ، على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما . وجبلة جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يرقى الجبل الا من قبله . ويوم جبلة من أعظم أيام العرب وأشدها ، وكان قبل الاسلام بسبع وخمسين سنة

الاغانى ٣٣/١٠ ـ العقد الفريد ٣٠٧/٣ ـ ابن الاثير ٣٥٥/١

ذلك ان لقيط بن زرارة عزم على غزو عامر للأخذ بثأر أخ له كان اسيرا عندهم ومات . فبينما لقيط يتجهز بلغه أن بني عامر وبني عبس تحالفا ، فخابر القبائل الاخرى لتحالفه على عبس وعامر ، فأجابته أسد وغطفان واستوثقوا واستكثروا ، وساروا وهم لا يشكون أنهم ظافرون لانهم سيغتنمون غرة القوم . وكان مع لقيط ابنته دختنوس ، وكان يغزو بها معه ويستشيرها فى أموره . وبينما هم سائرون لقيهم كرب بن صفوان من اشراف سعد ، فحياهم وظل سائرا فخافوا أن يكون مسرعا لاطلاع اعدائهم على خبرهم ، فاستوقفوه وسألوه لماذا لا يصحبهم بغزوهم ؟.. فقال : انه يبحث عن ابل ضلت منه . فأخذوا منه المواثيق الا يخبر أحدا بمسيرهم فعاهدهم ، ولكنه غضب لهذه المعاملة . فلما دنا من عامر وعبس أخذ خرقة وضع بها حنظلة وشوكا وترابا وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة احجار سود ، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم . فأخذها بعضهم وجاء بها الى قيس بن زهير أمير عبس فعلم ما يعنى الرجل بهذه الامور ، فقال : « هذا رجل قد أخذ عليه عهد الا يكلمكم ، يخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وان شوكتهم شديدة . واما الحنظلة فهى رؤساء القوم . وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم . وأما الخرقة الحمراء فهى حاجب بن زرارة . وأما الاحجار فهى عشر ليال يأتيكم القوم بها . قد انذرتكم فكونوا أحرارا واصبروا كما يصبر الاحرار الكرام »

فأثنوا على حكمته واستشاروه فى ماذا يعملون ، فقال : « ادخلوا ابلكم هذا الشعب (شعب جبلة) ثم اظمئوها هذه الايام ولا توردوها الماء ، فاذا جاء القوم اخرجوها عليهم وانخسوها بالسيوف والرماح ، فتخرج مذاعير عطاشا فتشغلهم وتفرق جمعهم ، واخرجوا أنتم فى آثارها واشفوا نفوسكم » . ففعلوا ما امرهم به وكثر القتل فى تميم ، وأسر جماعة من رؤسائهم وعنترة مع بنى عبس ، وقتل لقيط وتمت الهزيمة على تميم وغطفان

(٢) يوم ذى جنب : هو ملحق بيوم شعب جبلة ، حدث بعده بسنة لان بنى عامر لما أصابوا ما أصابوه من تميم فى ذلك اليوم رجوا أن يستأصلوهم ولكنهم فشلوا

(٣) يوم النسار : حدث بعد يوم جبلة وصبرت فيه عامر

(٤) يوم الجفار : حدث بعد يوم النسار بسنة ولا اهمية له

(٥) يوم المروت : وهذا أيضا بين تميم وعامر

(٦) يوم الرقم : هذا بين عامر وغطفان

وهناك وقائع أخرى بين العدنانية وبين مضر نفسها أو غير ذلك أغفلناها لقلة أهميتها

حضر العدنانية في مكة

مكة

اختلف المؤرخون في أصل اسم مكة ، والارجح عندنا انه اشورى أو بابلى ، لان « مكا » فى البابلية « البيت » وهو اسم الكعبة عند العرب . ويدل ذلك على قدم هذه المدينة ، كأنها سميت بذلك من عهد العمالقة على أثر هجرتهم من بين النهرين ، فسموا المكان بها اشارة الى امتيازها بالبناء الحجرى عن سائر ما يحيط بها من البادية (*) . واختلفوا أيضا فى بدء بنائها ، كما اختلفوا فى الامم التى توالت عليها . والاشهر ان أول من سكنها العمالقة ، وهو يؤيد أصلها البابلى . قالوا : وخلف العمالقة عليها جرهم ، وهى فرقة من القحطانية نزحت من اليمن قديما . ثم جاءها بنو اسماعيل كما تقدم ، ثم الازد بعد سيل العرم (على زعمهم) ، ثم خزاعة فكنانة فقريش ، وكانت تتوالى هذه الامم وتتعاون ، فتنزل الواحدة على أثر الاخرى حتى تغلب عليها وتخلفها وتبقى من تلك بقية ، مما يطول شرحه فنكتفى بالمعقول منه

لم يرد ذكر مكة أو الكعبة فى كتب قدماء اليونان ، الا ما جاء فى كتاب ديودورس الصقلى فى القرن الاول قبل الميلاد فى أثناء كلامه عن النبطيين ، مما قد يراد به مكة ، وهو قوله : « ووراء أرض الانباط بلاد بنى (زومين) وفيها هيكل يحترمه العرب كافة احتراما كثيرا » ، فلعله يريد الكعبة ، وأما بنو زومين فربما أراد بهم جرهم أو غيرهم من قبائل العرب التى تولت مكة . والغالب انه يريد جرهم التى يسمونها الثانية ، اذ يؤخذ من أسماء ملوكها انها تولت ذلك المكان حوالى تاريخ الميلاد ، وهذه أسماؤهم عن أبى الفداء :

١ ــ جرهم	٥ ــ ثقيلة	٩ ــ الحارث
٢ ــ عبد ياليل	٦ ــ عبد المسيح	١٠ ــ عمرو
٣ ــ جرشم	٧ ــ مضاض	١١ ــ بشر
٤ ــ عبد المدان	٨ ــ عمرو	١٢ ــ مضاض

فوجود اسم عبد المسيح بين ملوك هذه الدولة يدل على قرب عهدها من

(*) ذكرها بطليموس الجغرافى باسم ماكورابا Makoraba ويبدو انها كانت معروفة قبل زمنه بوقت طويل

النصرانية . فاذا صح ذلك خالف ما يقوله العرب عن تزوج اسماعيل فى جرهم الثانية ، واسماعيل قبل الميلاد بتسعة عشر قرنا . وتخريج ذلك اما أن يكون اسماعيل تزوج فى جرهم الاولى ، أو ان يكون المراد بزواج أسماعيل زواج بعض أعقابه أو قبيلته ، مما لا سبيل الى تحقيقه لضياع الادلة واختلاط الروايات . وعلى كل حال فان الاسماعيلية — أو قبيلة منهم — والجرهمية اقاموا معا فى مكة وما يليها ، حتى جاءتهم خزاعة وهى طائفة من عرب اليمن الذين يقول العرب انهم هجروا بلادهم بعد سيل العرم ورئيسها عمرو بن لحى نزلت مكة واخرجت جرهما منها . وعمرو بن لحى هـذا هو المشهور بادخال الوثنية على عرب الحجاز ، واليه ينسبون كثيرا من اوابد الجاهلية . وفى الحديث : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبة فى النار » يعنى احشاءه (١)

وقالوا : ليست خزاعة وحدها أخرجت جرهما من مكة ، وانما استعانت على ذلك بكنانة — بطن من مضر . وقد عرف اليونان كنانة وذكرها صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريترى فى القرن الاول للميلاد وعين حدودها ، وهى توافق المعلوم عند العرب من سكناها تهامة . ولما اجتمعت كنانة وخزاعة على جرهم فرت الى اليمن على ما يقولون . ثم تنازعت خزاعة وكنانة ، وغلبت خزاعة واستقلت بأمر الكعبة وجعلت لمضر أعمالا تتولاها فى الحج ، وهى الاجازة بالناس يوم عرفة والافاضة بهم غداة النحر من جمع الى منى ونسء الشهور الحرام

فأقام بنو خزاعة وبنو كنانة على ذلك مدة ، والولاية لخزاعة دونهم . وفى أثناء ذلك تشعبت بطون كنانة ومضر كلها ، وصاروا أحياء وبيوتات متفرقين ، وهم اذ ذاك يقيمون بظواهرها

وصارت قريش فرقتين (*) : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . فقريش البطاح ولد قصى بن كلاب وسائر بنى كعب بن لؤى . وقريش الظواهر من سواهم . وكانت خزاعة بادية لكنانة ، ثم صار بنو كنانة بادية لقريش ؛

---

(١) ابن خلدون ٣٣٢ ج ٢

(*) لم نصل بعد الى رأى نستقر عليه فيما يتصل بأصل اسم قريش . وللطبرى نص طويل يفهم منه انه ليس اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت طوطم قريش ، أو صفة أطلقت على بعض زعمائها الاولين مثل النضر بن كنانة . ويذهب مصعب الزبيرى وابن حزم وغيرهما أن «قريش» صفة أطلقت على قريش بن بدر بن مخلد أوعلى النضر بن كنانة . ويذهب ابن الكلبى الى أنها أطلقت على فهر . أما الازرقى فيرى انها أطلقت على قصى . وبعضهم يشتقها من التقرش أى التجمع أو نسبة الى سمكة القرش . وهناك تفسيرات أخرى لا يمكن الاطمئنان اليها

أنظر : الطبرى ٣\١٨٧ — مصعب الزبيرى : نسب قريش ١٢ — ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ١٠ — ابن دريد : الاشتقاق ١٨ — الاغانى ١/١٢ — الازرقى : تاريخ مكة ١/٦١ — ابن قتيبة : المعارف ٣١

ثم صارت قريش الظواهر بادية لقريش البطاح . ويراد بقريش الظواهر من كان على أقل من مرحلة من مكة . ومن الضواحى من كان أكثر من ذلك ، وصار من سوى قريش وكنانة من قبائل مضر من الضواحى أحياء بادية وظعونا ناجعة من بطون قيس وخندف من أشجع وعبس وفزارة ومرة وسليم وسعد وعامر وغيرهم كما تقدم

ونظرا لتحضر كنانة وقريش فى مكة واستئثارها بمكان الحج كان لهما التقدم على سائر مضر ، وكانت كنانة قبل قريش ، وكان التقدم فى قريش كله لبنى لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ، وسيدهم قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى

قصى بن كلاب

لقصى بن كلاب شأن كبير فى تاريخ مكة ، لانه أحدث فيها أمورا مهمة كما يظهر مما يلى :

خلف كلاب ابنه قصيا فى حجر أمه وهى يمنية ، فتزوجها ربيعة بن حرام من بنى عذرة وقصى طفل ، فاحتملته الى بلاد بنى عذرة وكان لها من كلاب أيضا ولد آخر اسمه زهرة ، تركته فى مكة لانه كان كبيرا . ولما شب قصى وعرف نسبه رجع الى قومه . وكان الذى يلى البيت (الكعبة) يومئذ رجل من خزاعة اسمه حليل بن حبشية ، فأعجبه قصى فزوجه ابنته ، فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى . ولما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه مات حليل ، فرأى قصى انه أحق بالكعبة ومكة من خزاعة ، وقد أطمعه فى ذلك — فضلا عما فطر عليه من الانفة وحب الاستقلال — ان حليلا — حماه — لما عجز كان يعطى مفاتيح الكعبة لبنته فظلت بيدها ، وكان قصى ربما أخذها وفتح الباب للناس او أغلقه . فلما مات حليل أوصى بولاية البيت لقصى ، فأبت خزاعة عليه ذلك ، فمشى برجالات قريش ودعاهم الى نصرته فأجابوه ، وكتب الى أخيه رزاح فى عذرة مستجيشا بهم ، فقدم مع اخوته من ربيعة ومن تبعهم من قضاعة فى جملة الحاج لنصرة قصى . وحدثت بسبب ذلك حروب ومنافرات انتهت بولاية البيت لقصى ، واستقر بمكة وجمع قريشا من منازلهم بين كنانة الى مكة وقطعها أرباعا ، فأنزل كل رهط منهم فى منزله كأنه نقلهم من البداوة الى الحضارة . وكان ذلك فى أواخر القرن الرابع للميلاد أو أوائل الخامس للميلاد

وقصى أول من أصاب من قريش ملكا أطاعه به قومه ، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت . وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم اليه ، فاتخذوا « دار الندوة » ازاء الكعبة فى مشاوراتهم وجعلوا بابها الى المسجد ، فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مهماتهم . ثم تصدى لاطعام الحاج

وسقايته باعتبار أنهم أضياف الله وزوار بيته ، وفرض على قريش خراجا يؤدونه اليه ، فحاز شرفهم كله ، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

ولما أسن قصي — وكان يكره عبد الدار لانه كان ضعيفا ، وأخوه عبد مناف قد شرف عليه في حياة أبيه — فأوصى قصي لعبد الدار بما كان له من الحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية ، يجبر له بذلك ما نقصه من شرف عبد مناف . وكان أمره في قومه كالدين المتبع لا يعدل عنه ، ثم قضى وقام بأمره في قومه بنوه من بعده

أقاموا على ذلك مدة وسلطان مكة لهم ، ثم ظهر بنو عبد مناف على بني عبد الدار ونافسوهم على ما بأيديهم ونازعوهم ، فافترق أمر قريش وصاروا فرقتين ، وكانت بطون قريش قد صارت ١٢ بطنا وهي :

(١) بنو الحرث بن فهر (٢) بنو محارب بن فهر (٣) عامر بن لؤى (٤) عدى بن كعب (٥) سهم بن عمرو (٦) بنو جمع بن عمرو (٧) بنو تيم ابن مرة (٨) بنو مخزوم بن يقظة (٩) بنو زهرة بن كلاب (١٠) بنو أسد ابن عبد العزى (١١) بنو عبد الدار (١٢) بنو عبد مناف

فأجمع بنو عبد مناف على انتزاع ما بأيدى بني عبد الدار مما جعله لهم قصي ، وزعيمهم في ذلك عبد شمس أسن ولده ، وانقسمت قريش بين هذين البطنين . فكان مع عبد مناف بنو أسد وزهرة وتيم والحرث ، وانحاز الباقي الى عبد الدار ، الا عامر والمحارب فاعتزلا الحزبين . وتعاقد أصحاب كل حزب حلفا أكدوه بالطيب ، فأحضر بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا غمسوا فيها أيديهم فسمي حلف المطيبين . وأجمعوا للحرب وتأهبوا لها ، ثم تداعوا للصلح وأرضوا بني عبد مناف أن تكون لهم السقاية والرفادة ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء (١) فرضي الفريقان وتحاجز الناس ، ورئيس بني عبد مناف هاشم بن عبد مناف

وتوفي هاشم في غزة من أرض الشام ، وخلف ابنه عبد المطلب صغيرا في يثرب عند أمه ، وهي من بني عدى ، فكفله عمه المطلب فاحتمله الى مكة وأردفه على بعيره ، وتوفي المطلب بعد حين فأصبح عبد المطلب خليفته على بني هاشم ، وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كان قومه يقيمونها بمكة قبلة ، وكانت له رفادة على ملوك اليمن من حمير والحبشة ، وكان في جملة الذين وفدوا على ذى يزن الحميرى لما تولى الملك

وولد لعبد المطلب عشرة اولاد ، منهم عبد الله والد محمد (صلعم) صاحب الشريعة الاسلامية ، وست بنات . ويذكرون انه أراد حفر بئر زمزم لرؤيا رآها فاعترضته قريش ومنعوه ، ولم يكن له من الولد من ينصره ، فنذر

---

(١) راجع تفسير هذه المناصب في تاريخ التمدن الاسلامي الجزء الاول

اذا ولد له عشرة أولاد يبلغون معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة ، جريا على عادتهم فى ذلك العهد . فلما كملوا عشرة ضرب عليهم بالقداح عند هبل الصنم الاعظم ، وذلك ضرب من الاستخارة عندهم ، فخرجت القداح أن يذبح إبنه عبد الله . وتحير فى أمره ، فأشار عليه بعضهم أن يستشير عرافة كانت لهم فى المدينة ففعل ، فأشارت أن يفتديه بالابل ، ففداه بمائة منها

واقعة الفيل

وفى ايام عبد المطلب حدثت واقعة الفيل ، وعرف ذلك العام بها فقيل عام الفيل ، وسببها أن أبرهة الحبشى لما أقام فى اليمن وبنى القليس كما تقدم ، أراد أن يجعلها حج العرب فيصرف الناس اليها بدل الكعبة ، وتحدثت العرب بذلك فغضب رجل من النسأة من بنى فقيم فذهب الى القليس ونجسها بالاقذار ورجع . فلما علم أبرهة أن الذى فعل ذلك من أهل الكعبة غضب وحلف ليسيرن اليها ويهدمها ، وتجهز وركب هو على فيل اسمه محمود ووراءه عدة أفيال على عادة الاحباش (*) . ولما تسامع العرب خبر حملته على مكة خافوا وجعلوا يتنافرون من طريقه ، حتى دنا من مكة فبعث رجالا انتهبوا أموال أهلها وفى جملة ذلك ٢٠٠ بعير لعبد المطلب سيد قريش ، وأنفذ اليه رسولا يقول : « لم آت لحربكم بل أتيت لهدم الكعبة » . وطلب عبد المطلب مقابلة أبرهة فلما لقيه قال له : « لم آت لاحمى الكعبة فان لها ربا يحميها وانما جئت أطلب ابلى » فردها اليه . فرجع الى قريش وأمرهم أن يخرجوا من مكة ويتحرزوا فى الجبال فأطاعوه (**)

وأما أبرهة فحدث فى معسكره اضطراب وأصيبوا بالوباء ، والعرب يقولون أن طيرا خرجت من البحر يقال لها أبابيل رمت جند أبرهة بالحجارة فلم يصب أحد بحجر الا هلك ، فتراجعوا عن مكة وزادت الكعبة بذلك كرامة وتقديسا

(*) يستبعد أن يكون هذا هو السبب الذى حفز أبرهة على المسير الى مكة ، لان القليس كانت كنيسة للنصارى ، فمن غير المعقول أن يفكر أبرهة فى جعلها محجا للعرب جميعا مكان الكعبة التى كانت مزارا وثنيا، ثم ان الحجاز لم يكن فى منطقة نفوذ أبرهة ، ويستبعد أن يسير بحملة ضخمة من اليمن الى الحجاز لمجرد ان رجلا نجس القليس . وقد رجح الدكتور صالح أحمد العلى أن يكون السبب ما رواه بروكوبيوس من أن البيزنطيين فى صراعهم مع الساسانيين استنجدوا بملك الحبشة ليعينهم بقوة عسكرية ، فسار أبرهة وفى نيته أن يصل الى الشام لينضم الى جيوش البيزنطيين . ولم تتم الحملة ، لان أبرهة ارتد قبل أن يدخل مكة على ما هو معروف

أنظر : صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب ، بغداد ١٩٥٥ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١

(**) نستبعد أيضا صحة هذه الرواية . لان عبد المطلب لو كان قد فعل ذلك لما علت مكانته بين المكيين بعد ذلك. وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحملة فى سورة الفيل ، فقال تعالى: « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » ، ويغلب أن الطير الابابيل وحجارة السجيل كناية عن وباء اجتاح الجيش الحبشى ، ويذكر ابن اسحاق أن أول ما عرفت الحصبة والجدرى بأرض العرب هذا العام

ورجع عبد المطلب الى مكة وقد زاد رفعة ، وعلم أن بعض ملوك ساسان كان قد أهدى الكعبة تمثالين من ذهب واسيافا دفنتها جرهم فى زمزم عند خروجها ، فأمر بحفرها واستخرج التمثالين وضربهما حلية للكعبة وضرب الاسياف باب حديد لها . وكان لقريش خصائص وعادات وآداب تمتاز بها عن سائر العرب ، سيرد ذكرها فى كلامنا عن عادات العرب وآدابهم فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

المدينة (يثرب)

تاريخها

ومن مدن الحجاز العامرة أيضا المدينة (يثرب) وأهلها من غير عدنان ، يزعمون أن أصلهم من اليمن فى جملة من هاجرها بعد سيل العرم ، ولها تاريخ قديم لا يعرف أوله . والمشهور عند العرب أن المدينة أول من نزلها العماليق ، اقام فيها منهم قبائل تسمى هف وسعد بن هفان وبنو مطرويل، ثم نزلها اليهود من أقدم أزمانهم . قيل انهم أتوها من أيام موسى فى أثناء حروبه مع الكنعانيين ، ولهم فى ذلك حديث طويل قالوا : « لما وطىء موسى الشام وهلك أهلها بعث بعثا من رجاله الى الحجاز وفيه العماليق ، وأمرهم أن لا يستبقوا أحدا ممن بلغوا الحلم الا من دخل فى دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم فأظهرهم الله عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم الارقم ، وأسروا ابنا له شابا جميلا كأحسن من رؤى فى زمانه ، فضنوا به عن القتل وقالوا نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم ، فلما قربوا وسمع بنو اسرائيل بذلك تلقوهم وسألوهم عن اخبارهم فأخبروهم بما فتح الله عليهم . قالوا : « فما هذا الفتى الذى معكم ؟ » فأخبروهم بقصته فقالوا : « ان هذه معصية منكم لمخالفتكم أمر نبيكم ،والله لادخلتهم علينا بلادا أبدا » ، فحالوا بينهم وبين الشام . فقال ذلك الجيش : « ما بلد آن منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذى فتحتموه وقتلتم اهله فارجعوا اليه » . فعادوا اليها فأقاموا بها (١)

ذلك ما يرويه العرب عن أول سكنى اليهود المدينة . وكان اليهود أهل مدنية وذكاء وتجارة ، فما لبثوا أن اقتنوا الضياع والاموال وأصبحت تجارة المدينة وثروتها فى أيديهم . فرغب اخوانهم فى النزوح اليهم ، ولا سيما ما أصابهم من الذل فى دولة الروم ، وخصوصا بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها . فكان اليهود يتوافدون الى المدينة عشائر وأفرادا

(١) ياقوت ٤٦١ ج ٤ والاغانى ٩٤ ج ١٩

من الاضطهاد أو الظلم ، فتكاثروا فى المدينة وظهر منهم عدة قبائل أشهرها قريظة والنضير وبنو هدل

ثم نزلها الاوس والخزرج وهم بطون من الازد الذين يقول العرب انهم من كهلان ، وانهم نزحوا من اليمن فى جملة النازحين بعد سيل العرم ، وقد ذكرنا ذلك عند كلامنا عن الدول القحطانية خارج اليمن . نزل الاوس والخزرج هنا وهم فى ضنك من العيش ، وكان على اليهود ملك شديد استبد بأولئك النازحين فاستجاروا بالغساسنة ، وقيل بالتبابعة ، فأعانوهم وانتقموا لهم فى حديث طويل لا فائدة من ذكره (١) خلاصته ان الذين أتوا لاغاثتهم مكروا باليهود وقتلوا رؤساءهم ، فصارت الاوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة ، وسار ذكرهم وصارت لهم الاموال ونزلوا المدينة وبنوا بها القصور والآطام ، وهم الذين عرفوا بعد الاسلام بالانصار لانهم نصروا النبى لما هاجر اليهم

الحروب بين الاوس والخزرج

ولم يزل الاوس والخزرج فى اتفاق واجتماع حتى وقع الاختلاف بينهم وجرت الوقائع ، وأول حرب جرت بينهم تعرف بحرب سمير ، وكان سببها أن رجلا من بنى ثعلبة من سعد بن ذبيان يقال له كعب بن العجلان نزل على مالك بن العجلان السالمى فحالفه وأقام معه ، فخرج كعب يوما الى سوق بنى قينقاع فرأى رجلا من غطفان معه فرس وهو يقول : « ليأخذ هذا الفرس اعز أهل يثرب » فقال رجل : فلان ، وقال رجل آخر : أحيحة بن الجلاح الاوسى ، وقال غيرهما : فلان بن فلان اليهودى أفضل أهلها . فدفع كعب الفرس الى مالك بن العجلان فقال كعب : الم اقل لكم أن حليفى مالكا أفضلكم ؟.. فغضب من ذلك رجل من الاوس من بنى عمرو بنى عوف يقال له سمير وشتمه ، وافترقا وبقى كعب ما شاء الله . ثم قصد سوقاً لهم بقباء فقصده سمير ولازمه حتى خلت السوق فقتله ، واخبر مالك بن العجلان بقتله فأرسل الى بنى عمرو بن عوف يطلب قاتله فأرسلوا : « انا لا ندرى من قتله » ، وترددت الرسل بينهم ، هو يطلب سميرا وهم ينكرون قتله ، ثم عرضوا عليه الدية فقبلها . وكانت دية بطون الانصار . ثم التقوا مرة أخرى واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل ، وكان الظفر يومئذ للأوس ، فلما افترقوا أرسلت الاوس الى مالك يدعونه الى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجارى الخزرجى جد حسان بن ثابت بن المنذر ، فأجابهم الى ذلك فأتوا المنذر فحكم بينهم المنذر بأن يعطوا كعبا حليف مالك دية الصريح ، ثم يعود الى سنتهم القديمة . فرضوا بذلك وحملوا الدية ، وافترقوا وقد شبت البغضاء فى نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم

(١) ياقوت ٤٦٣ ج ٤

وتوالت بينهم بعد ذلك عدة وقائع سفكت فيها الدماء . هي من قبيل أيام الحليف فيهم نصف دية النسيب منهم ، فأبى مالك الا أخذ دية كاملة ، وامتنعوا من ذلك وقالوا : نعطي دية الحليف وهي النصف ، ولج الامر بينهم حتى آل الى المحاربة ، فاجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا وافترقوا ، ودخل فيها سائر العرب التى قدمناها . فمن أيام الاوس والخزرج أيضا حرب كعب بن عمرو المازنى ، جرت بين بنى حجبا من الاوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج . وحرب بنى عمرو بن عوف من الاوس وبنى الحرث من الخزرج ، وكانت شديدة فاز بها الخزرج . وحرب الحصين بن الاسلت بين بنى وائل بن زيد من الاوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج ، فاز بها الخزرج . وحرب ربيع الظفرى بين بنى ظفر من الاوس وبنى مالك بن النجار من الخزرج ، فاز بها الخزرج أيضا . ومن أيامهم حرب فارع ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع (١) فازت الاوس فى الاخيرين منها . وكانوا اذا فرغوا من المعركة تصالحوا على الديات ، ولا يلبثون أن يعودوا الى الخصام لاسباب يرجع أكثرها الى الانفة والاريحية ، من دفاع عن عرض أو انتصار لجار أو نحو ذلك

الطائف

ومن مدن الحجاز التى يعد أهلها حضرا الطائف ، وهى بلد حدائق وبساتين وفاكهة ورياحين ، كان أهلها من عدوان الذين منهم حكم العرب عامر بن الظرب ، وقد ذكرنا خبره فى ما تقدم . وكثر عددهم حتى قاربوا سبعين ألفا ، بغى بعضهم على بعض فهلكوا وقل عددهم ، وكان قسى بن منبه « وهو من ثقيف » صهرا لعامر بن الظرب ، وكان بنوه بينهم فلما ضعف أمر عدوان تغلبت عليها ثقيف وهم فرع من هوازن (٢) ولها ذكر كثير فى صدر الاسلام وبعده (*)

---

(١) ابن الاثير ٣٠٢ – ٣١٣ ج ١ (٢) ابن خلدون ٣٣٨ ج ٢

(*) الى هنا ينتهى الكتاب . وقد قال المؤلف فى مطلعه وفى مواضع كثيرة منه أن مشروع الكتاب أول الامر كان على أن يقع فى جزأين ، أولهما هذا والثانى يتناول الاديان والحضارة والعادات والنظم وما الى ذلك . وقد أعد لذلك مادة طيبة لا زالت مخطوطة . ويبد أنه استغنى عن كتابة الجزء الثاني بعد أن أخرج الجزء الاول من « تاريخ التمدن الاسلامى » وفيه مادة طيبة عن حضارة العرب ونظمهم الاجتماعية وأديانهم قبل الاسلام

فهرس



طبع
بمطابع مؤسسة دار الهلال